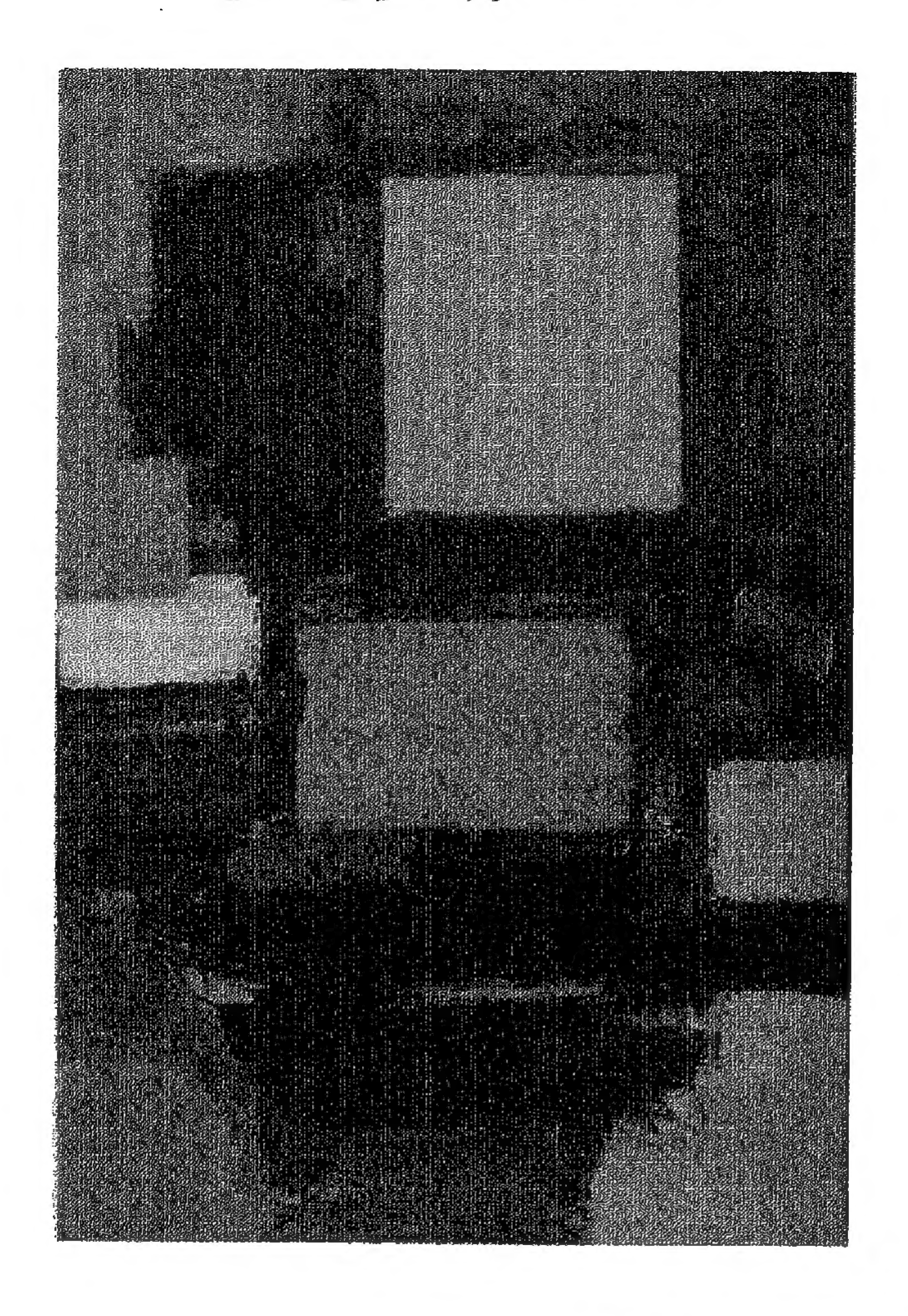
محمد نورالدين أفاية



الحداثة والتواصل

في الفلسفة النقدية المعاصرة

نموذج هابرماس

أفريقيا الشرق

الحداثة والتواصل

في الفلسفة النقدية المعاصرة

الحداثة والتواصل

في الفلسفة النقدية المعاصرة

المؤلف ـ محمد نور الدين أفاية
عنوان الكتاب
الحداثة والتواصل في الفلسفة النقدية المعاصرة

الطبعة الثانية ـ 1998

رقم الإيداع القانوني 98 / 63
ردمـك ISBN. 9981-25-096-1

أفريقيا الشرق ـ المغرب
159 مكرر شارع يعقوب المنصور ـ الدار البيضاء
الهاتف 259504 - 259813 ـ فاكس 440080

أفريقيا الشرق ـ بيروت ـ لبنان
ص. ب. 3176 - 11

محمد نورالدين أفاية

الحداثة والتواصل

في الفلسفة النقدية المعاصرة

نموذج هابرماس

أفريقيا الشرق

الإهـــداء

إلى محمد سبيلا

إلى حسن الصميلي

إلى ريم

مقدمة

ليس من الممكن تناول فكر يورغن هابرماس دون الإحاطة بالأسس الفلسفية لما سمي في تاريخ الفلسفة الألمانية الحديثة بـ «النظرية النقدية»، إذ أن كثيرا من الدارسين للتاريخ الخاص لهذه النظرية، والباحثين في الفلسفة الألمانية المعاصرة يعتبرون أن هذا المفكر ــ الفيلسوف يشكل امتدادا للنظرية النقدية أو يمثل الجيل الثاني في تطورها وصيرورتها.

ومهما تكن قيمة هذه الملاحظة، أي اعتبار هابرماس مكملا للنظرية النقدية، فإن هذا الفيلسوف بقدر ما كان يتحاور مع النصوص الفلسفية ويناقش مقوماتها النظرية ويجادل في أبعادها التاريخية والايديولوجية، بقدر ما كان ينصت لتفاصيل التحولات التي طرأت على التاريخ الألماني المعاصر، ويواكب عملية البناء الكلي الذي اضطرت ألمانيا إلى القيام به بعدما تركته المغامرة النازية من دمار وتحطيم للمجتمع وللذات الألمانية. إن هابرماس نضج فكره بعد إنهاء الحالة النازية. فمخلتف الآمال والأوهام التي واكبت عملية تأسيس مجتمع ألماني جديد، ومجال عمومي جديد، استدعت من المفكر هابرماس الانخراط الوجودي والنظري في التفكير التأملي حول الحداثة، سواء في معناها الكانطي أو في معانيها الفيبرية والماركسية. فالحداثة بدلالتها الكانطية تفترض تأسيس دولة القانون مسنودة إلى ديمقراطية تستلزم من الذات المنتمية إليها نضجا فكريا وسياسيا ضروريا. أما الحداثة كما نظر إليها ماكس فيبر وكارل ماركس، فهي تلك التي تغدو أداة في إرادة وظيفية ذات طبيعة أداتية.

ولأننا سنتناول مختلف هذه الدلالات التي تتخذها الحداثة في بحثنا، فانه تقتضي الاشارة إلى أن فكر هابرماس تميز بكونه أخضع كل الاجتهادات الفلسفية بخصوص الحداثة للسؤال والمراجعة والنقد. إذ أنه في مرحلة البناء حيث الخطاب الثقافي والسياسي يطرد السؤال ويدجنه، اختار هابرماس الاستمرار في تقليد ألماني يتخذ من السلب أو النقد

مبدأه الموجه، ومن الفلسفة مجالا لتفكيك معتقدات الرأي العام ومحاكمة الفكر الوضعي. وهابرماس، كما سنرى في سياق البحث، يعبر عن اعتراض مبدئي وكلي ضد الاتجاه الوضعي.

إن معايشة هابرماس لمجهودات التحديث في ألمانيا ولاعادة بناء مجال عمومي يسترشد بالعقلانية، دفعته إلى صياغة «نظرية في الحداثة»، ومن أجل ذلك اضطر إلى استنطاق النصوص الفلسفية الحاملة لمختلف دلالات الحداثة ابتداءا من كانط إلى ديريدا. ولم يكتف باستلهام عناصر الحداثة من حقل الفلسفة فقط، بل «تنقل» في أكثر من مجال علمي ولا سيما في العلوم الانسانية واللسانيات، لتشييد نظرية لما سماه بـ «العقل التواصلي» وتحرير الفكر المعاصر من الخطاب المتمركز حول فلسفة الذات.

لقد استلهم هابرماس، وبأسلوب نقدي، مقومات «النظرية النقدية»، وحاور مؤسسيها في أفكارهم ونمط سؤالهم وتقصى أسسهم الفلسفية في تنوعها واختلافها وأحيانا في تنابذها. فدراساته لفكر هوركهايمر وأدورنو وبنيامين وكارل لوفيت، وماركوز... الخ سمحت له بتلمس المجالات المعرفية والفكرية التي تحركوا فيها واستيعاب المفاهيم المختلفة التي وظفوها في عملية تنظيرهم للحداثة الاجتماعية والثقافية، وللعقل والثقافة الجماهيرية، وللفن والتعبيرات الجمالية، وللعلم والعلوم الانسانية وللفرد وأشكال الاستلاب.. الخ.

هذا ما أدى بكثير من الدارسين إلى اعتبار هابرماس امتدادا للنظرية النقدية، وفلسفته تجسيدا متجددا لمفاهيمها وأسئلتها وانفتاحاتها النظرية. غير أن نص هابرماس، منذ الخمسينات إلى الآن، يحفل بمراجع لا حصر لها، ويدمج في ثناياه أكثر من اهتمام فكري وعلمي، فضلا عن أنه لم يبق سجين الإطار الفلسفي الألماني بقدر ما انفتح على الكتابات الفلسفية والعملية المعاصرة سواء في أوروبا أو الولايات المتحدة الأمريكية. كل هذا جعل من النص الفلسفي لهابرماس نصا تركيبيا متعدد المناهل، متنوع المراجع، لا يستقر على إسم أو كتاب أو مدرسة حتى وإن اعتبر مكملا للنظرية النقدية التي نعتت أحيانا بـ «مدرسة فرانكفورت».

لا يتعلق الأمر هنا، بتحديد خصائص النص الفلسفي لهابرماس، لأننا سنحاول الاقتراب منها في سياق هذه الدراسة، لكننا نشير إلى بعض ملامح كتابة هذا الفيلسوف من أجل الكشف عن عناصر الاشكالية التي تحكم تفكيره والتي تنظم نشاطه النظري. فهابرماس بسبب انتمائه إلى لحظة تاريخية ألمانية تميزت بتشييد أسس مشروع حضاري

يستلهم من العقلانية مكوناته الجوهرية ويجعل من الحداثة غاية، وبحكم انتسابه إلى اللغة الألمانية التي ازدهر فيها الفكر الفلسفي الذي جعل من الأنوار والعقل والتقدم والحرية والنقد والزمن والايديولوجيا والاستلاب. . الخ موضوعات أساسية في نشاطه، كل هذه الاعتبارات، إضافة إلى عوامل أخرى سنحاول تلمسها مع تطور الحديث عن مكونات فلسفة هابرماس، جعلت هذا المفكر متورطا في أحداث زمنه ومنصتا لايقاعاته المتموجة. فالعقل الغربي أسس حضارة تمكنت من محاصرة نشاطه، لدرجة لم تعد تسمح له بخلق المسافة الضرورية للابتعاد عن عناصر إنتاجه. غير أن هابرماس أراد التمسك بهذه المسافة والانتماء المتحول للأطر المرجعية النقدية التي تعاند الاستلاب وتكشف عن عوامل التشيؤ وتحتفظ للعقل بإمكانية مراجعة ذاته ومحاكمة آلياته وتقو يم عطاءاته. ان سؤال الحداثة عند هابرماس، كما سنرى، لا يقف عند حدود العقلانية، وهذه ليست مجرد أداة لتحديث المجتمع والتاريخ، كما كان يرى ماكس فيبر، بل إن سؤال العلاقة بين الحداثة والعقلانية في حاجة إلى إعادة صياغة ويستدعي ممارسة تأملية مختلفة تستفيد من تاريخ النظرية وتستنطق تحولات اللحظة التاريخية وتنظر إلى نوعية التفاعل الحاصل بين الذوات من جهة وبينها وبين أشياء العالم المعيش من جهة ثانية. هذه الممارسة النظرية استهدفت صياغة فلسفة «عصرية» تعطي، مجددا، للتأمل الفلسفي شرعيته المشكوك فيها، وتكثف الأسئلة الأساسية التي سيطرحها الزمن على العقل في علاقاته المتوترة مع إنتاجاته.

وهنا ينتصب سؤال الفلسفة : هل يمكن الاستمرار في التفلسف الآن ؟ وهل يمكن التفكير فلسفيا في وقت اكتسب فيه العلم قوة هائلة ؟ وهل يجوز الحفاظ على التقاليد الفلسفية في انشغالها المعروف بالعقل والكائن والزمن ؟ وكيف نفكر في الزمن راهنا؟ وهل الحديث اللامتوقف عن تجاوز الفلسفة، سواء بإلغائها أو بتطبيقها، حديث يمكن الدفاع عنه ؟وإلى أي مدى يجوز التأمل الفلسفي في انفصال عن أسئلة الذات والعلاقات والزمن واللغة والتقنية، أي هل يمكن تصور تفلسف مستقل عن العلوم الإنسانية بمختلف حقولها والعلوم التجريبية بتنوع مجالاتها ؟

إن هابرماس يرى، كما كان يعتبر هيغل وأصحاب النظرية النقدية، أن «الفلسفة بنت زمنها» وأن عليها أن تفكر في الواقع الفعلي، أي أن تبلغ القدرة على التفكير في ما يصعب الإحاطة به في اللحظة الحاضرة، غير أن الواقع الفعلي اتخذ طابع عقلانية عملية وتقنية، وخطابات تضفي الشرعية على سيطرتها الاستثنائية. فكيف يمكن للفلسفة أن تفكر في قوة هذه العقلانية المتجسدة في الأشياء إذا لم تستند إلى قوة أخرى أعلى منها تتمثل في ما يسميه هابرماس بـ«التأمل الذاتي».

تستمد الفلسفـة، كاجـراء فكري خصـوصي، بعضا من شرعيتهـا من قدرتها على صياغـة علاقـات الأشياء في كينـونتها وصيرورتها، كما أن التفلسف لا يستقيم إلا بـإنتاج مفـاهيم أو معارف جـديـدة. فإسم الفيلسوف لا يطلق على من يكتفي بـاعـادة صياغـة نصوص الآخرين والاكتفاء بتفسيرها والتذييل عليها بقدر ما يستحق جدارته حينما ينتفض السؤال في كتابته عن العقل وما لا يستجيب لضوابطه، وعن الواقع الفعلي والعالم المعيش، عن اللغـة وتحولات أشكـال التواصل بعـلامـاتها. الفلسفة إذن هـي مجال فكري لإنتـاج المفاهيم، تستند إلى نمط تساؤلي يجعلها دائما تتحيز إلى ما يعاند تكرار الشبيه وإعادة إنتاج المألوف. إن راهنيـة الفلسفة تتمثل في قدرتها على ممارسـة التفلسف المنتج للمفاهيم، على اعتبار أن المفهوم هـو ما يحمي الفكر من أن يبقى سجين الرأي أو أن يسقـط في مجرد الثرثرة الكلامية، أو حتى أن تبقى رهينة إطار مدرجات الجامعة والضبط المؤسسي. إن الفلسفة، كما سيتبين لنـا ذلك مع هابـرمـاس، هي الانخـراط في مغامـرة إنتـاج المعرفـة اعتمادا على «التأمل الذاتي».

ومفهوم «التأمل الـذاتي» لا يعني البقاء في دائرة مـا يسمى بـ «فلسفـة الوعي» التي تتخـذ من الذات محورهـا المركزي والتي سيطـرت على الفلسفة الغـربية، من ديكـارت إلى هايدغر، بل وما زالت بعض تعبيراتها منبتة حتى في نصوص فلاسفة الاختلاف المعاصرين كما يعتبر هابرماس. إن الأمر يتعلق عنده بفلسفة نقدية تتغيى نسف فلسفة الذات بخلق وإضافة منطقة جـديدة تملأ الفراغ الذي ولدته العقـلانية المعاصرة، وتنسج عناصر منطق للتعدد يؤسس لنظـرية نقدية جديدة تحاكم التراث الفلسفي المتمركـز حول العقل باقتراح مفهوم النشاط التواصلي المسنود إلى فكر مغاير للحداثة يدعو إلى نظرية للمجتمع.

الانفصال عن فلسفة الذات معناه، في تصـور هابرماس، التفكير الفعلي في الزمن الراهن، لأن الفلسفـة لا يتمثل دورها في إضاعـة زمنها بالـرجوع الدائم إلى الـزمن القديم والانغماس في نصوص من سبق من الفـلاسفة، أو البكاء على «العصر الـذهبي» للفلسفة الذي لم يتحقق بعد. الفلسفة اذن سؤال يقظ ينفتح على مـا هو نقدي في العلوم الانسانية ولكنها تتخـذ من النزعة الـوضعية خصمها المطلق ومن «التـداوليات الصوريـة» مسلكها المنهجي لصياغة نظرية في الحداثة وتأسيس عقل تواصلي.

ومن أجل هذا لم يكتف هابرماس بعطاءات النظرية النقدية أو بالقيام بقراءة نقدية لأهم النصـوص المؤسسة للنظـر الفلسفي الحديث والمعاصر من كـانط إلى ديريـدا، وإنما استلهم بعض انفتاحات التحليل النفسي ونتـائج بعض النظريات الانتروبولـوجية كما هو الشأن مع «هـربـرت ميـد» واستفاد من علم النفـس التكويني عنـد جـان بيـاجي، ومن

السوسيولوجيا المعاصرة كما مارسها ونظر لها تالكوت بارسونز، إضافة إلى فيتجنشتاين في الفلسفة التحليلية، ولو كاتش في تحليله للتشيؤ، و«بيرس» وتشومسكي في «التداوليات الصورية» . . . الخ لهذا السبب قلنا بأن نص هابرماس نص مركب وتركيبي في نفس الآن، بحيث لا يطمئن إلى مرجع أو مدرسة، كما سيتبين لنا ذلك أثناء هذا البحث. ويبدو أنه بالإضافة إلى فلاسفة النظرية النقدية فان هابرماس استلهم، وبأسلوب نقدي، بعض مقومات اجتهاداته النظرية، بشكل أساسي من كارل ماركس وماكس فيبر، «وجوزيف غادمير» «وكارل أرتو آبل». وسنقف عند كل هذه المؤثرات على فكر هابرماس حينما نتعرض لمشروعه الفلسفي الذي جعل من سؤال الحداثة والتواصل هاجسه المركزي ومن نظرية النشاط التواصلي مسلكا للانفلات من فلسفة الذات والتحرر من عقلانية المؤسسات الحديثة التي ترهن الجسد في مجال عمومي يضفي عليه العقل شرعية مشكوكا في إنسانية قوانينها وتشريعاتها. إنه مجال عمومي يسجن الجسد داخل نسق صارم وفي عقلانية تمسخ الفردية الحقيقية، ولا توفر شروط إمكان اقامة أرضية صالحة للتفاهم بين الذوات.

هل الحداثة في تحطيمها للتصورات التقليدية للعالم مكنت الانسان المعاصر من ممارسة تحققه الذاتي وحريته في توظيفه المستقل للعقل؟ هل يجوز للفعل الفلسفي المعاصر أن يترك العقل يستقيل من دوره في مراجعة ذاته وأن يضعف أمام كل أشكال النقد الموجه إليه ؟ وهل الحداثة بوصفها نتاجا للعقل يمكن التخلي عنها لمجرد أنها تجسيدلعقل تعطل على ممارسة النقد ؟وما هي طبيعة العلاقة بين الحداثة في مختلف مظاهرها وبين التواصل في أشكاله الرمزية المتنوعة ؟ وما هو المخرج الفكري لنقد العقل النظري والعملي الموروث عن فلسفة الوعي ؟ ثم كيف يصوغ هابرماس نمط سؤاله في كشفه عما هو صحي ومرضي في مشروع الحداثة ؟ وما هو أسلوب القراءة الذي قام به لجدل الأنوار من أجل تحيين بعض أبعاده النقدية ؟ وكيف ينظر إلى توتر العلاقة بين العقل التواصلي وبين الخطاب الفلسفي للحداثة ؟

هذه أسئلة سنحاول الاقتراب منها، في سياق بحثنا عن مدلولات الحداثة والتواصل في فلسفة هابرماس. ومن أجل ذلك سنحاول الوقوف عند الأسس الفلسفية للنظرية النقدية التي يعتبر هابرماس ممثلا لجيل جديد في تطورها وامتدادها حسب كثير من الباحثين، كما سنعمل في مرحلة ثانية على تحديد أهم المفاصل التي يتكىء عليها المشروع الفلسفي لهابرماس على أن نتناول في القسم الثاني من الدراسة مسألة الحداثة في فكر هابرماس وموقعها في نظريته عن الفعل التواصلي.

القسم الأول

هابرماس والنظرية النقدية

الفصـــل الأول

الأسس الفلسفية للنظرية النقدية

كيف يمكن للمرء أن يتعامل مع نصوص مفكري ما اصطلح على تسميته بـ «النظرية النقدية» في تنوعها واختلافها وتشتتها وتوزعها، سواء على صعيد المنهج أو الإحالات أو الاهتمامات الخاصة ؟ وهل ما يسمى بالنظرية النقدية تشكل نظرية فلسفية بالفعل، أم أنها مدرسة فكرية لها ملامح وخصائص توحد المنتمين إليها أم هي تيار فكري حاول مؤسسوه تشكيل نسق فلسفي له منهجه ومفاهيمه؟ أم أن الأمر يتعلق، في الأول والأخير، بحساسية فكرية تعاند كل انتماء وتقاوم النسقية الدوغمائية ؟ ثم ما موقع يورغن هابرماس في صيرورة هذه النظرية النقدية ؟

أسئلة كثيرة يمكن أن نطرحها على النظرية النقدية، لكن ما يهمنا هنا، هو الوقوف عند أهم المرتكزات الفكرية والانشغالات الفلسفية التي تميز بها فلاسفة النظرية النقدية، سواء ما تعلق بالفلسفة وبالعلوم الاجتماعية أو بالعقل والحداثة، أو بالفرد والسيطرة . . الخ ومدى تأثير هذه الانشغالات على التطور الخصوصي ليورغن هابرماس.

ذلك أن هذا الفيلسوف كما يرى بعض الدارسين، يشكل «امتدادا لمدرسة فرانكفورت» (1)، أو هو «الممثل الحالي للنظرية النقدية » (2). وهناك من يرى أن فلاسفة النظرية النقدية يمثلون جيلين اثنين «جيل المؤسسين» من «بولوك وهوركهايمر إلى ماركوز والجيل الثاني الذي يعتبر هابرماس أبرز ممثليه» (3).

---

(1) BALANDIER (G) : Le détour, Pouvoir et modernité; Paris, Ed. Fayard P 132.
(2) Assoun (P.L), Raulet (G); Marxisme et théorie critique, Paris, Ed. Payot, 1978. P. 29.
(3) Jay (M) : "L'imagination dialectique, Histoire de l'école de Francfort (1923 - 1950); Paris, Ed. Payot, 1977.

غير أن البعض في سياق تأريخهم للنظرية النقدية لا يدمجون هابرماس في تاريخ أفكارها بقدر ما يرون أنه يحتل موقعا خاصا به لا يلتقي فيه مع رواد هذه النظرية (1).

ومهما يكن من شأن هذه الاعتبارات سواء منها تلك التي تدخل هابرماس في صيرورة النظرية النقدية أو تلك التي تلح على ابتعاده عنها، فإننا سنحاول الوقوف عند أهم القضايا الفلسفية التي شغلت ممثلي النظرية النقدية ومدى تأثيرها على التطور الخصوصي لهابرماس، وهل هذا الأخير انفصل عن المفاهيم والأساليب التي اتبعها رواد النظرية النقدية أم أنه نحت لنفسه مفاهيم جديدة اعتمادا على منهج جديد. ولذلك فإننا نشير إلى أننا نفضل أن لا ندخل هابرماس في هذه المرحلة من الحديث عن النظرية النقدية على أن نقوم بذلك في بداية الفصل الثاني عند صياغتنا لمشروعه الفلسفي.

1 - أسئلة النظرية النقدية

سواء اعتبرنا النظرية النقدية تتويجا لتفكير مدرسة أو تيار أو أنها عبارة عن نسق ابتدأ أصحابه بالنقد لينتهوا إلى نوع من الالتزام العضوي بالقضايا التي بشروا بها، فإننا نلاحظ أن أغلب الباحثين والمفكرين الذين يحسبون على هذه النظرية تجمعهم «نواة نظرية» عمل أساسا كل من هوركهايمر وأدورنو من جهة، وماركوز من جهة ثانية، على تأسيسها وتكوين عناصرها. ويمكن أن نعتبر مع «ميغيل أبنسور» أن هذه النظرية عرفت ثلاثة أنواع من المحطات: المحطة الأولى التي شهدت حوارات بنيامين وأدورنو في أواخر 1929؛ المحطة الثانية في 1937 حين تم تحرير كل من «النظرية التقليدية والنظرية النقدية» لهوركهايمر، و«الفلسفة والنظرية النقدية» لماركوز؛ والمحطة الثالثة، هي التي تميزت باللقاء الحاسم والتعاون الفكري المتفرد الذي جمع هوركهايمر وأدورنو سواء حين وقعا كتبا بشكل ثنائي أو حرر كل واحد كتابات بتوقيعه الخاص (2) ويظهر أن هذين المفكرين وهربرت ماركوز يشكلون «النواة النظرية» التي أسست لفكر النظرية النقدية، لاشك أن لمفكرين وفلاسفة أمثال كارل كورش، وجورج لوكاتش، وولتر بنيامين وارنست بلوخ، تأثيرهم الكبير على صيرورة تشكل العناصر النظرية لهذه النواة التي أرادت أن تمثل

(1) Ladmiral (J-R) : "Jurgen Habermas, ou le changement de signe de la Théorie critique" Revue Projet N168, 1982.

(2) Abensour (M) : "La Théorie critique : une pensée de l'exil", Archives de philosophie, 45, P.1982, P 181!

قـوة نقديـة إزاء أوضـاع ألمانيا وتحولات الفكـر والسيـاسة في المجتمع الحديث. لهذا يقـول هـوركهايمـر في تقـديمه لكتـاب مـارتان جـاي «المخيلـة الجدلية» بـأن الأمر كـان يتعلق بمجمـوعـة «من الأفـراد يجمعهم اهتمام مشترك بالنظـريـة الاجتماعيـة، ولكن اعتمادا على مـؤهلات جـامعية مختلفـة، وما كـان يوحـدهـم هو أنهم ينطلقـون من وجهة نظـر نقديـة للمجتمع القائم» (1).

إن اتخاذ مسافة نقـدية إزاء ما هو موجـود هو أول ما يميز أصحاب هـذه النظرية، ولكن بأي نقد يتعـلق الأمـر ؟ ذلك أن الفلسفـة الألمانية منذ كـانط إلى نيتشه جعلـت من النقد مكـونا أســاسيا للنظر الفلسفي. لذلـك نتساءل : هل مفهوم النقـد عند النظـرية النقـدية يشكل امتـدادا لهذا التراث الفلسفي الألماني؟ أم أن للنقد عنـدها حمولات دلاليـة مغايرة تميزها عن أنماط النقد التي نحتها الفلاسفة عبر تاريخ الفلسفة الألمانية الحديثة ؟

ويبدو أن النظـرية النقـدية تكـونت انطلاقـا من نقد مفكـرين آخريـن ونصوص فلسفية أخـرى. وهذا اعتبـار يمكن أن يصدق على كثير من الفـلاسفة والمفكـرين، لأنه بدون استلهام للماضي ومحاورة للحاضر لا يمكن اتخاذ أية مسافة نقدية كيفما كانت دلالاتها ومقاصدها. غير أن ما يميز النظرية النقـدية هو أسلوب النظر إلى الحداثة والبحث الدائم عن آفـاق السؤال، لـذلك تحول النقد عنـدهم إلى أداة لمقاومـة كل أشكال الاستقطـاب، وسمح لهم بالتحرك دون التورط في الانتماء السياسي المباشر أو الاستجابة لكلمة أمْر تحصر نشـاطهم الفكـري أو تضـايق نمط سـؤالهم. من هنـا أهميـة التفكير العقلي الـذي يأخـذ مصـداقيته خصـوصـا حين يقترن بالحذر من كل أشكـال التأمل الميتـافيزيقي وفلسفـات الهوية. فالواقع عندهم يجب أن يُحاكم اعتمادا على «البعد النقدي للعقل»، بدون أن ينظر إلى هذا العقل وكأنه مثال متعالي يوجد خارج التاريخ. إن «ما هو جوهري بالنسبة للنظرية النقدية هو المأخـذ الذي توجهه لكل أسلوب منعزل ومحدود في فهـم النظرية، أو أن يكون له مفهوما ضيقا للعقلانية، أو أن تقوم بوظيفة مغلفة بإيديولوجيا تعرقل الحرية الانسانية. إن مفهوم النظرية النقدية لا يمكن أن يكون مقنعا إلا إذا لم يفرق بين النقد والنظرية» . (2)

---

(1) Horkheimer (M) : in Avant-propos à Martin jay : "L'imagination dialectique, op. cit, P.7

(2) Bubner (R) : "Qu'est ce que la Théorie Critique ? "; Archives de Philosophie, 35, 1972, P.382.

لكن ما هي طبيعة هذا الأسلوب من النظر الذي ميز مفكري النظرية النقدية ؟ ولماذا قاوموا الانتماء السياسي المباشر في الوقت الذي اتخذوا من النقد توجها جوهريا في تفكيرهم ؟

ويظهر، من جهة أخرى، أن فلاسفة النظرية النقدية، ولاسيما هوركهايمر، أدورنو وماركوز، حاولوا، انطلاقا من ممارستهم للنقد، أن يفكروا في مسألة التغيير، ليس باعتباره نتاج دينامية الصراع الطبقي، كما تقول بذلك الماركسية، ولكن من منطلق تفكير الانسانية في نفسها واعتمادا على شكل جديد من النظرية الاجتماعية. لذلك اعتبر مفكرو النظرية النقدية أن تداخل الاختصاصات شرط ضروري في النظر الفلسفي، وأن على الفلسفة أن تدمج اجتهادات الاقتصاديين والمؤرخين وعلماء النفس وغيرهم في صياغة أسئلتها. هذا ما أدى بهم إلى تنويع اهتماماتهم ومقاربة موضوعات متعددة تفترض اختصاصات متعددة. فنقد السلطة والعائلة، ونقد مفهوم التحرر البورجوازي، ونقد الفاشية، والكشف عن آليات السيطرة في الثقافة، ونقد الدولة الحديثة ومؤسسات السياسة التوتاليتارية. . الخ إضافة الى القراءة النقدية لتاريخ المتن الفلسفي، لا سيما الألماني، وتحليل مكونات الحساسية الجمالية. . الخ كل هذه الاهتمامات جعلت من فلاسفة النظرية النقدية يسترشدون بنتائج أكثر من حقل معرفي ويستلهمون أنماطا تأملية متنوعة. فكيف إذن تعاملوا مع الفلسفة وتصوروا أهميتها في الزمن الحديث ؟ وما هو مفهومهم للعقل وللنقد وللأنوار ؟ وكيف نظروا إلى الفرد في تفاعله مع الثقافة التي انتجتها الحداثة وفي تعامله مع الدولة المجسدة للعقلانية ؟

2 ـ الفلسفة والنقد

هل تشكل الفلسفة معرفة ؟ وإذا كان الأمر كذلك فما هي طبيعتها ؟ وهل يمكن القيام بتحليل دقيق لما يميزها عن المعرفة العملية ؟ وما هي نوع العلاقة بين التفكير الفلسفي والعلوم التجريبية ؟

أسئلة كثيرة طرحت وما زالت تطرح على الفلسفة. ومنذ انفصال العلوم التجريبية والانسانية عن التأمل الفلسفي والفلسفة تواجه كل أشكال المحاكمات سواء من طرف العلوم الوضعية أو العلوم الانسانية أو الدين والسياسة. ذلك أن طبيعة مفاهيمها التجريدية ونزوعها الدائم نحو إعادة النظر في الموجود والمألوف وميلها المستمر نحو السؤال، جعلت المعرفة كنظام مفهومي وكسلطة رمزية تتبرم من السؤال الفلسفي وتحتاط

من الشك لا سيما في الأوقات التي تكون فيها معرفة السلطة أو سلطة المعرفة في حاجة الى نظام وضبط وإلى هدنة أو إجماع.

إن من بين المشاكل التي تواجه الفلسفة هو أنه في الوقت الذي امتلكت فيه العلوم التجريبية والانسانية موضوعاتها بقيت الفلسفة بدون موضوع، ذلك أن القول بأن الفلسفة هي تساؤل عن الانسان والمجتمع والطبيعة والتاريخ قول لا يصمد أمام الملاحظة، لأن للإنسان علومه وللمجتمع علومه وللطبيعة علومها وللتاريخ مباحثه. ماذا بقي إذن للفلسفة ؟ هل صفة التساؤل وحدها كافية لنعت تفكير ما بأنه فلسفي ؟ أم أن الفلسفة تفترض إضافة إلى شرط السؤال، مقاييس أخرى تتفرد بها ؟ ثم هل الفلسفة في الزمن المعاصر، بقيت رهينة الذات ومسألة الوعي، أم أنها بفضل مختلف الانفتاحات المعرفية، توظف المفهوم Concept وأشياء العالم المعيش Monde vécu؟

وبدون أن ندخل في هذا الحديث الإشكالي عن الفلسفة الذي لاحظ البعض، ومنذ مدة، أنها «فقدت كثيرا من مادتها الدلالية» [1] وان زمن الميتافيزيقا انتهى، وأن شجرة ديكارت أصبحت غابة من العلوم يصعب اختراقها والتحكم في طرقها باسم الفلسفة، فإننا نريد أن نقتصر هنا، على الإشارة إلى أن المعرفة العلمية تستهدف فهم واقع محدد وتعتمد في ذلك على نماذج مجردة تخضع شروط الصحة فيها إلى معايير واضحة، وبالتالي فإن المقاربة العلمية تتمثل في حركة مضبوطة بمفاهيم تبني موضوعات للمعرفة من أجل الكشف عن حقيقة تجربتنا المعيشة. وهكذا تتميز المعرفة العلمية بكونها تقوم بعملية تجسيد موضوعي للمعيش مسنودة بكل العمليات الصورية والنماذج الممكن إخضاعها للمحاسبة والمراجعة الضروريتان.

أما الفلسفة فإنها بعيدة عن هذا الادعاء، لأنها لا يمكن أن تفسر الوقائع المحددة اعتمادا على نماذج صورية، ولكنها تستطيع تنظيم معاني هذه الوقائع داخل نظام كلي أو أن تجمع شتات الشذرات المحدودة ضمن معرفة منسجمة المفاصل والمقدمات. إنها ليست بعلم لأنها تفتقد إلى الموضوع. وما دامت الفلسفة «ابنة زمنها» كما قال هيغل، فإنها بقدر ما تسعى إلى التقاط تفاصيل اللحظة بقدر ما ترتبط بالنصوص، لذلك فإن ما يميز فلسفة عن أخرى هو نمط سؤالها وقدرتها على إبداع المفاهيم، أو على الأقل على الاستعمال المبدع لها.

---

(1) Desanti (J-T) : "Le philosophe et les pouvoirs"; Paris, Ed. Calmann-Levy ; 1976, P. 54.

فالفلسفة ليست علما ساميا ولم تعد محكمة عليا، وليست لا مؤسسة ولا مشرعة. إذ أنه من خارجها تتشكل مضامين المعرفة، لذلك فإن التفلسف لم يعد إلا ذلك الفعل العقلي المنقب، الناقد والتفكيكي لانغلاق النص الفلسفي. وبذلك يصبح النشاط الفلسفي يلعب دورا «تأمليا» وبهذا النشاط فإن المعرفة، حتى في صيغتها الوضعية، ترجع إلى الذات التي تقوم بوظيفة التفكير على أن تفهم الذات من منطلق اعتبارها ذاتا خالصة، مؤسسة ومتعالية. وهكذا «يمكن للمعرفة أن تفكر في ذاتها، وأن تتوحد المعارف وتتخذ معناها» (1).

إذا كانت الفلسفة تتميز بقدرتها على التساؤل عن مكونات الفكر، ومنطق التاريخ ومفاصل السلطة، وتستفيد وتتفاعل مع نتائج العلوم التجريبية والإنسانية، وإذ كان تفكيرها يفترض إنتاج أو استعمال مفاهيم في علاقتها المتوترة مع الواقع واللحظة المعيشة، وأنها من أجل هذا الانتاج أو ذلك الاستعمال تحتاج إلى نوع من الانسجام أو النسقية في برهنتها، فإن هذه الفلسفة لا يمكنها أن تنتج نصا فلسفيا كليا بدون السقوط في الانغلاق النسقي، لذلك فان كل فلسفة تعاند النسق وتقاوم قدرته على الاستيعاب والاحتواء، تكون فلسفة متعددة المستويات تتخذ من النقد والسلب أفقا جوهريا للتفكير وتنتج نصا جمعيا متعدد الموضوعات والاحالات لا يستقر على حقيقة أو على مرجع مطلق.

يقول ماكس هوركهايمر : «إن أستاذنا في الفلسفة علمنا أنه لكي يصبح المرء فيلسوفا فإنه من الضروري أن يعرف العلوم الطبيعية وأن تكون له دراية بشيء من الفن والموسيقى والتأليف» (2) ولكن هوركهايمر يعتبر انه لا يمكن أن نضع تعريفا للفلسفة لأن «تعريفها يكون مطابقا للعرض الواضح الذي تقدر على قوله» (3) لذلك فإن الفلسفة ليست أداة أو تصميم مهندس بقدر ما تكشف عن سبيل التقدم الذي ترسمه الضرورات المنطقية والواقعية. ومن ثم فليس «هناك طريق نحو التعريف» (4) لأن الفلسفة عبارة عن مجهود واع لتنسيق كلية معارفنا وأفكارنا داخل بنية لغوية، يمكن في إطارها تسمية الأشياء بأسمائها الحقيقية، كما يرى هوركهايمر. من هنا ضرورة نقد الميتافيزيقا لأن

(1) Brunet (R) : " Margarita philosophica" in greph ; "Qui a peur de la philosophie ?" ; paris, Ed. Flammarion, 1977, P.134.
(2) Horkheimer (M) : "Théorie critique" ; Paris ; Ed. Payot, 1978, P.355.
(3) Horkheimer (M) : "Eclipse de la Raison", Paris ; Ed.Payot, 1974, P. 172.
(4) Ibid; P; 183.

هذه الأخيرة تدعي إدراك الوجود والتفكير في الكلية واكتشاف معنى العالم في استقلال عن الانسـان في حين أن هوركهـايمر يعتبر «أن خلق سلم داخلي من خـلال أي مذهب كـان وكأن مجرى التـاريخ لا علاقـة له بـذلك، لا يساوي، دومـا، الا تحقيق انسجام مـزيف وانغلاق للعالم»[1].

فالفلسفـة بقدر ما يتعين عليهـا استلهام العلوم الأخـرى والاستفادة من التعبيرات الجمالية المختلفة، بقدر ما يلزمها نقد كل نـزوع ميتافيزيقي يفصل الفكر عن سياقه وينتزع الكائن من عالمه المعيش. ونقد الميتافيزيقا لا يقتصر على الفلسفة، لأن «العلم هو نفسه، نقد للميتافيزيقا»[2]. بل ان هربرت ماركوز يذهب بعيدا حين يعتبر ان «النشاط الفلسفي هـو النشاط الانسـاني الذي فيـه تتكون الفلسفـة. لأن النشاط الفلسفي، بـالمعنى الجدي للكلمة، هو نمط من الوجود الإنساني. باعتبـار أن هذا الوجود، في كل أنماطه يوضع من زاوية سـؤال معناه»[3]. لـذلك فـالفلسفـة ليسـت عبـارة عن تصـورات خيـاليـة أو مجرد استيهامات، وإنما تشكل «قوة تاريخية حقيقية»[4] ومن ثم فإن طابعها «الايـديولوجي» لا ينزع عنها أبـدا معناها المتمثل في كونها عـاملا تاريخيا. إنها «تعبير عن مـوقف أساسي إزاء الكائن والموجـود، وفيه تعبر وضعيـة تاريخيـةواجتماعية عن نفسها بكـل وضوح، وبعمق أكثر، كما تتجلى في مجالات الحياة العملية المتجمدة في زيفها»[5].

مناهضـة الميتافيـزيقا، اقتران النشـاط الإنساني بـالتفلسف، الانخـراط في الحركة التاريخية، اتخاذ موقف نقدي إزاء العالم أدى بمفكري النظـرية النقدية الى الربط بين النظر والعمل، بين الفكر والتـاريخ. قد يبدو الأمـر استلهاما للماركسيـة بهذا الخصوص أو تبن لأطروحتهـا القائلة بتحقق الفلسفة في التـاريخ بعد تحويل المجتمع الرأسمالي من علاقـاته الطبقية إلى الحالـة اللاطبقيـة. لكننا سنرى أن الأمـر مختلف تماما عنـد أصحاب النظـرية النقـدية وأنهم اعتبروا أن تحولات وتنـاقضات المجتمـــع الذي أسستـه الحـداثة ومقـاييس العقـلانية لا تستجـيب تمـاما لتحليـلات ماركـس ولا لتنبؤاته[6] فالنظرية النقدية أخذت بعض مقومـاتها، لا سيما في البداية، من الماركسيـة لكنها قطعت مع تعاليمهـا في الوقت

(1) Horkheimer (M) : "Théorie critique", op.cit. P. 259.
(2) Ibid; P; 259.
(3) Marcuse (H) : "Philosophie et Révolution", Paris; Ed. Denoel, 1969 P. 121.
(4) Ibid; p.L.
(5) Ibid; P. 2.
(6) Voir, Adorno (T) : "Marx est-il dépassé ?" Et Marcuse (H) : Réexamen du concept de révolution, in, Diogéne, N 64, 1968

الذي تبين لروادها أن للماركسية نـظاما توتاليتاريا يمكنه تسييج الحرية وخنق البعد النقدي للتفكير.

ثم إنهم، أي مفكـري النظـرية، لم ينظـروا إلى الفلسفـة في عـلاقتها بمصير طبقـة اجتماعية محددة بقـدر ما أكـدوا على دور الفرد في ممـارسة الفلسفـة، لأن الفرد العينـي هو الذي يعطي للفلسفـة معناها ولكـن دون أن تنحصر دلالة الفلسفة فيما هـو «فردي» إذ أن كل فرد يمكنه أن يقـوم بإعطاء معنى للفلسفة من خلال الانصهـار والتجذر في وجود كل فرد على حدة.

وباعتبار أن النظـرية النقدية تتخـذ من النقد قاعدة جوهـرية لها فإنها تتبرم من كل إرادة كليانية ومن كل نزعة نسقية، وبوصفهـا تستلهم نهجا جدليا مفتوحا ذا منطلق مادي فإنها تدخل في صراع مع المثـالية الألمانيـة سواء كانت في تعبيرهـا الكانطي أو في مـرجعيتها الهيغلية.

صحيح أن محاولات بعض مفكـري النظـريـة النقـديـة نحت منحى تـوفيقيـا بين الفلسفة الكـانطية والمادية الجدلية لا سيما في بعـديهما المتعالي، كما يقول مـاركوز [1]، لكن الاتجاه العـام لتفكير فلاسفـة النظـريـة النقدية تمثل في القطع مع التراث الفلسفي المثـالي الألماني. هذا ما جعل بعض الباحثين يرون أن النظرية النقـدية مارست نوعا من الانفصال النظـري «مع بنية العلم التقليـدي إبستيمـولوجيـا ومع خلفيات ومـرامي المثـالية الألمانيـة فلسفيا. إنها تظهر - أي النظرية النقدية - وكأنها تقوم بمهمة» انفتاح «إزاء كل ما يريد أن يكون مستقلا ومكتفيا بذاته من الناحية النظرية» [2] نفس النقد ينطبق على الاتجاه العقلاني الذي يفترض ضرورة، في نظر هوركهـايمر، «علاقة دائمةومستقلة للممارسـة الانسانية بين المفهوم والواقع» [3] إن النظريـة النقديـة لا تفصل بين السوسيولـوجيا والعلـوم الاجتماعية عامـة، والفلسفة، لدرجة اعتبروا فيهـا أنها نظرية للمجتمع انبثقت من الفلسفـة. لذلك نجد البعض منهم يمارس الفلسفة على طـريقة السوسيولوجيا، ويكتب في السـوسيولوجيا بالأسلوب الفلسفي. أي أنهم في نـظريتهم النقديـة كسروا حدود الفلسفة - التي لا حدود لها - وحدود العلوم الانسانية. وهذا النوع من التمرد على حدود الحقول المعرفية استفز ردود

(1) Marcuse (H) :"Philosophie et révolution", op. cit, P. 17
(2) Ferry (L), Renaut (A) ; in Présentation à Horkheimer (M); Théorie critique ; op. cit. P.20.
(3) Horkheimer (M) ; Théorie critique" ; op.cit. P. 119.

المفكرين ذوي النزعة الوضعية، ولهذا السبب نجد كتابات كثيرة صاغها مفكرو النظرية في سياق السجال مع الوضعية. هذه النزعة التي قال عنها هوركهايمر أنه إذا كان «أفلاطون أراد أن يجعل من الفلاسفة سادة فإن التكنوقراطيين يريدون أن يجعلوا من المهندسين مجلس إدارة مديري المجتمع. إن الوضعية هي التكنوقراطية الفلسفية»[1]. والمواجهة المبدئية التي جمعت الوضعيين و أصحاب النظرية النقدية لا تقتصر فقط على مسألة حدود المجالات المعرفية أو على موقع العلم في المجتمع الحديث، وإنما هي مواجهة تعكس اختلافا جوهريا في النظر إلى الواقع والمجتمع والحداثة، وتفاوتا صارخا في فهم منطق العلوم الاجتماعية والبحث التجريبي، وتناقضا واضحا في النظر إلى الفلسفة. وبدون أن ندخل في تفاصيل السجال الذي ميز علاقة الوضعيين بأصحاب النظرية النقدية نكتفي بالإشارة إلى ما أكد عليه تيودور أدورنو في تقديمه للكتاب الذي ضم مختلف تدخلات الندوة التي شارك فيها أهم الفلاسفة والعلماء والابستمولوجيين الألمان في أواخر الستينات، ومن بينهم كارل بوبر، وهانز ألبير وهما يمثلان الاتجاه الوضعي في هذه الندوة، وأدورنو وهابرماس وقد عبرا عن الموقف النقدي فيها، إضافة إلى آخرين. يقول أدورنو : «إن ما هو حاسم، لا يتمثل في العلاقة المباشرة مع الممارسة، بل بالموقع الذي نعطيه للعلم في حياة الفكر وفي الواقع. إن الاختلافات حول هذه النقطة ليست مرتبطة بتصور العلم، لأن هذه الاختلافات لها مكانها في الأسئلة المنطقية والابستمولوجية، وفي فهم التناقض واللاتناقض، والجوهر والظاهر، في الملاحظة والتأويل. إن الجدل يتعامل في هذا الخلاف بتعنت لأنه يؤمن بضرورة الاستمرار في التفكير حيث يتوقف عنه خصومه، أي التفكير أمام سلطة صناعة العلم غير الخاضعة للسؤال»[2].

الفلسفة عند أصحاب النظرية النقدية لا تنفصل كثيرا عن أسئلة العلوم الانسانية، لأن هذه الفلسفة بحكم كونها نقدية وتسعى إلى صياغة نظرية في المجتمع فإنها تتفاعل مع عطاءات العلوم الاجتماعية، لكن دون التسليم بكامل نتائجها. لأن النظرية النقدية تطعن في مصداقية السوسيولوجيا المسيطرة باعتبارها غير قادرة على تقديم تصور كلي لا يغرق في الشروح التجريبية أو المنطقية ـ الاستنتاجية.

(1) Horkheimer (M) : "Eclipse de la Raison", op. cit. P. 68.
(2) Adorno (T) : Présentation à : "De Vienne à Francfort ; La querelle allemande des sciences sociales" ; Bruxelles Ed. Complexes, 1979 ; P. 58.

ويعتبر أدورنـو أن المجتمع ككلية لا يمكن أن يفهـم إلا من خلال نقيضـه المطلق المتمثل في الفرد، وبالمقابل فان الفرد يتحـدد بواسطة الكلية التي تخترقه في أعماقه. ومن ثم فإن فلسفة ذات نزعة وضعية لا يمكنها أن تدرك عنـاصر التوتر الذي يجمع الفرد بالمجتمع في الزمن الحديث. وحدها فلسفة سلبية Négative تقدر على ذلك لأنها تولدت من تجربة فشل الثقافة الحديثة وانزلاق العقل في بربرية جديدة.

إن النظريـة النقديـة، في سياق صياغتهـا لأسئلتها وأسـاليب محاكمتها للـوضعية ولنتائج الحداثة، لم تكف عن محاورة المتن الفلسفي الألماني، غير أن كانط وهيغل كانا أكثر الفلاسفة عرضـة للنقـد. صحيح أن دراسـاتهم لم تقتصر على هـذين الفيلسـوفين، لكن نسقي كانط وهيغل وفرا لأصحاب النظـرية النقدية انفتـاحات متعددة للتفكير والتأمل. فالقول بتـجاوز الفلسـفة سـواء في صيغته الهيغلية أو الماركسية فقـد كل قيمة لأن «لحظة تحقيقها ضاعت»[1] ولهذا السبب يرى أدورنو أن الفلسفة حين فشلت في الالتـزام بوعدها بتغيير العـالم والتوحـد مع الواقع، فهي مضطـرة إلى «انتقاد نفسهـا بدون تسـاهل»[2] بل وعليها أن تتساءل، في سياق تفكيرها في ذاتها، عن الكيفية التي يمكنها بها أن تبقى ممكنة بعد السقطة التي عـرفتها الفلسفة الهيغلية. نفس الأمـر، تقريبا، الذي قـام به كانط حين انتقد العقـلانية متسـائلا عن إمكانيـة تأسيس ميتـافيزيقا. وإذا كـان المذهب الهيغلي في الجدل يمثل محاولة نـادرة مع المفاهيم الفلسفة ومبرهنا عن مستـوى عال في إظهار تغايـرها وتنـافرهـا، يتعين التأكيـد على العلاقـة مع الجدل «الـذي يجب تشييـده ما دامت محاولـة تأسيس هذه العلاقة قد فشلت»[3]. فحرية الفلسفة في عمليـة تفكيرها، في نظر أدورنو، ليست أكثر من القدرة على توفير التعبير عن لا حريتها، ذلك أن لحظة التعبير اذا تقدمت بوصفهـا شيئا زائدا فإنها تتحـول إلى رؤية للعـالم. «حين تتنازل الفلسفـة عن التعبير وعن واجب العرض فإنها تستوعب من طرف العلم»[4] وحيث إن المفكر فيـه لا يصير هادفا إلا إذا كان في شكل تعبير من خلال العـرض اللغوي فان ما يقـال بشكل مهمل يكون مفكرا فيه بطريقة سيئة لأنه «بالتعبير تنتزع الدقة مما يعبر عنه» [5].

(1) Adorno (T) : " Dialectique négative", Paris; Ed. Payot 1978 ; P. 11.
(2) Ibid ; P.11.
(3) Ibid, P.12.
(4) Ibid, P.22.
(5) Ibid, P.22.

إن فعل التفكير (أو التفكر Le penser) في حالته البدئية، وقبل أن يتخذ أي مضمون خاص، هو في حد ذاته سلب ومقاومة ضد كل ما يفرض عليه، لا سيما في زمن تعمل الايديولوجيا على الدفع بالفكر نحو التزام معايير الوضعية. في حين أن أشكال التفكير في نظر أدورنو، تسعى إلى تخطي عناصر الحاضر وما تتقدم إليها من معطيات.

وبالاضافة إلى التبرم المبدئي من كل نزعة وضعية، فإن فلاسفة النظرية النقدية، ولا سيما أدورنو، جعل الاشكالية الفلسفية تدور بين نسقي كانط وهيغل. لقد حاوروا كل الفلاسفة الألمان، لكن كانط وهيغل شكلا أهم متن فلسفي انطلقت منه النظرية النقدية لتجربة وممارسة نقدها. صحيح أن الماركسية برزت كموضوع أساسي للتفكير النقدي عند أصحاب النظرية النقدية، أو ما يسميه أدورنو، بنوع من الاستخفاف والتهكم، بموظفي المادية الجدلية Les fonctionnaires du diamat ووجه نقده أيضا إلى كل ممثلي الاتجاه الوجودي، كل ذلك من أجل إعطاء نفس جديد للتفكير الفلسفي باعتباره سلبا للمفهوم وللنسق وللزمن وللعقل وللحداثة، ومن أجل تشييد فكرة جدل سلبي بوصفه نقدا ذاتيا جذريا للعقلانية.

تسكن أدورنو رغبة عارمة في تفجير النسق من الداخل لأنه انغلق قبل أن يحقق كل عناصر جدله، لذلك يتعين في تصوره، «تكسير وهم الذاتية المتكونة اعتمادا على قوة الذات»(1). إن مجال تنفيذ الطاقة النقدية يتمثل في النسق نفسه، بين الذات المتعالية والذاتية التي تتعالى في موضوعيتها.

إن النظرية النقدية تنطلق من اعتبار أساسي يؤكد على أنه ليس هناك نظرية تدعي امتلاك الحقيقة، وهذا الاعتبار تطبقه على نفسها كذلك، ومن أجل الانفلات من أي انغلاق لابد من إعادة تنشيط النظرية الجدلية للمجتمع بدون ا لسقوط في موقف تبجيلي عقيم، حتى تتمكن الفلسفة من الدفع بالتحرر إلى مداه المأمول. فالنظرية النقدية تنظر إلى الفلسفة، باعتبارها تقوم بالدرجة الأولى بوظيفة التحرر، ولهذا السبب حاول فلاسفتها القيام بممارسة مغايرة للفلسفة من منطلق إبعادها وانتزاعها من مؤسستين تعملان دوما على استعبادها وهما : الدولة والحزب. هاجس الاستقلالية هذا يذكر المرء بكل من شوبنهاور ونيتشه، وهم في هذا الصدد ينتمون لنفس مسارهما، لأن فلاسفة كبار من هذا القرن، مثل لوكاتش وهايدغر، استسلموا لارادة الدولة، لذلك قرر فلاسفة النظرية النقدية تأسيس «معهد للدراسات الاجتماعية» اعتمادا على تمويل خاص لإدراك وفهم ما

(1) Ibid, P. 8.

هو موجـود في استقلال عن كل إرادة كليانيـة . سواء كانت الدولـة أو الحزب ، باعتبار أن هذا الأخير عمل على تجميد النظرية في مؤسسات بيروقراطية تحجم السؤال وتنبذ كل حس نقدي . وسبب هـذا التبرم يكمن ، عند أصحاب النظـرية النقديـة ، في كونهم يعتبرون أن قبول كل شكل سياسي سلطوي لا يمكن أن يترتب عنه الا فكر ذو شكل سلطوي .

لا شك أن كل فيلسوف ، من الذين يشـاطرون النظرية النقديـة منطلقاتها ، مارس الفلسفة بأسلوبه الخاص واستنادا إلى مصادره الفكـرية والفلسفية المتميزة ، ولكنهم يلتقون كلهم في اعتبار الفلسفـة حقلا للتفكير بـالسلب وممارسة لاسلطـوية تنصهـر وتتداخل في صيرورتها الرغبة في المعرفة والرغبة في الحرية .

والحرية في الفلسفـة الهيغلية تتماهى مع الدولـة ، وما دام فلاسفـة النظرية النقـدية يعانـدون كل استيعاب تقوم به الـدولة للفكر ، وما دام هيغل ذهب بـالسؤال الفلسفي إلى مداه الأقصى حين التحمت الفلسفة بالدولة ، فان فلاسفـة النظرية النقدية اعتبروا انه من «فشل» الفلسفة الهيغلية يستمد النشاط الفلسفي شرعيته ، بمعنـى ان هـذه النظرية «تدين الجدل الهيغلي والجدل الماركسي بـاعتبـارهما شكلين مكتملين للجـدل الايجابي ، وتحاول أن تقوم ، بـالقياس إلى التقليد الفلسفي ، بعملية تحويل حقيقي يمتنع فيهـا الجدل عن انتاج الايجاب ويرتبط بما هو غير مطـابق ، لكي لا تخلق حركة السلب تأكيدا جـديدا ، ووضعية جديدة»[1].

إن الفلسفة عند أصحـاب النظرية النقدية لا تتغيى اكتســاح تفاصيل الهوية ، من هنا ابتعادها عن فلسفة الذات والوعي ولا تستهدف تشييد نسق ، لذلك عملوا على تفجير نسقي كـانط وهيغل من داخلهما ، ولا تسعى إلى الاحتماء بسلطـة ، لأن السلطـة تنـزع عن الفكر حـريته وتتحايل على النقـد لكي تقصيه ، ولا تريـد التصالح مع الواقع لأن النـزعة الوضعيـة المحتمية بكل أشكـال السلط تتخذ من الـواقع منطلقها ومـرماهـا . إن الفلسفة تفكير بـالسلب تستمـد شرعيتهـا من راهنيـة السـؤال ومن فشل الجدل في شكليـه الهيغلي والماركسي تستفيـد من أكثـر من علم اجتماعي لصيـاغـة نص متعـدد وجمعي ، يسعى إلى التحرر في كل أبعـاده الجسدية والسيـاسية والاجتماعية والفكـريةيقوم بـه الفرد اعتمادا على عقل لا يكف عن مراجعة مكوناته وعن نقد عقلانيته وأشكال حداثته . .

(1) Abensour (M) : "La Théorie critique : une pensée de l'exil?" Op. cit, P. 188.

3ـ جدل العقلانية : نقد العقل الأنواري

«إن الأمر يتعلق عندنا بنقد للفلسفة، ولأنـه نقد لها فإننا لا نريد أن نضحي بها»[1] هذا ما يعلنه أصحاب النظرية النقـدية. ونقد الفلسفة ينصب، من بين ما ينصب عليه، على التبرم من كل إرادة كليانيـة وكل منحى نسقي يتخذ من العقل دعامة لـه، وأيضا نقد الاتجاهـات الـوضعية التي تكتفي بـالمعطيـات الـواقعيـة، تنطلق منها وتـرجع إليهـا. إن هوركهايمر وأدورنو وماركوز وآخـرون، كل واحد على حدة، وفي دراساتهم المتعددة جعلوا من الفلسفـة الهيغليـة محور نقدهم لكل فلسفـة. صحيح أنهم من خـلال نقـدهـم لهيغل يـرجعون إلى كـانط ويتحفظـون على ما آلت إليـه الماركسيـة، ولكن قـوة نقدهـم على هـذا الصعيـد، تمثلت في دحض القول الهيغلي الـذي يؤكـد على اعتبـار كل معرفـة هي معرفـة بالذات للذات اللامتناهية، أو على اعتبار أن هناك هوية بين الذات والموضوع مؤسسة على أولوية الذات المطلقة، في حين أنهم يرون أن ليس هناك «تفكر» هكذا بشكل إطلاقي، بل هـو تفكر خصـوصي لبشر عينيين متجذرين في الـزمان والمكـان ويتحركـون ضمن شروط اجتماعية واقتصادية متحولة على الـدوام كما أنه ليس هناك «الكائن» بشكل مطلق، بل ما يوجد هو «الموجود المتعدد»..

وقـد اعتبر بعض الباحثين أن مـوقفهم من هيغل يـذكر المرء بـالنقـد الذي وجهـه اليسـار الهيغلي لأستاذهم لا سيما حين ألحوا على الجمع بين الفلسفـة والتحليل الاجتماعي وأكدوا على النظـرة الجدلية في مقاربة الأشيـاء والفكر والزمن وتصوروا أن إمكـانيات تغيير النظام الاجتماعي لا تتوفر إلا بالممارسة[2].

لـذلك فالعقل عنـد أصحـاب هذه النظـريـة هو «الحجـة النقـدية» التي تـؤسس تصـورهـم. إذ أن لا عقلانيـة المجتمع الراهن كـانت دائما موضع سـؤال بفضل الامكانيـة السلبية لمجتمع مغاير عقلاني بالفعل.

غير أنه بـالرغم من هذا الالتزام المبـدئي بالعقل فإنهم لا يسلمون بكل إنتاجـاته، ومن تم جعلـوا من نقـد العقل الـذي أفـرز مـؤسسـات الحداثة في الاقتصـاد والسيـاسـة والاجتماع والثقافـة، منطلقا جـوهريـا في نظرتهم للفلسفـة الحديثة ولتجليـات العقلانيـة ومظاهر الحداثة؛ يقول هوركهايمر :

---

(1) Horkheimer (M) Adorno (T) : "La dialectique de la Raison" ; Paris ; Ed. Gallimard, 1971, P 10.

(2) Jay (M) : "L'imagination dialectique", op. cit, P. 61.

«إذا كنا نقول بأنه بالأنوار وبالتقـدم الثقافي نريد تحرير الانسان من الاعتقاد الخرافي في قوى شريرة، وفي شياطين وحكايـات خارقة، وفي القدر الأعمى، أي بإيجاز تحريره من كل خوف، فإن ذلك يقتضي إدانـة ما تم الاجماع على تسميتـه بالعقل. وهذه أكبر خـدمة يمكن للعقل أن يقدمها»[1]

تحريـر الإنسان من السحـر، نقد العقل بـواسطة العقل. لا شك أن الأمـر يتعلق بمطلب أنواري. ذلك أن فلسفـة الأنوار جعلت من العقل أداة جوهريـة لممارسة النقد من أجل الخروج بالانسان الاوربي من حـالته السلبية والدفع بـه لكي يمارس حريته ويعبر عن إرادته في المعرفة وعلى اتخاذ المبادرة.

إن القرن الثامن عشر الاوربي عرف بـ «قرن النقد»[2] وهذا النقد ارتبط بحركة دينية وفلسفية شاملة ابتدأت «في انجلترا وفرنسـا بتكسير الشكل الساقط للمعرفة الفلسفية، أي شكل النسق الميتافيزيقي»[3] وكذلك بـرفع شعار محاربة اللاهـوت والخرافات التي تكبل تفكير الانسان الاوربي وتقيد عقله، ونادت هذه الفلسفـة بإعطاء الحرية للعقل، وبالقيام بنقد شامل لكل الأشيـاء والظواهر والمؤسسات والمفاهيم وبإخضاع كل هـذه الموضوعات لمحك العقل، وبالتالي الخروج بأوروبا من ظـلام الجمود والظلم والأساطير إلى أنوار العقل والحرية والتقدم.

غير أن فلسفــة الأنـوار لم تكتف بــالايمان بقــدرة العقل على اختراق الحدود التي فـرضتها عليـه الميتافيـزيقا والمؤسسـة الكنسيـة، ولم تعز مهمـة النقد لهذا العقل. بصـورة عشوائيـة، بل «إن الحركة العميقة والمجهـود الرئيسي لفلسفة الأنوار لا يقتصر على مـواكبة الحيــاة وتأملهـا في مـرآة التفكير فحسب، بل إنها تعتقــــد، على العكس من ذلك، في التلقـائية الأصيلة للفكـر. وبعيد عن تحديـد مهمة الفكـر على التعليق والتفسير. . فإنها تعترف له بقدرته ودوره في تنظيم الحياة»[4]

ومن المعروف في تاريخ الأفكار الفلسفية أن فلسفـة الأنوار الفرنسية أثرت، بشكل كبير، على التوجيه النظري لبعض كبار الفـلاسفة الألمان، وعلى وجه الخصوص. ذلك أن كانط بني مشروعه الفلسفي والنظري على مفهوم النقـد، سواء في فلسفته الترنسندنتالية أو

(1) Horkheimer (M) : "Eclipse de la raison", op. cit, P. 193.
(2) Cassirer (E) : La philosophie des lumières", Paris, Ed, Fayard, 1932, P.275.
(3) Ibid, P.P.33
(4) Ibid, P. 34.

في فلسفته للتاريخ، أما هيغل فإن النقد عنـده يبدو في شكل سلب جدلي يتجاوز الموجود باستمرار. فكانط يـرى أنه «يتعين على كل شيء أن يخضع لمحك النقد»[1] والخاصية الأولى التي نسبها كـانط للنقد هو اعتبـاره له «محكمة» تضبط شروط المعـرفة وتقرر حـدودها من خلال وضع مقاييس تحتكم إليها العمليات المعرفية، ومن ثم يتحوله إلى «سلطة تشريعية» تمثل إنتـاجات العقل أمـام محكمتـه الخاصة حيث يعترف لـه بحقـوقه أو تـدان ادعاءاتـه المثالية.

إن كانط قد أحدث تغييرا أساسيا في طـرق التفكير حين أدمج مفهوم النقد وقام بـ «ثورة كوبيرنيكية» في حقل الفلسفة. غير ان هيغل استطاع أن يجمع في نسق فلسفي واحد كل الجوانب الايجابية في الفلسفات السـابقة عليه. إذ ورث عن كانط نقديته ومبـدأ المعرفة باعتبـارها نشاطا ابـداعيا، وأخذ عن «فختـه» بنية جدله وأهميـة السلب في عملية تحريك المعرفـة، واستمد من «شيلنغ» الموضوعيـة التاريخية للمعرفـة وميله لما هو ملمـوس ورفضه «للشيء في ذاته».

إن العقل عنـد هيغل هو الفكـر الجدلي، أي «المحو المطلق لعـالم الرأي المشترك»، والمهمة الأساسيـة للتاريخ تتمثل في البحث عن العقل وفيه، لأن الـدولة تجل سام للعقل الانسـاني وتجسيد لـه. بل إن هيغل يؤكـد على أنـه «يتعين على العقل أن يحكم العالم لأنـه «سيد العالم» كما قال «أناكساغوراس» ومفكرو الأنوار من بعده. وفي هذا السياق ربط بين تصوره هـذا للعقل بين الثورة الفرنسيـة التي رأى فيها انتقـالا تم في حياة الانسان الفكـرية والعملية، وذلك بتحـوله من الخضوع غير النقدي للـواقع السائد إلى الاعتماد على العقل. إن الثورة الفرنسية، في نظـره، جسدت أول نشاط للعقل العملي المبني على مقاييس العقل والحرية، كما أنها أنتجت قيما سلبية ذات مضامين نقدية أدت بشعب بأكمله إلى اكتشـاف الحقيقـة. إن الدولـة عنـد هيغل هي التحقق الفعلي للحـريـة وللعقل، أو هي «تحقيق للفلسفـة» أو إذا أردنا، هي الـروح بالفعل»[2] لأنـه ليست هنـاك أية طبقـة تحمل معهـا المصلحة والعقلانيـة، أما الدولة فهي تمثل الضبط الواعي والعقلي للتنـاقضات الاجتماعية وتحتل مكانا يتعالى على حرب المصالح الخاصة.

---

(1) Kant (E) : "Critique de la Raison pure, Paris, Ed, PUF, 1944; P. 6.
(2) Chatelet (F) : "L'histoire de la philosophie", T 5; Paris; Ed; Hachette, 1973, P. 212.

كيف يمكن لفكر يدعو إلى التحرر من خلال النقد أن يقبل نتائج الفلسفة الهيغلية؟ وهل فلسفة القرن الثامن عشر، بوصفها فلسفة تنوير وعقلانية ساهمت في تحرير الانسان الغربي أم خلقت وسائل جديدة لاستعباده ؟

إننا لاحظنا أن أصحاب النظرية النقدية لا يريدون التضحية بالفلسفة أمام هجوم النزعة الوضعية، بل انطلقوا من ضرورة نقدها ومحاسبة مفاهيمها. ولم يقبلوا التخلي عن السؤال أمام أنساق الأجوبة الجاهزة، لهذا انتقدوا الوضعية وعملوا على تفكيك مكونات النسق الفلسفي، ولا سيما الهيغلي.

إن فلاسفة النظرية النقدية يبتدؤون تفكيرهم في مسألة العقل والعقلانية من ملاحظة أساسية وهي : أن الأنوار التي كان هدفها يتمثل في تحرير الانسان انقلبت إلى ضد ذلك تماما. إذ كرست العبودية القديمة للانسان، وإذا كان تابعا للطبيعة في السابق، فانه تابع اليوم، للمجتمع، واستمرت بالتالي علاقات القوى المبنية على الخضوع والتفاوت وإقصاء الحرية.

إن نتائج الأنوار في الزمن الحديث أدت إلى ما أسماه هوركهايمر بـ «اختفاء العقل» (وهو أحد عناوين كتبه) أو انسحابه من التفكير السلبي، لأن الأنوار حتى وإن ادعت تحرير الانسان من عبودية الخوف والأساطير وأدخلت العقل كأداة حاسمة في التعامل مع الأشياء والعلاقات والطبيعة والتاريخ، فإنها، في نهاية المطاف، استسلمت لأساطير من نوع جديد. ذلك أن الفشل الأكبر لحركة الأنوار لا يتجلى في عجزها عن خلق الشروط الاجتماعية التي تسعف الأشياء والكلمات على التوحد والتطابق بقدر ما يتمثل في الاقصاء المنهجي للسلب من داخل اللغة والعقل. واذا وصل الفكر إلى مستوى العجز عن التعبير عن السلب والنقد فإنه لا يمكن ترجمة إرادة تحرير المستضعفين أو تحرير الناس من مختلف أشكال عبوديتهم. فبدل أن تكشف عن الدلالات وتفجر عناصر السلب أصبحت اللغة مجرد أداة في يد قوى السيطرة؛ إن «العقل يتعامل مع الأشياء كما يتعامل الدكتاتور مع الناس : إنه يعرفهم حين يكون بمستطاعه التلاعب بهم»[1] هذه الملاحظة أدت بفلاسفة النظرية النقدية إلى القيام بتأريخ نقدي جدلي للعقل الأنواري[2] ذلك أن كل انتاجات

(1) Horkheimer (M), Adorno (T) ; "La dialectique de la Raison", op. cit. P. 27.

(2) إن الأنوار عند فلاسفة النظرية النقدية لا تنطلق أو تقتصر على فلاسفة القرن الثامن عشر، لأن نعت الأوفكلارونغ Aufklarung عندهم يفيد كل فكر تقدمي أو «فكر متقدم» أو يسعى إلى تحرير وتقدم المؤسسات والعلاقات.

العقل لها تاريخ، سواء تعلق الأمر بما هو نظري أو فلسفي أو علمي. ثم إن للعقل نفسه تاريخه الخصوصي حين ينقسم ويزدوج على ذاته، إلى «عقل موضوعي» يعمل على رصد نظام العالم داخل نسق له غائية محددة بالتالي ينطوي على حقيقة يحملها للعالم والناس والعلاقات، وإلى «عقل ذاتي» يخدم تطلعات الذات منذ عصر النهضة، باعتبار أن الفرد يسعى إلى الاحتفاظ بذاته، والعقل يوفر له شروط هذه المحافظة وإمكانيات تحقيق أهدافه الخاصة. وهكذا يسود منطق المنفعة وما هو قابل للاستعمال وتتعرى المفاهيم من كثافتها الوجودية وتتحول إلى مجرد عناصر داخل سلسلة من العمليات الرمزية. ينتج عن كل هذا أن العقل يفقد دوره كوسيلة للمعرفة ليصير مجرد أداة للتغيير خاضعة لما تقتضيه ظروف التوازن والنظام. بذلك ينخرط العقل في سيرورة الانتاج ويصبح الفكر خاضعا لمعايير الصناعة، أي أن الفهم يخضع للفعالية، وتتحول اللغة إلى شعار: «وكل فكر ينظر إليه باعتباره فعلا، وكل تفكير أطروحة، وكل أطروحة تغدو كلمة أمر»[1] إن هذه الحالة يسميها فلاسفة النظرية النقدية بـ«عقلانية اللاعقلانية» التي تستهدف، بشكل أساسي، في نظرهم، فرض سيطرة الإنسان على الطبيعة وتأسيس نظام اجتماعي وسياسي يخضع الانسان إلى سيطرته. وهكذا فالمعرفة تغدو سلطة لا تعرف حدودا لا في العبودية التي تفرض على الكائن ولا في مجاملة مالكي وسائل السيطرة. والمعرفة هنا ذات جوهر تقني بحيث لا تتغيى خلق مفاهيم وصور، أو توفير متعة السعادة في المعرفة بقدر ما تروم استغلال عمل الآخرين وتنشيط الرأسمال.

إن العقلانية التقنية هي عقلانية السيطرة ذاتها. لأنه «بقدر ما تنمو المعرفة التقنية، بقدر ما يرى الانسان أن آفاق تفكيره تتقلص وينقص نشاطه واستقلاله الذاتي بوصفه فردا، وقدرته على مقاومة تقنيات التلاعب الجماهيرية الكاسحة، وقدرته على التخيل والحكم المستقل. إن إتقان الوسائل التقنية لنشر الأنوار تتساوق مع عملية نزع الصفة الانسانية عن الانسان. ذلك أن التقدم يهدد بإعدام الهدف الذي يتوجه إليه مبدئيا ألا وهو فكرة الانسان»[2] إن العقل مع الأنوار يصبح «عقلا توتاليتاريا»[3]، والعقلنة المتطورة دوما كما تفهم وتمارس في الحضارة الغربية تنزع نحو جوهر العقل نفسه.

---

(1) Horkheimer (M) : "Eclipse de la Raison", op. cit. P. 32.

(2) Ibid ; P. 10.

(3) Horkheimer (M), Adorno (T) : "La dialectique de la Raison" op. cit, P. 24.

وهذه هي مفارقة العقلانية الحديثة. العقل الأنواري يستهدف إخراج الانسان «من الحجر الذي فرضه على نفسه» كما يقول كانط، أي تحريره من الأساطير والمسبقات الغيبية والخرافية، وإدخاله إلى مجال المبادرة والفعل الحر لإسعاده وخلق ما يمكن من الشروط التي تساعده على تفجير طاقاته وتحقيق رغباته. في هذه الصيرورة يتحول العقل إلى أداة لاستعباد الإنسان وضبط تحركه والتحكم في جسده سياسيا واجتماعيا. وتتحول عقلانية العقل إلى «لا عقلانيته» لأنه يفرز بربرية جديدة أساسها المعرفة التقنية التي تصير «عقلانية سياسية» [1] تحد من فردانية الفرد وتضبط سلوكه ورغباته.

إن السلطة، في زمن الحداثة والعقلانية، في حاجة دائما إلى نظام لضبط مفاصل المجتمع وخلق التوازن الضروري فيه. والمعرفة هي التي تزودها ـ أي السلطة ـ بما يحتاجه النظام من عناصر للتحكم في الأشياء والأجساد. ولهذا السبب فإن العقل العلمي أو السياسي يصبح «عقلا أداتيا» Raison instrumentale وكل فكر غير غائي يغدو فكرا بدون أهمية ولا معنى. والعقل الأذاتي لا يقبل أن يخرج فكر ما عن النشاط العيني الذي يمكن أن يتكفل به. والخروج عن هذا الاطار معناه الخروج عن الواقع. في حين أن «الواقع له الكلمة الأخيرة حين تكتفي المعرفة بتكراره. إن التفكير يختزل إلى توتولوجيا. بقدر ما تخضع الآلة الثقافية لما هو موجود، بقدر ما تكتفي بإعادة انتاجه بطريقة عمياء. هكذا يلتقي العقل بالميتولوجيا التي لم يعرف أبدا كيف يتحرر منها» [2]

يتحالف العقل والسلطة والنظام والواقع بشكل عضوي لمحاصرة الفرد والجماعة. وهذا التحالف تمت ترجمته في نسقين يختلفان في الأسلوب ولكنهما يلتقيان في الهدف. وهما الوضعية والهيغلية. وكلاهما يعبران عن شكل «بليد» ومشوه للعقل، الأول في ما سمي بـ «العقل الأداتي» للعلم والتقنية، والثاني بـ «العقل الموضوعي» للعقلانية.

لذلك يتبرم فلاسفة النظرية النقدية من الوضعية والهيغلية. فتوتاليتارية العقل الملتصق بسلطة الدولة الحديثة، والارتباط الساذج بالمعطى، حتى ولو رفع شعار العلم، لا يساعدان، تماما على تحرير الفرد ولا على تخليصه من الاستلاب الذي رمته فيه الثقافة الجماهيرية الحديثة. أي أن المجتمع الصناعي أفرز مظهرا من مظاهره ينعته ماركوز بـ «الطابع العقلاني للاعقلانيته» [3]

(1) Marcuse (H) : "L'Homme unidimensionnel", Paris, Ed de Minuit, 1968, P. 22.
(2) Horkheimer (M), Adorno (T) : "La dialectique de la Raison" op. cit. P.43.
(3) Marcuse (H) : "L'Homme unidimensionnel", op.cit, P. 34.

إن نتيجـة هـذا التحليل هـو أن الانسـان الغـربي، بسبب التطـور الأعمى للعقل الأنواري، فقد هـويته وأصبحت اللغة قادرة فقط على أن تلعب دور الأداة لتكـريس الأمر الواقع بـدل فعلها النافي. الأمر الـذي أدى إلى فقدان ذلك البعد «الداخلي» للفكـر الذي يسعف على الاعتراض. وضياع هـذا البعد الذي من خـلاله كان الفكر النقـدي يعثر على قوته النقـدية للعقل، يشكل، في حقيقة الأمر، المقـابل الايديولوجي للعمليـة المادية التي بواسطتهـا يقوم المجتمع الصنـاعي، بإسكـات وتحجيم الاعتراضات والاختـلافات. لأن التقدم التقني يعمل على إخضاع العقل إلى وقائع الحياة والاكتفاء بإعادة إنتاجها.

وبالرغـم من هذا النقد الجذري لعقلانيـة الأنوار ولما أفرزته من مظـاهر الحداثة في الزمن والمجتمع، وبالرغم من الاعتراض المنهجي والفلسفي على كل من الوضعية والهيغلية والماركسيـة في تعبيرها الاورتـودوكسي المؤسسـاتي، فإن فلاسفـة النظـرية النقـديـة يقولـون بعقلانية متفتحـة تستفيد من إيجابيات عقلانية الأنوار وتـرفض سلبياتها. إن العقل الذي تدعـو إليه النظريـة النقدية لا يختـزل فيما هو أداتي، بل هـو عقل خصوصي لأنه يـريد أن يعطي للتنـظيم الاجتماعي حقيقتـه العقلانيـة بالفعل وذلك بأنسنته، وتـوفير شروط المتعة والعدل والحرية. فالعقل، في هذه الحالة، ليس شكليا أو محايدا لأنه ينطوي على مضامين وعلى مهام، إضافة إلى أنه يدين، بإسمه الخاص بعض الممارسات ويحاكمها.

إن الأمر يتعلق، في العمق، باستئنـاف التفكير في مشروع العقلانية، دون السقوط في المثالية أو استبعاد عطاءات العلوم شريطة أن تكون عقلانية نسبية تعاند كل انزلاق نحو الدوغمائية أو الكليانية وذلك لأن العقل «أكثر كليانية من أي نسق كان»(1).

ففـلاسفة النظـرية النقـدية عملـوا على الكشف عن فظاعـات العقلنة في النظـام الاجتماعي ولكن منطلقين من أرضية العمل العقـلاني لأنهم يسلمون بأن العقلنة أصبحت «محايثة لتطـور البشرية»، غير أنها استعبادية أكثـر مما هي تحررية بسبب كونها أفـرزت عالما صارمـا في ضبطه الاداري يلغي الاختلافـات ويستبعد مـا هو خاص وينـزع عن الفرد كل دلالة.

إن نقد العقل الأنـواري وكشف المظاهر البربـرية للعقلانيـة وإدانة سيطرة الـدولة الحديثة في أشكـالها القهرية، فعل ضروري لإعـادة تنشيط السلب في الفكر وتجديـد القوة

(1) Horkheimer (M), Adorno (T) : "La dialectique de la Raison", op.cit, P.42.

النقدية للفلسفة. وهـذا الفعل، في نظر أصحاب النظرية النقديـة لا يمكن أن يقوم به إلا الفـرد الناقـد الـذي يختـزن تراث الفكـر السلبي ويقـدر على الاحتياط مـن هيمنة فلسفـة الذات.

4_الفرد بين وهم العزلة واستلاب الثقافة

هل استنفذ العقـل الأنواري كل طاقـاته الابـداعية بتأسيس عقـلانية أداتيـة تقنية تستعبد الانسان وتحد مـن تحركات جسده وتضبط تعبيرات رغباته؟ وهـل النقد الموجه لهذا العقل هو نقد من النـوع الكانطي، الذي يجزىء مستويات النقـد ويقر بالايجابي والسلبي في انتـاجات العقل، أم أنـه نقـد محايث لعمل العقل لا يكف عن تنبيهـه وتبيـان عثراتـه وثغراتـه وتجاوزاته ؟ ثـم ألا يتعلق الأمر، عنـد أصحاب النظـرية النقديـة بتجديـد للعقل الأنواري وإدخال مقومات السلب في نشاطه حتى يستأنف زخمه النقدي وقدرته على تحرير الفرد من ذاته المكبلة بمختلف أنواع الأساطير التي أنتجتها الحداثة ؟

إن فلاسفـة النظرية النقديـة في عملية نقدهم للمجتمع الحديث وللعقـلانية التي أسسته، يتفقون، كلهم، على أن أزمة العقل تتجلى، بشكل صارخ، في أزمة الفرد. وأمام هذه الأزمة المزدوجة تنفضح أوهام الفلسفة التقليدية بخصوص الذات وحرية الفرد، ذلك أن هذه الفلسفة، منـذ ديكارت، كـانت تنـظر إلى العقل باعتـباره أداة في متـناول الأنـا. أمـا الآن فإن هـذا «التأليه للذات» كما يقول هوركهايمر، لم يعـد ممكنا لأنه في الوقت الذي يريد فيه العقل الوصول إلى الاكتمال يصير لاعقلانيا، بل و «متبلدا».

فمشكلة الزمن الحديث هي المحافظة عن الذات في الوقت الذي لم تبق هناك ذات للمحافظة عليهـا. واعتبارا لهذا الواقع يتعين التساؤل عن مـوقع الفرد في المجتمع الحديث واستقصاء طبيعة انشطاره الوجودي الذي ولدته مفعولات الحداثة والعقلانية.

إن النظرية النقدية بقدر ما انصب اهتمامها على نقد العقل الأنواري وعلى كل نزوع كلياني وعلى الاتجاه الـوضعي والنسق الهيغلي (والماركسي أيضـا) بقدر مـا كان سـؤال الفرد يشغل أغلب فلاسفتها، ذلك أن الفكـر الفلسفي الذي أنتجه مفكرو هـذه النظرية تعبره أزمة الفرد من كل جانب بكل ما يستتبع ذلك من قيم ثقافية جديدة أفرزتها الحداثة ووفرتها مغامرات النظام الليبرالي.

وليس غريبا أن يهتم المؤسسون الأوائل للنظريـة النقدية من خلال «معهد البحوث الاجتماعية» منذ 1924 بموضوع العائلة وسلطة الأب وموقع الفرد في المجتمع الحديث. فقد لاحظوا أن تراجع دور الأب وتفكك العائلة كان من نتائجه انهيار مؤسسة العائلة التي وإن كـانت تقمع الفـرد فإنها، مع ذلـك، كـانت تحافظ وتكـرس أهم مـا كـان يـوفـر شروط «التشخص» Individuation لأن الفرد، عند أصحاب النظرية النقدية، لا يقصد به وجود عنصر بشري متموضع في المكان والـزمان بل «إنه الوعي بخصـوصية فردانية باعتبـاره كائنا بشريا ومتعرفا على هويته الخاصة»[1] فالفـرد لا يعني وجود كـائن منعزل عن إيقـاع الزمن وعن تفاعلات الجماعة لأن «الفردانية تضعف في الوقت الذي يقرر فيه الانسان أن يتصرف لوحده»[2] فالفرد المنعزل، بشكل تـام، ليس إلا وهما، لأن القيم الشخصية الأكثر اعتبارا مثل الاستقلال وإرادة الفعل الحر والعـدل. . الخ كلها فضائل اجتماعية وفـردية في نفس الوقت. لذلك «فإن الفرد التام التطور هو التجسيد المكتمل للمجتمع التام التطور»[3].

ويبدو أن الهم الأساسي الذي سيطر على أصحاب النظـرية النقدية أثناء تحليلاتهم لمسألة الفــرد يتمثل في إنقاد الخـــصوصية الفـردية، أي الطبيعة «الداخــلية» للـفرد، من السيـطرة المجردة للمفهوم «والتجريدات الأسطوريـة مثل الكلية الهيغلية، وماهية هوسرل ووجودية هـايدغر، بدون المساهمة في تذويـب الفردانية في الصوفية اللاعقـلانية، المستغلة من طرف الفاشية»[4].

فكل فكر يتجاهل خصوصية واختلاف الفـرد لن يتمكن من اكتناه التوتر الانساني فيه وإهمال هذا البعد في الفرد أدى بفلاسفة النظـرية النقدية، إلى الجمع بين ما هو خاص وما هـو كوني في الفـرد، ومن ثم إلى الاحتجـاج على كـل الفلسفـات التي ضحت بما هـو خاص في الفرد لحساب كلية النسق كما هو الشأن عند هيغل أو من أجل علم «موضوعي» كما يقول الوضعيون، أو خضوعا للسيرورة التاريخية كما هو الأمر عند الماركسية.

ولأن النظريـة النقديـة ترى أن إرادة النسق مكون مـن مكونات النظـرية التقليـدية ولأنها تروم التخلص من توتـاليتارية العقل ومن إنتاجات الحداثـة ذات التجليات المرعبة، فان النظرية النقدية تستهدف تفكيك ادعاءات كل الانساق، والمتمثلة أساسا في الاكتمال والانغلاق وادعـاء الامتلاك التـام للحقيقة المطلقـة. لذلـك أكدت على تجاوز العقـلانية

---

(1) Horkheimer (M) : "Eclipse de la Raison", op.cit. p.137.
(2) et (3) Ibid ; P. 144.
(4) Zima (P) : "L'Ecole de Francfort", Paris, Ed. Universitaires, 1974, P. 27.

المثاليـة، كما رأينا سـابقا، واستثمار القيمة التحـررية للعقل بـدل الانخراط فيما يضيق من حريـة الفرد ويقيد تحركه. فـالكلية وهم وكذب. والحقيقة لا تكمن في الممارسـة الجماعية، سـواء في فهمهـا الهيغلي أو الماركسي، وإنما في تنـاقضـات وثغـرات النسـق التي لا يقـوم بالكشف عنهـا الا «الفرد الناقد» الـذي يفجر أسئلته من جـراء المعاناة التي يفرضهـا عليه النظام الكليـاني. فأدورنو يعتبر انه بخلق المسـافة الضرورية إزاء الممارسـة يتمكن الفرد من القيـام بفعل التفكير الذي يحتـاجه الفكـر التغييري. لأنـه من داخل المعانـاة ومن داخل الوعي بخطـر الانسحاق تنبثق شرارة النقد، وليس من داخل النسق الـذي يكتفي بتقديم أجوبة جاهزة.

إن الانسان، من أجل ضمان شروط عيشه واستمـرار وجوده، يبحث عن السيطرة على الطبيعة. وهذه السيطرة تتم اعتمادا على قوانين يفرضها على نفسه وعلى الآخرين. ومع ذلك بفرضـه هذه القوانين فإن الانسان يتـوهم أنه سيد الطبيعة ولكنـه يصير عبدا لها، في حقيقة الأمـر، وقد عمل فلاسفـة النظريـة النقدية ولا سيما هـوركهايمر وأدورنـو في كتابهما المشترك «جدل العقل» على القيام بتاريخ لاصول هذا الانسـان بوصفه سيدا لاعقلانيا على الطبيعة. فـالتصالح بين الـذات وبين الواقع الموضـوعي، كما هو الشأن عنـد هيغل، هو الوهم الأسمى للمثالية في حين أن الجدل هو، في العمق، الوعي الصارم باللاهوية.

وما دام فـلاسفة النظـرية النقديـة يربطون، بقـوة، بين أزمة العقل وأزمـة الفرد في المجتمع الحديث فإنهم، أيضا يؤكدون على التلازم العضوي بين انحطاط العقل وانحطاط الفرد. ذلك أن تصفيـة الفرد، أولا من طرف الفـاشية، ثم من طـرف الرأسمالية المتقـدمة أدت، من منطلق معاناة خصوصية[1]، بفلاسفة مدرسة فـرانكفورت إلى القول بأن الدولة الكليانية هي نتاج التنظيم اللاعقلاني للمجتمع الرأسمالي وبأن الشر الاجتماعي يتماهى مع السيطرة.

كيف يذوب اختلاف الفرد داخل آليات العقلانية التقنية وضمن العلاقات العامة التي نسجتها مقاييس الحداثة؟ كيف تتم ترجمة مبدئي الرغبة والواقع في المجتمع الصناعي المتقدم؟

(1) إن الوعي بـالفجيعة لدى النخبـة اليهودية الالمانيـة بسبب انتصار النـازية واندمـاج العمال في النظام الرأسمالي وتـراجع القيمة الوجـودية للفـرد الليبرالي أدى بعناصرهـا إلى تأسيس معهد لتحليل تحولات المجتمع الحديـث. ويلاحظ «بيير زيما» في كتـابه الآنف الذكر، أن فلاسفة النظرية النقدية كانوا معنيين بهذه الظواهر «باعتبارهم أفراد ليبراليين وبوصفهم يهودا» (ص 21).

إن هوركهايمر، ولا سيما ماركوز (وكـذلك ايريك فروم وارنست بلوخ في مستويات أخرى) قدموا تحليلا متعدد المنطلقات للمجتمع الصناعي المتقدم ولأساسه الايديولوجي، بهدف الكشف عن الآليات الـواعية واللاواعيـة التي تتحكم في الفرد وفي الجماعـة، أو ما يسميه ماركوز بالانسان ذي البعد الواحد «المتحرك» داخل «المجتمع المغلق».

ويلاحظ مـاركوز أنه حصل دمج لكـل القوى والمصالح الاعتراضيـة داخل النظام والتي كانـت لا تكف عن احتجاجها في الفترات السـابقة للـرأسمالية. كما ان هـذا النظام عمل على تنظيم وتعبئة الغرائز والرغبات الانسـانية بشكل منهجي، الأمر الذي جعل من العناصر التفجيريـة واللااجتماعية لـلاوعي قابلـة للتوجيه ولـلاستعمال. كل هذا أدى إلى التحكم في قوة السلب لدى الفرد الذي صار عـامل انسجام وتوافق وتأكيد. بل إن إعادة إنتـاج «القمع من طـرف الافـراد والطبقات» في نظـر مـاركـوز، أصبحت تتم بـدون أدنى مقاومة، وعملية الدمج تحصل بدون ضغط واضح «فالديمقراطية تكرس السيطرة، بقوة، أكثر من الحكم المطلق»[1].

ومن هذا المنطلق يعتبر فلاسفة النظرية النقـدية أن الفكر السلبي بقدر ما تستدعيه تحولات الحداثة ووضعية الفرد في المجتمع المعقلن، بقدر ما يواجه مشاكل نظرية وسياسية عديـدة. فالمجتمع الصنـاعي «الـديمقراطي» يحرم النقـد من قاعـدته الحقيقيـة، في نظر ماركـوز، لأن «التقدم التقني يقوي نظامـا بأكمله من السيطرة والتنسيق، الـذي، بدوره، يـديـر التقـدم ويخلق أشكـالا من الحيـاة (ومن السلطـة) تبـدو وكأنها تتـوافق مع القـوى المعارضـة. ومن ثم ينتج الانطباع أن كل احتجاج يغدو بـدون جدوى»[2]. وبالتالي ففي كل مرة تغيب عوامـل التغيير الاجتماعي، يرتمي النقد في التجريد، بل أكثـر من ذلك فإنه في «المجتمع الصناعي الـذي يمارس سياسة دمجيـة متنامية تصير مقولات النقـد عبارة عن صيغ وصفية، مخيبة للآمال وإجرائية[3].

إن المجتمع الصنـاعي المتقدم خلق أشكـالا جـديدة من المراقبـة والضبط وأصبح بالتالي مجتمعا «ذا بعد واحد» في تصور ماركوز، فالرفاهية، والفعالية والعقل ونقص الحرية داخل إطار ديمقراطي، هذا ما يميز الحضارة الصناعية المتقدمة ويشهد على التقدم التقني «ليس هنـاك أكثر عقـلانية من إلغـاء الفردانية وذلـك بمكننة الأعمال الضروريـة اجتماعيا ولكنها أكثر قساوة»[4].

(1) Marcuse (H) : "L'Homme unidimensionnel", op.cit, P. 7.
(2) et (3) Ibid ; P. 20.
(4) Ibid ; P. 27.

إذا كانت فلسفة الأنوار تجمع بين الحرية والعقلانية والعدالة وتعتبر أن النظام الديمقراطي كل متجانس، فإن ماركوز يرى أن العقلانية، في المجتمع الصناعي، تهمش الحرية وتقزم الفرد، ومن تم فالحرية، بمعناها الليبرالي، باعتبارها تجليا لإرادة ومبادرة الفرد لم تعد مع النظام السياسي الذي شيدته العقلانية التقنية حرية فعلية ما دام النظام مؤسسا على الضبط والمراقبة، وبالتالي فإن ما يسمى بـ «استقلالية الفرد» أصبحت من قبيل الوهم والخيال.

فالنمط الحضاري للمجتمع الصناعي أنتج ثقافة خاصة تتخذ أشكالا ديمقراطية، وتعبر عن رموزها في قوالب وصيغ «جماهيرية» ولكنها في نظر ماركوز لا تستجيب في عمقها، للنزوع الديمقراطي للفرد ولا للمضمون الجماعي للثقافة «أن تكون لنا حرية فردية يجب أن يعني ذلك تجديد ما للفكر الفرداني الغارق، حاليا، في التواصل الجماهيري»[1].

إن فلاسفة النظرية النقدية بعدما شاهدوه من انحطاط للقيم الفردية داخل المجتمع الصناعي المتقدم، ومن انسحاب لحق الفرد في الاختلاف داخل النظام الفاشستي أولا؛ وفي تراتبيات النظام السياسي «المغلق» للمجتمع الصناعي ثانيا؛ حاولوا إعمال العقل لإعادة الاعتبار للفرد ولتنشيط الفكر النقدي. وانطلاقا من هذا الاهتمام عملوا على اعادة قراءة النص الفرويدي على ضوء تحولات المجتمع الصناعي متسائلين عن دلالات الرغبة والتصعيد اللاشعوري وموقع الجنس في آليات الاغراء الحديثة وعلاقتها بالعملية الانتاجية وعن المعاني الجديدة التي يتخذها الحب.

ويعتبر ماركوز في مقدمة كتابه «إيروس والحضارة» أنه بسبب الأوضاع الجديدة التي يعيش فيها الانسان الحديث فإن استعمال المقولات النفسية أصبح ضروريا لأنها صارت «مقولات سياسية» وبالتالي فإن «الحدود التقليدية بين علم النفس والفلسفة الاجتماعية والسياسية أصبحت لاغية»[2]. فالعمليات النفسية التي كانت، في الماضي خاصة ومستقلة تم امتصاصها من خلال دور الفرد في الدولة وبسبب وجوده العمومي. لذلك إذا كان الفرد يفتقد إلى الوسائل والامكانيات التي توفر له شروط الوجود الذاتي فان مصطلحات علم النفس تصبح مصطلحات تلك القوى الاجتماعية التي تحدد أبعاد النفس. ومن تم يتعين تطوير المضامين السوسيولوجية، والسياسية للمقولات النفسية.

(1) Ibid, P.30.

(2) Marcuse (H) : "Eros et civilisation" , Paris, Ed de Minuit ; 1986, P. 9.

تثوير المفاهيم النفسية من أجل فهم الانسان داخل المجتمع الحديث للاسهام فيما اسماه ماركوز بـ «فلسفة التحليل النفسي» وليس «التحليل النفسي»، لأن فرويد طور «نظرية» للانسان مكنته من احتلال موقع محترم في التراث الفلسفي. تثوير مفاهيم التحليل النفسي إذن، عملية ضرورية لاسناد النظرية النقدية، نظريا، من أجل الكشف عن الآليات المختلفة التي تتحكم في جسد وحرية الفرد في الزمن الحديث.

فمبدأ الواقع مدد سلطته على مبدإ الرغبة. والعقل تنازل أمام الارادة اللاعقلانية. وما دام الامر كذلك فإن مصير الفرد لا ينفصل اطلاقا عن مصير العقل. وحينما تتماهى السلطة مع المعرفة وتغدو هذه الأخيرة أداة للسيطرة فإن الفرد، بدوره، يصبح مجرد وسيلة لاستمرار توازن النظام وضمان مردودية العمل.

وأبرز مثال على غياب العقل وانسحاب الفرد وتلازم السلطة والمعرفة يتجلى بما يسمى بـ «الثقافة الجماهيرية» وتحليل آليات هذه الثقافة يفضي إلى الملاحظة بأن كل شيء قابل للتلاعب به وتوجيهه حسب مخططات «فرق الانتاج» التي تجعل من رغبات الناس مادة أولية في يد رجال الاشهار. فالحياة الجنسية، مثلا، التي تبدو متحررة ظاهريا، هي، في واقع الأمر، منظمة من طرف المصالح الكبرى ومستغلة وموزعة في سوق التبادل العام. وهذا التنظيم للجنس في المجتمع الصناعي المتقدم يحول الآلة الوجودية للجنس ويغير من المعنى الانساني للرغبة الشبقية. ففي الوقت الذي يرفع فيه الطابع الجنسي، وتقصى الموانع التي تحول دون تحقيق الرغبة فإن الحب يفقد أساسه الحقيقي.

يتعلق الأمر عند أصحاب النظرية النقدية بعملية دمج للرغبة في آليات التبادل الجسدي والرمزي داخل المجتمع الصناعي الحديث. والرغبة هنا لا تمس ما هو جنسي فحسب، لأن الايروس بوصفه عشقا لما هو جميل وحبا للفكر، يشكل المصدر الأساسي للنقد وللحلم المتطلع إلى الاختلاف. وهذا ما يتناقض مع واقع الحال.

ويظهر أن الحداثة التقنية لم تكتف بانتزاع المقومات الوجودية للفرد سواء تعلق الأمر بعقله وبحريته أو برغبته وبميولات جسده، بل إنها توظف تعبيرات هذه العناصر لكي ينسلخ أكثر عن ذاته ويرتمي كلية في الاقتصاد الثقافي ذي الامتداد الجماهيري. ذلك أنه «داخل الصناعة الثقافية لا يكون الفرد مجرد وهم بسبب تقنين وسائل الانتاج وإنما لا يسمح له بالوجود إلا إذا تماهى كلية مع العام»[1].

(1) Horkheimer (M), Adorno (T) : "La dialectique de la Raison", op. cit, P. L63.

من هنا ضرورة نـزع الطابع الأسطوري عـن التقدم العلمي وعن الحداثة . فـالتقنية أصبحت تقوم بـدور ايديـولوجي بـالغ التأثير والقوة . وبقـدر ما تمثل إنتـاجية تتحكم في أشياء الطبيعـة ، بقدر ما تقـوم بوظيـفة إيديولـوجية تكـرس الانفـصال الوجــودي بيـن الفرد وذاته والتواصل المشـوه بين الأفراد. هذا ما أدى بفلاسفة النظـرية النقدية إلى القول بأن التلازم العضوي بين العقل والعلم ينتج أدوات تعمل على تسييج حرية الفـرد وممارسة السيطرة عليه أكثر مما تساهم في تحرره.

كل شيء في المجتمع الصنـاعي المتقـدم يـرتد إلى «شكلـه السـوقي»، لأن وسـائل الاتصـال الجماهيريـة تخلط ، وبشكل «منسجم» كما يقـول ماركـوز، بين الفن والسيـاسـة والـدين والفلسفة والتجـارة ، ولا شيء يحسب له الا قيم التبـادل . فحتى الحقيقة لا قيمـة لها . ذلك «أن عقلانية الأمـر الواقع تتمركز في قيمة التبادل ، وكل عقـلانية أخرى يجب أن تتنازل لها عن ذلك»[1] بل إن ما يسمى «بالثقافة العليـا» أي ثقافة النخبة لم تتحول فقط إلى ثقـافة جماهيريـة ، لأن الواقع الجديـد الذي أنتجتـه الحداثة التقنيـة أصبح يطعن حتى في مصداقية هذه الثقافة . فالواقع يتجاوز الثقـافة وهذا الواقع يفرز عناصر وعي شقي جديد أساسه نوع من «التصعيد القمعي» للنزوع الوجودي الفردي .

إن الحداثة التقنيـة بحكم استثمارها لميولات الفـرد العميقة في عملية إنتاجهـا لقيمة التبادل سـواء على صعيد التجـارة أو الثقافـة . وبسبب اختراق وسائل التـواصـل للمجال الخاص واحتواء تعبيراته ، ولـدت ـ أي هذه الحداثة التقنية ــ ما يسـميه ماركـوز بـ «الوعي السعيد» الذي يؤمن بأن الواقعي عقلي وبأن النظـام يلبي حاجات الإنسان ، الشيء الذي يفضي إلى بروز «امتثاليـة جديدة nouveau conformisme» تعبر عن نفسها مـن خلال «السلوك الاجتماعي المتأثر بالعقلانية التكنولوجية»[2]

إن هذا المجـال الحضاري والرمزي الـذي أنتجت الحداثة التقنية ، في نظر فـلاسفة النظريـة النقدية ، لا يسـاعد اطـلاقا على تحرر الفرد لأنـه يوهمه بالحريـة والديمقـراطية في الوقت الذي يـدمجه في آليات لا تنتج الا الشبيه . فلغة المجـال التواصلي المهيمن تسعى إلى التوحيـد وتوليد الفكـر الايجابي . لذلك تتبرم من كل المفـاهيم النقديـة ومن كل ما يسمح بإمكانية التعالي . إن هذه اللغـة تعبر عن نوع من «الخطاب المغلق» ومن الفكر «ذي البعد

(1) Marcuse (H) : "L'Homme unidimensionnel", op. cit, P. 82.
(2) Ibid ; P. 109.

الواحـد» الذي حول العقـلانية إلى نقيضها والحريـة إلى استبداد جـديد. يقول مـاركوز : «هنـاك ظاهـرتـان من القطـاعات الأكثـر تقـدما في المجتمع الصنـاعي : من جهـة تعبر العقـلانيـة عن نفسهـا داخل اتجاه ينحو الاكتمال التقنـي، ومن جهة ثـانيـة، تقـوم بكل المجهـودات الممكنة لضبط هـذا الاتجاه داخل مـؤسسات قـائمة. وهنـا يـوجد التنـاقض الداخلي لهذه الحضارة، أي في ذلك العنصر اللاعقلاني لعقلانيتها»[1]. وحينما يتم الوصول إلى هذه الدرجة فإن السيطرة تكتـسح كـل مجالات الوجـود الخـاص والعـام، وتدمج كل عنـاصر الاعتراض الفعليـة وتحتوي كل مقـومـات التفكير السلبي النـاقـد. فالعقـلانيـة التكنولوجية «تفصح عن طابعها السياسي في نفس الوقت الذي تصير فيه وسيلة للسيطرة، وذلك مجال كلياني حقيقي يكون فيه المجتمع والطبيعة، الروح والعقل في حالة تعبئة دائمة للدفاع عن هذا المجال»[2].

ماذا تبقى للنظـرية النقـدية أمـام هذا الانسداد؟ وكيف يمكـن للفكر السلبي أن يتحرك داخل نسق يجعل من وظائفه دمج كل اعتراض ومراقبة قنوات النقد ؟

5ـ بين الدمج والأفق الجمالي

يبدو، من خلال ما تقدم، أن فلاسفة النظرية النقدية في سياق ممارستهم للفلسفة ومحاكمتهم للعقلانيـة الأنوارية وللتعبيرات الثقافيـة للحداثة، وفي إطـار اهتمامهم المركزي بمسألة الفرد وعلاقتـه بذاته وبالآخر اضطروا ـ أي هؤلاء الفلاسفـة ـ كل حسب اهتماماته وتجربته الخاصة، إلى الاستناد إلى أهم العنـاصر النقدية في التراث الفلسفي الألماني، ابتداءا من كانط إلى هايدغر. وبالـرغم من أن هوركهايمر يعترف بأن «أهم فيلسوفين أثرا، بشكل حاسم، على بـدايات النظرية النقديـة كانا شوبنهـاور وماركس»[3] فإن مختلف نصـوص فلاسفة هذه النظرية تظهر التأثير العميق الذي مـارسته نصوص فلاسفة ومفكرين آخرين على مسار هـذه النظريـة. ذلك أن النقد الترنسندنتـالي الكانطي بقي حـاضرا في نصوص النظـرية النقـدية بـالرغم من إدمـاج النقد الماركسي في تنـاياهـا. الأمر الـذي أدى ببعض الباحثين إلى القول بأن النظرية النقدية، في حقيقـة أمرها، نظرية توفيقية تجمع بين كل من كانط وماركس[4].

(1) Ibid ; PP. 41-42.

(2) Ibid; P. 43.

(3) Horkheimer (M) : "Théorie critique", op. cit, P. 355.

(4) Assoun (P-L), Raulet (G) : "Marxisme et théorie critique", op. cit. PP. 7-8.

ومهما يكن من أمـر هجرة فـلاسفـة النظريـة النقـدية بين مختلف نصـوص التراث الفلسفي النقدي الألماني، فـانهم عملوا، في النهـاية، على تنشيط كل مـا يمكن أن يعضد النقـد في عملية احتجـاجه على الانهيـارات المختلفـة للعقل وللفرد في المجتمع الصنـاعي المتقـدم. فحتى مفهوم العقل الجدلي عنـد هيغل بالـرغم من النـزعة النسقيـة التي تسكن الفلسفة الهيغلية، حاول أدورنو تجريبه في شكلـه النقدي الأصلي باعتبار أن هيغل أكد على أن العقل يمكن أن يفكر ضد ذاته دون أن يضيع مكوناته الضابطة لعملياته.

وبـدون أن ندخل في استجـلاء طبيعـة حضور التراث الفلسفي النقـدي الألماني في الفلسفـة السلبيـة للنـظرية النقـديـة، سـواء تعلق الأمـر بكانط، بشـوبنهـاور، بماركس والهيغليين الشباب بماكس فيبر أو بنيشته، وكورش أو بهايدغر، نلاحظ أن النظرية النقدية في عملية نقدها للعقلانية التقنية ولموقع الفرد في ثقافة المجتمع الصناعي استلهمت بعض مفاهيم التحليل النفسي للكشف عن الآليات الـواعية واللاواعية في الحضـارة الحديثة وفي البناء النفسي والفكري للانسان المعاصر، وعمل فلاسفتها، لا سيما ماركوز وايريك فروم، على إدماج الفهم الفرويـدي للذات وللحضارة في سياق نقدهم للأسس القمعيـة للثقافة الحديثة، إلى جانب المفاهيم الفلسفية للماركسية.

فجـدل الحضـارة هو عبـارة عن تبـادل متـوتـر بين السيطرة والتحـرر. والحضـارة التكنـولوجيـة لا تسـاعد على تفتح الفـرد وتحرره بقـدر ما تعمل على استـلابـه، بدفعـه، باستمرار، إلى تصعيد أو قمع رغباته. والفرد النـاقد أمام اختيار واضح، إما أن ينخرط في آليات الثقـافة السائدة ويتنـازل عن ما يشكل إنسانيتـه، وإما أن ينشد حضـارة لا قمعية تسمح له بتحقيـق حريته واستثمار اقتصـاده الايروتيكي. لـدرجة ان المرء هنـا، في حقيقة الأمـر، لا يختـار بين نمطين من القيـم وإنما بين القيمـة وانعـدامهـا، أي بين الايـروس التحرري، واللوغوس المسيطر.

لا شك أن تحليل ماركوز مثلا للايروس وتأكيده على مبدإ الرغبة يجعله مرهون لفهم قبلي ولتحديـد خالص للـرغبة وللايـروس، لأن ما يسميه بـالحضارة الـلاقمعية ليست الا مفهوما ممكنا لم يعمل على تأسيسه لأنه عبارة عن مشروع للتغير الاجتماعي.

إن الأمـر يتعلق بيوتـوبيا جـديدة. ذلك أن تطـرف العلاقـة الموجودة بين حضـارة القمع والحضارة اللاقمعية وانسداد آفاق النقد، بحكم أن الطبقة التي كان من الممكن أن تحققه ذابت في إغراءات النظام، والفرد الذي كـان من الجائز أن يضمن استمرارية ممارسته

انمحى في كلية الثقـافة الجماهيريـة. أمام هذا الـواقع اذن لم يبق أمام النظـرية النقـدية إلا الارتماء في مجالات المتخيل والتعويل على مردودية اليوتوبيا.

وهكذا، بين الدمج وآفاق اليوتوبيا، اختار فلاسفة النظرية النقدية ان يسلبوا العالم على صعيد المتخيل، لأن الرفض لم يعد له من سبيل إلا اليوتـوبيا. على اعتبار أن اليوتوبيا حلم لا يشبه الاحلام العادية. وإنما هـو حلم يكسر الحواجز والحدود، يغدو فيه الانسان سيد تاريخه لأنـه قادر على خلقه، ولأنه، بالأسـاس قادر على التخيل. فاليوتـوبيا، هنا، تعبير عن المخيلـة، وشكل من أشكـال الحرية والفكـر، لأن الانسـان داخلها يقـدر على معـاندة التـاريخ الذي تفـرضه عليـه الحداثة التقنيـة، ومن تم فالانسـان الذي يحلم هـو الشخص الذي ينتصر على جاذبية العالم، وباليوتوبيا ينتصر على الضرورة القاسية للتاريخ كما صنعه العقل الأنواري. يقـول ماركوز: «إن تسيير وتنظيم المجتمع الطبقي، اذ شكل حساسية الانسان وعقلـه، قد حدد وضيق حرية الخيال أيضـا. وقد انحصرت قوة الخيال بين مقتضيات العقل الآداتي من ناحية، وبين التجربـة الحسية التي شوهتها انجازات هذا العقل نفسه، من نـاحية أخرى، فتعرضت للقمع: لم يسمح لها بـان تصبح شيئا عمليا ـ أي تحـول الـواقع تحويلا فعـالا ــ إلا في داخـل سـياق عـام من القمع». [1] ثم يضيـف: «إننا اليوم عندما نصف شيئا بأنه «يوتوبي» فلم نعد نعني انه يقع في «اللامكان» ولا يمكن ان يكون له مكـان، بل أصبحنا نعني أنه ذلك الذي يحول دون ظهـوره السلطة السائدة في المجتمعات القائمة» [2].

فاليوتـوبيا، إذن، حلم يتيح فتح بعد جديـد في الواقع. يوجه ممارسـة أخرى لأنه يعطيها معناهـا المناسب. إنه حلم سيادة إيـروس بريىء داخل عالم بدون حـواجز، يحقق الحاجـات والرغبـات بدون منع ولا تضييق. هـذا أهم مظهـر للمجتمع اللاقمعي. إنـه يسمح بسيادة إيروس في استقلال عن امبريالية العقل التقني.

(1) هوبـرت ماركـوز، «نحو التحـرر، فيما وراء الانسان ذي البعد الـواحد» ترجـمـة ادوار الخـراط بيروت منشورات دار الآدب 1972 ص 40.

(2) نفس المرجع، ص 10

وتجدر الإشارة إلى ان دار الاداب نشرت كذلك ترجمات لكتب ماركوز التالية:

- الانسان ذو البعد الواحد: ترجمة جورج طرابيشي
- الحب والحضارة: ترجمة مطاع صفدي
- فلسفة النفي: ترجمة مجاهد عبد المنعم مجاهد.

إن حلم النظرية النقـدية يعبر، بقوة، عن انسداد كل مجالات النقـد أمامها، ذلك أن اختيار الأفق اليوتوبي برهـان على الضعف الحقيقي الذي يسكن النقد عندهم في عجزه عن الفعل في التاريخ. ولهذا أمـام فشل الثقافة بمفهـومها التحرري، ومأزق الفرد النـاقد وعجزه عن التفكير، حسـب مقولات أخلاقيـة لتغيير الممارسة السيـاسية، لم يبق للنظـرية النقـدية إلا الارتماء في أحضـان المجـال الجمالي، ومن ثم يتحـول النقد عنـدهم من إجـراء لتأسيس نظـريـة نقديـة للمجتمع إلى احتجـاج من النـوع الاسيطيطيقي. إنـه رفض الفن لابتدال الثقافـة وانحطاط الفرد. أو بالأحرى الرفض الجذري ذو الابعـاد الجمالية. إن هذا الرفض أو «هذا الحلم بعالم يصبح فيه الانسان باديا لذاته ومتصالحا معها ومع العالم، ليس الا رمـزا للحريـة وللتحرر. إنـه لا يعني، واقعيـا، الشرط الانساني لأنـه ليس إلا التحقق الرمزي للحرية»[(1)].

وبـالـرغم من ان فـلاسفة النظـريـة النقـدية يعتبرون بـان العقل «يشعـر بإرهـاب أسطوري اتجاه الأسطورة»[(2)] فإنهم مع ذلك التجأوا إلى الفن باعتباره عالما رمزيا يسعف على التحرر من سلطة العقل. فالفن يتضمن عقلانية السلب، والمخيلة ترفض الالتزام بحدود مـا يفـرضه مبـدأ الـواقع. وهـذا مـا يعطي للرفـض الجمالي بعده النقـدي. وإذا كـان من الضروري أن تقوم الفلسفة بوظيفـة نقدية فإن الفن كذلك ممارسة نقـدية واحتجاج عما هو موجود وتعـال عن هيمنة العقل «فالفلسفة تتوحـد مع الفن حينما تعبر عن قوة الشغف في اللغة وتحوّله، من خلالها، إلى مجال التجربة والذاكرة»[(3)].

إن الالتجاء إلى الأفـق الجمالي بوصفه لحظـة سلبية للحـداثة التقنيـة، يعني تسليم بتنازل النقد عن مهمة التغيير الاجتماعي. وبـالرغم من أن فلاسفة النظرية النقـدية حاولوا تأسيس «نظريـة تأملية». تعتمد في عملياتها على نتـائج العلوم الانسانية وتعانـد كل نزوع نسقي، وبالرغم من أنهم أرادوا لها أن تكـون نظرية نقديـة للمجتمع، تنشد التحرر، وأنها تستند إلى نقـد مادي للعقل يؤسس لعـلاقة جـديدة مع اليوتـوبيا، فإنها تبقى مجالا، غير محدد الضـوابط، للتسـاؤل وللشك أفرزت عنـاصر «فكـر للنفي»[(4)] يعادي المعـاناة وكل

(1) Chirpaz (F) : "Aliénation et utopie", Revue Esprit, Janvier 1969.
(2) Horkheimer (M) , Adorno (T) : "La dialectique de la Raison", Op. cit, P. 45.
(3) Horkheimer (M) : "Eclipse de la Raison", op. cit ; P. 185.
(4) Abensour (M) : "La Théorie Critique : une pensée de l'exil", op. cit, P. 198.

المصادر التي تنتجها. لذلك فبالجمال يعبر الفرد عن اختلافه وباليوتوبيا يتحرر من طغيان العقل. ولكن هل زمن الحداثة يسمح بالاختلاف الجذري وباليوتوبيا الحالمة ؟ وهل استنفذ العقل الأنواري كل طاقاته على مساعدة الانسان في تحرره أم أن نمط التساؤل الذي صاغه فلاسفة النظرية النقدية بقي مبتعدا عن ايقاع تحولات الحداثة في أبعادها الايجابية ؟ ثم ما موقع يورغن هابرماس في مسار تطور هذه النظرية ؟ هل يشكل بالفعل امتدادا لها، أو مكملا لمجهوداتها النظرية، أم أنه سيؤسس لنفسه نمط سؤال خاص به وسينحت مسارا جديدا لم يساهم فلاسفة النظرية النقدية في تدشينه ؟

أسئلة عديدة سنحاول أن نقترب منها في الفصل الثاني من خلال تناولنا للمشروع الفلسفي لهابرماس وللمفاصل المكونة لتفكيره وذلك من أجل تلمس صيرورة العلاقة بين الحداثة والتواصل كمقوم جوهري لنظرية المجتمع التي يقترحها النقد الهابرماسي.

الفصل الثاني

المشروع الفلسفي لهابرماس

لقد انتهى فلاسفة النظرية النقدية إلى نتيجة تفضي إلى الانسحاب من الدعوة إلى إنقاد الفرد من انحطاطه، من خلال مشروع اجتماعي تغييري، لأن سلطة الحداثة التقنية أصبحت محايثة لكل تغيير ولكل تطور. وما دامت معاناة الفرد آتية من الثقافة العامة التي أنتجتها هذه الحداثة فإن هذا الفرد، حتى ولو تشبث بكل ما يملك من قوى، بحسه النقدي، يذوب في الكتلة ويزداد بذلك شقاءا ومعاناة.

لم يبق للنظرية النقدية إلا الأفق الطوباوي، و«الرفض العظيم» داعية الانسان الغربي الحديث إلى الخروج من شرنقته المحاطة بكل عناصر الاستلاب التي تفرزها ثقافة «الخطاب المغلق» والمجتمع «ذي البعد الواحد»، إلى الارتماء في هامشية تتخذ من الفن أفقها الوحيد لممارسة النقد، ومن الجمال وسيلة للإعتراض عن قيم الثقافة السائدة.

وبمعنى آخر أنه أمام السيطرة الكاسحة للهوية الواحدة والمطلقة اضطر فلاسفة النظرية النقدية إلى القول بالآخر وبالمغايرة لخلق نوع من التفاوت مع الواقع وتوفير بعض الحرية، على هامشيتها، للفرد الواعي.

لقد التجأوا في النهاية، إلى نوع من نقد العقل في ذاته وبالتالي إلى نزعة تشاؤمية إزاء كل ممارسة تدعي عقلنة الواقع. لقد آمنوا، في بداية نشاطهم الفكري، أن النقد يمكن أن يتبلور من خلال ذات جماعية. وحين تبين لهم فشل هذا الاتجاه راهنوا على الفرد، كعنصر ناقد، غير أن آليات الحداثة التقنية لا تسمح للفرد بالنقد الا من منطلق احتوائه، ولا بالاختلاف إلا من زاوية تحركه داخل دائرة الهوية.

هل معنى ذلك أن النظرية النقدية استنفذت كل طاقاتها ؟ أم أن نمط سؤالها في حاجة إلى عادة تنشيط، وأن نزوعها السلبي يستلزم إعادة نظر ؟

لقـد دأب مؤرخـوا الفلسفـة الألمانيـة في القرن العشرين على تقسيم مـراحل تطـور الـنظرية النقـدية إلى مرحلتين أسـاسيتين : المرحلة الأولى هي التي تأسست فيهـا الـنظرية النقديـة على يد كل من «بـولوك» وهـوركهايمـر ووجدت امتـداداتها مع أدورنو ومـاركوز، والمرحلـة الثانيـة يمثلها يـورغن هابـرمـاس بشكل أساسي. بـدون أن يعني ذلك أن تمثيل هابرماس لهذه المرحلة يجعل منه مجرد امتداد للنظرية النقدية الأولى.

وبدون أن نـدخل في تفاصيل مـا يجمع وما يفرق بين النظـرية النقـدية الأولى وبين فلسفة هابرماس، نشير إلى أن هـذا الأخير لم يجعل من الفرد الليبرالي اهتمامه المركزي، وإنما النظـام الاقتصادي ــ الاجتماعي الذي يضمـن توازنـه اعتمادا على آليات الضبط الـذاتي. وبالتالي فإن التساؤل عن هامشية الفرد وعن إمكانية إنقاذه لم يعد تساؤلا أساسيا، مثلما هو الشأن عند فلاسفة النظرية النقـدية الأوائل، لأن همه المركزي أصبح ينصب على إمكانيات إخضاع ما يشكل لا عقلانية النظام لقوانين العقل الانساني. وذلك من خلال فهم جديد للحداثـة وممارسة جديـدة للعقلنة يصبان في نظريـة ينعتها هابرمـاس بـ «نظرية الفـاعلية التواصلية» Théorie de l'agir communicationnel.

وقبل أن نتنـاول الأساس الفلسفي للنظـريـة التواصليـة عنـد هابـرمـاس نريـد أن نستعرض أهم المحـاور النظرية التي انشغل بها والتي أدت بـه إلى صياغة عنـاصر النشاط التواصلي.

1. من الفلسفة إلى النـقـد

يـلاحظ يورغن هـابرمـاس في مقدمـة الطبعة الفـرنسية لكتـاب «نظريـة الفاعليـة التواصليـة» أن ما كان مـركزيا بـالنسبة «للنظـرية النقديـة القديمة» ولا سيما عنـد بنيامين وهوركهايمر وأدورنو «هو العلاقة مع نقد جذري للعقل» [1] متخذين هيغل ونيتشه ركيزتين أساسيتين لهم. ويضيف أنه بتأثير كل من ميشال فوكو وجاك ديريدا، ما زال هذا النقاش مستمرا في السـاحـة الفلسفية. ويرى أنه منذ الجيل الأول لتـلامذة هيغل، والفلسفة تحاول أن تلمس «وساطة» الفكر مـا بعد الميتافيزيقي. لذلك فالعمل الذي قدمتـه منذ ما يقرب من قرن ونصف أدى بنا إلى الاحتكاك مباشرة بمقدمات الفكر ما بعد الميتافيزيقي بدون أن نكون مضطـرين إلى اتخاذ موقف دفـاعي يائس إزاء التراث الساحق لـلافلاطـونية كما فعل نيتشه.

(1) Habermas (J) : "Théorie de l'agir communicationnel", Paris, Ed. Fayard, 1987, P.10.

ويعلن هابرماس أنه بالرغم من أن كتاباته المختلفة تشتغل على موضوعات تنتمي للفكر الفلسفي، فإن نظرية الفاعلية التواصلية تشكل، في حقيقة الأمر، نواة لنظرية في المجتمع وأن الأمر يتعلق عنده بانتقال جذري مما يسميه بنظرية الوعي إلى نظرية للتواصل.

كيف وصل هابرماس إلى تأسيس نواة هذه النظرية التواصلية ؟ ما هو المسار الفلسفي الذي قطعه للوصول إلى هذا التركيب ؟ وكيف ينظر إلى الفلسفة في خضم التحولات الابستمولوجية والسياسية في الزمن المعاصر ؟

لقد لاحظنا أن فلاسفة النظرية النقدية الأوائل كان يسكنهم هاجس أساسي يتمثل أولا؛ في جعل النقد أسلوبا رئيسيا في النظر إلى الأشياء والأفكار والأحداث، وثانيا؛ في التبرم من كل نزعة نسقية تستهدف الدمج والاحتواء، وثالثا؛ في الابتعاد عن كل استقطاب مؤسسي لا سيما مؤسستي الدول والحزب. هذا من جهة، ومن جهة ثانية لم يفصلوا بين الممارسة الفلسفية وبين مختلف العلوم الاجتماعية باعتبارها علوما نقدية لا تصالح الواقع كما تريدها النزعة الوضعية.

ويبدو أن هابرماس لا يختلف كثيرا عن هذا المسار. فبرنامجه يدخل، منذ كتاباته الأولى، ضمن ما يسميه بـ «عقلانية نقدية» وبالتالي عقلانية تحررية. ومن أجل تعزيز الفاعلية النقدية لهذه العقلانية فإنه جمع في نصوصه بين الفيلسوف وعالم الاجتماع وذلك من منطلق استثمار البعد الفلسفي الكامن في العلوم الاجتماعية وتدعيم النظر الفلسفي النقدي بنتائج هذه العلوم.

يلاحظ «جروج سيمل» أن هناك ثلاثة أصناف من الفلاسفة : الصنف الأول ينصت إلى دقات «قلب الأشياء»، والصنف الثاني ينصت فقط إلى دقات «قلب الانسان» أما الثالث فانه ينصت الى «قلب المفاهيم»، في حين أن هناك صنف رابع هو صنف أساتذة الفلسفة الذين لا يستمعون الا إلى «قلب النصوص»[1].

ويظهر أن هابرماس بالرغم من أنه ارتبط منذ البداية بالمؤسسة الجامعية الألمانية بعد الحرب وأنه أستاذ فلسفة وباحث فإننا، مع ذلك، نعثر في نصوصه على مظاهر كل هذه الأصناف من الفلاسفة. لقد انخرط منذ بدايات اهتمامه بالكتابة وبالفلسفة في معترك الصراع الثقافي والسياسي الألماني. من خلال مقالاته الصحفية ومواكبته النقدية للممارسة

---

(1) Simmel (G) : "Philosophie de la modernité", Paris, Ed. Payot, 1989.

الفنية الألمانية وتغطياته المختلفة لأكثر من حدث ثقافي وسياسي[1]. كل هذا يسمح بالقول بأنه كان له إنصات خاص لتفاصيل تحولات المراحل التاريخية لألمانيا ما بعد الحرب. ثم إن النص الهابرماسي ومنذ كتابه «جوانب فلسفية وسياسية» وهو يحاور الأفكار الفلسفية وينقب ويناقش دلالات المفاهيم سواء المرتبطة منها بالفلسفة والعلوم الاجتماعية أو باللسانيات أو بالسياسة . . الخ . ومن منطلق اعتباره فيلسوفا فإن مسألة المفهوم كانت بالنسبة له مسألة حاسمة في سياق تشكيله للنظرية التي سينتهي بتأسيسها وهي التي نعتها بنظرية « العقل التواصلي» Raison communicationnelle أما بخصوص احتكاك هابرماس بالنصوص، فإن هذا الفيلسوف تميز بها أسماه أحد الباحثين بـ «شراهة متعددة الاختصاصات» ذلك أنه بالإضافة إلى دراساته لمختلف النصوص الفلسفية الكلاسيكية والحديثة من كانط إلى هايدغر وديريدا فإنه «أعاد النظر في كل الأدبيات المعاصرة للعلوم الانسانية، ويبدو أنه لا يترك شيء خارج إدراكه وذلك بـ «هضم» مقاربات مختلفة من قبيل التحليل النفسي الفرويدي وعلم نفس المعرفة والابستمولوجيا التكوينية لمدرسة بياجي في مختلف امتداداتها، واللسانيات الشومسكية . . ولسانيات التلفظ وسوسيولوجية الممارسة من منظور تالكوت بارسنز والوظيفية السوسيولوجية ونظرية التواصل وعلم النفس الاجتماعي لجورج هربرت ميد ونظرية غوفمان التي تنعت بـ الاتنوميتودولوجية وبعض عطاءات العلوم التي تبحث في أشكال الحياة في العصور الجيولوجية السالفة Paléontologieوالانتروبولوجية الفيزيائية . . »[2].

قد يبدو الأمر مبالغ فيه، لكن حين يحتك المرء بنصوص هذا الفيلسوف، منذ كتابه «المعرفة والمصلحة»، مرورا بكل الكتب التي أصدرها بعد ذلك ولا سيما «نظرية الفاعلية التواصيلة» و«الأخلاق والتواصل» و«الخطاب الفلسفي للحداثة» قد يتعرض لنوع من التيه أو يصيبه النفور من كثرة الإحالات والمراجع والمصادر والأسماء التي لا يتوقف

(1) يتعرض جان روني لادميرال بتفصيل لمختلف الانشطة التي قام بها هابرماس سواء صحفيا أو ثقافيا أو سياسيا، وذلك في كتاب :

- Denis Huisman : "Dictionnaire des philosophes", Paris, PUF.

كما أشار الاستاذ علاء طاهر إلى تفاصيل كثيرة من حياة هابرماس في كتابه .

- «مدرسة فرانكفورت، من هوركها يمر إلى هابرماز»، بيروت، منشورات مركز الانماء القومي، بدون تاريخ .

وتجدر الإشارة إلى أن هذا الكتاب تطغى عليه نزعة مدرسية واضحة وأحيانا يجد الباحث صعوبة في تقديم بعض مفاهيم هذه المدرسة، فضلا عن ارتباك فصول الكتاب .

(2) Ladmiral (J-R) : "Jurgen habermas ; ou le changement de signe de la théorie critique", op. cit, P. 998.

النص الهابرماسي عن استدعائها من أجل بناء نظريته التواصلية التي جعلته يحتل مكانة بين أهم فلاسفة القرن العشرين.

إن الأمر لا يتعلق بقارىء عادي أو بشخص يقوم بمراجعات كتب، بتلخيصها وتقديمها للقارىء في شكل مقالات وكتب، بل إن هابرماس لا يترك انفتاحا نظريا ما إلا والتقطه وأدمجه داخل سياق بنائه النظري بعد غربلته وتفكيكه ومناقشة مكوناته وخلفياته، وذلك كله سعيا وراء تأسيس «انتروبولوجيا» متعددة الاختصاصات تعيد تنشيط الفكر الفلسفي وتقوم بعملية تركيبية لأهم الخلاصات النظرية التي أنتجتها الحداثة الفكرية.

ومنذ كتابه «جوانب فلسفية وسياسية» افتتح مقالاته بسؤال مثير هو «ما الفائدة من الفلسفة ؟» إلى كتابه «الأخلاق والتواصل» الذي دشنه بمقال تحت عنوان : «إعادة تعريف دور الفلسفة»، وهابرماس منشغل بالهم الفلسفي. ذلك أنه اعتبر، منذ البداية، أنه لابد من التساؤل في الزمن الحديث «هل الروح الفلسفية لم تتخذ شكلا مختلفا. لأن ما كنا نسميه، في الماضي، بالفلسفة «الكبرى» أصبحت من قبيل الماضي، ويبدو، اليوم أن الفلاسفة الكبار محكوم عليكم بنفس المصير»[1].

وفي سياق تقويمه للوضع الفلسفي الألماني يسجل هابرماس الملاحظات التالية :

أولا : إن هناك استمرارا مدهشا للمدارس والإشكاليات الأساسية. فالمعطيات النظرية المؤسسة التي سيطرت على المناقشات الفلسفية في الخمسينات والستينات في البلدان الناطقة بالألمانية، ترجع إلى سنوات العشرين. وفي هذه المرحلة برزت خمس تيارات فلسفية لمواجهة هيمنة الكانطية الجديدة. التيار الأول مثله كل من هوسرل وهايدغر وذلك في شكل فينومينولوجيا ذات توجه ترنسندنتالي أو أنطولوجي، والثاني عبر عنه ياسبرز، أساسا، في صيغة فلسفة للحياة تستمد بعض عناصرها من ثرات ديلتاي Delthey وتتميز بوجودية جزئية ذات طابع هيغلي جديد. أما التيار الثالث فقد كان عبارة عن أنتروبولوجيا فلسفية مثلها كل من شيلر Scheler وإرنست كاسيرر E. Cassirer إلى حد ما. في حين ان لوكاتش وبلوخ وبنيامين وكارل كورش وهوركهايمر فقد التقوا كلهم، وبدرجات متفاوتة حسب تطور كل واحد منهم، حول فلسفة اجتماعية ذات أبعاد نقدية تستقي مقوماتها من ماركس وهيغل. أما التيار السادس فيتمثل في الوضعية المنطقية، وكان أبرز ممثليها

(1) Habermas (J) : "Profils philosophiques et politiques", Paris, Ed. Gallimard, 1974, P. 21.

فيتجنشتـاين، كارنـاب وكارل بـوبر. ولكن كل «هـذه الشخصيات التي طبعت المشهـد الفلسفي الألماني طـوال عقـدين من الـزمن يمكن بسهـولـة، وضعهم في إطـار تـراث العشرينات»(1).

ثانيا : ان الفكر الفلسفي استمر في البروز في أشكال مشخصنة Personnalisées لدرجة ان اللحظة الفلسفية يمكن تحديدها، بسهولة، من خلال أسماء بعينها.

ثالثـا: ان الفلاسفـة أو الفلسفات التي أتينـا على الإشارة إليهـا ظهرت ضمـن ما يمكن تسميته بـ«ما قبل التاريخ الثقافي للنازية»(2) لذلك لم يكن من السهل على فلاسفة هذه المرحلة أن يكون لا مبالين إزاء ما سيحدث فيما بعد.

وأخيرا فإن التفكير الفلسفي في ألمانيـا يتميـز بكـونه يتحـدد من خـلال النقـد تجاه لحظته الزمنية، الشيء الذي يجعله دوما في تعارض مع النزعة الاكاديمية. فليس هناك ولو «فلسفة واحدة، من تلك التي تعـرضنا لها، كشفت في نواياهـا العميقة، عن توافق معين مع النظام السيـاسي والاجتماعي القائم. لدرجـة أن ما ينطبق على الاتجاهات اللاعقـلانية لهايدغر أو «الجيهلين»، ينطبق أيضا على النقد الجدلي لبلوخ أو لأدورنو»(3).

ويلاحظ هابرماس أن هذه التيارات الفلسفية، في تنوعها وتفاوت أساليبها، تنتمي كلها إلى سياق من التطـور يتميز بما يسميه بـ«التأخر التـاريخي» أو «التفاوت التاريخي»(4) سواء كان تأخرا يتوصل إليه من خـلال «نظرية التطور البطيء للرأسماليـة» كما قال بذلك جورج لوكاتش، أو اعتمادا على «نظـرية الأمـة المتأخرة» كما صـاغها بليسنـر Plessner أو بواسطة «نظرية الحداثة المؤجلة» كما نظر لها «دارندورف» Dahrendorf.

غير أن التطـور السريع والمفـاجيء للمجتمع الألماني بعـد الحرب العـالمية الثـانيـة وتجاوزه للتأخـر التاريخي بـوضع القـواعـد الضرورية لبنـاء رأسماليـة مراقبـة بشكل إداري مضبوط، جعل من الجمهورية الفيدرالية بلدا معاصرا لأوربا الغربية.

أمام هذا الواقع الجديد، اذن، «ما الفائدة من الفلسفة ؟» وهل يمكن لها أن تبقى ممكنة وضروريـة بالـرغم من انهيـار الفلسفة النسقية ؟ ولماذا لا تنـدمج الفلسفـة، كما هو الشأن بالنسبة للفن وللدين، في السيرورة التاريخية والكونية للعقلنة كما وصفها ماكس فيبر بلغة التاريخ، وكما فهمها كل من هوركهايمر وأدورنو من زاوية الجدل ؟

---

(1) Ibid ; P. 24
(2) Ibid ; P. 25
(3) et (4) Ibid ; P. 29

إن الفلسفة في هذه المرحلة من تطور هابرماس، لا يمكنها أن تحل محل الأسطورة في وظائفها التي تسعف على استقرار الممارسة المعيشة، لأن الفلسفة «يجب على العكس من ذلك، أن تضمن بطريقة غير مباشرة، علاقتها الخاصة مع الممارسة من خلال حياة مكرسة للنظرية»[1] وانطلاقا من هذا الاعتبار يتعين الوعي بالتحولات البنيوية التي دخلت على الفكر الفلسفي عندما تمت القطيعة مع التراث والتي يجسدها موت هيغل. فالفلسفة قبل هيغل ليس هي نفسها بعده، وهذه الملاحظة الجوهرية أدت بهابرماس إلى اقتراح الافتراضات التالية :

أولا : إن وحدة الفلسفة والعلم لم تكن، جوهريا، محط سؤال ونظر إلى حدود هيغل، إذ أن هذه الوحدة لم يتم الطعن فيها الا بظهور العلوم الطبيعية الحديثة. وحتى بعد تأسيس هذه العلوم لم تتراجع الفلسفة نحو ميدان العلوم الصورية أو نحو قطاعات مكملة مثل الأخلاق أو علم الجمال أو علم النفس وذلك لسبب أساسي هو أنها بقيت تدعي قدرتها على توفير الأسس الأولى لكل معرفة نظرية، وهو ادعاء لا ينفصل عن الميتافيزيقا، فحتى منتصف القرن التاسع عشر بقيت الفلسفة هي العلم الأساسي»[2].

ثانيا : إن وحدة الدرس الفلسفي والتراث* لم تكن موضع نظر وشك حتى مرحلة هيغل. فالفلسفة نوع من الفكر الذي لا يظهر إلا في شروط الحضارات المتطورة، أي داخل أنظمة اجتماعية تمتلك الدولة فيها القدرة على السيطرة ففي المجتمع البورجوازي في القرن السابع عشر حل القانون الطبيعي العقلاني محل الدور الذي كانت تقوم به الكنيسة لتبرير السيطرة السياسية.

ثالثا : ان الفلسفة والدين، وحتى ظهور هيغل كانا يعتبران أنهما يقومان بوظائف مختلفة تماما. قد يضطر الفكر الفلسفي لاتخاذ موقف من الحقيقة الدينية ولكن لم تدع الفلسفة أنها تسعى إلى ان تحل محل الدين.

رابعا : ان الفلسفة كانت دائما مسألة تهم النخبة الثقافية ولم تندمج في يوم من الأيام مع الجماهير. صحيح أن فلاسفة التنوير في القرن الثامن عشر خرجوا، ولفترة محددة، عن هذه القاعدة، ولكنهم بالرغم من ذلك «لم يكن لبرنامجهم أية قاعدة حقيقية نظرا لغياب نظام تربوي عام»[3].

---

(1) Ibid ; P. 35.
(2) Ibid ; P. 36.

*التراث بمعنى الإرث الذي يضفي على السيطرة طابعا شرعيا

(3) Ibid ; P. 38

وبعد التحولات الجوهرية التي شهدهـا القرن التاسع عشر واكتشاف أكثر من قارة معرفية سواء على صعيد العلوم الطبيعية أو العلوم الإنسانية دخلت الفلسفة، بدورها، إلى قـارة جـديدة، لأنها انفصلـت عن ارتباطـاتها التقليـديـة، سـواء مع العلم أو مع التراث وأصبحت تفهم، في نظر هابرماس، على انها حقل متميـز لممارسة النقد «نقد ازاء الفلسفة الـلاهتة وراء الأصـول، بتنـازلها عن ادعاء تقـديم الأسس الأولى، وعن تأويل الموجـود في شموليته». وكذلك «نقد للأسلوب الذي به كـانت تتحدد، تقليديا، العلاقة بين النظرية والممارسة، بل إنها تحدد نفسها بكـونها الأداة التأملية للنشاط الاجتماعي»[1] و«نقد إزاء كل ادعاء كلياني سواء تم التعبير عنه من خلال المعرفـة الميتافيزيقية أو بواسطة التأويل الديني للعالم، بل إنها تـوفر، في نقـدها الجذري للـدين، قواعـد استقبال لليـوتوبيـا التي يختزنها التراث الديني والمصلحـة التحررية التي تـوجه المعرفـة». كما أن الفلسفة تشكل في الأخير «نقدا للتصور النخبـوي الذي كونه التراث الفلسفي حول نفسـه. إنها أصبحت تؤكد على ضرورة نقد عقلاني»[2]. هذا مـا فهمه هـوركهايمر وأدورنـو حين وصفه بـ «جدل العقل» الذي امتد في شكل «جدل سلبي» عند أدورنو.

إن الفلسفـة لم تعـد مجرد تمرين للتفكير حـول ذاتها، لأنها أصبحت عـاجـزة عن تأسيس فكر نسقي. وأمـام «هذه المظاهـر الغامضة لدمـار هويات الجماعـات والهويات الشخصية التي تكونت داخل حضارات كبرى، فـإن فكرا فلسفيا ذا تأثير وفي تواصل مع العلم لا يمكنه أن يعبىء الا تلك الـوحدة الضعيفة للعقل، أي وحـدة الهوية واللاهـوية التي تسمح بحدوث المناقشة العقلانية»[3].

وحينما تحدث هـابرمـاس عن الفلسفة في هـذه المرحلـة من تطوره الفلسفي كـانت تشغله موضوعات ثلاث كتب أساسية، وهي «جدل العقل» لكل من هوركهايمر وأدورنو و«الجدل السلبي» لأدورنو، و«الانسان ذو البعد الواحد» لهـربرت ماركوز. وكلـهـم حاولوا نقـد نتائـج العقل اعتمادا على العقل واعـادة النظر في سـؤال الهويـة في ضوء التحـولات الجوهرية التي صنعتها الحداثة التقنيـة، ووفروا، بالتـالي، إمكانية ممـارسة نقديـة للفكر. يقول: «ان نقـد الفكر الأداتي يمكن أن يستخـدم، بالفعل، كمفتـاح لنقدالايـديولـوجيا

(1) et (2) Ibid ; P. 43.
(3) Ibid ; P. 50.

ولتفسير الأعماق المؤهلة لمواجهة أية عملية تشخيص موضوعي Objectivation لوجودنا الفاسد»[1].

وبدون أن ندخل في تفاصيل المضمون المناهض للنزعة الوضعية للفلسفة النقدية عند هابرماس، لأننا سنقوم بذلك فيما بعد، نشير إلى أن هذا الفيلسوف، في هذه المرحلة من ممارسته الفلسفية لاحظ أنه «إذا كان من الممكن أن توجد فلسفة يمكنها أن توقف استمرار طرح سؤال «ما الفائدة من الفلسفة؟» فلا يمكن أن تكون الآن، وحسب ما أتينا على ذكره، الا فلسفة لا علموية للعلم»[2]. هكذا ستتوقف الفلسفة عن اعتبارها مجرد مذاهب وفلسفات فردية، بل ويمكنها أن تقوم بمهمة سياسية فعلية على أساس أن تواجه اللاعقلانية المزدوجة المتمثلة في النزعة الوضعية في فهمها للعلم، وفي ذلك النموذج الاداري الذي تحد نزعته البيروقراطية من تشكيل إرادة مؤهلة اللانخراط في النقاش العمومي.

وينتهي هابرماس إلى القول بان «مستقبل الفكر الفلسفي مسألة تخص الممارسة السياسية»[3].

ويتبين لنا من كل ما تقدم أن الفلسفة عند هابرماس في إجراءاتها النقدية يجب أن تدمج العلوم الاجتماعية والافق السياسي للنقد. من هنا يظهر الاهتمام الأساسي لهابرماس بإشكالية المعرفة والمصلحة، في سياق تستدعي فيه الحداثة التقنية نوعا من التماهي بين المعرفة والسلطة، بين الفكر ومختلف المصالح التي تعبر المجتمع الحديث، بل في زمن أصبحت فيه «التقنية والعلم... ليس فقط القوة المنتجة الأولى التي توفر شروط وجود سالم ومطمئن ولكنها غدت شكلا جديدا من الايديولوجيا تضفي الشرعية على العنف الاداري»[4].

وأمام واقع فقدان العلم والتقنية لـ «براءتها الايديولوجية»[5] فإن على الفلسفة أن تقوم بمهام محددة منها:

---

(1) Ibid ; P. 256.

ويضيف هابرماس بان مساعدة ادورنو في هذا السياق، كانت ضرورية، وقد حرمنا منها مع موته لانه لا أحد يمكنه ان يقوم بما قام به هذا الفيلسوف الناقد.

(2) et (3) Ibid ; P. 48.

(4) Ibid ; P. 226.

* الواقع ان هابرماس، هنا، متأثر بتحليلات ماركوز في «الإنسان ذو البعد الواحد».

(5) Habermas (J) : "Après Marx", Paris, Ed. Fayard, 1985, P. 302.

أولا : أن تناضل داخل العلـوم لتشجيع الاستراتيجيات النظرية الأكثـر قوة، كلما كانت المناسبة ملائمة، وذلك لمواجهة التجزيئية التجريبية*.

ثـانيا : على الفلسفـة أن تقوم بعمليـة كشف ما هـو كوني في الفكـر الذي يتكـون بواسطة العلوم، والذي يستهدف معرفة موضـوعية، كما هو الشأن بالنسبة لكونية المبادىء الموجهة للممارسة العقلانية للحياة والمؤهلة لكي تكون مبررة و«ليست مشروعة فقط»[1].

ويلاحظ هابرماس أن مبادىء الفكر الموضوعي والممارسة العقلانية قد تم بالفعل، اكتشافهـا داخل التراث الغربي، أي في إطـار المجتمع البورجـوازي، وفيه شهـدت تطورا ملموسـا، ولكن هذا الاكتشاف الغربي ليس سببـا كافيا لاعتبار هـذه المبادىء، التي هي مميزات خاصـة بثقافة محددة، قابلة لفـرضها على كافة منـاطق المعمور : «إن هذا التأويل للذات وهذا الدفاع عن الذات اللذان يتكرس لهما العقل، هما قضية الفلسفة»[2].

لذلك فإن المهمـة الثالثة للفلسفـة، و«الأكثر نبلا» تتمثل في استدعـاء قوة التفكير النقدي الجذري لكل شكل من أشكال النزعة الموضوعية Objectivisme، أي ان تناضل ضد «الاستقلالية الايديولوجية، وبالتالي الوهمية، التي ترجحها النظريات والمؤسسات تجاه الشروط العملية التي تنبثق منهـا أو تطبق فيها»[3] ويخلص هابرماس إلى القـول بأنه بدون فلسفة لا يـرى «كيف يمكن أن نكون قادريـن على تشكيل وضمان هوية على أرضيـة هشة مثل أرضية العقل»[4] ذلك العقل الـذي لا يعيش وينمـو إلا من خـلال «الشجاعـة على التعقل»[5] . فلا يكفي أن يملك المرء معرفة عقلانية بل إنه في حاجة، كذلك، إلى فضيلة أساسية مرتبطة بفعل التعقل، وهي فضيلة الشجـاعة. ومن تم فالنقد ليس في متناول أي كـان، لأنـه فعل ذو ابعاد استراتيجيـة يتـداخل فيهـا المعرفي بـالايـديـولوجي بـالسيـاسي بالأخلاقي.

وبحكم ان هابرماس كـان يسعى إلى نظرية فلسفية للحداثة منـذ كتاباته الأولى إلى «الخطـاب الفلسفـي للحـداثـة» فـانـه رجع إلى الفـلاسفـة الـذيـن يعتبر أنهم سمحـوا بـالانفتاحـات النظريـة الأولى التي تسعف على صيـاغة نظـرية للـزمن الحديث. ويعتبر

* وتجدر الملاحظة، هنا ان هابرماس، بالرغم من انه يسعى في كتاب «مابعد ماركس» إلى تصفية الحساب مع الماركسية فإنه مع ذلك بقي متأثرا ببعض الفاظ قاموسها.

(1) Ibid ; P. 308
(2) et (3) Ibid ; P. 309
(4) Ibid ; P. 310.
(5) Habermas (J) : "Théorie et pratique", Paris, Ed. Payot, 1975, Tome 2, P. 91.

هـابـرمـاس في بحثه عـن «اعادة تعـريف دور الفلسفـة» ان كـانط، في تـاريخ الأفكـار الفلسفية، أدخل نمطـا جديـدا للتأسيس في الفلسفة. لاسيما حين رأى أن التقـدم الذي احرزته المعرفة في مجال الفـيزياء يجب أن يهم الفلاسفة، ليس لأن الأمر يتعلق بشيء حدث في التاريخ بل لأن هـذا التقدم يثبت القدرات الانسانيـة على إبداع المعرفة. ولهذا السبب حاول كـانط تأسيس «نظرية تـرنسندنتاليـة للمعرفة» وبناء ميتـافيزيقا على غـرار النموذج الفيزيائي.

لكن كـانط بتحليله لمبـادىء المعرفة اعتمادا على مـا أسماه بـ «نقـد العقل الخالص» عمل، كذلك، على نقد الاستعمال الخاطىء للقدرة على المعـرفة، ومن ثم اضطر كانط إلى «التفريق، فعليـا، في المعرفة النظرية، بين القـدرة على العقل العملي والقدرة على الحكم. وذلك لتـوفير الأسس الخاصـة بكل قـدرة على حـدة. وبالتـالي فإنـه يمنح للفلسفـة دور القاضي الأعلى، بـاعتبار أن هذا الـدور يمتد إلى الثقافـة في مجملها»[1] هناك إذن، ارتباط وثيق بين نظريـة جوهرية وأصيلـة للمعرفة تعطي للفلسفة دور المحـدد والموجه لما يجب أن تحتله العلوم من موقع، من جهة، وبين نظام مفهومي لا تاريخي يضبط الثقافة في مجملها، وبـذلك لا تلعب الفلسفـة دور المشرع والحاكم الـذي يضع التشريعـات لكل من العلم والأخلاق والفن من جهة أخرى.

ويستنتج هابـرماس أن المفهـوم الكانطي للعقل الصـوري المتغايـر في ذاته يتضـمن عناصر لنظـرية للحداثـة، تتمثل في تخلي كانط عن «العقـلانية الجوهريـة» التي ترجع إلى التأويـلات الميتافيـزيقيـة والدينيـة للعـالم، في ثقته في «العقـلانيـة الاجرائيـة» التي تعطي لتصوراتنا مقومات الصلاحية la validité سواء تعلق الأمر بالمعرفة ذات المقاصد الموضوعية أو بمجال العقل العملي الاخلاقي أو بالحكم الجمالي.

وبعـد مناقشـة هـذا المفهوم الكـانطي من زاويـة النقـد الهيغلي الذي ادخل نمطـا تأسيسيا جديـدا على الفكر الفلسفي يستند إلى المنطق الجدلي، يقترح هابرمـاس الأطروحة التـالية وهي أنـه «حتى ولو تخلـت الفلسفة عن الادوار الاشكـالية المتمثلـة في الحكم على الثقافة في مجملها فانه يمكنها بل ويتعين عليها، مع ذلك المحافظة على الضرورة العقلانية باستثمار الوظائف الأكثر تواضعـا التي تسمح بتعيين وصيانة المواقع التي تحتلها النظريات الطموحة والتي تؤول ما يقال»[2].

(1) Habermas (J) : "Morale et communication", Paris, Ed. du Cerf, 1986, P. 24.
(2) Ibid ; P. 26.

كيف ستكون نظرية الحداثة وعملية الدخول في كلية الثقافة التي عمل كل من كانط وهيغل على الدفاع عنها، الأول من خلال مفهوم للعقل ذي توجه «جوهري»، والثاني اعتمادا على مفهوم للعقل ذي نزعة اطلاقية ؟ واذا قبلت الفلسفة التخلي عن «دور القاضي» بخصوص الثقافة والعلم كذلك، الا تتخلى، في نفس الوقت عن إحالتها إلى الكلية La totalité التي يجب أن تساعدها على أن تكون «حارسة العقلانية» ؟ وبنفس الحدة والأهمية إذا كان من المشروع أن تنخرط الفلسفة في العلوم الانسانية في إطار تقسيم غير إطلاقي للعمل، الا تعرض هويتها الفكرية للخطر ؟

للاقتراب من هذه الاسئلة، يتعرض هابرماس لمختلف الأشكال الفلسفية التي دعت إلى الابتعاد عن الفلسفة أو دعت إلى توديعها تماما. الشكل الأول يسميه هابرماس بـ «الشكل العلاجي» Thérapeutique الذي يمثله «فيتجنشتاين» حيث أدخل مفهوما للفلسفة تتوجه فيه ضد نفسها في محاولتها للعلاج من «مرضها»، لأن الفلاسفة أساءوا استخدام اللغة. فالفلسفة تستمد مقومات نقدها من أشكال الحياة التي تتكون في سياق الممارسة اليومية. الشكل الثاني هو الذي ينعته بـ «الشكل الملحمي» أو البطولي Héroïque وحسب هذا التصور، الذي يمثله في نظر هابرماس كل من باطاي وهايدغر، فان العادات السيئة في الفكر وفي الحياة يتم تكثيفها داخل الأشكال الناضجة للفلسفة. ومع ذلك، فان انحرافات الميتافيزيقا والفكر المنظم التي يتعين تفكيكها، لا بممارسة نوع من الانتقاص من الفكر الفلسفي، لأن هذا الفكر فقد قيمته، وإنما يستلزم تعويضه بوساطة أخرى تسمح بانكفاء غير خطابي داخل مجال السيادة Souveraineté كما هو الشأن عند باطاي أو الكينونة L'Etre كما عند هايدغر. أما في شكلها المنقد Salvatrice فإن نهاية الفلسفة يعبر عنها بنوع من الدراية والكتمان. ذلك أنه بإسم الدفاع والمحافظة على الفلسفة يتم تركها. وهنا تكمن المفارقة. ففي الوقت الذي يعلن فيه عن الرغبة في انقاذ الفلسفة من كل المحاولات التي تستهدف، قصدا أو عن غير قصد، تهميشها أو اقصاءها، فإن الفلسفة تمنع من «تطلعاتها نحو المساهمة في بناء نسق ما»(1).

ويعتبر هابرماس، في سياق بحثه عن موضوعات للفلسفة، أنه في الممارسة التواصلية اليومية، والتأويلات المعرفية والتوقعات ذات الطبيعة الاخلاقية، فإن مختلف التعبيرات وأشكال التقييم يجب أن تتداخل فيما بينها. لذلك فإن عمليات التفاهم بين

(1) Ibid ; P. 34.

الذوات للعالم المعيش تفترض تراثا ثقافيا بالغ الاتساع والغنى لا يمكن للعلم أو للتقنية وحدها أن تزودها به . وفي هذا الاتجاه «فإن الفلسفة، وفي إطار دورها التأويلي، يمكنها ان تتوجه نحو العالم المعيش وأن تحيين Actualiser علاقتها مع الكلية وهذا سيجعلها تساهم في تحريك . الآلية الثابتة المرتبطة بالأداتية المعرفية، والممارسة الأخلاقية والتعبيرية الجمالية» . (1) هكذا يمكن للفلسفة أن تتخلى عن دورها المتمثل في «القاضي ـ المفتش الثقافي» والانخراط في دور «المؤول ـ الوسيط» Interpréte - médiateur .

ويخلص هابرماس إلى القول بأن الفلسفة التداولية Pragmatique والفلسفة التأويلية Herméneutique يقتربان من هذه المسألة المتعلقة بدور التأويل الذي تقوم به الفلسفة . وذلك لأن الممارسة التواصلية اليومية تسمح بخلق تفاهم بين الذوات موجه من طرف متقتضيات الصلاحية Exigences de validité التي تشكل، في الواقع الحل الوحيد لتعويض الخصومات المتنوعة التي عرفتها وتعرفها المعرفة الفلسفية . فليست هناك تجربة موضوعية بدون تواصل بين الذوات، كما أنه ليس هناك تواصل بين الذوات بدون تكوين عالم موضوعي . ولكن تصور هابرماس لهذه العلاقة يدخل ضمن فهم نقدي للفلسفة باعتبار أنها تسهم، بالفعل، في تحرير الانسان والذات . بل وينظر إلى الماركسية والتحليل النفسي كاهتمامين يمكنهما، بدورهما، أن يحتلا موقعا نظريا نقديا يسندان الفعل الفلسفي في وظيفته التحريرية émancipatoire وتفاديا لكل انزلاق نحو المفاهيم المرتبطة بـ «فلسفة الأصول» عمل هابرماس، في كل كتاباته تقريبا على إبراز كل ما يظهر الميل التحريري للفلسفة . وذلك بإعادة صياغة إشكالية تكوين تداخل الذوات من خلال عملية التواصل . ومن ثم تعود للفكر الفلسفي حيويته كفكر نقدي يتأسس داخل مشروع أسماه هابرماس بـ «التداوليات الكلية» Pragmatique universelle مستلهما بعضا من عناصره من العطاءات النظرية لكارل اوتو آبل K.O.Apel . ويتعلق الأمر في هذا المشروع بدراسة البعد التداولي للخطاب بدل الاقتصار على المقاربة المعجمية أو الدلالية، كما يفعل بعض المفكرين اللسانيين، وهذا البعد التداولي يحيل إلى وجود متكلم Locuteur وبالتالي إلى وضعية تواصلية، يتدخل فيها لتحديد قيمة الحقيقة . وفي هذا السياق سيدرس هابرماس البنيات المنطقية لتواصل يشتغل بشكل تام وعلى الوجه الأكمل وذلك بالكشف عن «وضعية للكلام المثالي» تستند على نظرية للحقيقة يتم التوصل إليها اعتمادا على إجماع Consensus يحصل بفضل المناقشة Discussion.

---

(1) Ibid ; P. 39.

يتعلق الأمر عند هابرماس إذن بإضفاء طابع عقلاني على فعل التحرير الذي تقوم به الفلسفة وهذا تطلب منه الرجوع إلى «بنية اللغة» ذاتها لصياغة نظرية فلسفية تستمد مقوماتها من عقل عملي منتج لتواصلية Communicationnalité خطابية. وانطلاقا من هذا العقل يقوم هابرماس باستنتاج ترنسندنتالي للبنيات المعيارية كالقانون والأخلاق بهدف التفكير في إمكانية «هوية جماعية» كونية تواجهها، حاليا، المجتمعات المعاصرة. ومسألة هذه الهوية هي ما يفترضه كل حوار داخل ما يسمى بـ «الرأي العام». فجدل العقلنة والتقدم، عند هابرماس، يظهر أن المرحلة الحديثة لم تحقق مشروع الحداثة، كما سنرى فيما بعد، فالتقدم يتطلب ثمنا يصعب تحديد قيمته، وفي نفس الآن نشهد على نوع من «استعمار» Colonisation للعالم المعيش بمتطلبات النظام الاقتصادي ـ الاجتماعي المدعوم بنوع من العقلانية «الضيقة».

إن الموضوع الأساسي للفلسفة هو «العقل»[1] في نظر هابرماس، لأن الفلسفة، منذ بداياتها، تحاول أن تفسر العالم في شموليته، وتعدد الظواهر في وحدتها. ومن أجل ذلك فهي تستعين بالمبادىء التي يتعين اكتشافها في العقل نفسه. ولذلك «إذا كان هناك شيء تشترك فيه المذاهب الفلسفية، فهو التفكير في الكائن أو في وحدة العالم من خلال تفسير للتجارب التي يقوم بها العقل»[2].

واليوم لا يمكن للفلسفة أن تقدم نفسها في اتجاهات معرفية شمولية ذات نزوع كلي لمجمل العالم والطبيعة والتاريخ والمجتمع، وذلك ليس بسبب تقدم العلوم التجريبية، ولكن «لأن الوعي التأملي الذي يواكب هذا التقدم والبقايا النظرية لمختلف التصورات التي تكونت عن العالم، ثم الانتقاص من قيمتها»[3] لذلك فإن التفكير الفلسفي وعيا منه بهذه الوضعية يحاول القيام برجوع نقدي نحو ذاته سواء تعلق الأمر بالمنطق أو بنظرية العلوم، بنظرية اللغة وبالدلالة وبالأخلاق أو بنظرية الممارسة، وحتى بعلم الجمال «فالفلسفة اهتمت دائما بالشروط الصورية لعقلنة الفعل المعرفي، وبالتفاهم Intercompréhension والفاعلية: وهذه الشروط يمكن البحث عنها سواء في الحياة اليومية أو على مستوى التنظيم المنهجي للتجارب أو أيضا بالترتيب المنهجي للمناقشات[4]».

---

(1) Habermas (J) : "Théorie de l'agir communicationnel", op. cit. t.I, P. 17
(2) et (3) Ibid P. 17.
(4) Ibid ; P. 18.

يبدو أن هابرماس يريد أن يدخل السؤال الفلسفي في نظرية عامة للتواصل وللبرهنة وللحقيقة أساسها نظرية للمجتمع تتخذ من النقد أسلوبا وأداة، وذلك من خلال تصفية الحساب مع التراث الفلسفي الميتافيزيقي والنزعة الوضعية ومساءلة كل الاجتهادات الفلسفية لما بعد الميتافيزيقا، كل ذلك بهدف صياغة نظرية فلسفية للحداثة وللعقلانية.

2. البرنامج الإبستمولوجي لهابرماس أو تهافت الفلسفة الوضعية

إذا كان هابرماس قد حاول إعطاء نفس جديد للفكر الفلسفي كفكر نقدي ومناهض للنزعة الكليانية المستندة إلى تصورات ميتافيزيقية، فإن النص الهابرماسي، منذ كتاباته الأولى إلى «نظرية الفاعلية التواصلية» يسكنه هاجس نقدي حاسم، يتمثل في الكشف عن الآليات المتعددة التي تتحكم في الفلسفة الوضعية وفي العلموية Scientisme، سواء كانت لهذه الآليات ارتباط بالسلطة الرمزية والسياسية والعلمية أو لها علاقة بما يسميه هابرماس بـ «مصلحة المعرفة» Intérêt de connaissance *.

ليس هناك «نقاءًا علميا». والعلم، في سياق العقلانية التقنية، ملتصق بحسابات السياسة وبالتالي فإنه يتضمن إرادة للقوة يتعين القيام بحفرياتها والبحث عن الأساس النظري الذي يعطيها شرعيتها «العلمية». هذه العملية استدعت من هابرماس أن يوجه نقده للوضعية Positivisme وللنزعة التقنية Technicisme وللعلموية أو النزعة العلمية باعتبارها كلها تعبيرات مختلفة للإيديولوجيا المكونة للحداثة التقنية.

إن الوضعية، في نظر هابرماس، تعبر عن أسلوب لتحنيط العلم لدرجة يغدو فيها إيمانا مقتنعا بقدرته الخارقة على تقديم أجوبة على كل الأسئلة ووضع الحلول لكل المشاكل. أما النزعة التقنية فإنها تعمل على توظيف المعرفة العلمية والتقنية بوصفها ايديولوجيا. ويرى هابرماس أن الكشف عن مكونات هذا الخطاب الوضعي معناه نقد الحداثة في تعبيرها «الايديولوجي»، وفي نقده هذا ينطلق هابرماس من العمل التدشيني الذي قام به كل من هوركهايمر وأدورنو في «جدل العقل» حينما أخضعا نتائج العقل وتجليات الحداثة التقنية للنقد، وكذلك من المجهود التأسيسي الذي بذله ماركوز في

*فضلنا ترجمة كلمة Intéret بمصلحة نظرا لغياب مصطلح عربي آخر يفيد ما يعنيه هابرماس بهذه اللفظة.

«الانسان ذو البعد الواحد» فجدل العقل، عند ماركوز، يتخذ شكلا أكثر نسقية بصياغته لتركيب نظري يعتبر فيه أن «العلم والتقنية أصبحا بدورهما إيديولوجيين»[1].

ولعل التحالف العضوي الذي جمع، في الزمن الحديث، بين العلم والتقنية والصناعة والجيش والادارة جعل من العلم والتقنية أول «قوة منتجة»، مما أدى بهابرماس إلى القول بضرورة مراجعة المفهوم الماركسي لقيمة العمل. فالعمل الذهني والفكري البالغ التطور أصبح، في المجتمع الصناعي المتقدم، القاعدة الفعلية للاقتصاد. وما دام الأمر كذلك فإن الدول تتدخل في كل القطاعات لتوجيه الاستثمارات بواسطة أجهزة إدارية وأطر تعرف كيف توظف العلم في عملية صنع القرار. الأمر الذي أدى إلى تسييس العلم والتقنية، وإلى علمنة Scientifise السياسة. و«منذ أن أصبح التقدم العلمي والتقني هو المحرك الحقيقي لتوسع القوى المنتجة، فرضت التصورات العلموية بقوة أكبر ـ وأنا هنا أفكر في انتصار النزعة الوضعية مثلا»[2]. وأسمي العلموية «الايمان بالعلم في ذاته، بمعنى، الاقتناع بأنه لا يمكن أن نعتبر العلم باعتباره شكلا من الأشكال الممكنة للمعرفة، بل على العكس من ذلك يتعين المطابقة بين العلم والمعرفة»[3] وبالتالي فإن العلموية هي المحاولة التي تجعل العلوم وحدها تحتكر المعرفة، والارادة التي تفرض على العلوم نفسها هذا المفهوم الحصري الخاص.

ويلاحظ هابرماس أن العلموية كان من الممكن أن تبقى مشكلة ذات ارتباط بالخلافات النظرية داخل الجامعة، لكن منذ أن أصبح العلم قوة منتجة ذات وظائف اجتماعية فان التعامل مع هذه النزعة أصبح مختلفا. ففي «الأنظمة الصناعية المتطورة يكون النمو الاقتصادي ودينامية التطور الماكرو ـ سوسيولوجي تابعان، من الآن وبشكل واسع، للتقدم العلمي والتقني. فحينما يصبح العلم أكثر القوى المنتجة أهمية وحينما يعود إلى الأنظمة الفرعية في التعليم والبحث في أمر الأولوية الوظيفية في تنظيم تطور المجتمع، فإن المفاهيم توجه المعرفة النظرية والمنهج العلمي وتقدم العلوم تجد نفسها قد اتخذت دلالة سياسية مباشرة»[4] لذلك فإن التأويل العلموي للعلم والنقد الذي يمكن أن نوجهه له غير بعيدين عن الاعتبارات السياسية. إن العلم يلعب دورا أساسيا في إعطاء

---

(1) Habermas (J) : La technique et la science comme idéologie", Paris, Ed. Gallimard, 1973, P. 62.
(2) Habermas (J) : "Aprés Marx", op. cit, P. 303.
(3) Habermas (J) : "Profils philosophiques et politiques", op. cit, P. 44.
(4) Ibid, P. 45.

المشروعية Légitimité للنظام الاجتماعي والسياسي الحديث. وبالتالي فالنـزعة العلمية لها أبعاد لا تتمثل فقط في جعل المؤسسات العلمية أكثر إنتاجية وإنما أيضا في إضفاء الشرعية على النظام السياسي والاجتماعي المؤسس على العقلانية التقنية. وبمعنى آخر أنه إذا كان الدين أو الميتافيزيقا، في وقت من الأوقات، يلعبان دور المانح الرمزي للمشروعية فإن العلم، في الزمن الحديث، حل محلها. بل إن العلموية أصبحت تعتبر رؤية للعالم تجعل من العلم النشاط الإنساني الوحيد الحامل للمعنى.

إن هابرماس يذهب بعيدا بخصوص مسألة المشروعية في المجتمع الصناعي المتطور، حينما يعتبر أن «أزمة المشروعية هي، بطريقة مباشرة، أزمة هوية»[1] وما دامت التصورات التقليدية عن العالم، سواء كانت سحرية، دينية أو ميتافيزيقية، لم يعد لها دور حاسم في خلق التوازن داخل المجتمع، وأصبحت هامشية في بعض الأحيان، فان العلم باعتباره قوة منتجة وإيديولوجيا أصبح هو البديل الوحيد الممكن في المجتمع الصناعي المتطور. ليس هناك أي اختيار بالنسبة للفهم العلموي، وبالتالي يتعين على المرء أن يكون «واقعيا» بل «وفعالا» في مبادراته داخل البنية التي نسجت خيوطها فلسفة العلم الوضعية.

غير أن هابرماس يريد، بالضبط، إزاحة القناع عن هذا الوهم العلموي الذي يسعى إلى جعل النموذج التكنوقراطي هو النموذج الأسمى في العلاقة بين القرار السياسي والمعرفة العلمية. فالنظرية النقدية ليست نظرية تأملية، لذلك فإن دورها يتمثل في القيام بمحاكمة نقدية لأساسيات الفلسفة العلموية وبنقد للايديولوجيا. ومن تم ففي أفق نقد «الوهم الموضوعاتيObjectiviste للعلوم»[2]، والكشف عن «وهم النظرية الخالصة» يبحث هابرماس على نوع من التجذير الانتروبولوجي للممارسة النظرية العلمية، وعلى ابراز مختلف المصالح التي توجه هذه المعرفة بشكل خاص.

إن نقد هابرماس للوضعية ينصب على تعبيرها الفلسفي كما على دورها الايديولوجي. ذلك أن العلمي والايديولوجي متلازمان في الوضعية المعاصرة، ثم إن الوضعية والنزعة التقنية تشكلان وجهين لنفس الوهم الايديولوجي. بل إن الوضعية تسجل، ما يسميه هابرماس بـ «نهاية نظرية المعرفة»[3]. وحجر الزاوية التي تتكيء عليه

---

(1) Habermas (J) : "Raison et légitimité, problèmes de légitimation dans le capitalisme avancé", Paris , Ed. Payot, 1978 P. 71.

(2) Habermas (J) : "La technique et la science comme idéologie", op. cit, P. 141.

(3) Habermas (J) : "Connaissance et intéret", Paris, Ed. Gallimard, 1976, P. 101.

الوضعيـة هو مبـدأ العلموية الـذي يفترض، كما قلنا، أن معنى المعـرفة يتحـدد بما تحققه العلوم ويمكن، بالتالي أن يفسر بواسطة التحليل المنهجي للأساليب العلمية.

ويتصـور هابـرماس أنـه إذا كانـت الوضعيـة قد جـاءت على أنقاض التصـورات التقليديـة للعالم ولا سيما الميتافيـزيقية منها، وإذا كـان المفهوم الوضعي للـواقعة يسلم بأن وجود المعطى المبـاشر بوصفـه معطى جوهـريا، فإن الـوضعية تؤسـس، شاءت أو أبت، فلسفـة في التاريخ. ولـذلك فكل نقد لهذه النـزعة يجب أن يـراعي ضرورة إعادة الاعتبـار للتفكير الذي تم نفيه أي بتنشيط المعـرفة العلمية الحقة من خلال القيام بـ «إعادة بناء ما قبل ـ تاريخ الوضعية الجديدة»[1]، واستئناف النظـر في «التأمل الذاتي» Autoréflexion كحركة فكـرية وكفعل فلسفي يعطي للعلوم التجـريبية قيمتها الاجرائيـة الحقيقية وللعلوم الاجتماعية مكانتها الفعلية في التقسيم للعمل النظري.

وهـابـرمـاس يعلن عن هـذه النيـة منذ المقـدمـة التي استهل بها كتـاب «المعـرفـة والمصلحة» حين أكد على أنه يحاول القيام بـ «إعادة بناء ما قبل تاريخ الوضعية الحديثة من منطلق القصد المنهجي في تحليل ارتباط المعرفـة والمصلحة. فأي واحد يتتبع عملية تفكك نظـريـة المعـرفة والتـي حلت محلها نظـريـة للعلم، يمـر عبر درجـات مختلفـة من إهمال للتفكير. ان الوضعية هي نفي التفكير»[2].

إن تحليل هذا الارتباط العضـوي الموجود بين المعرفة والمصلحـة من خلال الفلسفة الوضعيـة، في تعبيراتها التقليدية والحديثـة، يجب أن يعتمد على أطـروحة مفادهـا أن نقدا جذريا للمعـرفة لا يمكن أن يتم إلا في شكل نظرية للمجتمع من جهـة، وبالقيام بتفكير حول العلم في ذاته من جهة ثانية.

غير أن بعض الباحثين يعتبرون أن هابرمـاس يسقط في خلط كبير، في عملية نقده للوضـعية، بـين الوضعية المنطـقية والفلسـفة التحـليلية والـعقلانية النـقـدية لكـارل بوبر Karl Popper. وجمعـه لهذه الاتجاهات في جبهـة واحـدة لمواجهتها. يعنـي أنهم «لا يقبلـون إلا وجها واحـدا للعقلانيـة، معطى من خلال الضبط الـذاتي للعلوم الـرياضيـة والفيزيائية. إنهم يـرفضون كل قيمة للمعرفة، وأحيانـا لا يعترفون بأية دلالة من دلالاتها، ليس فقط للتأمل الذاتي الـذي تطالب به الفلسفـة باعتباره منهجهـا الخاص، ولكن أيضا

(1) Ibid ; P. 335.
(2) Ibid ; P. 31.

للتفهم Compréhension الـذي يـؤسس الاهتمامـات التأويليـة، كما أنهم، في الأخير، يستبعدون من مجال العقلانية كل أحكام القيمة من النوع الاخلاقي مثلا»[1].

فهـابرمـاس، في نقده للـوضعية، في مختلـف تعبيـراتها، كان يهـمـه إبـراز أن مسـألـة التفهم لا يمكن استبعادهـا من طـرف الـوضعيـة بإسم العلوم التجـريبيـة لأن «تكوين هذه العلـوم نفسه يتضمن بالضرورة، لحظة تفـهـم حتى ولـو كان مغلفا. ثم في مرحلة ثانية عندما تتـأكد شرعية التفهم باعتبارها مؤسسـة للعقلانيـة، موسـعـة لمجلل الابستمولوجيا ضد التضييق الوضـعي لما هو عقلاني، يتعين مواجهة ادعاء علوم التأويل Sciences hérméneutiques في كونها تشكل البديل الوحيد للـوضعية، وبالتالي الخطاب الوحيد الذي يمكن إقامته خارج العلوم الفيزيـائية والرياضية. بل إن هابرماس ومن أجل دحض الادعاءات الكونيـة للتأويلية حاول أن يثبت بأن الهيرمينوتيقـا، نفسها، غير ممكنة إلا إذا تـوفـرت لحظـة التـأمل الـذاتي الـذي يشكل المنهج الخاص لمجمـوعـة ثـالثـة من الاختصاصات العقلانية المتمثلة في العلـوم النقدية (الماركسية، التحليل النفسي والفلسفة بوصفها نظرية نقدية).

وهكذا فإن الصراع مع فهم غادامير للعلوم التأويلية* لا يقل أهمية عن السجال مع الاتجاهات الوضعية لأن كل هيرمينوتيقا لا تستنـد إلى الاهتمامات النقدية لا يمكن ان تقوم إلا بدور إيديولوجي وتعزز وظيفة المانح للمشروعية التي تؤديها الوضعية.

إن هـابـرمـاس واصـل، بشكل من الأشكـال، السجـال المنهجي والفلسفي والايديولوجي الذي جمع بين كارل بوبر وتيودور أدورنو في الستينات، غير انه ركز نقده على نصوص هـانس آلبير Hans Albert ودمج في اتجاه الـوضعية أكثـر من شخصيـة فكريـة وعلمية حتى ولـو كانت تختلف فيما بينهـا، كل ذلك من أجل إبراز أهميـة التأمل الذاتي** كمنهج وكرؤية. وهذا المنهج يتمثل في تطبيق التأمل الـذاتي على العلوم وعلى الوضعية، ما

(1) Rivelaygue (J) : "Habermas et le maintien de la philosophie", Archives de philosophie, N45, 1982, P. 265.

* سنتعرض لبعض مظاهر الخلاف المنهجي والفلسفي بين هابرماس وغادامير فيما بعد.

** يفهم من التأمل الذاتي ما يلي : هو العملية التي من خلالها يتساءل الوعي المتعقل في شروط تفكيره. ويعتبر هابرماس ان هذا المنهج طوره فخته وصاغه، بشكل مختلف، كل من هيغل، شيلنغ وفرويد. وبالرغم من ذلك فان هابرماس يعترف بغموض مصطلح التأمل الذاتي لانه «يمكن ان يكون هو التفكير في شروط إمكان الذات العارفة، المتكلمة والفاعلة عامة، ومن جهة ثانية التفكير في الحدود الموضوعة بشكل لا واع والتي تخضع لها عملية تكوين ذات بعينها.»

"Connaissance et intéret", PP. 364-365-366.

دام الأمر يتعلق بـالتفكير في الشروط التي ساعدت هذه العلـوم على التكون وعلى التفكير، كذلك، في الشروط التـاريخية التي سمحت للعلموية بـاحتلال الساحة العلميـة وبالقيام بدورها الايديولوجي.

غير أن العلوم الفيزيائية والرياضية والنزعة الوضعية لا يعترفان بمنهج التأمل الذاتي ولا يقـران لـه بأيـة قيمـة، ويعتبران أن تشكيل مـوضـوع خصـوصي يتمثل في التشخيص الموضوعي Objectivation هو الانتاج الممكن للمعرفـة. وبالتالي فإن تطبيق منهج تحليلي على تشكيلـة نظريـة تفنـد هذا المنهج لا يـؤدي إلى إنتـاج عمل نقـدي بقدر مـا يفضي إلى مواجهة نوعين من الوثوقية Dogmatisme كل واحـد منهما يلغي الآخر. بل إن «هـانس آلبير» يذهب بعيـدا حين يعتبر أن النظرية النقديـة تحول دون كل مناقشة وكل نقـد لأنه لا يمكن أن نخضع للنقد إلا ما يمكن الحكم عليه.

وهكذا فإن «العقلانية النقدية لكارل بوبر، والذي يواجه بشكل حازم الاطروحات المركـزيـة للـوضعيـة، تسقط تحت ضـربات نقـد مدرسـة فـرانكفـورت التـي تخلط بين النزعـات، في حيـن أن تأويل علوم الطبيعة المعروف عند هذه المدرسة هو أقرب للوضـعية ممـا هي عليـه فلـسفة بوبر»[1] وهانس آلبير بـدوره، يجمع في نقده كل مـن غادامير وآبل وهابرماس وينعتهم بكونهم بقوا سجناء النظرة الميتافيزيقيـة. فاستلهامهم لفلسفة فخته أو شيلير Scheler دليل على ارتباطهم بالتراث الفلسفي الميتافيزيقي: «إن نقد الايديولوجيات المؤسس على فلسفة معنية للتاريخ يحل، بطريقـة متميزة، محل فكر الخلاص والانقاد عند شيلر»[2].

لذلك ومن منطلق الدفاع عن العقلانية النقدية كما أسسها ودافع عنها بوبر، عمل هـانس ألبير على مواجهـة أطروحـات هابـرمـاس، ومن يعتبرهم قريبين منـه، مؤكـدا أن عقلانيتهم، في الحقيقة، لا تستجيـب لشروط العقلانية. وبأن نقدهم يفتقـد إلى اخلاقية النقاش والحوار. ولأن «العقلانية، والحرية والنزعـة الاصلاحية ترتبط كلها فيما بينها بشكل وثيق». أما «العقـل الكلي لفلاسفة التـاريخ، على العكس من ذلك، فهـو في الواقع وفي النهاية لا عقلاني وقمعي: إنه لا عقل مموه»[3].

---

(1) Albert (H) : "La sociologie critique en question", Paris, Ed. PUF, 1987, P. 40.
(2) Ibid ; PP. 119-120.
(3) Ibid ; P. 202.

إن الخلاف الجوهري بين هابرماس وبين النزعات الوضعية يتمثل في الموقف من العلوم التجريبية أولا، ومن الدور الايديولوجي الذي تؤديه هذه النزعات داخل المجتمع الصناعي المتقدم، ومهما أكد الوضعيون على الوظيفة المحايدة للعمل في المجتمع «الديمقراطي» وعلى الموضوعية التامة لعملياته ونتائجه، فإن هابرماس يعتبر أن موضوعية التجربة العلمية نفسها تتجذر داخل لحظة تتداخل فيها الذوات وتتفاعل من خلالها اللغة المشتركة. وهذا وحده كاف لفرض مشروعية المنهج التأويلي على الوضعية، ما دامت كل مقاربة عقلانية، بما فيها مقاربة العلوم التجريبية ـ التحليلية، تجد نفسها، كذلك موضوعة في الأفق القبلي للتفهم داخل اللغة المشتركة.

إن العلموية تعمل دوما على إخفاء هذه اللحظة التي تسمح للذوات بالتفاهم وبالتفاعل.

في حين أن هابرماس يرى أن التفهم داخل اللغة المشتركة يتجذر حتى داخل الجماعة التواصلية Communauté communicationnelle للباحثين أنفسهم المنخرطين في عملية تأملية معينة. إن اللغة، كما يقول، تشكل «بنية تساعد، داخل علاقة حوارية، على التعبير عن الفردي من خلال المقولات العامة. إن التفهم التأويلي يجب أن يخدم هذه البنية نفسها، والتي تقوم بوظيفة التنظيم المنهجي للتجربة التواصلية اليومية للتفهم مع الذات ومع الآخرين»[1].

ليست هناك نظرية خالصة، وإذا وجد من يدعي ذلك فإنه، في حقيقة الأمر يستهلك وهما يتعين استنطاق خلفياته. كما أنه يصعب الاتفاق مع الادعاء الوضعي الذي يتمثل في تعميم نموذج العلوم الدقيقة على العلوم الاجتماعية بدون مراعاة الشروط الابستمولوجية لهذه العلوم. وبالتالي فإنه من مهام الابستمولوجيا النقدية وضع تصنيف للعلوم يحدد خصوصية كل علم على حدة ويرسم الحدود المنهجية والمفاهيمية والاجرائية لكل حقل علمي.

فالعلوم التجريبية التحليلية لا يمكن فرض مفاهيمها ومناهجها على العلم التاريخي مثلا، كما أن الخطاب التاريخي لا يخضع لشروط الصياغة الصورية للغة المنطقية ـ الرياضية. ذلك لأن الخطاب التاريخي في حاجة، دوماً، إلى إعادة تشكيل موضوعه، والمؤرخ يقوم بدور «المؤول» واللاهث وراء فهم لحظات الماضي، وتأسيس نوع من التواصل بين عالمين: عالم الحاضر وعالم التراث.

(1) Albert (H) : "La sociologie critique en question", Paris, Ed. PUF, 1987, P. 40.

إن هـابرمـاس حاول ممـارسة نقـده على جبهتين : جبهة السجـال العلمي مع من يسميهم بـالوضعيين على اختـلاف نزعاتهم ومنطلقـاتهم، وجبهة الصراع الايـديولـوجي. فليس هناك حيـاد في الممارسة العلمية. وكل نمط معـرفي يخضع لتوجيه مصلحة خـاصة. ومن أجل الكشف عن المصالح الثاوية وراء كل نشاط معرفي يتعين ممارسة التأمل الذاتي في بعده الاستكشافي النقدي، وليس بالمعنى الذي تعطيـه له فلسفة الوعي. ويعتبر هابرماس أنه «يمكن توضيح ارتباط المعـرفة بالمصلحة الذي تم اكتشافه بطـريقة منهجية وحمايته من أخطاء التأويـل باللجوء إلى مفهـوم مصلحة العقل الـذي طوره كـانط وخصوصـا فخته. ولكنه لا يكفي العودة إلى فلسفة التأمل في دورها التـاريخي لإعادة الاعتبار، هكذا، لابعاد التأمل الذاتي. لذلك فإن مثال التحليل النفسي سيسعفنا في إثبات أن هذه الأبعاد تنفتح، من جديد، على أرضية الوضعية نفسها : «إن فرويد طور إطارا للتأويل من أجل عمليات تكوين مشوشة ومنحـرفة والتي يمكن أن توجه نحو مسالك عـادية بواسطة تأمل ذاتي ذي توجه علاجي» [1].

إن دور فرويد، بالنسبة لهابرمـاس، لا يقل أهمية من انفتاحات نيتشه، وذلك كله من أجل إبراز مختلف المصالح التي تتحكم في عمليات المعرفة.

فالبحث التجريبي ـ التحليلي يشكل استمـرارا منهجيا لعملية تعلم تراكمية حيث تتحقق على المستـوى ما قبل ـــ العلمي، في المجال الـذي يمارس فيه النشـاط الآداتي. أما البحث التأويلي فـانه يعطي شكـلا منهجيا لعمليات التفـاهم بين الأفراد (وتفهـم الذات كذلك) حيث، على المستوى ما قبل ـ العلمي، يستقر في جملة من التقاليد وأشكال التراث التي تكـون التفـاعلات التي يتم توسيطهـا من خلال الـرموز. إن الأمـر يتعلق «في الحالة الأولى بإنتاج معرفة قابلة للاستغلال تقنيا، وفي الحالة الثانية بعمليـة توضيح لمعرفة ناجعة عمليا» [2].

وتجدر الاشارة إلى أن هابـرماس يميز بين ثلاثة أنـواع من المصالح، كل نوع يضبط مجال بحثي معين وبالتالي يشير إلى مجموعة محددة من العلوم :

هناك أولا، ما يسميه بالمصلحة التقنية Intérêt téchnique أو الأداتية التي تنظم «العلوم التجريبية، التحليليـة» وهذه العلوم تتحدد في كون دلالة ملفـوظاتها الممكنة ذات

---

(1) Habermas (J) : "Connaissance et intérêt", op. cit, P. 223.
(2) Ibid ; P. 225.

الطابع التجريبي تكمن في قابليتها للاستغـلال التقني. وبالتالي فإن الامكان الأكثر اقترابا من الإيديولوجيا يتمثل في هذا الارتباط بين المعرفة التجريبية والمصلحة التقنية.

المجال الثاني للمصلحة له طابع عملي Pratique وهو مجال التواصل الذي يحصل بين البشر ويقابلـه حقل «العلوم التاريخية ــ التأويلية». ويعتبر هابرمـاس أن الافتراضات التي تقترحهـا هذه العلـوم لا تنطلق من تنبـوء ممكن لقـابلية استغـلالها التقني، وإنها من «تفهم المعنى Compréhension de sens» وهـذا التفهم يتم عبر قناة تـأويل الخطابـات المتبادلـة داخل اللغة العاديـة، ومن خلال تأويل النصوص التي حملهـا التراث، وكذلك بفضل استبطان المعايير التي تؤسس الأدوار الاجتماعية.

أمـا النوع الثـالث من المصـالح فهو مـا يسميه بـ «المصلحة من أجل التحـرر» Intéret pour l'émancipation أي تلك المصلحـة المرتبطـة بحقل «العلـوم الاجتماعيـة النقديـة» وهذه العلـوم هي نقدية، عنـد هابـرماس، منذ تكـوينها. ويتعلق الأمـر عنده بـالماركسية والتحليل النفسي وفلسفـة التأمل الذاتي. وهـذا مـا يميزهـا، ليس فقط، عن العلوم التجريبية ـ التحليلية، ولكن أيضـا عن العلوم التاريخية التأويلية. إن المصلحة من أجل التحرر هي التي تنظم التنـاول النقدي. وهـذه المصلحة يسميها هـابرماس أيضـا بـ «التأمل الذاتي». إنها تـوفر الإطار المرجعي للافتراضـات النقدية باعتبـار أن التأمل الذاتي يحرر الذات من تبعيتها للقوى الراكدة والجامدة.

يقول هابرماس: «إننا نتحدث عـن المصلحة التقنية أو العلمية للمعرفة في نطاق ـ أنه بـواسطة منطق البحث ــ أن الأوساط الحيـة للنشاط الآداتي وللتفـاعلات المصـوغة من خلال الـرموز، تكون، بشكل مسبق، معنـى صحة الملفوظـات الممكنة، لدرجـة أن هذه الملفوظـات الممثلة لمعـارف، ليست لها من وظيفـة إلا داخل هذه الأوسـاط: إنها مستغلة تقنيا، أو لها فعـالية عمليـة»[1] ويضيف إن «المصـالح التي توجـه المعـرفة تتحـدد فقط بالقيـاس إلى مشـاكل المحـافظـة على الحيـاة التي تطـرح موضـوعيا» لأن «المصـالح هي التوجهات الأساسية المرتبطة بشروط رئيسية معينة لإعادة الانتاج والتكوين الذاتي الممكنين للنوع البشري، أي المرتبطة بالعمل وبالتفاعل»[2].

إن هابـرماس سعى إلى تأسيس إبستمـولوجيـا نقديـة لتحديد مجالات كـل نوع من العلوم على حـدة واكتناه المصـالح التي تحرك مختلف المعـارف التي تنتهجها هـذه العلوم،

(1) Habermas (J) : "Connaissance et interet", op. cit, P. 223.
(2) Ibid ; P. 230.

سواء كـانت مصالح تقنية أو عمليـة، ذات طبيعة أداتية أو تـواصلية، المهم أن لا يحصل خلط بين المستويـات وأن لا يفرض نموذج واحـد على جميع المجالات المعرفيـة الأخرى كما تفعل النزعـة الوضعية. ولا شك أن هـابرمـاس يميل نحو المصلحة التحـررية التي تخولها العلوم الاجتماعية النقـدية. فهذه المصلحة لا تكون نشطـة إلا داخل الفعل النقدي الذي يعري المصالح المحركة للأنشطة التي تسمح بها الضغوط المؤسسية وتوجه اكتشاف أشكال هذه الضغوط نحو التحرر.

فالمصلحـة التقنية هي التي تميـز بعد العمل، والمصلحـة العملية يـوصف بها بعد التفاعل (أي الـوعي الذي يوصل الغـايات المستهـدفة من خلال الممارسـة وانعكاس ذلك على الجسم الاجتماعي) وأخيرا المصلحـة التحررية المؤسسـة، كما رأينا، على التأمـل الذاتي للعلوم النقدية باعتبار أن هذه المصلحة تتجاوز المصلحة العملية وتتضمنها في نفس الآن.

ويلاحظ كثير من الباحثين في فكـر هابرماس أن توظيفـه لمفهوم «مصلحة العقل» والمصلحـة العملية يقـربـه كثيرا من كـانط لذلك فإنـه علينـا «أن نفهم مصطلح «عملي» بالمعنى الكانطي»[1].

وبدون أن ندخل في تفاصيل الحديث عن مدى تأثير كـانط في فلسفة هابرماس أو حضور كل من فخته وهيغل وماركس وآخرين، تجدر الملاحظة أن ما كان يشغل هابرماس هو تطـوير النظـرية النقـدية والارتقـاء بها إلى نظريـة للمجتمع، وبالتـالي تأسيس نظـرية تواصليـة في الحداثة. وهذا المشروع لم يكن بالامكـان صياغة عناصره دون الابتعـاد النقدي عن الأنسـاق الفلسفية التي تلغي السـؤال والنقد حتى ولـو كـانت تدعيـه في مرحلـة من المراحل، ودون الكشف عن تهافت الفلسفة الـوضعية وخلطها الكبير بين العلوم الـدقيقة والعلوم الاجتماعية ونظرتها الاحـادية للعقلانية، ودورها الايديـولوجي الواضح في المجتمع الصناعي المتقدم.

وبالرغم من أن هابرماس يجمع في نقده للـوضعية كلا من العلموية والنزعة التقنية و«العقلانية النقدية» لكارل بوبر وتلميذه هانس آلبير فانه، مع ذلك، يحاول ايجاد القواسم المشتركة التي تلتقي حـولها هذه النزعـات بالـرغم من الاختلافات الظـاهرة بينهم ولا سيما بخصوص مفهوم العلم والتقدم والعقلانية والعلوم الاجتماعية والايديولوجيا.

(1) Raulet (G) : Préface à l'édition française de : Théorie et pratique", tome1 ; Paris, Ed. Payot, 1975, P. 21.

ويـلاحظ هـابرمـاس أن الـوضعية لا تفكـر في الشروط الخاصـة التي سمحت لها بالبروز لـذلك التجأ إلى القيام بآركيولـوجيا للنزعـة الوضعية مبينا أن الـوضعية لم تكن من الممكن أن تظهر لـولا إقصاء مفهوم نظـرية المعرفة . هـذا أولا. ثم ان الوضعية ، ثـانيا ؛ لا تفكـر في أحكام القيمـة التي تقوم بها حين تـدافع عن مفهوم معيـاري للعلم . ثالثـا ؛ إن الوضعية حين تطـرح العلم باعتباره النشاط الوحيـد المنتج للمعنى ، فإنها ، بذلك ، تلغي التفكير في عقلانيـة القرارات الاخلاقيـة والسياسية . صحيـح أن الوضعية تسلم بنجـاعة الموقف التكنوقراطي ، ولكـن هذا التسليم يسمح بالقول بأن الوضعيـة تتحالف مع شكل السيطرة الذي لا ينظر إلى الممارسـة إلا باعتبارها وسيلة للتلاعب والتـوجيه . كل هذا معناه أن الـوضعيـة حين تقـر للقـرار التقنـي بهذه السلطـة تحت تبريـر الاعتراف بـ «الضغـوط الموضوعية» فإنها تخفي المصالح الاجتماعية الآنية والدائمة التي تكمن وراء كل قرار.

لـذلك فإن الـوضعيـة ، رابعا ؛ تمتنـع عن التفكير في الدور الـذي تقـوم بـه داخل السيـاق الاجتماعـي الحديث ، والمتمثل في منح المشروعيـة للسيطـرة التقنيـة وللمصـالح القائمة .

وفي الأخير ، يرى هابرماس ، أن العلموية تنطق بحكم قيمة ضمني حين تؤكد على كون العلم هو النشاط الوحيـد الحامل للمعنى ، وعلى اعتبار البحث العلمي وكأنه الإطار الوحيد الذي يسمح بسلوك أخلاق عقلانية . يقـول هابرماس : «إن نقدي يتوجه ، بشكل استثنائي ، ضـد التأويل الوضعي لأساليـب البحث . لأن الوعي المغلوط بممارسـة سليمة وصحيحة يؤثـر بطريقة عكسية على هذه الأسـاليب . إنني لا أختلف مع الرأي القائل بأن النظرية التحليلية ساهمت في تـوضيح القرارات المنهجية لممارسة البحث ، ولكن مضمرات الوضعية لها مفعول مقيد حين تخنق التفكير الـذي كان من الضروري أن يفرض على حدود العلوم التجريبية والتحليليـة (والصورية) . أن الوظيفة المعياريـة المضمرة للوعي المغلوط ، هي التي أوجه إليها نقدي»[1].

إن هابرمـاس في سياق كشفه عن تهافت الفلسفة الـوضعية أو التعبيرات الفلسفية والايديولوجية للوضعية ، وفي إطار انخراطه في النقاش النظري والايديولوجي الذي دار بين بوبر وآدرنو وبين آلبير وهابرماس نفسه ، يعترف أن كارل بوبر ليس فيلسوفا وضعيا عاديا . إنه عقل جسور ، بل ان «عمل بوبر ينتمي ، لـربما ، لسلسلة النظريات الفلسفية الكبرى ،

(1) Habermas (J) : "De Vienne à Francfort, la querelle allemande des sciences sociales", op. cit, PP. 167-168.

بالضبط، لأنه حافظ على نوع من التبادل الذكي مع التقاليد التي لا تعرف أكثرية أتباعه منها الا الاسم»[1].

ولعل نقد هابرماس للنزعات الوضعية يدخل ضمن برنامجه العام من أجل تأسيس إبستمولوجيا نقدية تمارس العلم دون إغفال مضمراته الإيديولوجية، وتفرق بين مستوياته والمصالح المختلفة التي تتحكم في حقوله، كل ذلك من منطلق نقد كلي للإيديولوجيات. إنه يسعى إلى إرث ما يشكل الجوانب النقدية في تاريخ الفلسفة بدمجها في سياق تفكيره، وبالابتعاد عنها كلما تبين أنها لا تخدم المصلحة التحررية. لذلك فنقد هابرماس للمعرفة وللوضعية لا يكتمل إلا بتأسيس نظرية اجتماعية سيحاول اقتراح أهم عناصرها في كتابه الأساس «نظرية الفاعلية التواصلية».

3- اللغة والمعنى

هل ما زال من الممكن العثور على تحديدات واضحة لمسألتي المعنى والحقيقة؟ وكيف يمكن ضبط تعريفها داخل سياق من التطور الهائل للعلوم اللسانية والاجتماعية والتجريبية؟ وإلى أي حد يجوز إدعاء تحديد المعنى والحقيقة دون السقوط في فلسفة الأصل والذات والوعي؟

لا شك أن هابرماس لم يعتن دائما، وبشكل مباشر، بسؤالي المعنى والحقيقة، ولكنهما حاضران في أكثر من نص ومن كتاب، ليس لأنهما يشكلان موضوعين من موضوعات الفلسفة، بل لأن اهتمامه باللغة وبالتواصل وبالنقد جعله يواجه سؤال المعنى في كل تحليل أو سجال أو برهنة، ويصطدم بهاجس الحقيقة، لا سيما وأنه يدمج النقد الايديولوجي في سياق تفكيره ويوظف التحليل النفسي للنظر إلى التفكير والتأمل الذاتي والتفهم والوهم.. الخ بشكل يجعل من نظريته في التواصل والحداثة تتقدم في المناقشة النظرية والايديولوجية بوسائل أكثر نجاعة وفاعلية.

وبالرغم من حضور هاتين المسألتين في كتابات هابرماس، فإنه لم يخصص لهما كتابا كما فعل مع قضايا النظرية والتطبيق، ونقد الوضعية أو منطق العلوم الاجتماعية أو المجال العمومي.. الخ وما دام هذا الفيلسوف قد جعل من مسألة التواصل أهم هاجس نظري وفلسفي، ومن الحداثة العقلانية هدفا ومشروع حياة، فإنه اضطر إلى الحديث عن

(1) Ibid; P. 189.

قضيـة التفـاهم والتفاعـل والمناقشـة والتـذاوت Intersubjectivité مع العلم أن هـــذه المستويـات من التواصل قد يحصل فيهـا التبادل والتفاهم كما قـد يحصل فيها عكس ذلك تماما. بمعنى آخر أن ممارسة اللغة تفتح آفاقا يصعب تكهن حدوثها أحيانا، وبالتالي فانها تحتوي في ذاتها ـ أي ممارسـة اللغة ـ على إمكـانية المعنى كما على احتمال التشـويش عليه. وهـذه القضيـة أدت بهابـرمـاس إلى الإنخـراط في عمليـة تفكير عميقـة حـول الطبيعـة الأنطولوجية للغة مما استوجب عليه القيام بتحليل دقيق للنواقص التي تعاني منها الفلسفة التحليلية بخصوص موضوع اللغة، والدخول في سجال غير متوقف مع غادامير. وامتحان بعض مفاهيم فرويد لتعميق سؤال المعنى والاقتراب من دلالات الحقيقة.

إن كتـابات هـابرمـاس، أو أغلبها على الأقـل، تدخل في سيـاق تأسيس نظريـة جديدة للعقلانية تسنـد نظرية للمجتمع، تقترح نمطا تبادليا رمزيـا يعتمد بالدرجة الأولى على مسألة التواصل. والعقلانية في المشروع الهابرماسي هي، بالذات «العقل التواصلي» كما نظـر لـه في كتابـه «نظـريـة الفـاعليـة التواصليـة» أي عقـلانيـة الفعل Action والتفهم Compréhension في النصوص المرتبطة بمناهج العلوم الاجتماعية والهيرمينوتيقا، وعقلانية التواصل والبرهنة.

لذلك فإن اهتمام هابـرماس بالمعنى والحقيقة لا يخرج عن نزوعه نحـو تحديد جديد لمفهوم العقل يتخلى عن إدعاءات الفكر الميتافيزيقي والفلسفة الترنسندنتالية، ويبرز أهمية الجانب التكلمي Illocutoire للخطاب الجدلي البرهاني. فالعقل يمتلـك قدرة هائلة على التبرير وعلى مـراجعة أساسياتـه وأحكامه. من هنـا إنشغال هابرمـاس باللغة وبالقضـايا اللسانيـة لأنه «بهضم التأويل والتحليل اللسـاني، اقتنعت بأن النظرية النقـدية للمجتمع يجب أن تقطع مع فلسفة الـوعي التي ترجع مفـاهيمها الأسـاسية إلى تراث كـل من كانط وهيغل»[1].

ويعلن هابرماس أن ضرورة خلق القطيعـة مع التراث الفلسفي الميتافيزيقي تفرض على النظريـة النقدية تأكيد قـدرتها على تأسيس ميتودولوجيـا جديدة تنير الممارسة النظـرية للبرنامج الإبستمولوجي النقدي*.

(1) Habermas (J) : Logique des sciences sociales, et autres essais", Paris, Ed. PUF, 1987 ; P. 3.

* سنرى فيما بعد أن هابرماس سيبتعد عن هذه القضايا الميتودولوجية وعن السجالات الإبستمولوجية حينما ينخرط في عملية صياغة نظرية الفاعلية التواصلية.

ومع ذلك فهذه القدرة غير كافية، لأنها لا تشكل إلا مرحلة مؤقتة في سياق عملية البناء لنظرية النشاط الخالق للتفاهم. لذلك فإنه يؤكد على «أن ما أشك فيه هو فقط المقدمة الضمنية التي تتمثل في اعتبار الميتودولوجيا والابستمولوجيا هما الطريق الملكي لتحليل أسس النظرية الاجتماعية»[1].

وهكذا فإن هابرماس، ومن أجل تشييد نظرية تواصلية صفى حسابه مع التراث الفلسفي الميتافيزيقي المستند إلى فلسفة الوعي، واستلهم بعض أدواته من مناهج العلوم الاجتماعية ومن عطاءات الابستمولوجيا المعاصرة لينتقل بعد ذلك إلى التفكير في اللغة وفي قدرة العقل البرهانية لبناء نظرية عقلانية تواصلية تتخذ من النقد والمحاكمة قاعدتها المركزية.

إن مسألة المعنى، في مشروع هابرماس، تكونت من جراء النقاش الفلسفي الذي دار بينه وبين «هانس جورج غادامير H.G.Gadamer هو فيلسوف معاصر له، حاول، باستمرار وفي كل مؤلفاته، حل مشكل أساس علوم الفكر Sciences de l'esprit سواء في الرومانسية الألمانية أو عند ديلتاي Dilthey اعتمادا على انفتاحات الأنطولوجيا الهايدغيرية، ويرى «بول ريكور» أن غادامير حين اتخذ من التفكير في الوعي التاريخي وفي سؤال شروط إمكان علوم الفكر محورا له فإنه «وجه الفلسفة التأويلية بصورة لا يمكن تجنبها، نحو إعادة الاعتبار للمسبق Préjugé وللدفاع عن التراث والسلطة، ووضع هذه الفلسفة التأويلية في موضع صراعي مع كل نقد للإيديولوجيات»[2].

والنقاش الذي كان يدور بين هابرماس وغادامير كان يشترط من الأول الرجوع إلى النصوص التراثية المؤسسة للفلسفة التأويلية ولعلوم الفكر كما أن نقد الفهم التأويلي أدرجه ضمن النقد الكلي للوضعية من جهة ولعلوم الفكر التي لم تستطع التخلص من فلسفة الوعي من جهة ثانية.

ويعتبر هابرماس أن «التفهم التأويلي يستهدف سياق دلاليا منقولا من خلال التراث. وهو يتميز عن التفهم العلمي للمعنى الذي تشترطه الافتراضات النظرية. ويجب أن نسمي نظرية كل القضايا التي يمكن التعبير عنها في لغة مصاغة بشكل صوري ومحولة إلى ملفوظات هذه اللغة سواء تعلق الأمر بقضايا تحصيل الحاصل Tautologiques أو

(1) Ibid ; P. 5.
(2) Ricoeur (P) ; "Du texte à l'action, Essais d'herméneutique", tome2, Paris, Ed. du seuil, 1986, P. 337.

بالقضايا التي تقترح مضمونا تجريبيا»[1] ويرى هابرماس أن القضـايا النظرية هي عناصر اللغة «الخالصة» كالحساب مثلا، أما الملفوظات المصاغة بشكل صوري فإنها «تتطهر» من كل العناصر التي لا ترجع إلى العلاقات الرمزية.

إن اللغـات «الخالصة» تشترط فصـلا مبـدئيـا بين تفهم التعقيدات المنطقيـة وبين ملاحظة حالات الأشياء التجريبيـة. ويعتبر هابرماس أن «تفهم المعنى يصبح اشكاليا من الناحية المنهجية حينما يتعلق الأمر بامتـلاك المضامين الدلالية التي يوصي بها التراث كما هو الشأن بالنسبـة للعلوم الأخـلاقية «والمعنى» التي يتعين تفسيره هنـا، له بالـرغم من تعبيره الرمزي، مكانة الواقعة والمعطى التجريبي»[2] وبالتالي فان الهيرمينـوتيقا هي شكل للتجربة وتحليل نحوي.

غير أن هـابرمـاس، في سياق سجـاله مع غـادامير، ومن أجل تعميق فهمه للغـة ولأبعادها التواصلية ولرهان المعنى، التجأ إلى مقاربة اللغة اليومية العادية التي تسمح، كما يقول، بخلق علاقة حوارية بين الناس وبالتعبير عن الفردي والخاص اعتمادا على مقولات عـامـة. ومن ثم فإن التفهم التـأويلي، يجب أن يستعمل هـذه البنيـة التي تقـوم بتطـويع التجربـة التواصلية اليوميـة والتفاهم بين الذات وبين الآخرين. لـذلك فإنه «لا يمكن أن نجعل من التأويل طريقة في التنـاول الواضح إلا اذ تمكنا من تفسير بنية اللغـة العادية فيما تسمح به أو يمنعه، بالضبط، تركيبـSyntaxe اللغة الخالصة، أي جعل ما هو غير قابل للوصـف علـى المسـتـوى الفــردي قابـلا لتوصيـلـه»[3] وتحقيقـا لهـذا الهدف اضطـر هابرمـاس إلى الالتجـاء إلى التصنيـــف الـذي قـام بـه ديلتــاي لـ «الأشكـال الأوليــة للتفهم» حـيــن اعتبـر أن التفـهـــم التأويلي يستهـدف ثلاث مستـويـات : التعبيرات الشفوية Expressions verbales الأفعـــال Actions وتعبـيـرات التـجربة المـعيشـة Expressions de l'expérience véue ولا يمـكن فهم بنـية اللـغة العـادية التي يقابلها التحـقق الخـاص للتـفهم التأويلي إلا إذا تم الأخذ بعين الاعتبـار إدماج هذه المستـويات الثلاث في الممارسة اليـومية المعيشـة. لأنـه في إطار العـوالم الاجتماعيـة المعيشـة لا ينفصل التواصل بـواسطة اللغـة العادية عن التفـاعلات المعتادة وتعبيرات التجـربة المعيشـة سواء الدائمـة منها أو المتقطعة. إن التفـاهم بين الأفراد بواسطـة الرموز اللسـانية يخضع لرقـابة متواصلة من خـلال الاتفاق الفعلي للأفعال المنتظـرة داخل سياق معطى، كما أن الأفعال

(1) Habermas (J) : "Connaissance et intérêt", op. cit, P. 196.
(2) Ibid ; PP. 196-197.
(3) Ibid ; P. 198.

من جهتهـا، يمكنها ان تـؤول اعتمادا على التـواصل اللغوي لا سيما حين يتعـرض الاجماع Consensus للاضطـراب. ومن تم فدلالات الـرموز اللسانيـة يمكنها أن تفسر بـواسطة مشاركتنـا في التفاعلات المعتـادة باعتبار أن اللغة العـادية لا تخضع لتراكيب لغة خـالصة بقدر ما تكتمل حينما ترتبط، بشكل عضوي، التفاعلات مع مختلف التعبيرات الجسدية. ومعلوم أن اللغة «الخالصة» تتميز بكـونها لا يمكن أن تتحدد، بصورة شمولية، إلا اعتمادا على قواعـد ذات طبيعة ما بعد لسـانية Métalinguistiques، بمعنى أنها لا تتحـدد إلا بوسـائل رمزية. في حين أن اللغـة المادية تتحدى الضبط الصـوري الدقيق لأنها يمكن أن تكون قـابلة للتأويل استنادا إلى عـوامل غير لسانية. إن «الطـابع الخصوصي للغة العـادية يكمن في هذه القدرة التأملية Refléxivité؛ ومن وجهة نظر اللغة الصورية يمكننا القول أيضا بأن اللغة العاديـة تمثل ميتا ـ لغتها الخاصة. وتكتسب هذه الوظيفـة الفريدة بقدرتها على إدماج التجليـات الحيوية غير الشفـوية، في بعدهـا الخاص، والتي من خلالها تتأول هذه اللغة ذاتها»[1] وهكذا يمكننا، في نظر هابرماس، أن نتحدث عن الأفعال والممارسات ووصفها ويمكننا تسمية التعبيرات المختلفة بل وجعل اللغـة بمثابة إطار لتعبيرات التجربة المعيشـة. مع العلم أن كل لغـة عاديـة تسـاعد على الايحاءات التـأملية لأشيـاء غير معبر عنهـا. بل إن بعض الإيحاءات تصبح اتفاقـات Conventions سواء في الأنساق الفـرعية مثل النكت أو الشعر أو في الأشكال المصاغة بشكل أسلوبي للغة كالسخرية أو المحاكاة، أو في الاشعارة التقليدية مثل ما هو موجود في البلاغة والخطابة أو أشكال التلميح. . الخ.

كل هذه الإيحاءات والصيغ والاتفاقات تثبت، في نظر هابرماس، أن اللغة العادية قادرة على تأويل نفسهـا بنفسها و«مهمة التأويل هي تفكيك رموز هـذا التأويل الذاتي»[2] الذي تقوم به اللغة.

ويظهر أن أهم النصـوص التي كتبها هابـرماس حـول المعنى والفهـم التأويلي للغة وللتراث نشرت في كتاب «منطق العلوم الاجتماعية»، ذلك أن سجاله المبدئي والمفهومي مع غادامير وفيتجنشتـاين حول اللغة والعلامـة والمفهوم والتفسير والتأويل والإيديولـوجيا. . الخ تتحدد مفاصله في فصول هذا الكتاب.

فتفهم المعنى، من النـاحيـة المنهجيـة، يطـرح أكثـر من مشكل كلما تعلق الأمـر باستيعاب المضـامين الدلالية التي يتمثلها التراث بينما «تفهم البنيات الرمـزية التي ننتجها

(1) Ibid ; P. 203.
(2) Ibid ; P. 204.

نحن لا يطـرح أي مشكل»[1] لكن هـابرمـاس من أجل تفسير هـذه الإشكاليـة لم يكتف بالتحليل التأويلي الذي أكد عليه كثيرا في كتاب «المعـرفة والمصلحة»، بل أدمج أيضا كلا من المقـاربة الفينـومينـولوجيـة والمقـاربـة اللسانيـة، ويقـول«إن التراث ينقل إلينا ثـلاث مقاربات.. المقـاربة الفينومينولوجيـة التي تؤدي إلى دراسة نشأة الحياة اليوميـة. والمقاربة اللسانية تتركز حول ألعاب اللغة Jeux de langage التي هي، في نفس الوقت، تحديدات متعـالية لأشكـال الحيـاة. وأخيرا المقاربـة التأويليـة التي تساعـد، انطـلاقا من السيـاق الموضوعي لأشكـال التراث النشيطة، على فهم القـواعد التي يعطيهـا النظام المتعـالي للغة للنشاط التواصلي»[2] وهـابرمـاس حين يتعرض لهذه المقـاربات الثـلاثة في تنـاولها للتراث واللغة والمعنى والحيـاة فإنه ينطلق من اعتبار أسـاسي، سوف يتناوله بشكل أكثـر عمقا في كتابه «نظريـة الفاعلية التواصلية» يتمثل في كون إشكاليـة اللغة حلت محل الوعي في أكثر من حقل معـرفي وحياتي. لـذلك فان «القواعـد المتعاليـة التي تبني العوالم المعيشـة يمكن الإمساك بها من خلال تحليل اللغة وداخل القواعد التي تنظم عمليات التواصل»[3].

غير أن هابرماس يـرى أنه في إطار العلاقة التي تحدد اللغة بالحياة وبـالواقع فان ما هـو أسـاسي فيهـا ليست عمليـة الشرح والتفسير وإنما عمليـة التفهم التي تسـاعـد على الإمساك بـالوقائع مـا دام الموضوع يمتلك في ذاته معنى يتعين إعـادة اكتشافه انطـلاقا من تعبيره المشخص في شكل مـوضوعي. لكن إمســاك معنى بـواسطة عـلامات مـوضوعيـة يحصل بتأويل عناصر الدلالة، وانطلاقا من المعنى الشمولي المتوقع.. وتكوين هذا المعنى الشمولي يتم انطـلاقا من تمفصل هذه العنـاصر نفسها. هذا هو الأسلـوب التأويلي الذي اعتبر هابرماس أن من مهمته القيام بتأويل ذاتي للغة أي القيام بنوع من الانعكاسية حيث تغدو فيها اللغـة العادية هي ميتالغتها الخاصـة وبالتالي أن تجمع بين كونها ممارسـة ونظاما رمزيا، في نفس الآن.

صحيح أن غادامير، مثـلا، اهتم، بشكل كبير، بمسألة التفهم وعـلاقتها بنظـرية المعرفة وبـالتأمل الأونطولوجي للغة كما مارسـه مارتان هايـدغر، لكن غادامير ربط التفهم بقضية ما يسميه بـ «سوابق الأحكام» Préjugés حيث يرى أن اللغة «لا تتضمن معايير أو منطلقات تساعد على التحرر من المسبقـات أو تغيير العالم لتحقيق ما يجب أن يكون»[4]،

(1) Habermas (J) : "Logique des sciences sociales", op. cit, P. 118.
(2) Ibid ; P. 126.
(3) Ibid ; P. 154.
(4) Gadamer (H-G) : "L'art de comprendre", tome1, Paris, Ed. Aubier-Montaigne, 1982, P. 21.

بل إن المسبق هـو شرط التفهم ذلك لأنـه «إذا أردنـا أن نكـون عادلين بخصـوص الطـابع التاريخ المتنـه للكائن الانسـاني، يتعين إعادة الاعتبار لمفهـوم المسبق، بصورة أسـاسية، والاعتراف بأنه توجد مسبقات مشروعة. وبـالنسبة للتأويل التاريخي فإن السؤال المركزي، والسؤال الأساسي من منظور نظرية المعرفة، يمكن أن يصاغ كالتالي : على أية قاعدة يجب أن تتأسس مشروعية المسبقات ؟ ماذا يميز المسبقات المشروعة عما هي ليست كذلك، وهي كثيرة، والتي يتعين على العقل النقدي تذليلها؟»[1].

إن غادامير حينما يطرح هذه الأسئلة، فإنه يقوم بذلك في سياق تصفية الحساب مع العقل الأنـواري الذي حـاول خلخلة سلطة التراث في التـاريخ الثقـافي للغرب، وزعـزعة تراث السلطة بتأسيس مفـاهيم سياسية وقانونية جديـدة، كما أن غادامير يفعل ذلك للرد على الفلسفة النقدية ولا سيما على هابرماس. ففي الوقت الذي يقول فيه هابرماس بالجمع العضوي بين المصلحة والمعرفة حسب اختلاف حقول المعرفة وطبيعة المصالح المتحكمة في آلياتها، يقول غادامير بالربط الضروري بين التفهم والمسبق.

وبدون أن نتوقف كثيرا عند القضايا التي اتفق حولها هابرماس وغادامير وتلك التي اختلفا حولها نقتصر على الإشارة إلى التلخيص المهم الذي قام به بول ريكور* لنقط الخلاف بين هذين الفيلسوفين ذلـك أنه : أولا، في الوقت الذي يقتبس فيـه غادامير مفهوم المسبق من الرومانسية الفلسفية كما أعاد تأويله (أي المسبق) اعتمادا على المفهوم الهايدغيري سابق الفهم Précompréhension فإن هـابرمـاس طور مفهوم المصلحـة المستمد مـن الماركسية والمعاد تأويله من طـرف لوكاتش ومدرسة فـرانكفورت. ثانيا، في الوقت الـذي يعتمد فيه غـادامير على علوم الفكـر منظـورا إليها بـوصفهـا إعادة تأويل للتراث الثقـافي في الحاضر التاريخي، فإن هابـرماس التجأ إلى العلوم الاجتماعية النقدية الموجهـة، بشكل مباشر ضد أنـواع التشيـؤ المؤسسي. ثـالثـا، في الـوقت الـذي يـدخل غـادامير «سـوء التفهم» Mécompréhension. بـاعتباره حـاجـزا داخليـا للتفهم، فإن هابـرمـاس طـور نظريـة للإيـديولـوجيات بـوصفها انحرافـا منهجيا للتـواصل من طرف المؤثـرات الخفية للعنف. ورابعـا، في الوقت الـذي أسس فيـه غادامير مهمـة التأويل على أنطـولوجيـة الحوار، فإن هابرماس يستند إلى المثال الأعلى المنظم لتواصل بدون حدود ولا ضغوط[2].

(1) Gadamer (H-G) : "Vérité et méthode", Paris, Ed du seuil 1976, P.P. 115-116.

* إن بول ريكور في سياق تأسيسه، هو كذلك، لنظرية فلسفية في التأويل، لعب دورا كبيرا في ترجمة وتقديم أعمال الفلاسفة الإلمان في هذا المجال وعلى رأسهم هانس جورج غادامير.

(2) Ricoeur (P) : "Du texte à l'action", op. cit, P. 352.

وبإيجاز يمكن القـول بأن غـادامير يدخـل الهيرمينوتيقـا ضمن تصـور استراتيجي لثـلاثة مستـويـات من التأمل الفلسفي، يتمثل الأول في العـلاقة بين علم الجمال والآثـار الأدبية؛ والثاني في العلاقـة بين التاريخ وتراث الماضي؛ والثالث في العلاقـة اللغوية بنظام العلاقات. لكن هذا التأمل الثلاثي التوجـه، الواضح أكثر في كتابه «الحقيقة والمنـهج»، يدخـله ضـمن النـقاش الـعام حـول العلـوم الإنسانية بهدف صياغة تأويل فلسـفي. في حين أن هابـرماس يطرح سؤال المعنى واللغـة في سياق تشييده لنظريـة للعقل التواصلي لا يكف عن محاكمة أسـاسياته وعن اكتناه مـا تخفيه المعارف من مصالح وميـولات واعية تارة وغير واعية تارية أخرى.

ولتعميق مفهوم المعنى عمل هابـرماس على استلهام بعض أدوات التحليل النفسي الـذي يدخلـه ضمن العلوم الاجتماعيـة النقديـة الحافزة على التحـرر. واعتبر أن التحليل النفسي ليس إلا تأملا ذاتيا معبرا عنه من خلال وساطة وموجه بطريقة منهجية.

إن الأمـر يتعلق بتفهم ذاتي من خـلال التفكير في الآليـات الـلاواعيـة التي اعتمادا عليها تعبر الذات عن أعراضها الغريبة عنهـا والمنفلتة من فهمها. إن الوضعية البدئية هي تلك التي تفقد فيهـا الذات تواصلها مـع ذاتها، معبرة عن ذلك بلغة خاصة بـالأعراض، ومخطئة في عملية إمسـاكها بهويتها، أما الـوضعية النهائية فهي التي تمثل حـالة ذات تقود تأملها الذاتي، بواسطة المُحلِّل أو التحويل، إلى أن تعيـد اكتشاف تفهمها الذاتي بالتعرف على أن اضطراب المعنى (وهو في هذه الحالة عرض عصابي) يشكل جزءا من المعنى نفسه.

إن التحليل النفسي يقترح منهجا بالغ الأهمية لمقـاربة مسألة المعنى، فهو يخرج عن الأساليب الفيلولوجية المعروفة بـل ويغير نظرة الإنسان إلى ذاته وإلى تاريخه وإلى علاقته مع الآخر. فتواصل الذات مع ذاتها قد افتقد لأن الرموز التي من خلالها تعبر الرغبة أو الحاجة عن نفسها تمت تنحيتهـا من التواصل العمومي، وبـالتالي فإن الكبت يغذو بمثـابة الثمن الذي يتعين على المرء أن يدفعه من أجل الحفاظ على التـواصل مع الآخر في حدوده الدنيا، داخل مجتمع تنظمـه بنيـات للسيطرة والقمع، «إن الاستيهـامـات Fantasmes الجماعية للرغبة التي تعوض التنازلات المفروضة من طـرف الحضارة ليست من طبيعة خاصة ولكنها تؤدي بالتـواصل العمومي نفسه إلى مستـوى من الوجود المنعزل.. إن هـذه الاستيهامات تتوسع بفضل تأويلات العالم وتستعمل بوصفها عقلنة للسيطرة»[1].

---

(1) Habermas (J) : "Connaissance et intérêt", op. cit, P. 310.

ويلاحظ هـابرماس أن فرويـد استطاع تفسير مسألة مهمـة في سياق تفهم الادراك المغلوط للعالم وللأشيـاء، وتتمثل فيها يسميه بـ «الوهم» Illusion . فهذه الآلية لها وظيفة تتشابك مع سيطرة الايديولوجيا لخق تواصل مشوه. غير أن «الأوهام ليست فقط عبارة عن وعي مغلوط، كما هو الشأن بالنسبـة للايديولوجيا عنـد ماركس، لأنها تحتوي كذلك على اليوتوبيا» [1].

ومع ذلك لا يجب أن نفهم من التحليل النفسي أنه يرجع كل التعبيرات الرمزية، أو كل تجليات الابداع الثقافي، إلى حـالات مرضية. فالوهم يمكن أن يتخذ شكـلا موضوعيا على صعيد التراث الثقـافي، كما حصل مثـلا للديانـة اليهوديـة ـ المسيحيـة، التي يصعب علينا اعتبارها مجرد فكرة هذيانية.

إن فـرويـد لم يكتف بتأسيس نظـريـة التحليل النفسي، بل حـاول إدمـاج السوسيولـوجيا كذلك في دراسته لتاريخ الحضارة، وتعـامل مع العلم الإجتماعي كانه علم نفس تطبيقي، كما يـرى هابـرماس، لـذلك فإن أسئلة التحليل النفسي أدت بـه إلى وضع نظـريـة للمجتمع، ومن تم فـالتحليل النفسي ليـس، فقط، عبـارة عن ثـورة داخل علم النفس بقدر ما يفتتح منطقة جديدة للمعنى، وبـالتالي فإن الأمر يتعلق بتأويل مغاير على أساس أن «التحليل النفسي لا يظهـر أولا الا كشكل خاص للتأويل» [2] لأنه يسمح بفهم معاني الرموز سواء في تعبيراتها المباشرة أو غير المباشرة، الظاهرة أو الضمنية. .

وبحكم أن اللغة عند هابرماس لا تقتصر على اللغة، «الخالصة» وانما تشمل اللغة العـادية بما تتضمنـه من إشارات وحـركـات جسديـة، وبسبب أن اللغة، كنسق رمـزي، تلعب دورا كبيرا في تكريس السيطرة وتعميم الاوهام وتدعيم النظام الاجتماعي، أي تلعب «دورا ايديولوجيا» [3]، فإن التحليل النفسي، في سياق فهمـه للمعنى وتحليله للغـة «يظهر لنا بوصفه دراسة تأويلية للسلوك المحفز بشكل لا واع. وبالتالي له علاقة بالتفسير النقدي للنصوص أكثر مما يرتبط بالعلم التجريبي» [4].

وبـدون أن نـدخل في تفصيل مـوقـف هـابـرمـاس من عطـاءات التحليل النفسي والطابع الوضعي أو الميتـافيزيقي الذي يظهر، أحيانا، في بعض تحليـلات فرويد، نلاحظ

(1) Habermas (J) : "connaissance et intéret", op. cit, P. 311.
(2) Ibid, P. 248.
(3) Habermas (J) : "Logique des sciences sociales", op. cit, P. 218.
(4) Ibid ; P. 229.

على أن هابرماس يعتبر في إطار تفكيره في مسألة التفسير والتأويل أن كل لغة قابلة لأن تترجم إلى لغة أخرى، وأن التأويل هو توليد لا نهائي للمعنى ضمن سياق تواصلي معين، لذلك فالتأويل له «علاقة بالقدرة التي نكتسبها في الوقت الذي نتعلم فيه «التحكم» في لغة طبيعية، ولها فعليا، علاقة بفن تفهم المعنى الكفيل بأن يكون قابلا للتوصيل، وتبليغ هذا المعنى حينما يتعرض التواصل للتشويش. فتفهم المعنى يستهدف المضامين الدلالية للخطاب ولكن، أيضا، الدلالات المثبتة بواسطة الكتابة أو المتضمنة في الأنساق الرمزية غير اللسانية، إذا كان من الممكن، مبدئيا، «إعادة ترجمتها في صيغ خطابية» [1].

إن التحديد الذي يضعه هابرماس للمعنى في تشابكه مع مستويات اللغة العادية لا يفصله، في واقع الأمر، عن مسألة الحقيقة باعتبار أن «حقيقة قضية ما لا يمكن أن تكون مدققة ومؤسسة أو مستبعدة إلا في إطار الخطاب، أو بالأحرى في إطار خطاب نظري» [2] وهذا الخطاب يدخل ضمن رهان البحث عن صيغة جديدة للعقل الذي لا يكف عن عقلنة العالم المعيش في الزمن الحديث، الذي خلق منطقا تواصليا متميزا يتعين اكتناه آلياته وفهم أساليب تحركه وأشكال التعبير عن حقيقته.

4_الحقيقة والإجماع

يبدو أن هابرماس بقدر ما اهتم بإشكالية المعنى داخل تصوره العام لمسألة اللغة والتواصل، بقدر ما حاول الإقتراب من سؤال الحقيقة وذلك في إطار اهتمامه الأساسي بمسألة الكلام واللغة العادية والمناقشة وادعاءات الصلاحية.

ومن أجل الكشف عن مستويات الحقيقة وتقييم مختلف النظريات التي حاولت معالجتها وتحديدها، انطلق هابرماس من أعمال بعض اللسانيين وفلاسفة اللغة ولا سيما أوستين J-L. Austin و«سورل» J-R. Searle وتارسكي Tarski . وقد حاول طرح مجموعة من الأسئلة التي عمل على اقتراح بعض عناصر الجواب عنها من خلال مناقشة النظريات التي قاربت مسألة الحقيقة.

وأول سؤال طرحه يمكن صياغته كالتالي : ماذا يمكن أن نقول حين نتساءل : هل هذا صادق أم كاذب ؟ وللإجابة عن هذا السؤال تأتي اللغة لاقتراح مجموعة كبيرة من

(1) Ibid ; P. 239.
(2) Habermas (J) : "Connaissance et intéret", op. cit, P. 352.

الصيغ سـواء ما تعلق منهـا بـالقضايـا Propositions، بالتلفظات énonciations أو بالملفوظات énoncés. . الخ ذلك أن قضـايـا مختلفـة لنفس اللغـة يمكن أن تترجم نفس حالات الأشياء، كما أن نفس هذه القضايا مصـوغة في سياقات مختلفة للخطاب يمكنها، كذلـك، أن تترجم حالات مختلفـة من الأشياء. لـذلك يلاحظ هـابرمـاس أنه أمـام هذه المسألة اقترح «أوستين» «أن الموضوع الذي يمكن أن نسميه بشكل مشروع، بأنه حقيقي أو كاذب لا يتعلق بالقضايا، ولكن بنوع معين من التلفظات وهي الإثبابات Assertions لأن القضية تكـون فقط مكونـة من كلمات بينها باستعمال هـذه الكلمات والقضايـا التي نكونها ندعم إثباتا معينا»[1]. لأن نفس القضيـة يمكن استعمالها داخل إثبـاتـات مختلفـة كما أنـه يمكن القيام بنفس الإثبات بواسطـة قضايا مختلفة. ويعتبر هابرماس أنـه تبرز هنا صعوبة جديـدة تتمثل في كون الاثبـاتـات تكون عبـارة عن تلفظات محددة في زمن معين أو تشكل استطرادات لغوية، بينما الحقيقة تطالب، بشكل جلي، بوضع ثابتInvariant ولها طابع غير عـرضي. لذلك فإننـا «نسمي حقيقيـا أو ما ليس حقيقيـا تلك الملفوظـات المترجمة أو المعبر عنها لحالات معينـة من الأشياء»[2] ومع ذلك لا يجب حرمـان الملفوظـات من قوتها الاثباتية Assertorique لأنه أمام كل ملفوظ يمكن إسناد حـالة معينة من الأشياء، ولكن «ملفوظـا ما لا يكـون حقيقيا إلا إذا تـرجم حـالـة من الأشياء الـواقعية، أو تـرجم واقعا. صحيح أن الملفوظـات الخاطئة لها هي أيضا، إذا صح القول، مضمـون قضوي، غير أنه حين أتلفظ بملفوظ ما فـإنني أثبت وجود حالة من الأشياء، أي أثبـت وجود واقع ما»[3] وبالتالي فـإن الحـــقيقة هي «إدعـــاء للصلاحية Prétention à la validité نربـطـها بملفـــوظات نثبـتـها»[4] ذلـك أنـــه بإثبـــات شـــيء مـــا، فإنني أعلن عن ادعـاء يؤكد أن ما أثبته حقيقي، وأن ما أدعيه يمكن أن يكـون خطأ أو صوابا. لأن الإثباتات لا تكون حقيقة أو كاذبة، وإنما مبررة أو غير مبررة. ومن تم فإن «الحقيقة، هنا تشير إلى الاستعمال الـذي نقوم بـه للمفـوظات داخل إثبـاتات. لهذا السبـب يمكن لمعنى الحقيقة أن يتـوضح بواسطـة تداوليـة نوع معين مـن مقولات أفعـال الكلام»[5] وهكـذا فإنـــه حين نتمكن من استنتاج دليل مقنع من «الشيء نفسـه» يمكن أن نعترف بإدعاء معين للصـلاحية معتبرين أن اعترافنا به جائز لأنه مبرر. ثم إن ادعـاءا معينا يكون مبررا حين يكون قادرا على الثبات

(1) et (2) Habermas (J) : "Logique des sciences sociales", op. cit, P. 276.
(3) Ibid ; PP. 267-277.
(4) Ibid ; P. 277.
(5) Ibid, P. 227.

والاستمرار. لأن الصلاحيـة المبررة لادعاء المبررة لادعاء ما تضمن تحقيـق انتظارات يحدثها ادعاء معين.

أما السؤال الثـاني الذي اقترب منه هابـرماس فهو متعلق بما يسمى بنظـرية الحقيقة التكرار Vérité - redondance ذلك أنـه إذا كان صحيحـا أن كل القضـايا من نـوع «ب صـادقة» فإن تعبير «هي صـادقـة» غير ضروري من الناحيـة المنطقيـة، وبالتـالي فإن كل النظريـات المتعلقة بالحقيقـة ليست ضرورية. ومع ذلك، يلاحظ هـابرماس، أن نظـرية الحقيقـة ـ التكـرار يمكن أن تعتمـد على ملاحظـة صحيحـة وهي أنه حين نقـول بأن «ب صادقة» فإن ذلك لا يضيف أي شيء إلى الإثبات «ب»، لأنه بإثباتي «ب» فإنني أعبر عن ادعاء على صدق «ب» وهنا يتجلى المعنى التداولي للإثباتات.

إن الفارق الأساسي الذي «تهمله نظرية الحقيقة ـ التكرار لا يظهر إلا في الحالة التي يكون فيها ادعاء الصلاحية للإثباتات معبرا عنه بطريقة ساذجة أو في محل شك»[1].

إن معنى هذه العلاقة الخاصة بين ادعـاء الصلاحية والاثبات الساذج أو المشكوك فيـه يمكن إظهـار معناه من خـلال العـلاقـة التي تـوجد بين المنـاقشـات Discussions والأفعال Actions. ذلك أن هابـرماس في إطـار ما يسميه بــ«النشاط» Activité يدخل «مجال التـواصل الذي فيـه نفترض ونعترف، ضمنيا، بـادعاءات الصـلاحية المتضمنـة في الملفـوظات (وفي الإثبـاتات) بهدف تبـادل المعلـومات (أي التجـارب المرتبطة بـالفعل). فتحت لفظـة «منـاقشـة» أدخل شكل التـواصل المتميـز بـالبرهنـة، بحيث ان ادعـاءات الصـلاحية التي تصبح إشكـالية تكـون مشخصـة في موضـوع ومعالجة من نظـر إمكانيـة تبريرها»[2] ذلك أنـه من أجل تسيير منـاقشـة معينـة يتعين الخروج من سيـاقـات الفعل والتجربة لأنه، في هذه الحالة، لا نتبادل معلومات ولكن نتبادل حججا لتبرير أو استبعاد ادعاءات الصـلاحية ذات طبيعة إشكاليـة، «فالمناقشـات تتطلب، أولا، تعليق الضغوط العملية بهدف إبطال كل الـدوافع التي لا تؤهل للدخـول في تفهم تعاوني بين الذوات. . وتتطلب، ثـانيا، صياغـة افتراضية لادعـاءات الصلاحيـة وذلك للتمكن من التعبير على التحفظ عن وجود الأشيـاء التجريبية (أشياء، أحداث، أشخـاص، تلفظات) والتمكن من اعتبار الـوقائع والمعايير من وجهة نظـر وجودها أو مشروعيتها الممكنـة (بمعنى القدرة على معالجة الأشياء بطريقة افتراضية)»[3].

(2) Ibid, P. 278.
(3) Ibid, P. 279.
(4) Ibid, P. 279.

إن شكل التواصل المتحرر من ضغوط الفعل ومن ضغط التجربة يمكن، داخل شروط تفاعلية مضطربة، من إقامة اتفاق Accord حول ادعاءات الصلاحية ذات الطبيعة الإشكالية. وهذا ما يسمح بالاجابة على السؤال المتعلق بالحقيقة ـ التكرار. ذلك أن هابرماس يرى أنه «حينما نكون أمام أفعال تواصلية، فإن تفسيرا لادعاء الصلاحية معبرة عنها من خلال إثباتات يكون تكرارا، لكنها بالمقابل ضرورية في المناقشات، لأن هذه الأخيرة تصوغ تبرير ادعاءات الصلاحية في شكل موضوعات»[1].

أما السؤال الثالث المرتبط بصلب الهاجس الذي يحرك تفكير هابرماس بخصوص الحقيقة، فإنه يتعلق بالفرضية الأساسية لنظرية «الحقيقة ـ التطابق» وهو يصوغ سؤاله بالطريقة التالية : «ما هي العلاقة الموجودة بين الوقائع التي نثبت وموضوعات تجربتنا ؟» ويقول هابرماس إن «ما يحق لنا اثباته، نسميه واقعا. والواقع هو ما يشكل حقيقة ملفوظ ما، لذلك نقول بأن الملفوظات تترجم، وتصف وتعبر عن وقائع»[2] وبالمقابل فإن الأشياء والأحداث والأشخاص وتلفظاتها، وبالتالي موضوعات التجربة، هي التي على أساسها نقوم بإثباتات، وفي شأنها نتلفظ بشيء ما. وإذا كان الإثبات مبررا، فإن ما نؤكده بخصوص الموضوعات هو ما يشكل الواقع. وبالتالي فإن الوقائع لها وضع آخر غير ذلك الذي يكون للموضوعات. فالموضوعات تُحَرِّكُ فِيَّ تجارب معينة، أما الوقائع فانني أقوم بإثباتها، ولذلك فإنه من المستحيل أن أقوم بتجربة الوقائع كما لا يمكنني إثبات الموضوعات. «وبإثبات الوقائع يمكن أن أعتمد على تجارب والرجوع إلى موضوعات. والحال أنه إذا كانت موضوعات تجربتنا هي عبارة عن شيء ما يوجد في العالم، فإنه لا يمكننا أن نقول بطريقة مماثلة، فيما يخص الوقائع، بأنها «شيء ما يوجد في العالم» في حين أن هذا الإثبات أو أي إثبات معادل هو ما يجب أن تقوم به نظرية الحقيقة ـ التطابق : فهي تؤكد بأن الملفوظات الحقة «تطابق» الوقائع »[3]. وبعد مناقشة لأساس هذه النظرية سواء من الناحية اللسانية أو من المنظور الفلسفي خلص هابرماس إلى القول بأن الوقائع تستنبط من حالات الأشياء. وهذه الحالات من الأشياء يحددها في كونها تشكل «المضمون القضوي للإثباتات التي منها يصاغ مضمون الحقيقة بطريقة إشكالية، ففي الوقت الذي نقول فيه بأن الوقائع هي حالات أشياء موجودة، لا نفكر في وجود موضوعات ولكن في حقيقة قضايا، مع التسليم بوجود الموضوعات القابلة لتعيين هويتها والتي نمنحها

(1) Ibid, PP. 279-280.
(2) Ibid, P. 280.
(3) Ibid, P. 281.

للمحمولات Prédicats. فمعنى تعبيرات مثل «واقع» أو «حالات الأشيـاء» لا يمكننها أن تتضح بدون الرجـوع إلى المناقشات التي نعالج فيهـا ادعاءات الصلاحية الملازمـة للأقوال Affirmations والادعاءات المعلقة بشكل مسبق، ومن ثم فالأفكـار المتعلقة بموضوعات التجربة ليست هي التجارب أو إدراكات الموضوعات.

ويعتبر هابـرماس أنه في سيـاق البرهنة يمكن أن نعتمد على التجـربة. ولكن لكي نعتمد، منهجيا، على التجربة، في حالة التجريب Expérimentation مثلا، فإننا نضطر للرجوع إلى تأويلات لا يمكن أن تتضح صحتها إلا داخل المناقشة. وبالتالي فإن التجارب تصلح كقواعد إستنـاد لإدعاء الحقيقة التي تعبر عنها التأكيدات. وطـالما لا نواجه تجارب غير مطابقة، فإننا نتمسك، عموما، بهذا الإدعاء للحقيقة. غير أن هابرماس يرى أن كل ذلك لا يكتسب مصـداقيته إلا بـواسطةبـراهين. لأن ادعـاءا مؤسسـا على التجربـة ليس ادعاءا مبررا بشكل مباشر.

إن هذه النظريات الثلاث المتعلقة بـالحقيقة، والتي تستند إلى اللسانيات والمنطق، يبدو أن هابرماس عـرضها وناقشها من أجل صياغة ما يسميه بـأطروحات حول الحقيقة، يلخصها في ثلاثة :

الأطروحـة الأولى : «نسمي حقيقة ادعـاء الصلاحيـة الذي نـربطه بأفعـال الكلام المثبتة. ويكون ملفـوظا ما حقيقيا عندمـا يكون ادعاء الصلاحية مبررا ومعبرا عنـه بواسطة أفعال الكلام التي من خلالها نتلفظ هذا التأكيد بواسطة قضايا»[1].

الأطروحة الثـانية : «ان الأسئلة المتعلقة بالحقيقـة لا تبرز إلا في اللحظة التي تكون فيها ادعاءات الصـلاحية، المقبولة بشكل سـاذج مطروحة بطريقـة إشكالية. لهذا السبب فان التلفظات المتعلقة بحقيقة الملفوظات ليست زائدة أو عبارة عن حشو داخل المناقشات التي نعالج فيها الإدعاءات الافتراضية للصلاحية».

الأطـروحـة الثـالثـة : «في السياقـات العمليـة تقـدم التأكيـدات معلـومـات عن موضـوعات التجـربة، وفي المنـاقشات نبحث الملفوظـات المتعلقة بـالوقائع. لـذلك فإن الأسئلة المتعلقة تبرز، ليس في عـلاقتها بالروابط الاجتماعية للمعرفـة ذات الصلة بالفعل، ولكن في الوقائع المرتبطة بالمناقشات المتحررة من التجربة والمتفرغة من الالتزامات العملية. أن توجـد حالـة معنية من الأشيـاء أولا توجد لا يتقـرر ذلك بواسطـة البداهـة الناتجة عن

(1) Ibid, P. 283.

التجربة، ولكن من خلال لعبة الحجج والبراهين. وبالتالي فإن فكرة الحقيقة لا يمكن أن تعرض إلا في علاقتها بالمناقشات التي تكون فيها ادعاءات الصلاحية مبررة»[1].

لقد اقترح هابرماس هذه الأطروحات الثلاثة بهدف تأسيس نظرية إجماعية للحقيقة Théorie consensuelle de la vérité وهو يضع هذا المجهود النظري ضمن المشروع الفلسفي الذي يسعى إلى بناء قاعدة معيارية لنظرية في المجتمع، وكذا المشاكل المتعلقة بتأسيس الأخلاق على أساس العقل. والحقيقة، في نظره، وكما يظهر من خلال الأطروحات الثلاثة، ليست صفة ترجع إلى المعلومات وإنما ترجع إلى الملفوظات. ومن ثم «نسمي حقيقيا تلك الملفوظات التي نستطيع تبريرها. ومعنى الحقيقة، كما هو متضمن في تداوليات الاثباتات، لا يمكن أن يتضح بطريقة مقنعة إلا إذا استطعنا تبيان دلالة الواقع وتقدير ادعاءات الصلاحية المؤسسة على التجربة من خلال المناقشة. هنا بالضبط يتمثل هدف النظرية الاجماعية للحقيقة»[2].

وبناء على هذا التصور فإن لي الحق أن أمنح محمولا لموضوع ما (بواسطة قضايا محمولية) وفي الحالة التي يتمكن فيها شخص آخر على الدخول معي في محادثة، فإنه يعطي نفس المحمول لنفس الموضوع. ومن أجل التمييز بين ملفوظات حقيقية وملفوظات ليست كذلك فإنني أرجع إلى حكم أشخاص آخرين، وبالضبط إلى كل الأشخاص الذين يمكنني أن أدخل معهم في محادثة Conversation. فشرط حقيقة الملفوظات يتمثل في الاتفاق الفرضي لكل الآخرين. اذ أن كل شخص يجب أن يكون في مستوى الاقتناع بأن لي الحق في إعطاء ذلك المحمول للموضوع وبالتالي أن أكون قادرا على البرهنة على ذلك. «إن حقيقة قضية ما تعني الوعد بالوصول إلى إجماع عقلاني حول ما قيل»[3].

ويعترف هابرماس أن مفهوم الحقيقة في التراث الفلسفي كان دائما يأخذ بعدا أكثر تجريدا واتساعا مما يسميه بـ «حقيقة الملفوظ». وكثيرا ما اتخذت الحقيقة معنى «العقلانية»، غير أن هابرماس يحدد ما هو عقلاني ليس فقط بالاثباتات، ولكن أيضا بنماذج أخرى من أفعال الكلام مثل المعايير Normes الأفعال Actions والأشخاص Personnes. ويعتبر هابرماس أن هناك على الأقل أربع أنواع من ادعاءات الصلاحية

(1) Ibid, PP. 283-284.
(2) Ibid, P. 284.
(3) Ibid, PP. 284-285.

وهي «المعقولية Intelligibilité الحقيقة Vérité الدقة Justesse الصدق Sincérité»[1].
وهذه الادعاءات تشكل كُلًّا يمكن تسميته بـ«العقلنة» Rationalité.

ولهذا السبب يرى هابرماس أن «نظرية إجماعية للحقيقة» يجب أن لا تقتصر على حقيقة الملفوظات لأن المسألة تدخل فيها اعتبارات الدقة والصدق والمعقولية. ثم إن الإجماع يكمن، بالضبط، في كون هذه الادعاءات الأربعة يجب أن يكون معترفا بها من طرف المتكلمين المشاركين في المحادثة أو المناقشة. وهكذا يمكن أن «ندعي معقولية التلفظ، وحقيقة تكوينه القضوي، ودقة تركيبه التلفظي وصدق النية المعبر عنها من طرف المتكلم»[2] ومن ثم فإن تواصلا غير استراتيجي، أي ذلك الذي يحصل فيه تفاهم سيجري بدون اصطدام إلا في الحالة الوحيدة الذي تكون فيها الذوات المتكلمة والفاعلة :

أ ـ تدخل المعقولية على المعنى التداولي للعلاقة التي يحصل فيها تداخل بين الأشخاص (معبر عنها في شكل قضية ملفوظية) وكذلك معنى المضمون القضوي الملازم لتلفظاتهم؛

ب ـ أن تعترف بحقيقة الملفوظ الناتج عن أفعال كلامهم (أو افتراضات وجود مضمون قضوي مستحضر في هذا الملفوظ)؛

ج ـ أن تعترف بدقة المعيار الذي يمكن أن نعتبر، كل مرة، أنه تمت الاستجابة له بواسطة فعل الكلام الذي حصل؛

د ـ لا تضع صدق الذوات المعنية موضع شك.

إن ادعاءات الصلاحية الأربعة يضطر المرء إلى تحليلها حينما تضطرب لعبة اللغة ويتأثر الاجماع. هكذا تبرز أسئلة محددة حسب طبيعة كل ادعاء، وهذه الأسئلة تشكل، في نظر هابرماس، جزءا مكونا وعاديا للممارسة التواصلية. فحينما «تكون معقولية تلفظ ما إشكالية فإننا نطرح أسئلة من النوع التالي : ماذا تريد أن تقول ؟ كيف يجب أن أفهمك ؟ ماذا يعني ذلك ؟ وتسمى تأويلات Interprétations الأجوبة المعطاة لهذه الأسئلة. وحينما تكون حقيقة المضمون القضوي لتلفظ ما إشكالية، فإننا نطرح أسئلة من النوع التالي : هل الأشياء هي كما تقول ؟ ولماذا الأمور في هذه الحالة وليست في حالة مختلفة ؟ إننا نجيب عن هذه الأسئلة بالإثباتات والشروح Assertions et des explications . وحين تكون دقة

(1) Ibid, P. 285.
(2) Ibid, P. 286.

المعيار الـذي يضم فعل الكلام إشكالية، فـإننا نطرح أسئلة من النـوع التالي : لماذا فعلت هـذا ؟ ولماذا لم تتصرف بطـريقـة مغـايـرة ؟ وهل لك الحق أن تقـوم بـذلك ؟ ألم يكن من الـواجب عليك أن تتصرف بطـريقـة أخـرى ؟ إننـا نجيب عن هـذه الأسئلـة بتبريـرات Justifications. وأخيرا، في الـوقت الذي نشك في مـدى مواجهـة معينة، داخل سيـاق تفاعلي، فإننا نطرح أسئلـة من النوع التالي : هل يخدعني ؟ هل يخادع نفسه ؟ صحيح أن هـذه الأسئلة، لا نـوجهها لشخص يبـدو لنا مـؤهل لكي يستحق ثقتنا، وإنما إلى طـرف ثالث. وكيفما كان الحال فإن المتكلم الذي نشك في كونه غير صادق يمكن أن «نستجوبه» أو أن ندعوه إلى التفكير «داخل حوار تحليلي»[1].

ويلاحظ هـابرماس أن هـذه الادعاءات الأربعة للصـلاحية ليست كلها قـابلة لأن تبرر بواسطة المناقشة، اذ أنـه لا يمكن أن نعتبر «الاستنطاقات» أو الحوارات التحليلية بين المريض والمحلل النفسي منـاقشـات في اتجاه البحث التعـاوني عن الحقيقـة. لـذلك فإن هـابرمـاس يميز «الصـدق» بوصفـه ادعاء للصـلاحية غير خطـابي Non-discursif عن ادعاءات الصـلاحية الخطابيـة التي هي «الحقيقة» و«الدقـة». غير أن الأمر لا ينطبق على ادعاء المعقـولية. «فعنـدما تكـون القواعد للغـة المستخدمـة من طرف أحـد الأطراف غير واضحة بما فيه الكفاية ولا يفهم القضايا الملفوظة (على المستوى الدلالي، النحوي بل وحتى الصوتي) فإن كلا الطرفين يمكنهما أن يتوصـلا إلى اتفاق حول اللغة التي يستعملانها. بهذا المعنى، فإن المعقولية يمكن أن تحسب مع ادعاءات الصلاحية الخطابية»[2].

ومع ذلك فهناك اختـلافات بين مستـويات ادعاءات الصـلاحية الخطـابية. ففي الخطاب اليـومي وفي إطار من التفاعل، فـإن ادعاءات الحقيقة والـدقة تستغل باعتبـارها ادعاءات Prétentions تكون مقبولـة أخذا بعين الاعتبار إمكانيـة تبريرها بواسطـة المناقشة عند الاقتضـاء، أما المعقوليـة فهي ضرورة ما دام التواصـل يتم بدون صدام وبـالتالي فإنها ليست مجرد وعد. لـذلك يحسب «هابرمـاس» المعقوليـة من بين شروط التواصل وليس من بين ادعـاءات الصـــلاحيـة المعبر عنهـا داخل التـــواصل سـواء كـانت خطـــابيـة أو غير خطابية»[3].

ويبدو، في نظر هابرماس، أنه بخلاف المعقولية فإن حقيقة الملفوظات والدقة ليس لهما أي أساس تجريبي مبـاشر. ومن أجل تدقيق الـوضعية الخاصـة لادعاءات الصـلاحية

(1) Ibid, PP. 286-287.
(2) Ibid, P. 287.
(3) Ibid, P. 288.

الممكن تبريرها بالمناقشة والتي تهم، بشكل مباشر، النظرية الاجماعية للحقيقة، فإن هابرماس يرى أنه من الضروري ضبط الروابط الموجودة بين ادعاءات الصلاحية من جهة والنوايا وتجارب اليقين المقابلة لها من جهة ثانية. لأنه حينما أفهم أو أعرف شيئا ما، أو عندما أعترف بصلاحية هذا الشيء أو حين أصدق شخصا ما، فإنني أكتسب، في كل مرة، أشكالا مختلفة من اليقين، وهي مختلفة، لأن ادعاءات الصلاحية تتميز عن اليقين بطابعها الذي تكون فيه الذوات متفاعلة ومتداخلة.

ومع ذلك فإن هابرماس يرى أنه حين أعبر عن ادعاء الصلاحية فإنني أكون متيقنا من ذلك، أي أنني أحوز يقينا من تعبيري عن هذا الإدعاء...

بدون أن ندخل في منطق المناقشة الذي يريد هابرماس تأسيسه بها يفترض ذلك من حديث عن مسألة التفهم وعلاقة ذلك باليقين الحسي أو الوهم أو التجربة المعيشة، وما يشترط ذلك، أيضا من تمييز بين الطبيعة والثقافة التي يحددها هابرماس في كونها مجال الواقع المبنية بواسطة اللغة[1] على اعتبار أنه إزاء هذا المجال يمكن أن نتخذ موقف المشارك والملاحظ في نفس الآن، وبدون أن ندخل في تفاصيل هذا المنطق، كما قلنا، يعتبر هابرماس أن كل فعل كلام يمكن أن يكون تعبيرا عن معيار ما ولكن هناك نوعا محددا لأفعال تُعَبِّرُ عن العلاقات العامة، والتي يمكن أن تستخدم على قاعدة المعايير من طرف ذوات فاعلة ومتكلمة. ولتبرير ذلك يستشهد هابرماس بالأفعال التالية: «قاد، دعا، رجا، وعظ، أكد، أيد، ضمن، اعتذر، منح، قبل.. الخ. يمكننا تمييز هذه الأفعال من الكلام المنظمة Régulateurs من جهة عن أفعال الكلام التقريرية من نوع: أثبت وصف، نقل، حكى، عرض، شرح، توقع.. الخ ومن جهة أخرى بالنسبة لأفعال الكلام التمثيلية Représentatifs المتعلقة بتلفظات النوايا والمواقف وتعبيرات المتكلم ويمكن الاستشهاد بالأمثلة التالية: ستر، أخفى، كتم، نفى... الخ. وبالتالي فإن ادعاء الصلاحية المرتبط بأفعال الكلام التقريرية هو الحقيقة، وذلك المرتبط بأفعال الكلام التمثيلية هو الصدق، في حين أنه لا يمكننا، بطريقة مماثلة، ربط أفعال الكلام المنظمة بالدقة لأن هذه المحاولة تكشف عن أن ادعاء الصلاحية المرتبط بأفعال الكلام المنظمة مأخوذ من صلاحية واقع معيار معين يتم إفتراضه في كل مرة»[2].

(1) Ibid, P. 293.
(2) Ibid, P. 295.

إن هذا الفهم يـؤدي إلى ضرورة التمييز بين مستويـات إدعاءات الصلاحيـة ولكنه أيضا يفترض التمييز بين الموضوعية والحقيقة، باعتبار أن تجارب تدعي الموضوعية، في حين أن الموضوعية ليست مطابقة لحقيقة ملفوظ مقابل. فـالبنية المقولية لموضوعات تجربة ممكنة تؤسس إمكانية موضوعية التجربة، وموضوعية تجربة محددة تصان بالنجاح القابل للمراقبة من طرف الممارسات المؤسسة على التجربة. أما الحقيقة أي مشروعية ادعاء الصلاحية المعبر عنه، بشكل ضمني، في الاثباتـات، لا تظهر ـ أي هذه الحقيقة ــ في الممارسات الخاضعة لمراقبـة النجاح ولكن في عمليـة البرهنـة التي تمت بنجاح والتـي من خلالها يمكن لادعـاء الصلاحية هذا أن يكون مبررا خطابيا.

ولذلك فإن هـابرمـاس يخلص إلى أن الحقيقة تتحدد بـالبرهنة، مقـرا أن البرهنة لا يمكن أن تدعي الوصول إلى مستوى القوة الاجماعية إلا إذا ثبت أنها لا تكتفي بالاعتماد على علاقة مـا بين نسق لغوي والواقع، أي على علاقة المطابقـة والملاءمة: «إن السؤال المتعلق بمعرفـة هل لغة ما مطـابقة لحقل ما من الموضـوعات وهل الظاهـرة التي تستدعي الشرح يجب أن تكون منسـوبة لحقل من الموضوعـات التي تتطابق معها اللغـة المختارة، يجب أن تكون ـ أي اللغة ــ نفسها خاضعة لأن تكون موضوع بـرهنة؟ إن هذا السؤال لا يمكن أن يحسم فيه إلا من خلال حركة مستمرة بين المفهوم والشيء [1]».

إن الأمر عنـد هابـرماس لا يتعلـق بالالتجاء إلى نظـرية الحقيقـة ـ التطـابق، وإنما يعتبر أن تقدم المعرفة لا يمكن أن يكون إلا في شكل نقد أساسي للغة. بل إنه يذهب بعيدا في سياق التأكيـد على النظرية الاجماعية للحقيقـة ملاحظا أنه لا يمكن اعتبـار اجماع ناتج عن البرهنة كأنه مقيـاس للحقيقة، إلا إذا كان من الممكن مُسَاءَلَـة وتغيير وتعويض اللغة التبريرية التي يتم، اعتمادا عليها، تأويل التجارب. فـالاجماع هو نتاج مواقف وممارسات متفـاوض عليها، وبـالتـالي فالحقيقـة ليست تتـويجا لتأمل منعزل كما هـو الحال في التراث الفلسفي الميتافيزيقي، كما أنـه ليست هناك حقيقة واحدة أو مطلقة، لأن الحقيقـة المثالية ليست إلا كذبا أو ادعاءا زائفا يخفي وراءه مصالح محددة. لـذلك فالحقيقة عند هابرماس لا تنفصل عن رهانات الكلام واللغة المتداولة، بل إنما تنبعث من داخل المحادثات وصيغ التبادل، الهادىء تارة والساخن تارة أخـرى، الذي يحصل بين الذوات المنتجة للتواصل، ومن هذا المنطلـق فإن هابرمـاس يساهم بنظـريته الإجماعيـة للحقيقة في «جنـازة» الحقيقة

(1) Ibid, P. 317.

المتعالية وفي الوهم الدائم بامتلاك الحقيقة الواحدة. ولا سيما في زمن خلقت فيه الحداثة صيغا متعددة للحوار وللصراع ومجالا عموميا له آليات تكشف عن مختلف الحقائق في سياقات ومجالات للقول متحركة دوما.

5. المجال العمومي وأسئلة السياسة

إن مفهوم الحقيقة، عند هابرماس، يبدو بعيدا، تماما، عن الفهم الميتافيزيقي الذي تعود العقل الغربي على إنتاجه بخصوص مسألة الحقيقة، ذلك أنه يورط الباحث عنها في رهانات لغوية ودلالية وسياقات فكرية وإيديولوجية تفرض على كل من ينخرط في عملية البحث هذه، ضرورة الإعتراف بأن القول بالحقيقة في الزمن الحديث يستلزم الخروج عن الأطر التقليدية والإنصات إلى معاني وخطابات القوى المختلفة التي تتحكم أو تريد أن تتحكم في اللعبة الحوارية المتداولة داخل المجتمعات الصناعية المتقدمة.

فالقدرة على البرهنة وعلى خوض الصراع بلغة تدرك منطق التواصل وفهم خلفيات الكلام وموازين التبادل، هذه القدرة لها راهنية متميزة في المجتمع الحديث. إذ أن البراهين القوية والحجج الجوهرية تساعد على قبول أو نقد كل أشكال ادعاءات الصلاحية سواء كانت هذه الادعاءات متعلقة بالحقيقة وبصيغ التأكيدات أو بادعاءات الدقة المرتبطة بمعايير التقويم والفعل. إن على هذه البراهين والحجج أن تكون لها القدرة على إقناع من يشارك في مناقشة أي ادعاء للصلاحِية وبالتالي تحفيزه عقلانيا، على الاعتراف بادعاءات الصلاحية المختلفة الأخرى.

إن الأمر يتعلق، عند هابرماس، بمناطق للمناقشة أيا كان مستواها، سواء أكان نظريا أو عمليا، المهم أن الغرض منها يتمثل في إتخاذ قرار عقلاني يتعلق بالاعتراف أو برفض ادعاءات الصلاحية المؤهلة للمشاركة في المناقشة.

وبالرغم من تأكيد هابرماس على «النظرية الاجماعية للحقيقة» فإنه، على ما يبدو من خلال جل مؤلفاته، لم يتخل عن النقد، كمفهوم وكإجراء. ذلك أن المشروع العام لهابرماس يحركه هم نظري استراتيجي حاسم، هو صياغة نظرية للمعرفة وللعلوم تكون بمثابة نظرية للمجتمع. ولأنه فيلسوف وعالم اجتماع ويستلهم أكثر من علم في تأسيس نظريته، ولأنه عمل، منذ كتاباته الأولى، على نحت مفاهيم فلسفية جديدة فإن تفكير هابرماس انصب على الموجود والواقع بقدر ما انصب على اللغة والنص. فهو لا يدعي

اعطاء أسس مطلقة للنظرية لأنه ينتبه لتحولات اللحظة التاريخية والسياسية والمعرفية، أي أنه كـان دوما منفتحا على العالم، وبسبب ذلك فإن انفتـاحه لا يمكنه إلا أن يكون نقـديا لهذا العالم الذي لا يكف عن إنتاج الأشكال المختلفة للسيطرة.

إن العلـوم في نظـر هـابـرمـاس، وكما رأينـا سـابقـا، تصـوغ تجارب الـذوات Expériences des sujets في عـلاقتها بـالطبيعة على أسـاس العمل، وفي علاقتهـا مع بعضها (أي الـذوات) على أساس التفـاعل. فالعمل يـربط الانسـان بالطبيعة والتفـاعل يربط الذات مع الآخرين. والعمل والتفاعل يشكلان إطارين للمعرفة التاريخية التأويلية. ومن زاويـة نظريـة المعـرفـة فإن الأطر المقـوليـة للعمل وللتفاعـل تعبر عن بنيات منطقيـة للنشـاط: المنطق الأداتي Instrumental بالنسبـة للعمل الذي ينتج خطـابا آليـا للعلوم، والمنطق التواصلي Communicationnel بالنسبـة للتفاعل تتم صياغتـه بواسطة الـرموز، ويعطي للعالم المعيش دلالته المختلفة داخل لعبة اللغة.

غير أنه بمـوازاة هذين المنطقين، أو بـالأحرى في صلبهما هنـاك تحديدا عملياً ـ ذا طبيعة قبليـة ـ للمعرفة يتمثل في المصلحـة. ولذلك فكل نمط معرفي تتحكم فيـه مصالح خصوصية. تقنية بالنسبة للعلوم التجريبية ـ التحليلية، وعملية بالنسبة للعلوم الانسانية. وهذه المصـالح هي الشرط الـذي يضبط العلاقـة بين الانتاجـات العملية والهدف المزدوج الأبعاد للتطـور الاجتماعي: التحكم تقنيا في الأشياء، والتحكم رمـزيا في المعيش. إلا أن هذه الانتـاجات «العمياء» للوعي البشري في حـاجة إلى نمط آخر من النظر، وبـالتالي إلى مصلحة أخـرى وهي التي يسميها هابـرماس المصلحة التحـررية. فهذه المصلحـة مقترنة بنشـاط التأمل الـذاتي وهي التي تسعف على الانتقـال إلى الـوعي الفلسفي، أي إلى ذلك المنحى الـذي يتخـذه الـوعي لأن يكـون مفكـرا فيـه وفي نفس الآن متسـائلا عن شروطـه ومقوماته. لذلك فالنقد بوصفه تأملا ذاتيا، يمتلك وضعا خاصا.

إن النقد يندرج ضمـن مشروع تحرري عند هابرماس، ومن ثـم فالتفكير في العلوم هو، في العمق، تفكير في «الوهم» الذي تنتجه هذه العلوم. غير أن الوهم الخاص بالعلوم لا ينفصل عن الاستـلاب على الصعيد السيـاسي. وهذه العـلاقة يمكن الكشف عنهـا، اليوم، بسبب كون العلـوم أصبحت قوى منتجة، وبالتـالي فإن إعطاء وضع مؤسسي لهذه القوى لصالح سلطان الدمج الـذي يمتلكه النظام الاجتماعي يجعل من الوهم «العلموي» مصدرا من مصادر المشروعية التقنيوية للدولة الحديثة.

ومهما يكن فإن ايديولوجيا العلوم، باعتبارها «وهما نظريا»[1] أي بوصفها وهما يمس مسألة الحقيقـة، ويتجذر داخل مصلحة للعقل، فإنـه يكشف، في نظر هابـرماس، عن أساس كل إيديولوجيا لذلك يعتبر أحـد الباحثين «أن الرهان النظري للنقد الابستمولوجي والرهان العملي للنقد السياسي يشكلان قضية واحدة»[2].

إن هابرماس في إلحاحه الحاسم على النقد وفي طعنه في الأسس الايديولوجية للنزعة الوضعيـة والعلمويـة، وفي محاكمته للعقلانيـة التقنية وتبرمـه من الكليانيـة النسقية، وفي تأكيده على مسألة المصلحة في الممارسـة العلمية وقوله بالتحرر. . بل وفي صيـاغته لنظريته للمجتمع، كل هذه الاعتبـارات تجعل مشروعه الفلسفي يمتلك أبعادا سياسيـة واضحة. كيف لا وهـو يريـد استئناف التفكير في العقل الأنـواري والابتعاد عن تشـاؤمية مـؤسسي النظرية النقدية وتأسيس نظرية للحداثة[3] والقول بعالم تواصلي بدون ضغط، بل الحديث عن الاجماع «والأخلاق التواصلية» و «الأخلاق الكونيـة السياسية» و«المجال العمومي». . و«السيادة الشعبية». . الخ.

وبدون أن نفصل في مختلف هذه المفاهيم نشير بأن الفكر السياسي لهابرماس يوجد مشتتا بين ثنـايا نصوصـه. قد نجد أبحاثـا نسقية مثل كتابي «المجـال العمومي» و«العقل والمشروعية»، ولكن أغلب المفاهيم السياسية الأساسية، بحكم ارتباطها العضوي بالمشروع الفلسفي العام، تـوجد مشتتة في أغلب النصوص الأخـرى، سواء كان موضـوعها وضعية الجامعة الألمانية أو نقد النزعة الوضعيـة والعقلانية التقنية أو السجال مع الفلسفة التأويلية عند غادامير أو عنـد تصفية الحساب مع الوعي النظري لتراث النظريـة النقدية أو حتى في نظريته عن الفاعلية التواصلية.

ويمكن أن نعثر على ثلاثة أبعاد للفكر السيـاسي لهابرماس، تتفاوت من حيث قوة موضـوعها أو أهميتهـا الظرفيـة أو عمق التفكير لهابرمـاس فيها. أول هـذه الأبعاد مـرتبط بالتاريخ الألماني المعاصر وتـدخلات هابرماس بخصوص الثقل الرمـزي الذي تمثله المرحلة النازية على الذاكرة الألمانية التي يعتبرها «رضّة» Traumatisme في صيرورة الهوية الألمانية. وقد ظهـر هذا الاهتمام منذ كتابـه الأول عن «الجوانب الفلسفية والسياسيـة» حيث تعرض

(1) Habermas (J) : "Connaissance et intéret", op. cit, P. 310.
(2) Ferry (J-M) : "Habermas, critique de Hannah Arendt", Revue. Esprit, N6, 1980, P. 113.
(3) Ferry (J-M) : "Habermas ; l'éthique de la communication", Paris, Ed. PUF, 1987.

لمواقف مجموعة من الفلاسفة الألمان الذين واكبوا المرحلة النازية سواء منهم الذين اختاروا البقاء في ألمانيا والانخراط في الوضع النازي العام ـ ولو مؤقتا ـ كما حصل لهايدغر أو الذين قرروا الابتعاد عن الهيستريا النازية مكانيا واختاروا حالة المنفى، إما لانهم ينتمون للنخبة اليهودية مثل تيودور أدرنو، وماكس هوركهايمر. . الخ أو لأنهم اضطروا إلى الهجرة عن ألمانيا بسبب «الصدمة الحضارية» التي احدثتها في وعيهم التجربة النازية، ونظروا لما سموه بـ «الذنب الألماني» كما هو الشأن بالنسبة لكارل ياسبرز.

وقد عمل هابرماس، من خلال مقاربته لأفكار هؤلاء الفلاسفة، ليس فقط على الاقتراب مما حصل للذات الالمانية من جراء الحالة النازية ولكن أيضا على معالجة ما أسماه بـ «الفارق التاريخي» والسياسي الذي يميز وضعية التأخر الحضاري الألماني بالقياس إلى تجارب الدول الأوروبية المجاورة.

غير أن اهتمام هابرماس بهذه الاشكالية ظهر، بشكل جلي، في السنوات القليلة الأخيرة، عندما انخرط في سجال يتعلق، بالضبط، بالموقف من الفترة النازية في سيرورة التاريخ الألماني متسائلا عن «الكيفية التي تعالج بها المرحلة النازية ـ الاشتراكية وتهضم تاريخيا من خلال الوعي العمومي»[1] معتبرا أن إعادة بناء الوعي التاريخي المؤسس للهوية الوطنية يجب أن لا تسقط في نسيان لحظة من التاريخ الألماني بالرغم من البعد التراجيدي الذي يميزها. لذلك فأمام هذه «الكارثة الأخلاقية» [2] فإن وطنية الهوية يجب أن تستمدها مما هو كوني بحيث تتجسد فيما سماه بـ «الوطنية الدستورية» على اعتبار أن البعد الكوني يسمح باتخاذ أي موقف نقدي إزاء هذه الوطنية.

أما البعد الثاني في فكره السياسي فيتمثل في تدخلاته ومواقفه في نهاية الستينات مع تصاعد الاحتجاج الطلابي، إذ أنه عبر عن آراء متعاطفة مع حركة الشبيبة* وساهم، مع أساتذة آخرين في تحرير دراسة سوسيولوجية عن الوعي السياسي عند الطلبة الألمان في تلك الفترة، إضافة إلى أنه دافع عن أطروحته حول «المجال العمومي» البورجوازي، حيث حاول فيها الكشف عن آليات التلاعب التي تنهجها البورجوازية الحديثة في عملية تحكمها في المجتمع.

---

(1) Habermas (J° : "De l'usage public de l'histoire", Revue. Document, N.2, 1987, P. 102.
(2) Ibid, P. 103.

* وقد لعبت كتابات ماركوز كذلك دورا كبيرا في تنشيط هذه الحركات الطلابية ودعمها نظريا و إيديولوجيا.

غير أن تعاطفـه مع هذه الحركـة لا يعني التبني الكلي لشعـاراتها. إذ كان يعتبر أن انتفـاضـة الشبـاب أدخلت بعـدا سيـاسيـا جـديـدا في مجال عمـومي «محتل» من طـرف التكنوقراطية، وخلخلت، بشكل من الأشكال، تراث العقلانية الغربية. فهابرماس كان ينبه إلى ضرورة التمييز بين الـوسائل والغايات في هـذه الحركة لاسيما فيما يتعلق بالموقف من العنف. ذلك أنـه كـان يرى أن «الاستفـزاز لا يجب أن يستخـدم إلا من أجل فـرض فتح مجالات للنقاش في الأماكن التي كانت فيها معطلة أو ممنـوعة ـ وعند هذا الشرط وحده فإن التقنيات المضادة للقواعد المتبعة من طرف دولة القانون يمكن أن تكون مشروعة ـ ولكن ما دامت الـوضعية لم تكن نـاضجة ثـوريا (وفي نظـر هابـرماس ونظـر كثيرين غيره، لم تكن بالفعل كذلـك) فإن المجال العمومي السياسي يجب أن يبقى مجال البرهنـة، والحل الرمزي للصراعات، وليس بأي حال من الأحوال مجال للعنف»[1].

والبعد الثـالث، والأكثر أهمية، في الفكر السيـاسي لهابرماس والـذي يتميز بعمق فلسفي لا يمكن مقـارنتـه مع الآراء التي عبر عنهـا بخصـوص الـوعي التراجيـدي الألماني بتاريخه المعاصر وحركة الشبيبة، بل والبعد الذي يحدد المشروع الفلسفي لهابرماس برمته هو الذي يتعلق باعـادة بناء أطروحة ماكس فيبر المتعلقة بـالفروق الموجودة بين مجالات القيم، وبالعملية السـوسيولوجية التي كـانت وراء بروز الحداثة التي يرجع مصـدرها، في التصور الفيبري، إلى الانحسار التـدريجي للتصورات التقليـدية للعـالم سواء الأسطـورية منهـا أو الدينيـة وظهور مجالات قيمية أخـرى تتمايز فيما بينها داخل المجتمع الغـربي، ومستقلة عن التصورات الشموليـة التقليدية. بل إن هذه المجالات الجديـدة هي التي أصبحت تؤسس مشروعية العـالم الغربي. وهي تتـوزع إلى ثلاث مجالات: المجـال المعرفي (العلـوم) المجال الجمالي (الفن) والمجال القانـوني ـ الأخلاقي (المعايير)، وهـذا التقسيم «المجالي» للقيم، إذا صح التعبير، هو الـذي يطبع العقلانية الغربيـة بحيث إن كل مجال يمتلك منطقه الخاص ويستجيب لمقاييس عقلانية خصوصية*.

فاستقلال المعـايير الأخلاقية عن معايير القانـون يؤدي إلى نحت مجال خاص لكل فرد، في حين أن المعايير القـانونية في حاجـة، دوما إلى تبرير للمبادىء التـي تستند إليها.

(1) Hunyadi (M) : "La souveraintè de la procédure, à propos de la pensée politique de jurgen Habermas", Revue. Lignes N.7, Septembre, 1989, P. 13.

* وبحكم أننا سنتناول مسألة الحداثة السياسية في القسم الثاني من هذا البحث فإننا نفضل عدم الدخول في تفاصيل العلاقة بين تراث ماكس فيبر والمجهود النظري الذي بذله هابرماس من أجل إعادة بنائه.

ومن ثم فإن الفكر الما بعد ـ ميتافيزيقي لا يستمد مشروعيته إلا من قيمة البراهين التي يقدر على انتاجها «على الطريق المؤدية من الأسطورة إلى الدين، ومن الدين إلى الفلسفة وإلى الايديولوجيا، فإن مطلب الاعتراف الخطابي لادعاءات الصلاحية المعيارية يفرض نفسه بقوة» (1). لذلك فالمعايير لا يمكن تبريرها، في نظر هابرماس، إلا اعتمادا على مبادىء خطابية. وكل محاولة للتفكير في مشاكل المشروعية في استقلال عن صيرورة التمايز المؤسسة للحداثة تمثل، في ذاتها، محاولة من أجل إعادة تنشيط نظام موحد مفقود.

ويلاحظ هابرماس أن مفهوم المجال العمومي Espace public يحتل موقعا مركزيا في الفكر السياسي المعاصر باعتباره مجالا للمناقشة وإطارا لمختلف القدرات الفكرية على البرهنة والاقناع. ففي داخله تتكون الارادة السياسية التي تفترض استقلالا معينا في تشكيل الرأي. فما هي دلالة المجال العمومي عند هابرماس؟ وما علاقة ذلك بمسألة المشروعية؟ وكيف تصوغ العقلانية الحديثة عناصر العلاقة بين المجال العمومي والمشروعية؟.

إن هابرماس في دراسته عن «المجال العمومي» (2) يعلن منذ البداية أنه سيقتصر على تحليل نموذج «المجال العمومي البورجوازي» وأن معالجة مفهوم الرأي العام Opinion publique يفترض ملامسة القضايا التي تهم مختلف أصعدة ما ينعت بـ «السياسة». غير أن هذا الاختيار يصطدم بمشاكل منهجية عديدة، ذلك أن هابرماس في سياق بحثه عن «أركيولوجيا» العمومية Publicité استرشد ببعض مقاييس العلوم الاجتماعية ولا سيما علم الاجتماع*، إلا أنه وجد نفسه مضطرا لادخال معطيات منهجية تنتمي لحقول الاقتصاد والقانون العام وعلم السياسة والتاريخ الاجتماعي وتاريخ الأفكار. وبالرغم من اعتراف هابرماس بصعوبة التمكن من كل هذه الاهتمامات والتخصصات فإنه أقر بأن «خصوصية منهجه تأتي من ضرورة اتباع مقاربة سوسيولوجية وتاريخية في نفس الآن» (3).

فالمجال العمومي البورجوازي، عنده، يشكل مقولة تميز مرحلة تاريخية معينة، وبالتالي فإن مفهوم «الرأي العام» هو، بدوره، «مقولة تاريخية» ومن أجل مقاربتها يتعين التسلح بأدوات السوسيولوجيا.

---

(1) Habermas (J) : "Raison et légitimité", op. cit, P. 25.

(2) Habermas (J) : "L'espace public ; Archéologie de la publicité comme dimension constitutive de la société bourgeoise", Paris, Ed. Payot. 1978.

* وتجدر الإشارة إلى أن هذا البحث قدمه لنيل شهادة الدكتوراة في علم الإجتماع.

(3) Ibid, P. 9.

وبالاضافة إلى هذين العلمين (التاريخ والسوسيولوجيا) فإن هابرماس اعتبر أن بحثه ينص على «معالجة بنية ووظيفة النموذج الليبرالي للمجال العمومي البورجوازي»(1) ومن أجل ذلك يتعين البحث عن شروط ظهوره والاشكال التي اتخذها في تطوره. فهو يركز على الخصائص التي اتخذها مفهوم المجال العمومي في تحديدها التاريخي البورجوازي بدون أن يهتم بما سماه «المجال العمومي» «العامي» Plébéienne الذي بقي مقموعا طوال التاريخ الغربي. وفي هذا السياق يشير، هابرماس، إلى أن الثورة الفرنسية، ولا سيما على يد «روبسبيير» Robespierre أدخلت، في لحظة من لحظاتها، مجالا عموميا غير معتمد على «الفئات المثقفة»، وهذه اللحظة تختلف تماما عن الشكل الاستفتائي Plébiscitaire المعمول به في المجتمعات الصناعية المتقدمة.

والفرق الأساسي بين الشكل العامي والشكل الاستفتائي، هو أن هذا الأخير يحيل إلى جمهور مكون من أناس خصوصيين يلتجؤون إلى العقل في مناقشاتهم، في حين أن الرأي العام العامي يتميز بكونه أميا. «فالمجال العمومي البورجوازي يمكن أن يفهم، أولا وقبل كل شيء، باعتباره مجالا لمجموعة من الناس الخاصين مجتمعين في شكل جمهور. وهؤلاء الناس يطالبون بهذا المجال المقنن والمنظم من طرف السلطة، ولكنهم يطالبون به، مباشرة، ضد السلطة نفسها، لكي يتمكنوا من مناقشتها حول القواعد العامة للتبادل، وحول ميدان تبادل البضائع والعمل الاجتماعي. وهو ميدان يبقى خاصا، بشكل أساسي، ولكن أهميته أصبحت ذات طبيعة عمومية»(2). أما الوساطة التي بها يتم التعبير عن هذه المعارضة بين المجال العمومي والسلطة فهي وساطة أصيلة ولا سابقة لها في التاريخ وتتمثل في «الاستعمال العمومي للبرهنة». المجال العمومي يظهر أحيانا كأنه ذلك المجال الذي يعبر فيه الرأي العام عن معارضته، مباشرة، للسلطة. غير أنه قد يحصل التباس في استعمال مفهوم العمومي Le public لأنه كثيرا ما نسمع أن الدولة لها مؤسسات عمومية، بمعنى أن الناس لهم الحق في الاتصال بها والدخول إليها، وأنها مؤسسات وجدت لخدمة الناس وبالتالي فالدولة هي سلطة «العموم» أي أنها تهتم بـ «المصلحة العامة» لكل المواطنين، غير أن «موضوع المجال العمومي هو الجمهور باعتباره ركيزة لرأي عام ذي وظيفة نقدية»(3).

---

(1) Ibid, P. 10.
(2) Ibid, P. 38.
(3) Ibid, P. 14.
ويظهر أن هابرماس يفرق بين العمومية كإطار لممارسة النقد من طرف الرأي العام وبين الإشهار publicité كما توظفه وسائل الإعلام.

وبعد استعراض لمكونات التقليد السياسي في المدينة اليونانية والعلاقة التي كانت موجودة بين الحياة الخاصة والحياة العامة، وبعد إشارته لخصوصية هذه العلاقة في المرحلة الرومانية وفي العهد الكلاسيكي، يلاحظ هابرماس أن مفهومي الرأي العام والمجال العمومي «هما مقولتان لم يجدا إمكانية تطبيقهما الفعلي في ممارسة الحق إلا مع ظهور الدولة الحديثة وبروز المجال الذي يواجهها، المتمثل في المجتمع المدني»[1] ومنذ بدايات المجتمع البورجوازي ومسألة المجال العمومي تشكل مبدأ ينظم النسق السياسي للمجتمع الغربي. وإذا تمكنا من الاحاطة ببنية ووظيفة هذا المجال، كما يرى هابرماس، فإنه بالاضافة إلى تسليط الضوء الذي يمكن أن نقوم به على هذا المفهوم، فإننا ستتمكن من الفهم النسقي لاحدى أهم المقولات المركزية في المجتمع الغربي الحديث والمعاصر.

وبسبب ذلك فإنه لا يمكن البحث في أركيولوجية مفهوم «المجال العمومي» دون الحديث عن مساهمة فكر الانوار، وموقف الفلاسفة الذين تأثروا به، ولا سيما كانط. ذلك أن هذا الفيلسوف نظر لمسألة العمومية Publicité قبل أن يدخل مصطلح «الرأي العام» إلى اللغة الالمانية، كما يلاحظ هابرماس. وإذا كان كانط قد دشن مفهوم النقد في الفلسفة الحديثة، وإذا كان مفهوم الرأي العام أيضا يعتمد في مكوناته على النقد، فإن كانط ضيق بعض الشيء من دلالة الممارسة النقدية. إذ أن «الرأي العام يكون موجها بإرادة عقلنة السياسة باسم الاخلاق»[2] وبالتالي فإن مهمة الاستعمال العمومي للعقل متوقفة، عند كانط كما عند فلاسفة التنوير، على «العلماء» ولا سيما على من يعتمد في تفكيره على مبادىء العقل الخالص، أي الفلاسفة. فالأنواريون يعتبرون الجمهور قاصرا «وغير مؤهل لممارسة العقل، وفي نفس الوقت فإن هذا الجمهور لم يكن من الممكن أن يكون جمهورا إلا بفضل أعضائه الأكثر نضجا والذين هم في مستوى نشر الأنوار.

وبدون أن ندخل في تفاصيل تطور الموقف الفلسفي والسياسي من المجال العمومي في تاريخ الأفكار الفلسفية الحديثة، نشير إلى أن هيغل حتى وإن أكد، في نظريته للدولة، على الانفصال بين المجتمع السياسي والمجتمع المدني فإن وظيفة المجال العمومي عنده، تتمثل في «عقلنة السيطرة»[3] غير أن ماركس في نقده للفلسفة السياسية الهيغلية وللمجتمع البورجوازي، اعتبر أن العمومية التي أنتجها هذا المجتمع ستتحول إلى مجال

(1) Ibid, P. 16.
(2) Ibid, P. 112.
(3) Ibid, P. 126.

تخترقه عناصر غير بورجوازية تمارس من خلاله النقد لدرجة يغدو فيها المجتمع المدني قادرا على تبني موقف سياسي مضاد.

ومهما يكن من أمر، فالمجال العمومي البورجوازي «ظهر في نفس السياق التاريخي الذي انفصل فيها المجتمع المدني عن الدولة : إن الميدان «الاجتماعي» كان من الممكن أن يتكون في شكل مجال خاص حيث تتخذ إعادة انتاج الوجود الاجتماعي طابعا خصوصيا، وحيث إن هذا الوجود ممثلا للميدان الخاص في مجمله، يصبح، من جهة ثانية، قضية ذات أهمية عمومية»(1).

غير أن النظام البورجوازي أسس وجوده على بنيات دمجية أساسية. ففي كل مرة يتعرض نمط اقتصاده إلى هزة بنيوية، فإنه يسرع إلى تغيير نمط تراكمه والاستفادة من عناصر الاعتراض على حركته وذلك بدمجها في آلياته. وما ينطبق على الصعيد الاقتصادي يمس المجال السياسي والثقافي. فهوامش النقد والاحتجاج داخل المجتمع الديمقراطي هوامش يحرص على وجودها واستمرارها، ولكن هذا النقد يتم من خلال القنوات التي يعمل، هو، على خلقها والتحكم فيها. لذلك فما يسمى بـ «الثقافة الجماهيرية» تخضع لمنطق تواصلي يخدم، في النهاية، آليات إعادة إنتاج المجال العمومي الذي تسيطر عليه البورجوازية. فالجامعات والأطر الحزبية، والجمعيات الثقافية ومحطات الراديو والتلفزيون ودور النشر، كل هذه القنوات تنشط المناقشات «العمومية» من خلال «منابر»؛ وطبيعة هذه المنابر تغيرت مع تغير الزمن الحديث بحيث أصبحت هي بدورها مواد للاستهلاك وللتداول. بل إن «المتاجرة بالانتاجات الثقافية كانت، شرطا ضروريا للاستعمال العمومي للعقل النقدي.. ويمكن القول، بشكل عام، أنه يجب دفع الثمن من أجل القراءة، والذهاب إلى المسرح، والحفل الموسيقي، والمتحف، ولكن لا يتعين الدفع للحديث عما قرأناه وسمعناه.. إن المناقشة، اليوم، باعتبارها كذلك تجد نفسها خاضعة لإدارة حقيقية»(2).

إن نموذج المجال العمومي البورجوازي كان يفترض تمييزا دقيقا بين الميدان الخاص والميدان العام، أي تمييزا يؤدي إلى انتماء الميدان الخاص، إلى المجال العمومي نفسه المكون من أناس خصوصيين يجتمعون في شكل جمهور ليلعب دور الوساطة، بين حاجات المجتمع والدولة. ولكن في الوقت الذي تداخل فيه كل من الميدان الخاص والعام فإن هذا

(1) Ibid, P. 135.
(2) Ibid, P. 172.

النموذج لم يعد قابلا للتطبيق حيث ظهر مجال ثالث، يصعب تصنيفه في الميدانين الخاص والعام، تتداخل فيه الميادين والمستويات المدولنة étatisés للمجتمع، وتلك التي اتخذت طابعا «اجتماعيا» للدولة. وذلك بدون وساطة الأشخاص الذين يستعملون عقلهم سياسيا «فتشابك الميدانين العام والخاص كانت له نتيجة منطقية تمثلت في اضطراب تنظيم المجال العمومي الذي كان يلعب، في السابق، دور الوسيط بين الدولة والمجتمع»[1].

إن الوظيفة التي كان من المفروض أن يقوم بها الجمهور أصبحت مؤسسات أخرى تقوم بها، سواء انطلقت هذه المؤسسات من مجال خاص مثل الجمعيات أو النقابات، أو من المجال العمومي مثل الأحزاب السياسية التي تقوم، بتنسيق مع أجهزة الدولة وحسب قنوات إدارية داخلية، بالعمل على ضبط توازن السلطة. لذلك فإنها توظف وسائل إعلامها الموالية لها لاكتساب جمهور خضوع، أو على الأقل جمهور يسمح بممارساتها وقراراتها. إن «العمومية Publicité في الأصل، كانت تضمن العلاقة التي كان الاستعمال العمومي للعقل يربطها بالأسس التشريعية للسيطرة والمراقبة النقدية لممارستها. ومنذ ذلك الوقت، فهي، أي العمومية، تشكل مبدأ سيطرة تمارس من خلال التحكم في رأي غير عام، الأمر الذي يؤدي إلى هذا الالتباس المتفرد، ان «العمومية» تساعد على استخدام الجمهور* في نفس الوقت الذي تمثل فيه الوسيلة التي نستعملها لتبرير الذات تجاهه. وهكذا انتصرت عمومية الاستخدام على العمومية النقدية»[2].

إن مبدأ العمومية لم يعد يقتصر على ضبط العلاقات بين أجهزة الدولة ولكن كل المؤسسات التي، اعتمادا على العمومية، تلعب دورا نشطا داخل المجال العمومي. لأن عملية تغيير قوى اجتماعية إلى قوة سياسية تتطلب النقد كما تستدعي مراقبة التطبيق المشروع للسلطة السياسية على مجموع المجتمع.

قد يبدو هابرماس في تحليله لآليات المجال العمومي ولأساليب الاستخدام المتبعة داخل المجتمع البورجوازي الاستهلاكي، متأثرا بموقف هربرت ماركوز من الانسان والثقافة داخل المجتمع ذي البعد الواحد. لكن نظرته للمجال العمومي في علاقته بالتقنية وبالاستخدام وبالسيطرة تختلف تماما عن نظرة ماركوز. فهذا الأخير يرى أن السيطرة

(1) Ibid, P. 185.

*نقترح تعريب لفظة manipulation بكلمة استخدام بدل تلاعب الذي يفيد في كثير من الأحيان معنى استخفافيا.

(2) Ibid, P. 186.

مـلازمة للتقنيـة، في حين أن هـابرماس يعتبر أن العقل التقني ليـس، في ذاته، مشروعـا سياسيا للاستخدام، لأنـه على صعيد العلاقة بين العقل والسيطرة ليس الجانب المنطقي، المتعلق بالبرهنة هو المشكـوك في براءته بل الطابع الايديولـوجي لهذه العلاقة. ومن تم فهو يرى أن هنـاك صراعا بين عمـومية نقـدية Publicité critique وعموميـة موظفـة لخدمة استراتيجية الاستخدام Manipulation.

إن الـرأي العـام، في نظـر هابرمـاس، أصبح تخيـلا Fiction بالنسبـة للقانـون الدستـوري، لأن هناك قـوى تتصارع وتتفاعل داخل المجـال العمومي، بعضهـا خاضع لإغراء الاستخدام وآليات السيطرة، وبعضها الآخر يتحرك ضمن مسافة نقدية إزاء إرادات الدمج. لـذلك فإن «مفهوم الرأي العام حينما لا يتحـدد إلا في علاقته بمؤسسـات ممارسة السلطـة السيـاسية، لا يكـون في مستـوى التعبير عن البعـد الذي تتجلى فيـه العمليـات الرافضة لتمثيل الأشكال المتعارف عليها في التواصل»[1] لذلك فهابرماس يلاحظ أن هناك ميدانين للتـواصل يصعب إقصاء الطابع السيـاسي عنهما، وهما ميدانان في حـالة صراع: هناك الآراء الرافضـة لما هو متعارف عليه، الشخصيـة، غير العمومية، وفي المقابـل توجد الآراء المعترف بها من طرف المؤسسات. الأولى تسعى إلى التحرر والثـانية تعمل على الدمج من خلال الاستخدام وأساليب الاغراء.

وفي سياق ما يسميه هـابرماس بـ «نظرية سوسيولـوجية للرأي العام»[2] يلاحظ أنه من أجل استيعـاب مستويات التـواصل داخل مجتمع ديمقراطـي منظم من طرف الـدولة الاجتماعية Etat-social لا بد من مواكبة تحولات الرأسمال الرمزي الذي من خلاله يتشكل الـرأي العام. لأن «تعـريف الرأي العـام له طـابع مقارن ولأن الصفـة العموميـة لرأي مـا تنكشف حين نجيب عن الاسئلـة التـاليـة: إلى أي حـد تشكل هذا الـرأي انطـلاقـا من العمـومية الـداخلية للتنظيمات الجامعـة لجمهور أعضـائهـا؟ ما هـو مدى التـواصل بين عمومية داخلية لتنظيم معين والعمومية الخارجيـة التي تتكون داخل العلاقة والتي لها صفة «صحفية» متحكم فيهـا من طرف وسائط الاتصال بين التنظيمات الاجتماعيـة ومؤسسات الدولة؟»[3].

في إطار الديمقراطية الجماهيرية لا يمكـن أن يتكون مناخ تواصلي خاص بجمهور معين إلا إذا لعبت العمـومية النقـدية التي أنتجتهـا العموميـة الداخليـة للتنظيمات، دور

---

(1) Ibid, P. 253.
(2) Ibid, P. 260.
(3) Ibid, P. 260.

الوسيط بين القنوات، المحايدة ظاهريا، للرأي، وبين الميدان الرافض للمألوف المرتبط بالآراء غير العمومية.

فالرأي يجب، في نظر هابرماس، أن يتكون من خلال المناقشة التي يفرضها التبادل الرمزي والسياسي داخل مجتمع تتنازعه قوى الصراع وقوى الإجماع. وبحكم أن النظام السياسي الذي انتجته الدولة الحديثة في حاجة، دوما، إلى ولاء الجماهير فهو يبحث بالضرورة عن أساليب متعددة لإضفاء المشروعية على مؤسساته. وهذه المشروعية يتم تداول عناصرها داخل قنوات المجال العمومي بكل ما يتضمنه من تعبيرات متصارعة، ولكن أهم شيء، بالنسبة لهابرماس، هو الاعتراف بالجميع داخل مجال عمومي ذي طبيعة سجالية. فهذا المجال حل محل المجتمع المدني في المجتمع الصناعي المتقدم، وأصبح الجمهور بتعدد مصالحه واتجاهاته وباستعماله العمومي للعقل، هو المصدر الشرعي للقوانين. فبالرغم من كل التناقضات التي تعبر المجتمع الحديث، وبالرغم من تحكم البورجوازية في آليات المجال العمومي فإن الرأي العام في وجوده الواقعي والمتخيل، أصبح يشكل بعدا رئيسيا للمشاركة الجماعية في اتخاذ القرارات. صحيح أنه يتعين إدخال بعض النسبية على هذه الملاحظة، لكن السيطرة، سواء في تعبيراتها العقلانية أو اللاعقلانية، والتي بها ينتزع المجتمع الحديث مشروعيته أصبحت، في تصور هابرماس، خطرا جماعيا، «يجب التخفيف منه بتكوين إرادة سياسية مرتبطة بمبدإ مناقشة عامة ومتحررة من أي سيطرة أو ضغط، وبالتالي فإن تواصلا عموميا ومتحررا من السيطرة هو الذي يشكل «قوة أفضل برهان»[1].

لا شك أن الأمر يتعلق بمثال تاريخي يصعب احترام تطبيقه داخل مجتمع جعل من الاستخدام السياسي مبدءا مكونا للحياة السياسية المعاصرة، وهو مثال فكر فيه هابرماس في بداية نشاطه الفلسفي والتنظيري بحيث إنه سيعمل، فيما بعد، على إدماج فلسفته السياسية ضمن نظرية للمجتمع محاولا إعادة بناء مفهومي الحداثة والتواصل منطلقا، في ذلك، من تقويم نقدي للعقلانية الغربية ومن تحولات اللحظة المعرفية وتغيرات السياسة*.

(1) Habermas (J) : "Raison et légitimité", op. cit, P. 64.

* سنتطرق في القسم الثاني لمفهوم السياسة ضمن التصور العام لهابرماس للحداثة.

القسم الثاني

جدل الحداثة والتواصل

الفصل الأول

الحداثة والعقلانية

لقد تبين لنا، مما سبق، أن هابرماس يريد أن يقدم مشروعا فلسفيا للزمن الحديث. مشروع لا يستجيب، ضرورة، لمقتضيات النسق، لأنه يتخذ من النقد قاعدة أساسية في النظر إلى الأشياء والموضوعات والزمن واللغة والنصوص. وهذا التبرم من النسقية هاجس ورثه هابرماس عن فلاسفة النظرية النقدية الذين أخضعوا كل نزوع نسقي لمقاييس العقل النقدي، حتى ولو كان هذا النسق من إنتاج العقل.

وبالإضافة إلى ذلك ورث هابرماس من فلاسفة النظرية النقدية إلحاحهم المستمر على تعدد الاختصاصات وعدم الاكتفاء بالتأمل الفلسفي الذي لن يؤدي إلا إلى الانغلاق الميتافيزيقي. إن استلهام الاهتمامات العلمية المتعددة سواء منها التجريبية ـ التحليلية أو الانسانية التاريخية يفتح آفاقا لا حصر لها للممارسة النظرية وتعطي للسؤال الفلسفي شرعيته التي تعمل النزعات الوضعية والتقنية والعلمية على نكرانها عليه.

ثم إن هابرماس، بالرغم من أنه استمد أكثر مقوماته الفلسفية والفكرية من داخل السياق الألماني، فإن فكره لا يمكن إرجاعه إلى «الفلسفة الألمانية» فقط، ذلك أنه انفتح على أغلب الاتجاهات الفكرية والفلسفية التي أنتجتها الحداثة الغربية سواء في أمريكا أو أوروبا.. الأمر الذي أعطى نصوصا بالغة الغنى والتعدد، سواء على مستوى الدلالات أو الإحالات أو على صعيد الموضوعات والمقاربات. إن هابرماس يبرهن في كل مرة على أنه «قارىء» محترف ذلك أن له قدرة هائلة على تفكيك النصوص وتحليل النظريات من أجل امتلاكها نقديا وإعادة بناء الموضوعات والمفاهيم ضمن تصور فلسفي يتغيى تأسيس نظرية في الحداثة. ونصوصه تعلن في كل مرة، ابتعادها عن فلسفة الذات والوعي، بل وتقوم بذلك بطريقة تبدو أكثر جذرية من الفلسفات التي جعلت من الاختلاف وسيلتها

وهدفها. إنه بدل الانسحاب إلى مجالات المتخيل وتعبيرات اللاعقلانية، قرر الاستمرار في ممارسة النقد وتحيين مفاهيم العقل التي تستطيع خلق المسافة الضرورية مع إنتاجاته. إن هابرماس بتوظيفه لأكثر من مرجع علمي أدخل حساسية جديدة لمجال التفكير الفلسفي وجعله أكثر إنصاتا للظواهر المرضية، وغير المرضية، التي أنتجها الزمن الحديث. وبمعنى آخر أنه إذا كان يتعين على الفكر الفلسفي أن يفكر في زمنه وينتج مفاهيم جديدة حسب جدة اللحظة والسياق والنظام الرمزي، فإن هذا الفيلسوف الألماني يفرض نفسه على الساحة الفلسفية العالمية بقوة. أولا لإنه حاول إعادة تحديد دور الفلسفة في ضوء متغيرات الحداثة، وثانيا لأن نصه يكشف عن تفلسف بالفعل، وثالثا لأنه لا يدعي أنه بفلسفته يؤسس بشكل نهائي، لكل فلسفة، وأنه معها وبعدها ينتهي كل تفلسف، كما فعل عدد من الفلاسفة قبله.

ويمكن القول، انطلاقا مما سبق أن تعرضنا له بخصوص المشروع الفلسفي لهابرماس، أن هذا الفيلسوف، ومنذ الخمسينات إلى الآن وهو يبحث عن أسلوب لإعادة بناء نظرية في الحداثة والعقلانية إلى أن أنجزها في سِفْرَيه : «نظرية الفاعلية التواصلية» و«الخطاب الفلسفي للحداثة»، الأمر الذي يدفعنا إلى القول بأن كتابات هابرماس تنقسم إلى مرحلتين : مرحلة الشباب، ومرحلة النضج، ذلك أنه من الصعب أن لا يلاحظ المرء الفرق الموجود بين كتاب هابرماس الأول : «جوانب فلسفية وسياسية» وكتابه الأخير عن «الخطاب الفلسفي للحداثة»، سواء كان هذا الفرق يهم الاشكالية أو المفاهيم أو القاموس أو نمط التساؤل. صحيح أنه يمكن أن نعثر على بعض المصطلحات الثابتة عند هابرماس، منذ كتاب «التقنية والعلم كايديولوجيا» أو «النظرية والتطبيق» إلى آخر كتاب له، لكن «نظرية الفاعلية التواصلية» و«الأخلاق والتواصل» و«الخطاب الفلسفي للحداثة» تشكل، بالفعل، كتب التأسيس للنظرية الهابرماسية.

لا نسجل هذه الملاحظة لاضفاء الشرعية على أي ادعاء يتعلق بالقطيعة داخل فكر هابرماس، بل ما نود الإشارة إليه هو أن الإشكالية المركزية عنده تبلورت، بشكل أساسي في كتبه الأخيرة، وأن الحداثة والتواصل وجدت صياغتها النظرية في هذه المرحلة اعتمادا على إيقاع ثلاثي متداخل الأبعاد والأفكار، أولا بالتفكير في النظرية الإجتماعية بإعادة بنائها، ثانيا بالتفكير في اللغة والتواصل وتعميقها من خلال «تداوليات كلية»، وثالثا، بالتفكير في الوضعية السياسية، الاقتصادية والثقافية للمجتمعات الحديثة. وبمعنى آخر أن هابرماس سعى إلى استئناف التفكير في العقلانية، وفي تطبيقاتها الملتبسة في المجتمعات الغربية من طرف ذوات قادرة على أخذ الكلمة وتبرير ادعاءاتها والبرهنة على ممارساتها.

إن الأمـر يتعلق عندنـا، في هـذا القسم من البحث، بـالعمل على تلمس دلالات تركيب فلسفي جعل من الحداثة والعقلانية والتواصل انفتاحات لإعادة بناء مفهوم العقل. فكيف نظر هـابرماس إلى مسألة الحداثة ؟ ومـا هو موقع ودور العقلانيـة في صيرورة الزمن الحديث ؟ وكيف صـاغ تصوره للتمفصل الـذي يحصل بين الحداثة والتـواصل ؟ وما هـو موقع هذا الأسلوب من النظر الفلسفي من بعض الاجتهادات الفلسفية المعاصرة ؟

1. أبعـــاد الحـــداثـــة

لم يتوقف الفكـر الغربي منذ عصر النهضة إلى الآن عن مسـاءلة مقوماتـه وأساليب اشتغـاله، الأمـر الـذي جعل من النقد مكـونـا من مكونـات النظـر إلى الذات والأشيـاء والزمن. لـدرجة أن عصر الأنوار كـرَّس هذا الاجـراء الفكري وأعطاه بعـده العقلي. ومنذ بدايات مـا يسمى بالحداثة الفكريـة وهذه الحداثة لا تكف عن محاسبة نتـائجها بأساليب تسترشد بمقاييس العقل والعلم. لأن الفكر الفلسفي الغربي، منذ ديكارت إلى الستينات من هذا القرن، استبعـد كل الملكات الإنسانية الأخرى من أهواء وخيـال واعتبرها مصدرا للخطأ وعنصرا مشوشا على المعرفة الحقة.

ويبدو أن طرح سؤال الحداثة تم، بالأساس، داخل تاريخ الأفكار الغربية، بل ان كثيرا من الناس يجعلون الحداثة مرادفة لفكر الغـرب وتعبيرا عن قيمه وتصوراته وعن موقفه من الـزمن والمكـان والانسان. ولكـن هل صحيح أن الحداثة، كسـؤال فكـري وكمشروع حضاري، تلازم التحـرك التاريخي للغرب منذتشكيلـه الحديث إلى الآن ولم تمس الثقافات الأخرى إلا من خلال هذا الغرب نفسـه ؟ وهل من الممكن وضع تعريف لمفهوم الحداثة أو إعطاء جـواب عن سؤالها ؟ وكيف تعاملت الحداثـة، وعقل الحداثة، مع الطبيعـة والزمن والانسان ؟ وما هي علاقة الحداثة بالسلطة ؟

وقبل أن ندخل في الاقتراب من الملامح العـامة التي تميز مشروع الحداثـة، لابد من الإشارة إلى التمييز الـذي يوضع بين الحداثة Modernité والتحديث Modernisation. والحداثة في نظر «جـورج بلانديي» تستعمل «لوصف الخصائص المشتركـة للبلدان الأكثر تقدما على صعيد التنمية التكنولوجية، السيـاسية، الاقتصادية والاجتماعية» أما التحديث فإنه يستخدم «لوصف العمليات التي بواسطتها تكتسب هذه المستويات من التنمية»[1]،

(1) Balandier (G) : "Anthropo-Logiques" Paris, Ed. Librairie Générale Française, 1985, P. 283

من تم يغـدو التحديث هي تلك المحـاولات و«التطلعات» التي تستهـدف تحقيق النماذج الغـربية، أو هي تلك الإمكـانيـة التي من خلالها نتصـور البنيـات المؤسسية القـادرة على استيعاب التحولات المختلفة التي تطرأ على الزمن والمجتمع.

هذا الفهم للحداثة يبقى، في مجمله، مرتبطـا، بالسياق الثقافي للغرب، ويطابق، بالتالي، بين الحداثة والغرب، بحيث لا ينظر إلى تجارب الآخرين إلا بوصفها تكرارا لنماذج الغرب واستنساخـا لطرائقه وأساليبه في العمل والتنظيم والتبادل. ممـا يجعل الحداثة عبارة عن «نموذج كـوني» لا يعمل الآخرون إلا على إعادة إنتاج عنـاصره، الأمر الذي يفضي إلى القول بأن الغـرب بحكم كونه يشكل «النمـوذج الكوني للحداثـة» يصبح «المرجع الكوني» لأنه يـوجد دائما في وضعية تقـدم تسمح له بتجـاوز الآخرين وتفرض عليهم، بطـريقة أو بأخرى، ضرورة الرجوع إليه والاقتباس من إنجازاته وتجاربه.

والغرب الحديث، منذ بداياته إلى الآن، كان دائما مدفوعا إلى الامام من طرف قوتين أساسيتين: إرادة المعـرفة وإرادة السيطـرة. بل إن الرغبـة العارمة في المعـرفة تعـزز وتقوي الرغبة في التغيير، ومن تم الميل نحو التوسع والتحكم في فضاءات متعددة.

ولكن إذا ما سلمنا بعلاقة التطـابق الموجود بين الغرب والحداثة فما هي المعاني التي تتخذها هذه الأخيرة، ذلـك أن القول بإعطاء معنى واحد ووحيد للحداثـة يصطدم بالمبدإ المُكَـوِّن أصلا لهذه الحداثـة نفسهـا، وهي أن تحولات اللحظة التـاريخيـة والمعرفيـة تعني، باستمرار، المعنى الذي يُعْطَى للحداثة. كذلك فـإن «ما هو حديث بالفعل، هو الموضوع أو الفرد الذي نثبت بأنـه في توافق مع عصره» [1]غير أن العصور تتـوالى والطرائق والحالات تتبدل، لـدرجة أن مـا نعتبره، الآن، حديثـا يعطي الانطباع بأنـه سيصبح قديما بـالنسبة للأجيال الآتية، ولهذا تظهر السمة الأولى للحداثة والمُتَمَثِّلة في كونها توجد في حالة تعارض دائم مع القديم. وبالتالي فإن ما هو حديث يتعارض من حيث المبدأ مع ما هو تقليدي أو ما ينتمي لتراث مضى. كل هـذا يسمح بالقول بأن الحداثة تمثل «أخـلاقا شرعية للتغيير، مُتخلِّية عن القـديم منادية على الجديد، يدفعهـا مبدؤها دومـا إلى ما هـو أبعد، وإلى أن تستهلك أكثر وإلى أن تصبح إيديولوجيا التغيير من أجل التغيير»[2].

وإذا كـانت لفـظة «حـديث» ظهرت في القـرن الـرابع عشر الميـلادي للتعبير عن الاعتراض على ما هو قديم والذي كان يميز العصور اليونانية والرومانية القديمة، فإن هذه

---

(1) Domenach (J-M) : "Approches de la modernité", Paris, Ed. Ecole Polytechnique, 1986, P. 13.

(2) Ibid, P. 14.

اللفظة لم تتخذ شحنتها العاطفية، كما يرى «جان ماري دوميناك» الا فيما بعد، أي في الوقت الذي برز فيه مفهوم الحداثة الذي بدأ بالتداول حوالي 1850 على يد كل من جيراردي نيرفال G. Denerval وشارل بودلير C. Beaudelaire حيث نظرا للحداثة باعتبارها تكثيفا لمجموعة من الدلالات العائمة، سواء كانت فلسفية وجمالية أو سياسية، وأصبحت تعني تلك الارادة «الاستفزازية» «المتمثلة في حب العصر والاحتفال به»[1].

ويرى هنري لوفيفر أن الحداثة «لا تواصل مسيرتها بدون أزمات. إن التناقضات تعبث فيها من كل جانب، وتعمل عملها الذي لو تحقق. . سيحول الحياة، بل أكثر من ذلك ان الأزمات تتعدد في قلب هذه الحداثة، وتتقارب من بعضها البعض الآخر، وتعم. انها تعدل بعضها البعض. ولا بد لكل قطاع وكل ميدان أن يدخل بدوره في أزمة من هذه الأزمات أو أن يخرج من إحداها. وإذ تتعدد هذه الأزمات، المتنوعة الاشكال، بالرغم من الاحتجاجات المطروحة، فإنها تبدو كعناصر مؤسسة للحداثة. إنها تدمج عضويا بوعي هذه الحداثة، بصورتها، وبما تطرحه عن نفسها من عناصر تبريرية. وهي غالبا ما يتم اعتبارها أزمات خصبة، حتى حينما يتم شجبها»[2].

فالحداثة بقدر ما توجد في حالة تعارض مع ما هو قديم بقدر ما تختزن في عملياتها احتمالات الأزمة. فتحريك القديم يشكل خلخلة للموجود وللمألوف. ويعتبر أحد الباحثين أن هناك ثلاث أزمات ميزت مسيرة الحداثة طيلة القرنين الماضيين. الأزمة الأولى برزت في أواخر القرن الثامن عشر مع الثورة الفرنسية التي جسّدت المثل الحديثة في مجال السياسة ؛ أما الأزمة الثانية فإنها ظهرت في أواخر القرن التاسع عشر حيث تم الإعلان عن بداية انهيار مُثُل التقدم، والعقلانية والليبرالية. . الخ أمام تصاعد حركة الجماهير و«الأهواء الجماعية» مثل اللاعقلانية ومناهضة السامية والفاشية والاشتراكية. . الخ ورد الاعتبار للقوى المكبوتة والتعبيرات المتنوعة التي عملت حركة الحداثة على تهميشها مثل رموز اللاوعي وتجليات العلامات التي لا تستجيب لمقاييس العقلانية. . الخ. في حين أن الأزمة الثالثة فقد تفجرت في أواخر الستينات من هذا القرن، وما زالت لم تنته علاماتها وتعبيراتها بعد، حيث تتميز «بسقوط كثير من الإيديولوجيات الجماهيرية، وبانتصار الخاص على العام وبالنقد الجذري للنزعة الانسانية»[3].

---

(1) هنري لوفيفر، "ما الحداثة" : ترجمة كاظم جهاد، دار ابن رشد للطباعة والنشر 1983.
وهو عبارة عن فصل مترجم من كتاب "مدخل إلى الحداثة" نشره هنري لو فيفر سنة 1962.

(2) Ibid, PP. 13-14.
(3) Ibid, P. 15.

ومهما تكن مصداقية هذا التحقيب التاريخي للأزمات التي ميزت حركة الحداثة منذ القرن الثامن عشر إلى الآن، لأن كل عملية تحقيب تعبر عن رؤية خاصة للتاريخ وبالتالي عن اختيار فكري. ذلك أن حديث هنري لوفيفر عن الأزمة كحالة ملازمة لحركة الحداثة يختلف تماما عن تصور «جان ماري دوميناك» للازمة ولمختلف الظواهر الفكرية والسياسية التي أفرزتها الحداثة. كما أن الحداثة، في مفهومها الجمالي عند كل من بودلير ورامبو مثلا، تمثل، أساسا، عملية تدمير للأشكال الثابتة التي تحول دون تطور الفن والمشاعر والأفكار والعادات.. الخ. وبالتالي فهي تسمح بذلك التبرم المبدئي إزاء ما هو موجود وما يعتبر نفسه مالكا لشرعية مطلقة. والحداثة، بغض النظر عن كونها تنطلق من تصور جمالي أو غيره، فإنها لا تسلم بقدسية أي شيء، ومن ثم فان كل الموضوعات والاشياء والخطابات خاضعة للبحث والمحاكمة، وموضع استقصاء سواء من طرف العلم أو الفن، الفلسفة أو التقنية. ولهذا السبب فان الحداثة بقدر ما تتجرأ على إعطاء تعريفات للأشياء والكلمات وتعطي التسميات للظواهر والعلامات بقدر ما تعاند، هي، كل إرادة للتسمية وبالتالي فهي «ترفض كل تعريف، أي كل تحديد»[1]، إنها لا تمتلك أي خطاب مؤسس لأنها تضع لنفسها، في كل مرة، أساسها المناسب، وهو أساس ينزاح دوما عن ثوابته لأنه لا يكف عن التوسع والتنقل وعن إدماج كل ما هو جديد من أشكال وعلامات وأساليب. إن «الحداثة انفتاح كل الفضاءات الفردية والاجتماعية على ما هو جديد وعلى ما يتحقق من خلال التقدم السريع للعلوم وللتقنيات، وعلى اللغات اللازمة لكل المعارف وللمعرفة العملية الاكثر حداثة. ولأنها مرتبطة بكل ما هو مستحدث (وبالمجهول) فإن زمنها قورن بزمن الاستكشافات والفتوحات الرائدة»[2].

ولذلك فالحداثة «لا يمكن اختزالها في مفهوم سوسيولوجي أو سياسي أو حتى تاريخي»[3] فبالرغم من أنها تكون دوما، في تعارض مع ما هو قديم، وتتبرم، بالتالي، من كل ما يدعو إلى التقليد والاهتداء بمبادىء التراث، وبالرغم من أنها تتضمن في عملياتها احتمالات الازمة وأنها تعاند كل تعريف وكل إرادة لتجديدها وإعطائها تسمية معنية، إنها تحيل إلى حضارة تعمل على إلغاء الآخر ونفي ثقافته وبسط نماذجها وأساليب تدخلها في الفضاء والزمن وأشكال تنظيمها للسياسة وللعلاقات الاجتماعية. لذلك فبقدر ما تريدُ أن

(1) Balandier (G) : "Le détour, Pouvoir et modernité", Paris, Ed. Fayard, 1986. P. 14.
(2) Beaudrillard (J) : "La modernité", Encyclopédia Universalis, volume 11.
(3) Ibid.

تفعل في الواقع وتغيره بقـدر ما تنسج حـولها أساطير لدرجـة يتداخل في مظـاهرها مـا هو واقعي وما هو أسطوري.

وهنا تبـدو إحدى مفارقـاتها. ففي الوقت الذي تتجـاوز فيه التصورات التقليـدية للعالم، سـواء كانت دينية أو سحريـة، فإنها مع ذلك، وفي سياق تدخـلاتها وإنجازاتها. تنتج حالات شعورية وسلوكات لا تمت إلى المقاييس التي تريد تثبيتها وتأسيسها. إنها تفرز أساطيرها الخاصة سواء على صعيد التصور أو التنظيم أو العلاقات.

وبـالرغم من هـذا التداخل بين الـواقعي والأسطـوري، فإن الحداثة تتميـز في كل المجالات المتعلقة بـ «الدولة الحديثة والتقنية الحديثة والموسيقى والرسم الحديثين. العادات والأفكار الحديثـة. إنها نوع من المقولـة العامة والضرورة الثقـافية، وبحكم أنها تبحث عن بعض الثورات العميقـة في التنظيم الاقتصادي والاجتماعي، فإنها تتجلى أيضـا على صعيد العادات ونمط الحيـاة وما هـو يومي»[1]. والحداثـة بـالـرغم من تأثيرهـا على جل مجالات الحياة، فإنها تتميـز بكونها متموجـة في أشكالها وفي مضـامينها، متغيرة في مواجهـة ثوابت التقليد، فإنها تصبح تعبيرا عن «تقليد للجديد» وبحكـم أنها انبثقت من سياق أزمة عامة فإنها تشكل، كـذلك التشخيص العـرضي لـلأزمـات. بل إنها «تجعل من الأزمـة» قيمـة وأخـلاقا متنـاقضة. وهكـذا، ومـا دامت حضارة بأكملهـا تجد نفسهـا فيها، فإنها ــ أي الحداثة ـ تضطلع بوظيفة الضبط الثقافي. وهنا تلتحق، خلسة، بالتقليد»[2].

وإذا كان من الصعب المقارنة بين وظيفة التقليـد ووظيفة الحداثة بخصوص القدرة على خلق التوازن داخل المجتمع وضبط مفاصله، لأن لكل إطـار مرجعي ـ هذا اذا سلمنا ان للحداثـة اطارها المرجعي الخاص ــ آلياته ومعـاييره الضابطة فإن الحداثـة بحكم كونها تعاند كل إرادة لتسميتها وتعريفها، فإنها كذلك ليست مفهوما إجرائيا يمكن الاستعانة به أثناء التحليل «لأنه ليست هناك قوانين للحداثة، بل كل ما هنالك هو معالم للحداثة، كما أنه ليست نظرية وإنما منطقا إيديولوجيا للحداثة»[3].

ومن تم فـالحداثة لا تعبر، فقط، عن واقع التغيرات التقنيـة، العلمية والسيـاسية التي وقعت في التاريخ الغـربي، وإنما تدخل، كـذلك، ضمن لعبة العلامـات والعادات والثقافات التي تكثف التحولات البنيوية على صعيد الطقوس والسلوكات الاجتماعية.

---

(1) Ibid.
(2) Ibid.
(3) Ibid.

فمنـذ القرنين السـابع عشر والثـامن عشر تم وضع الأسس الفلسفيـة والسياسيـة للحداثة والتي تمثلت في الفكر الفرداني والعقلاني الذي كان ديكارت وفلاسفة التنوير أهم من دعى إليه وبشر به، كما ظهرت في الدولة المركزية المعتمدة على التقنيات الادارية الحديثة بدل الاساليب العتيقـة للنظام الفيودالي، إضافـة إلى بدايات وضع القواعـد الأولية للعلوم الفيزيـائية والطبيعية التي أدت إلى النتائج الأولى للتكنـولوجيا التطبيقية. أمـا على الصعيد الثقافي فإن هذين القرنين تميزا بفصل ما هو ديني عما هـو دنيوي، وبالتالي باستبعاد تدخل الكنيسة في شؤون الابداع الفني والعلمي. وبالرغم من ذلك فإن الحداثة لم تكن تعبيرا عن نمط حياة بقـدر ما كـانت تُعَبِّر عن بدايات تنفيـذ المشروع الحضاري البـورجوازي الليبرالي الذي لم يكف، منـذ ذلك الوقت إلى الآن، عن التحـول والتبلور في أشكـال أكثر حـداثة دوما، ولكنهـا كذلك تنصهـر داخل نسق إيديـولوجي يجد لكـل الظواهر تبريـراتها ولكل حالات الاعتراض أسلوبا لدمجها وترويضها.

لذلك لا يمكن استبعـاد الخلفية الايديـولوجية عن كل تصـور للحداثة. فـالتقدم التقني المستمـر في العلوم والتقنيـات والتقسيم العـام للعمل أدخـلا إلى الحياة الاجتماعيـة أبعـادا دائمة للتغيير وخلخـلا العادات والثقـافات التقليـدية، وبـالموازاة نتجت توتـرات سياسية وصراعات اجتماعية مما فرض على الدولة الحديثة وعلى اجهزتها المختلفة التي تعتمد عليهـا ضرورة الحداثـة في سياق الصراع الايـديـولـوجي من أجل ضبط مفـاصل المجتمع والتحكم في مختلف تعبيراته الاعتراضية.

إن الصراعات المختلفة التي ولـدتها الحداثة بالاضافة إلى مظاهـر النمو الديمغرافي والتمركز الحضري والتطور الخارق لوسـائل التواصل والاعلام، كل هذا جعل «من الحداثة ممـارسـة اجتماعيــة ونمط حيـاة متمفصل مع التغير والتجـديـد، ولكـن مع القلق أيضـا واللاإستقـرار والتعبئة المستمـرة والذاتية المتمـوجة والتوتـر والأزمة. كما جعل منهـا تصورا مثاليا أو أسطورة. ولهذا الاعتبـار فإن تاريخ ظهور كلمة «حداثة» نفسهـا (على يد تيوفيل غوتيي وبودلير حوالي 1850) له دلالة خاصة، إذ أنـه يمثل اللحظة التي بدأ فيها المجتمع الحديث يفكر في ذاته ويتأمل نفسه بلغة الحداثة. ومن ثم أصبحت هذه الأخيرة عبارة عن قيمة متعالية وعن نموذج ثقافي، عن أخـلاق وعن أسطورة مرجعية حاضرة في كل مكان، مُغَلِّفَة، جزئيا، البنيات والتناقضات التاريخية التي كانت وراء نشأتها»(1).

---

(1) Ibid.

وإذا كان «جان بودريار» يعتبر، كما أشرنا إلى ذلك سابقا، أن الحداثة ليست نظرية بقدر ما تحوز منطقا ومعالم تميزها عن باقي التصورات التقليدية، فإنه يرى أن للحداثة مجموعة من الخصائص والأبعاد منها أولا، البعد التقني ــ العلمي، ذلك أن الازدهار الخارق، لا سيما منذ بداية القرن العشرين، للعلوم وللتقنيات وللنمو العقلاني والمنهجي لوسائل الانتاج ولأساليب تسييرها وتنظيمها تطبع الحداثة وكأنها عصر الانتاجية La productivité المتمثلة في تقوية العمل الانساني وتشديد السيطرة على الطبيعة لدرجة أصبح فيها الإنسان والطبيعة مجرد قوى إنتاجية مرتبطة بخطط الفعالية والمردودية القصوى. «هذا ما يميز كل الأمم الحديثة.. إنها (أي الانتاجية) تؤسس، اليوم، تحولا عميقا داخل الحداثة يتجلى في الانتقال من حضارة العلم والتقدم إلى حضارة الاستهلاك والترفيه»[1].

أما البعد الثاني فيتمثل في المفهوم السياسي للحداثة. ذلك أن الدولة تجسد، بشكل من الأشكال، نوع من التعالي المجرد، في صيغة دستور والوضع الصوري للفرد وتحت عنوان الملكية الخاصة. وهذه الصيغة والوضع والملكية تشكل «البنية السياسية للحداثة» إضافة إلى العقلانية البيروقراطية والمصلحة المرتبطة بالوعي الفردي الخاص. إن هذه الحالة تمثل نهاية كل الأنظمة السابقة، حيث كانت الحياة السياسية تتحدد في شكل تراتبية مندمجة داخل علاقات شخصية. إن هيمنة الدولة البيروقراطية لم تزدد إلا نموا مع تقدم الحداثة. ولأنها مرتبطة بتوسع مجال الاقتصاد السياسي وأنساق التنظيم، فإن الحداثة تتركز في كل قطاعات الحياة، بتعبئتها لصالحها وبعقلنتها على صورتها الخاصة»[2].

البعد الثالث للحداثة يتمثل في اعتبارها «مفهوما سيكولوجيا» ذلك أنه في مواجهة مبدإ الاجماع ذي المضامين السحرية أو الدينية للمجتمع التقليدي، فإن العصر الحديث يتميز ببروز الفرد بوصفه كائنا يحوز وعيا مستقلا ومع ذلك «بنفسيته وصراعاته الشخصية، ومصلحته الخاصة بل وبلا وعيه يجد نفسه محاصرا بنسيج وسائط التواصل وبالتنظيمات والمؤسسات واستلابه الحديث وتجريده، وفقدان هويته داخل العمل والترفيه واللاتواصل.. الخ فإنه يبحث عن تعويض نسق بأكمله للشخصنة من خلال الأشياء والعلامات»[3].

(1) Ibid.
(2) Ibid.
(3) Ibid.

وهكذا وبالرغم من أن الحداثة تعاند كل تعريف فإنه مع ذلك، وحسب «بودريار يمكن تحديد بعض الأبعاد والمفاهيم المميزة للحداثـة؛ أولا باعتبارها تجسدا لمثل وأساليب جديدة, وثانيـا لأنها تختلف في نظرتها وحركتها عن التصورات التقليديـة للعالم. وكل هذا يؤدي بنا إلى الملاحظـة بأن الحداثة خلقت إيقاعها الزمني الخاص، سـواء من زاوية مظهره الحسـابي المرتبط بضغوط الإنتـاجية أو البيروقـراطية أو من منطلق اعتبـاره زمنا خطيـا «لا يستجيب للمنطق الـدائري لأنه يتطـور حسب إيقـاع ثـلاثي يتصرف إلى ماضي وحـاضر ومستقبل. ومن تم إذا كان التقليـد يستند دومـا إلى الماضي فإن الحداثة تجعل من المستقبل بعدا مكـونا لتحركاتها. وهـذا ما يعطي للحداثة مظهـرا تاريخيا، بوصفهـا صيرورة واقعية للمجتمع أولا، ومـرجعـا متعاليـا يجعلهـا تحدس وتستشف اكتمالها النهـائي ثانيـا لـذلك «فالحداثة تفكر في ذاتها تاريخيا وليس أسطوريا»[1].

وداخل هـذا الايقــاع الزمنـي اللامتحــدد للحـداثـة، وبالـرغم من أنها تـدخل المستقبل في كل مشاريعـهـا وتحركاتهـا فإنهـا تسعى دوما، كما يقول «بود ريار» إلى أن تبقى «معاصرة» Contemporaine.

غير أنـه في الوقت الـذي يؤكـد فيه الجميع على أن الحداثـة تتمثل في الثورة التقنيـة والعلمية وفي بنيـة الدولـة الحديثة وفي أساليب التنظيم والتسيير للمـؤسسات الاقتصـادية والاجتماعية وفي التجديد المستمر للقيم الثقافية، فإن هذا لا يعني أن هذه المظاهر والابعاد هي التي تُشكِّل الحداثة، بقدر ما تتحـدد في كونها نفيا لهذه التغييرات وإعادة تأويل لها في شكل أسلوب ثقافي ونمط حياتي وإيقاع يومي». إن الحداثة ليست هي الثورة التكنولوجية والعلمية، إنها لعبـة وتضمين هذه الثورة في مشهـد الحياة الخاصة والاجتماعيـة، وفي البعد اليومـي لوسائط التـواصل، وفي الرَّفـاه البيتي أو في غـزو الفضاء. إن العلم والتقنيـة ليسا حـديثين في ذاتيتهما، بل إن حـداثتهما تتمثل في مفعـولاتهما.. كما أن الحداثـة ليست هي العقـلانية أو الاستقـلال الـذاتي للـوعي الفردي الـذي يـؤسسهـا مع ذلك، بل إنها ذلك التجديد المستمر لهذه الذاتية الضائعة داخل نسق لـ«الشخصنة» Personnalisation وفي تأثيرات الموضات وفي التطلعات المُوجَّهة»[2].

وإذا كان للحداثة مظهر تاريخي فإنها، بـالرغم من ذلك، ليست لها علاقة جدلية بالتاريخ، لأنها حديثة أكثر وخاضعة لما هو راهن، ومن تم فإنها ليست تحويلا لكل القيم

(1) Ibid.
(2) Ibid.

بقـدر ما تشكل تـدميرا للقيم القـديمـة بدون تجاوزهـا «إنها ازدواجيـة كل القيم في شكل تركيب توفيقي مُعَمَّم»[1].

إن الحداثة أنتجت نوعا من «ثقافة اليومي» Culture de la quotidienté لدرجة أن «اليومي» Le quotidien أصبح مكونـا لمظاهر الحداثة . وإذا كـان التقليد يعيش على الاستمراريـة وعلى التعالي فإن الحداثـة حين دشنت القطيعة مع القـديم والتقليد وأقـامت الـلاإستمراريـة فإنها انغلقت حول دائرة جـديدة وفقـدت تلك الاندفـاعة الهائلـة للعقل وللتقدم وأصبحت تختلط، كما يلاحظ بودريار، مـع اللعبة الصورية للتغيير «بل انه حتى أسـاطير ترتـد ضدهـا (والاسطورة التقنيـة التي كانت منتصرة سـابقا، تختـزن في ذاتها كل أشكال التهـديد)، والمثل والقيـم الانسانية التي راهنـت عليها تنفلت منهـا : إنها تتميز، أكثر فأكثر، بالتعالي المجرد لكل السلطات . معها أصبحت الحرية صورية، والشعب صار كتلة جماهيرية، والثقافة غدت موضة»[2].

وبدون أن نـدخل في تفاصيل المناقشـة الراهنة حـول العلاقة المتشعبـة بين الحداثة والتقليد، سواء في الغرب أو في دول العالم الثالث، فإنه يبدو، أن التعارض الذي يميز هذه العـلاقة كما يـلاحظ البعض ليس، في واقع الأمر، تعـارض مطلق، بل يبدو سطحي مـا دامت الثورة «تتأسس، هي بـدورها، كتقليد»[3] حينما تبني مؤسساتها وأسـاليب تسييرها وضبط توازنها .

ويبدو أنـه بالإضـافة إلى اعتبار الحداثـة متعارضـة مع القديم وتختـزن في عملياتها إمكـانيات الأزمـة وإمكانيـات تجاوزها في نفس الآن، وبحكم أنها تنفلت من كل تحديـد مفهـومي نهائي، فإن الحداثـة، كظـاهرة حضـاريـة وكمشروع عَمِلَ الغـرب على تأسيس مقومـاته منذ مـا ينيف على القرنين، ارتبطت بظـواهر وموضـوعات أساسيـة أهمها : المرأة والمدينة والفردانية «فجورج سيمل» G.Simmel يرى أن الانسان الحديث يـوجد في حالة قلق دائم، وأن ما يربط المدينة الكبيرة بالحداثة هـو الفردانية المعاصرة. وإذا كانت النهضة قد اكتشفت قيمـة الفرد، بـرفض النظام القـديم، فإن القرن الثـامن عشر، وبعده حـركة الرومـانسية، هما اللـذان شرّعا، بشكل من الأشكال، للفـردانية الحديثـة . على اعتبار أن هذه الفردانية عبارة عن مطالبة بالحرية الشخصية التي أصبحت قيمة عليا وليس فقط مجرد وسيلة . فالفردية L'individualité لا تعني دائما عـلاقة بـالعالم، كبيرا أو صغيرا، عـلاقة

---

(1) Ibid.
(2) Ibid.
(3) Domenach (J-M) : "Révolution et modernité", Revue. Esprit, N.6, 1988.

يمكن أن تكون أفعالا أو أفكارا، للرفض أو للاحتواء، للسيطرة أو للاستعباد للامبالاة أو للمصلحة القوية، من جهة، وتعني أيضا أن هذا الكائن هو عالم لذاته متمركز حول نفسه. ومكتف بذاته إلى حد ما ومنغلق عليها من جهة ثانية»[1].

وبالرغم من التأكيد الواضح على الأهمية القصوى للفرد داخل صيرورة الحداثة وعلى احترام عالمه الداخلي والشخصي، فإن الحداثة نسجت مجالا عموميا، تختلف أطره وقنواته ونمط تواصله باختلاف المرحلة التاريخية، يسمح بإبراز كل الظواهر والتعبيرات. وهو عمومي بمعنى أن ما يظهر يمكن أن يكون مسموعا ومنظورا إليه من طرف الجميع سواء كان ما يظهر أهواء أو رغبات أو أفكار أو معان. . الخ وبقدر ما يعمل هذا المجال العمومي على جمع الناس بقدر ما يفرقهم، أي أن الحداثة نسجت جدلا خاصا للعلاقة بين الذاتية والاختلاف، بين الأنا والآخر. إلى درجة أن فهم الناس للواقع «يتوقف كليا» على بروز أو بالأحرى على وجود ميدان عمومي حيث الأشياء يمكنها أن تظهر بالانفلات من ظلمات الحياة المخفية»[2] لذلك فإن الانسان يتعود على التساؤل دوما عن علاقته بالعمل وبالمال، بالآخر وبالزمن، بالموت وبالجسد داخل السياق الدلالي والرمزي الذي تنسجه الحداثة. واستناد الحداثة على الحرية والفردية والمساواة لا يعني تماما أنها خلقت في سياق تطورها، ما يناقض ذلك. فالفرد كقيمة، في علاقاته الإشكالية مع الآخرين، بقدر ما ينكفيء إلى ذاته وينطوي عليها بقدر ما يفرض عليه نظام الحداثة الخضوع إلى إيقاعه وآلياته. الأمر الذي أدى بالكل إلى تحميل مؤسسات الدولة الحديثة مسؤولية قلقهم وعزلتهم وصراعاتهم النفسية واستلابهم. . الخ. فالحداثة «لا تضخع نشاط الناس للضرورات التقنية للآلات فقط، بل إنها تعيد تنظيم هذا النشاط بالقياس إلى المنطق الاقتصادي العام»[3].

كل شيء خاضع للبرمجة وللتخطيط، حتى الرغبات العميقة والحميمة للجسد. وما هو مبرمج هو ما يمكن تقويمه كميا. حتى الزمن يوظف في إطار المردودية والحساب الاقتصادي العام الأمر الذي أدى بأحد الباحثين إلى القول بأن الحداثة عبارة عن «بنية عامة للمجتمع المعاصر، ونظام يتحدد ربما من خلال التنسيق العام بين نسقين اثنين، الأول هو الذي أدانه سارتر والثاني هو الذي حلم به سان ـ سيمون. من جهة «سلسلة»

---

(1) Simmel (G) : "Philosophie de la modernité; la femme, la ville, l'individualité", Paris, Ed. payot, 1989, P. 282.

(2) Arendt (H) "Condition de l'homme moderne", Paris, Ed. Calmannlevy, 1983. P. 91.

(3) Chesneau (J) : "De la modernité", Paris, Ed. la Découverte/maspéro, 1983, P. 98.

الكـائنات والشروط والموضـوعـات والآليات مثل العقل الالكتروني واختـزال كل شيء في نموذج وحيد للحياة المبتذلة، ومن الجهة الأخرى تبدو الكرة الأرضية في حالة تداخل كوني لـلاقتصـادات وقنـوات التـواصل والبنيـات السيـاسيـة ــ والاجتماعيـة وطغيـان السـوق الدولية»[1].

ومهما يكن من أمر، فإن الحديث عن مظـاهر الحداثة كما أنتجتها الحضـارة الغربية لا يمكن أن يقتصر على إطار جغـرافي بعينه، لأن الحداثـة، منذ بدايـاتها الأولى، برزت في شكل إرادات للقـوة تسعى إلى الهيمنة والتـوسع والانتشـار. وبحكم أن أغلب مناطق مـا يسمى بـالعالم الثالـث خضعت لسيطرة الـدولة الاستعماريـة، وبسبب كون هـذه البلدان تتميـز بثقل هائل للتقليـد على أنماط السلوك وطـرق التفكير، فإن الحداثـة مثلت صدمـة حضاريـة خلخلت كيان الانسـان في هذه البلـدان وفيها عبرت ــ أي الحداثة ــ عن أكثر مظاهرها عنفا وشراسة. وذلك من منطلق اعتبار أن الاستعمار كان قوة تحديثية ونموذجا لـ «تحديث» أكثر البلدان تخلفا وانحطاطا.

غير أنه في غيـاب تطور سيـاسي وصناعـي يغير العقلية التقليـدية الموجهـة لسلوك إنسان العـالم الثالث، فإن ما بـرز في الحداثة هو مظـاهرها التقنيـة الأكثر قابليـة للتسويق وليس عملية العقلنة الطـويلة الامد التي يفترضها المشروع العام للحداثـة. هذا إذا سلّمنا بأن بلـدان العـالم الثـالـث كـانت مستعـدة لادماج قيـم الحداثة في صيرورة تطـورهـا بعـد الاستقـلالات. لذلك فإن تحاليل الانتروبـولوجيـا السيـاسية بعـد الحرب العالميـة الثانيـة أظهرت أن الأمـر ليس بهذه السهولة وأن «النظام التقليـدي (القبلي، والعشائري والنَّسَبِي) واجه التغيير بمقاومة قوية حيث ربطت البنيـات الحديثة (الادارية الاخلاقية والدينية) مع التقليـد تسويـات غـريبـة من نوعهـا. بل إن الحداثـة تظهـر، دوما، وكـأنها انبعاث مـا للتقليد»[2].

لذلك بيَّنَت الانتروبولوجيا أن حقيقـة الحداثة لا تتمثل دائما في كونها تغييرا جذريا ولكنهـا تدخل أحيـانا في مسـاومـات ثقافيـة وسياسيـة مع البنيـات التقليديـة، وبالتـالي فالقطيعة التي تريد الحداثة، دوما إحداثها تتنازل، في كثير من تجارب العالم الثالث، لنوع من «دينـامية الخلـط» بين ما هـو تقليـدي وما هـو حـديث، بل أحيانـا يـوظف الحديث

(1) Ibid, P. 6.
(2) Beaudrillard (J) : "La modernité", op. cit.

لتكريس التقليد ليستخـدم التقليد لتبرير استعمال الحديث. وذلك كله للابقـاء على حالة التخلف والحفاظ على استمرارية البنى المعرقلة للانطلاق والتحرر.

إن هذه الملاحظـات، كما يرى «جـان بودريـار» تسمح بتحديـد مفارقـة الحداثة. «فهي تدمير وتغيير ولكنها أيضا ازدواجية ومساومـة وخلط : إن الحداثة ظاهرية التناقض وليست جدلية. وإذا كـانت الايديولوجيـا مفهوما حديثا.. بشكـل نموذجي وإذا كانت الايديولوجيات هي تعبير عن الحداثة، فهذه الحداثة أيضا وبدون شك، ليست إلا عملية إيديولوجية هائلة»[1] ولذلك يعتبر «جورج بلانديي» أن التساؤل عن الحداثة هو، في عمقه تساؤل عن السلطـة، سواء كانت سلطة علميـة أو سلطة سياسية. ومن تم «فـالمتمكنون منها يمنحـون لأنفسهم مهمة تحمل مسؤوليـة الحداثة على عاتقهم، أما المحتجـون عليها فإنهم يطعنون فيها باعتبارها خادعة ومضيعة لشخصية الانسان ومصدرا للاستعباد»[2].

وبالرغم مما أنتجته الحداثـة من نماذج وأنماط وأساليب على صعيد التاريخ الخاص للغرب، أو ما قدمتـه، بطريقة غير بريئة، للتجارب المختلفـة لبلدان العالم الثالث، فإنها تبقى مع ذلك صعبـة التحـديـد لأنها تجسـد الحركـة في كل تعبيراتها وتنفلت من كل إرادة لضبطهـا مفهـوميا. إن الحداثة تهديم وبنـاء، فـوضى وضبط. إنها تخلخل عـلاقتنـا مع الأشيـاء والخطابـات وتـزعزع تصـوراتنـا للعالم وللقيـم، لذلك يتعين إدراك أن «الحداثـة بحركتهـا ذاتها وبترددداتها وبالمشاكل التي تترتب عنهـا تؤدي إلى تساؤل أكثر نقـدا (أو أكثر شكا) لما هو سياسي»[3].

ومـا دامت الحداثـة تشكل صـدمـة للمـوروث والتقليـد وللثـابت، فإنها تُـدْخِلُ الاضطراب في الرؤى المطمئنة إلى استقرارها، وتعيـد النظر في الفهم المشترك لدرجة أنه أمام تدخـلاتها لا يكف ـ أي الفهم المشترك ـ عن الاعـلان عن عدم فهمه لما يجرى حـوله. إن الحداثة تقلق وتغري ولكن من أجل الاقتراب من علاماتها ونمط تحركها لابد من القيام بنوع من الانعطـاف Le détour الـذي يسمح للبـاحث الانتروبولـوجي الغـربي، كما يعتبر «جورج بلانـديي» بامتلاك نظرة مـزدوجة لظواهر الحداثـة، لأن ذلك يساعد، على تحقيق تفهم، في نفس الآن، من الداخل (حيث يتماهى الانتروبولوجي مع ذاته من أجل المعرفة) ومن خلال الخارج (اذ ينظر الانتروبولوجي إلى الأمور بالقياس إلى تجربة أجنبية»[4].

(1) Ibid.
(2) Balandier (G) : "Le détour, Pouvoir et modernité" op. cit, P. 13.
(3) Ibid, P. 14.
(4) Ibid. P. 16.

معنى ذلك أن الانتروبولوجيا تسمح بخلق المسافة الضرورية للنظر في عمليات الحداثة سواء كما تجري في الغرب أو كما تطبق بعض إنتاجاتها في العالم الثالث. وإذا كانت الانتروبولوجيا نفسها من إنتاج الحداثة، على اعتبار أن العلوم الاجتماعية والانسانية نشأت بشكل متساوق، تقريبا، مع إنجازات الحداثة، فإن هذا العلم يوفر إمكانية القول بأن الموقف الجذري الذي تتخذه الحداثة من القديم ومن التقليد لا يحقق دائما غاياته لأنها لا تستطيع إلغاء ما هو كامن في الذاكرة وساكن في اللاشعور الجمعي. لذلك فالتقليد ما زال حاضرا بالرغم من اجتياح مظاهر الحداثة.

ولهذا السبب، برز في تاريخ الأفكار الغربية، لا سيما ابتداء من الستينات، تيارات فلسفية وعملية تدعو إلى نقد الحداثة وتفكيك عقلانيتها وإعادة النظر في قدرة العقل ومعاني الكلمات والأشياء. وقد نعتت هذه التيارات بأنها تمثل «ما بعد الحداثة» Postmodernité وقد لخص أحد دعاتها تصورها المركزي في اعتبار أن «المعرفة تغير موقعها في نفس الوقت الذي تدخل فيه المجتمعات إلى العصر الما بعد الصناعي والثقافات إلى مرحلة ما بعد ـ الحداثة. وهذا الانتقال قد بدأ، على الأقل منذ نهاية الخمسينات»[1] ومن هنا أصبح كل شيء قابلا للتأويل والنقد والتفكيك وأصبحت المعرفة العلمية، نفسها، عبارة عن خطاب يتعين استنطاق مكوناته وطبيعة علاقاته مع السلطة وتفكيك الأطر المرجعية التي تمنح للسلطة مشروعيتها وتوفر لها شروط خلق التوازن وضبط النظام.

هكذا تتورط الحداثة في لعبة السلطة وتغدو، هي بدورها عنصرا تنظيميا تحتاجه آليات المجتمع الحديث الذي يبدو أنه، مع صيرورة التحولات، فقد كثيرا من خزانه الرمزي وخلق رأسمالا رمزيا من نوع آخر لا يستجيب ضرورة لأفق انتظار الانسان الحديث، لا سيما فيما يتعلق بالتعبيرات الثقافية الصميمية التي تنتجها الجماعات والأفراد. إن الحداثة بالرغم من أنها استبعدت التصورات التقليدية من ساحة الفعل السياسي والثقافي فإن «مشروعها لم يكتمل بعد» لذلك يرى بول ريكور «أن الحداثة نفسها يمكن أخذها بوصفها» مشروعا غير مكتمل «بالرغم من انهيار تعبيراتها الخاصة، ومن جهة ثانية، فإن هذا المشروع نفسه يلتمس برهنة مانحة للمشروعية تتعلق بنمط الحقيقة التي تطالب بها الممارسة بصفة عامة والسياسة بصفة خاصة»[2].

---

(1) Lyotard (J-F) : "La condition postmoderne; rapport sur le savoir", Paris, Ed; de Minuit, 1979, P.20.

(2) Ricoeur (P) : "Le temps raconté ; Temps et récit", Paris, Ed. du seuil, 1985, P. 311.

إلى أي حـد يجوز اعتبـار الحداثـة مشروعـا غير مكتمل ؟ وهل استنفـذ العقل الأنواري، بالفعل، كل طاقاته على الخلق والتجاوز ؟

2 ـ مسألة الحداثة عند هابرماس

لقد تبين لنـا أن الحداثة ظاهـرة حضارية متعـددة الأشكال وسيـاقا فكريـا متعدد المعاني، تنفلت من كل إرادة للتحديد لأنها متحولة على الدوام. تلهث وراء الجديد وتتطلع إلى اكتشـاف فضاءات جـديدة وعـوالم مغايـرة. تتخـذ من القديم نقضيهـا لأنها تعبر عن فضـول غير متـوقف وعن حسـاسية تختلف عـن المقاييس السـائدة، لأنها أداة لأحـداث قطائع. إنها تتشكل انطـلاقا مما يتم إنجـازه بالفعل وما يـؤثر في الإيقاع العميق لـلأجساد والعلاقات والمجتمعات والثقافات. ولذلك فظاهرة الحداثة لا تتوقف عن خلق الأزمات، لأنها تتضمن كثيرا من عناصرها، بل وتؤدي في كثير من الأحيان إلى توترات وانفجارات قد تساهم في حلها و إخمادها إذا ما تم تبني منطقها، وقد تبقى مصدرا دائم اليقظة لإذكاء كل توتر وتسريع كل تحول.

ومع ذلك فللحداثـة مفارقاتها. وبالـرغم من أنها تتنابذ مع القـديم ومع التقليد، وأنها تمكنت، في المشروع الحضاري الغـربي منذ قـرنين من الزمن، من استبعـاد التصورات التقليديـة، نسبيا، من المؤسسـات الرسميـة للدولـة الحديثة، فإن هـذه التصورات بقيت موجودة في ثنـايا المجتمعات والثقافات، تتنـاسل رموزها وتتزايـد علاماتها إلى أن تُعَبِّر عن وجودها بشتى الأشكال والوسائل. أي أن الحداثة التقنية ولو أنها فرضت زمنيتها على العالم الحديث فإنها، مع ذلك، لم تلغ زمنيـة الثقافات الأخـرى، كما أنها بإرادة القوة التي عبَّرت عنها لبسط هويتها لم تتمكن من احتواء اختلافـات الآخرين. لذلك أنتجت تيارات تنتقد منطقها ونتـائجها وتطعـن في لا إنسانية بعـض إنجازاتها وتؤاخـذها على إهمالها للمنـاطق الأخرى في الجسد البشري والتي جعلت منهـا عقلانيتها الصارمة عنـاصر تشوِّش على دقة معرفتها ووضوح فكرها.

ومن تم فإن كل شيء أصبح قـابلا للتأويل وخـاضعا لاجتهـاداته، ذلك أنـه أمام المعرفة الوضعية التي تخدم آليات الانتاج الضرورية لتوازن النظام، برزت معرفة نقدية تأملية وتأويلية تتساءل عن الأهداف القريبة والبعيدة والقيم المختلفة، الأخلاقية والجمالية، التي تحاول الحداثة استخدامها في عملية احتوائها لكل نقد أو اختلاف.

معنى هذا أن فكر الحداثة لا ينفصل كثيرا عن حداثة التفكير لذلك اهتم الفلاسفة بهذه المسألة، والنقاش حول الحداثة لم يتوقف، فلسفيا، منذ أواخر القرن الثامن عشر إلى الآن، اذ أن فلاسفة كبار أمثال كانط، فخته، هيغل، ماركس، فيبر، نيتشه، هايدغر وسارتر. . الخ برزوا لأن سياق التحديث الذي عاشه كل واحد منهم ولد أسئلة تمكن هؤلاء الفلاسفة الكبار من صياغتها أو الاقتراب من وضع الاجوبة عنها. وبالرغم من النقد الذي وجهه أغلبهم إلى الحداثة فإن فكرهم لا يمكن فصله عن التاريخ الفكري العام الذي أنتجته هذه الحداثة نفسها. ثم إن بعضهم ولو أنه سعى إلى بناء أنساق فكرية بأكملها فإنه مع ذلك، وفي كثير من الأحيان، لا يتناول إلا مظهرا واحدا من الحداثة. كأن تُعْتَبر رد فعل أو مناهضة التقليد، كما هو الشأن عند فلاسفة الأنوار وكانط، أو أنها شكل جديد للتنظيم الاقتصادي والاجتماعي كما عند ماركس وفيبر، أو أنها توفر الشروط الضرورية لتقدم التقنية كما يرى ذلك هايدغر، أو أنها فكرة للتقدم أو نسق لاضفاء المشروعية. . الخ. وكل هذه المواقف تساهم، بشكل من الأشكال، في القاء الضوء على ظواهر ومظاهر الحداثة، ولكن لا يمكن العثور على جواب كلي أو تحليل شامل لها.

ويبدو أن يورغن هابرماس، في سياق بحثه عن مقومات تصوره للحداثة درس وحلل أكثر النصوص الفلسفية التي أدمجت في صيرورتها أسئلة الحداثة، من فلاسفة الأنوار وكانط إلى ديريدا وكاستورياديس، بل إنه لم يعف أي مرجع اقترب من هذا الموضوع، سواء كان مرجعا متبنِّيا لفكر الحداثة أو منتقدا له. ومن هذا المنطلق اختلف مع فلاسفة ما بعد ـ الحداثة معتبرا أنهم يمثلون تيارا مناهضا للحداثة. وحينما ينعت فلاسفة ما بعد الحداثة بهذا الوصف، فإن هابرماس لا يبتعد، بشكل نهائي عن بعض ملامح ما بعد الحداثة. ذلك أنه «في الوقت الذي تنقطع فيه العلاقات الداخلية بين مفهوم الحداثة والطريقة التي تفهم بها هذه الحداثة نفسها في أفق العقل الغربي، فإنه من الممكن إدخال بعض النسبية على عمليات التحديث التي تتواصل بطريقة أوتوماتيكية تقريبا. واعتماد نظرة متباعدة لملاحظ ما بعد ـ حديث» [1].

ويلاحظ هابرماس أن لفظة «حديث» تجر وراءها تاريخا طويلا. ذلك أن كلمة Modernus اللاتينية استعملت لأول مرة في نهاية القرن الخامس الميلادي لتمييز الحاضر المسيحي لتلك الفترة عن الماضي الروماني والوثني. وبالرغم من المضامين المختلفة التي

(1) Habermas (J) : "Le discours philosophique de la modernité", Paris, op. cit, P. 3.

اتخذتها لفظة «حديث» إلا أنها تعبر «عن وعي مرحلة تتحدد بالقياس إلى ماض لكي يقدم نفسه (أي الوعي) وكأنه نتيجة انتقال من القديم إلى الجديد»[1].

غير أن هناك من الباحثين، كما يرى هابرماس، من يحصر مفهوم «الحداثة» بعصر النهضة، لكن هذا الحصر لا يدخل في اعتباره أن بعض الناس كانوا يعتبرون أنفسهم محدثين في زمن «شارلمان» أو في القرن الثاني عشر. وبمعنى آخر أن لفظة «حديث» تظهر وتعاود الظهور في الفترات التي كان يبرز في أوروبا الوعي بمرحلة تتكون انطلاقا من إعادة تعريف للعلاقة مع القدماء»[2].

وكانت فلسفة الأنوار قد شكلت نقطة تحول أساسية في مسار الحداثة، حيث أصبح العقل والنقد والتقدم اعتبارات ضرورية في كل معرفة وفي كل تنظيم مؤسسي، وبذلك يكون قد تشكل وعي حداثي يؤكد على التغيير والتحول المستمر. في حين أن الحركة التحديثية الرومانسية التي اعلنت عن توجهاتها، بالأساس، ابتداء من القرن التاسع عشر، فقد أنتجت «وعيا متطرفا بالحداثة» يدعو إلى الانفصال عن كل ارتباط تاريخي، باعتبار أنها تؤكد على التعارض التام بين التقليد والحاضر. ويرى هابرماس «أننا، ما زلنا بشكل من الأشكال معاصرين لهذا النوع من الحداثة الجمالية التي رأت النور في أواسط القرن التاسع عشر»[3] وأكبر خاصية تميزت بها هذه الحداثة الجمالية تمثلت في المعنى الجديد الذي أعطته للزمن، حيث أدخلت المستقبل كبعد جوهري في كل ممارسة فكرية وإبداعية، وجعلت من الجديد هدفا أساسيا. لذلك عبرت عن إدراك خاص لما هو مؤقت زائل ووهمي. وقد حاولت هذه الحداثة الجمالية بهذا الفهم أن تفجر استمرارية التاريخ وأن تدخل نوعا من الشغب والاختلاف على حركته. بل إنها «تتمرد ضد الوظائف التوحيدية الضابطة للتقليد، وتتغذى من تجربة التمرد على كل ما يتخذ صبغة معيارية»[4]. وتمرد هذا الاتجاه هو وسيلة لتحييد أو إبطال القوانين الأخلاقية والمقاييس الذرائعية النفعية في نفس الآن. بل إن هذا الوعي الجمالي موجه ضد نوع من «المعيارية المغلوطة للتاريخ»[5].

إن هذه الحداثة الجمالية، في نظر هابرماس، والتي أنتجت ثقافة بأكملها، تسربت إلى القيم اليومية إلى جزئيات الحياة لدرجة أن قوى الحداثة أدت إلى سيطرة مبدإ تحقيق

---

(1) Habermas (J) : "Le moderne et le post-moderne", Revue Lettre internationale, N. 14, 1987, P. 39.
(2) Ibid, P. 39.
(3) Ibid, P. 39.
(4) Ibid, P. 41.
(5) Ibid, P. 41.

الذات بلا حدود وإبراز ذاتية فردية ذات حساسية مفرطة. بل «إن ثقافة الحداثة تعادي كل الأعراف وفضائل اليومي الذي تَعَقْلن تحت ثقل الضغوط الاقتصادية والإدارية»[1].

وبالرغم من أن هذه الحداثة الجمالية ما زالت تعبر عن بعض رموزها وعلاماتها، وبالرغم من أننا معاصرون، بشكل من الأشكال لثقافتها فإنها، مع ذلك، استنفذت كثيرا من طاقاتها، مما يدفعنا إلى القول، كما يعتبر هابرماس إلى ضرورة إعادة النظر في مشروعها. ذلك أن الحداثة الجمالية ليست، في العمق، إلا عنصرا من الحداثة الثقافية بصفة عامة. باعتبار أن مشروع الحداثة المعبر عنه من طرف فلاسفة الأنوار يتحدد من خلال العمل على تطوير علم موضوعي، وأخلاق وحقوق ذات طبيعة كونية، وفن مستقل عن أية خلفية ثقافية مرتبطة بالتصورات التقليدية. وكل هذه المجالات أي العلم، الأخلاق والفن، لها منطق يميز كل مجال عن الآخر. وقد كان هدف فلاسفة الأنوار يتمثل «في تنظيم أكثر عقلانية للحياة الاجتماعية اليومية»[2] ولكن هل يتعين علينا الاستمرارية في الالتزام بتصورات فلاسفة الأنوار كيفما كانت درجة ضعف آمالهم وتطلعاتهم ونعتبر أن الحداثة أصبحت قضية خاسرة؟

إن هذا السؤال يعتبر مركزيا في تفكير هابرماس حول الحداثة لأنه يعتبر أن الفكر الغربي منذ أواخر القرن الثامن عشر جعل من الحداثة موضوعا فلسفيا، ونذب نفسه للقيام «بإعادة بناء الخطاب الفلسفي حول الحداثة»[3] ولأن الأمر كذلك فإن هذا الخطاب يلتقي ويتقاطع، في كثير من الأحيان، مع الخطاب الجمالي. وبالرغم من هذا اللقاء وهذا التقاطع فإن هابرماس، في سياق بحثه عن وضع ملامح محددة للحداثة، قرر استبعاد الاعتبار الجمالي في فهم الحداثة.

والملاحظ أن أغلب نصوص هابرماس التي تتعرض، بطريقة أو بأخرى لمسألة العقلانية والحداثة، تحيل دائما إلى ماكس فيبر، لدرجة تسمح لنا بالقول بأن ما سنأتي على ذكره بخصوص الحداثة عند هابرماس يشكل فيه فيبر مرجعا أساسيا. ذلك لأن فيبر يميز بين مجالات قيمية محددة ويؤكد على استقلالية وخصوصية منطق كل مجال بعينه، سواء تعلق الأمر بالعلم أو بالأخلاق، والقانون أو بالفن. ويلاحظ هابرماس أن «ما وصفه ماكس فيبر من وجهة نظر العقلنة ليس فقط علمنة الثقافة الغربية، ولكن تطور

(1) Ibid, P. 41.
(2) Ibid, P. 42.
(3) Habermas (J) : "Le discours philosophique de la modernité", op. cit, P. IX.

المجتمعات الحديثة أولا وقبل كل شيء»[1] فالبنيات الاجتماعية الجديدة، في زمن الحداثة، تتميز باختلاف نسقين تبلورا حول مركزين لهما قدرة كبيرة على التنظيم هما : المبادرة الرأسمالية والجهاز البيروقراطي. وهما يتداخلان ويتكاملان من الناحية الوظيفية. وهذه العملية ينظر إليها فيبر من زاوية اعتبارها عملية تأسيسية لنماذج الأنشطة العقلانية بالقياس إلى غاياتها المتمثلة في النشاط الاقتصادي والنشاط الإداري.

وفي الوقت الذي تجتاح فيه عملية العقلنة الثقافية والاجتماعية الحياة اليومية، فإن أشكال الحياة التقليدية تتفكك وتنحل. غير أن تحديث العالم المعيش لا يخضع فقط لبنيات العقلنة الغائية لأن العوالم المعيشة المعقلنة تتميز، في نفس الآن، بعلاقة انعكاسية مع التقاليد التي فقدت عفويتها الطبيعية، وتعميم معايير الفعل والقيم المحررة للنشاط التواصلي للأطر المحدودة، فضلا عن أن هذه العوالم المعيشة تتميز بفرز نماذج للتنشئة تستهدف تشكيل هويات شخصية وتدفع بالأفراد إلى الوعي بفردانيتهم.

ويرى هابرماس أنه يجب إعادة النظر في إشكالية فيبر وإعادة تركيبها من جديد في ضوء التحولات الأساسية التي شهدتها المجتمعات الحديثة، التي لا تتوقف عن عمليات التحديث. ذلك التحديث الذي يعني «مجموع العمليات التراكمية التي تتقوى من بعضها البعض، كما يعني رسملة Capitalisation وتعبئة الموارد وتطوير القوى المنتجة وزيادة إنتاجية العمل، ويعني أيضا وضع سلطات سياسية مركزية وتكوين هويات وطنية. ويعني كذلك تعميم الحقوق في المشاركة السياسية وأشكال الحياة الحضرية والتعليم العمومي، ويعني أخيرا علمنة القيم والمعايير»[2]. ويلاحظ هابرماس أن نظرية التحديث Modernisation تفصل الحداثة عن أصولها، أي عن أوروبا والأزمنة الحديثة، وتقدمها باعتبارها نموذجا عاما لعمليات التطور الاجتماعي مستقلة عن الاطار المكاني والزماني الذي تطبق فيه. فضلا عن أنها تقطع مع العلاقة الداخلية الموجودة بين الحداثة والاستمرارية التاريخية للعقلانية الغربية، لدرجة يغدو فيها من غير الممكن تفهم عمليات التحديث بوصفها عقلنة، أي بوصفها تشخيصا موضوعيا تاريخيا لبنيات عقلانية.

غير أن هناك بعض الاتجاهات التي تنتقد مسار الحداثة سواء كانت تعبر عن موقف محافظ من نوع جديد أو عن موقف فوضوي، باعتبار أن الاتجاه المحافظ يرى أن التحديث الاجتماعي ولد قوى محركة لحداثة ثقافية استنفذت طاقاتها الابداعية على صعيد

(1) Ibid, P. 2.
(2) Ibid, PP. 2-3.

القيم الثقافية لـذلك ينحصر دور الحداثة في مجالات وظيفية مثل الاقتصاد وشـؤون الدولة والتقنية . . الخ بينما الموقف الفـوضوي فانـه يستهدف الحداثـة في كليتها باعتبـارها تترجم إرادة التحكم الذاتي في الأشياء والخطابات .

ومهما يكن الاختلاف الموجود بين الموقفين فإن هـابرماس يعتبر أن كليهما «يقطع مع الأفق المقولي الـذي تشكلت ضمنه الفكرة التي كونتهـا الحداثة الغربية عن نفسهـا . وكلا النظرتين لما بعد ـــ الحداثة تدعيان أنهما خرجـا من هذا الأفق وتخلّيا عنه بوصفـه أفقا لمرحلة ولّت»(1).

إن إعـادة النظـر في مسـألـة الحداثـة سـواء من طـرف التيـــار المحـافظ أو الاتجاه الفـوضـوي، تقتضي من البـاحث عن مقـدمـات الخطاب الفلسفي للحـداثـة، في نظـر هابرماس، الرجوع إلى هيغل وذلك لفهم الدلالـة التي كانت تمتلكها العلاقة الداخلية بين الحداثة والعقلنة، تلك الدلالة التي أصبحت بديهية حتى مجيء ماكس فيبر والتي أضحت موضع شك وتسـاؤل اليوم. ويبرر هابرمـاس الرجوع إلى هيغل بكونـه «أول فيلسوف طور بكل وضوح مفهوما محددا للحداثة»(2).

فهيغل يستعمل مفهـوم الحداثة داخل سياقـات تاريخيـة للإشـارة إلى فترات بعينها كأن يقول مثلا «الأزمنة الجديدة» أو «الأزمنة الحديثـة». ويلاحظ هابرماس أن هذه الصيغ تتـوافق مع الألفاظ المستعملـة، في ذلك الـوقت، في أنجلترا وفـرنسا. ذلك أن اكتشـاف «العالم الجديد»، والنهضة والاصلاح ـ وكل هذه الأحداث التي حصلت في القرن الخامس عشر ـ تشكل «العتبة التاريخية» بين العصر الوسيط والأزمنة الحديثة. ويقول هيغل في هذا السياق، أنـه «ليس من الصعب مـلاحظة أن زمننـا هو زمن الـولادة والانتقال إلى مـرحلة جـديدة. فـالروح انفصلت عما كـان يسمى بالعـالم لحد الآن أي وجوده وتمثلـه. إنها على وشك أن تبتلع كل هـذه الأشياء في الماضي وهي في سيـاق الإشتغال حـول مفهومهـا. إن اللامبالاة والضجر اللذان يسيطـران على ما هو مستمر من ذلك الماضي والحدس الغامض بمجهول آت. كل هذا يشكل علامات مُبَشِّرة بأن شيئـا ما مختلفا هو في طور التهييء. إن هذا التفتت توقف بطلوع الشمس التي باشرت، بسرعة، ببناء عالم جديد»(3).

---

(1) Ibid, P. 5.
(2) Ibid, P. 5.
(3) Hegel, cité in, Habermas : "Le discours philosophique de la modernité", op. cit, P. 7.

إن العالم الجديد يتميز عن العالم القديم بـالانفتاح على المستقبل وعلى بداية مرحلة تاريخيـة جديدة حيث يعاد إنتـاج الحاضر الذي يولـد المستقبل في كل لحظة. لهذا السبب يتضمن الوعـي التاريخي بالحداثـة تحديدا بين الأزمنـة الجديدة «والـزمن الراهن» بـاعتباره تاريخا للزمن الحاضر. إن «زمننـا» بالنسبة لهيغل، هو «الزمن الـراهن» والمرحلة التي كانت معاصرة لـه في نظره تبتـديء بالأنـوار وبالثـورة الفرنسيـة، أي بما تم تحقيقه في نهايـة القرن الثامن عشر وبدايـة القرن التاسع عشر» [1] وهكذا فإن حاضرا يفهم على أنـه راهنية للزمن الحاضر انطلاقا من أفق الأزمنة الجديدة مرغم على إعادة إنتاج القطيعة بين الأزمنة الجديدة والماضي وذلك في شكل تجديد غير متوقف.

ويـلاحظ هابـرماس أنـه إذا أضفنا مفـاهيم مثل الثورة والتقـدم والتحرر والتطـور والأزمنة وروح العصر، إلى «الأزمنة الجديدة» و«الزمن الحاضر» فإن ذلك يقربنا من المشكل الأساسي الذي طرحه الوعي التـاريخي بالحداثة والذي يتمثل في كون الزمن الحديث المرتبط بالثقافـة الغربية يثبت أن «الحداثة لا تقـدر ولا تريد أن تستعير المعايير التـي على أساسها تتوجـه من مرحلـة تاريخية أخـرى. إنها مضطرة لأن تستمـد معياريتهـا من ذاتها. وبدون استعانة ممكنة فإن الحداثة لا ترجع إلا إلى ذاتها» [2].

واضح أن الحداثـة ترتبط بـوعي تـاريخي خصـوصي يجعل من الحاضر المُوَلِّد دومـا للمستقبل إطـارهـا. ومن تم فهي إذا لم تخلق زمنهـا فإنها لا تحتاج إلى أزمنـة أخـرى أو إلى الرجوع إلى مـراحل سابقة. لذلك يستنتج هابرمـاس أن هيغل أول فيلسوف جعل الحداثة قضية فلسفيـة وأكد على أن الحداثـة في حركتها تقطع مع كل إحـالة معيـارية إلى الماضي. ويلاحظ هابـرماس أنه في سياق نقد التقليد الذي يـدمج تجارب الاصلاح والنهضة ويهتم ببـدايات العلم الحديث فـإن الفلسفة الحديثـة، حتى عنـد كانط، عبرت عن فترة معينـة للحداثة ولكن «ليس إلا في نهاية القرن الثامن عشر حيث تمكنت الحداثة من طرح مشكل إيجاد ضماناتها الخاصة في ذاتها». إن هذا السؤال اتخذ صيغته الحادة لدرجة أن هيغل تمكّن من إدراكه بـاعتباره مشكلا فلسفيـا بل وجعله المشكل الأسـاسي لفلسفته» [3] ففي غياب نماذج معينة تضطر الحداثـة لإيجاد توازنها انطلاقا من القطائع التي تحدث حيث تولـد نوعا من القلق يصفه هيغل وكأنه «منبع الحاجة إلى الفلسفـة» ومن ثم ففي الوقت الذي تنهض فيه الحداثة في شكل وعي بالذات، نـرى كيف تتفجر الحاجة إلى إيجاد ضمانات خصوصية

(1) Ibid, P. 8.
(2) Ibid, P. 8.
(3) Ibid, P. 19.

في ذواتنا. وهذه الحالـة بالنسبة لهيغل، تستدعي الفلسفة لأن هـذه الأخيرة «توكل لنفسها مهمة ترجمة زمنها الخاص بها إلى أفكار أي ترجمة الأزمنة الحديثة»[1] بل يلاحظ هابرماس أن هيغل كان مقتنعا أنه من غير الممكن أن تصل الفلسفة إلى المفهوم الذي من خلاله تتمكن من ذاتها، خارج مفهوم الحداثة.

إن أول مبـدإ يـؤسس لـلازمنــة الحديثـة عنـد هيغل يتمثل في مبـدإ الـذاتيـة Subjectivité وانطلاقا منه يحاول تفسير تفـوق العالم الحديث، وفي نفس الآن، هشاشته أمام الأزمـات. ذلك أن هذا العالم نظـر إليه بوصفـه عالما للتقدم وفي نفس الـوقت، عَالما للـروح المُسْتَلَبـة. «لهذا السبب فإن أول محاولة لصيـاغـة الحداثـة مفهوميا هي، وبصفـة أصلية، نقد للحداثة»[2] وهيغل يقرن مفهومه لمبدإ الذاتية بالحرية وبالتفكير لأنه يعتبر أن مـا يشكل عظمة الـزمن الحديث، أي زمنـه هو، هـو الاعتراف بـالحرية. ويتضمن مبـدإ الذاتيـة، في نظر هابـرماس، أربعة مفـاهيم «أ ـ الفـردانية : لأن التفرد الخاص جـدا هو الذي له الحق في تجويز ادعاءاتـه؛ ب ـ الحق في النقد : إن مبدأ العالم الحديث يتطلب من كل شخص أن يقبل ما يظهر لـه أنه شيء مبرر؛ ج ـ استقلاليـة الفعل؛ إن الأمر يرجع إلى الأزمنة الحديثة في الإجابـة على ما نقوم به؛ د ـ وأخيرا الفلسفة المثاليـة، نفسها، اذ بالنسبة لهيغل فالفلسفة التي تمسك بالفكرة التي لها وعي بذاتها هي نتاج الأزمنة الحديثة»[3].

ويرى هابرمـاس أن الأحداث التاريخية التي فرضت مبدأ الـذاتية عند هيغل تتمثل في الاصلاح Réforme والأنوار والثورة الفرنسية. ومن هنا فإن هذا المبدأ يغدو مبدأ حاسما بالنسبـة لكل أشكال الثقـافة الحديثة سـواء تعلق الأمر بـالعلم الموضوعي أو بـالتصورات الاخلاقية أو بـالفن. وبمعنى آخر أن الحداثة جعلت من الحياة الدينيـة والدولة والمجتمع والعلم والأخلاق والفن تجسدات مختلفة لمبدإ الذاتية.

وبالـرغم من أن هابرمـاس يعتبر أن في «المفهوم الكانطي لعقل صـوري ومتميز في ذاته يوجد نسيج نظرية للحداثة»[4] وبأن كانط عبَّر عن العالم الحديث في شكل بناء فكري ضخم، لدرجـة أنه تمكَّن من ملامسة الخطـوط الجوهرية لمرحلة بـدون أن يفهم الحداثة في ذاتها، فإن «هيغل يعتبر أنـه أمسك بما بقي غير مفهوم في هـذا الأثر، الـذي شكل التعبير

(1) Ibid, P. 19.
(2) Ibid, P. 19.
(3) Ibid, P.20.
(4) Habermas (J) : "Morale et communication", op. cit, P. 26.

الأكثر تأملا في مرحلته»[1] والمقصود، هنا، هـو الأثر الكانطي الـذي لم يدرك، في حقيقة الأمر، الحاجة التي كـانت تفترضها الفلسفة والمتمثلة في كون الحداثة تفهم بـوصفها مرحلة تـاريخية وتعـي ضرورة الاستغناء عن الفترات النمـوذجيـة للماضي واستلهام معـاييرهـا من ذاتها. وانطـلاقا من نقـده الذي وجهـه أولا لـلانساق الفلسفيـة لكل من كانط وفختـه، استهدف هيغل، في نفس الآن، وكما يرى هابرماس، فكرة الحداثة التي تعبر عن نفسها في هذه الأنسـاق و«بنقده للتعـارضات الفلسفيـة بين الطبيعة والـروح، الحساسيـة والفهـم، الفهم والعقل، العقل النظـري والعقل العملي، القــدرة على الحكم وعلى التخيل، وبين الأنا واللاأنا، المحدود واللامحدود، المعرفة والايمان، حاول أن يجيب على الأزمة التي تتمثل في انشطار الحيـاة ذاتها. . إن نقد المثـالية الـذاتية هـو في نفس الوقت نقـد للحداثـة التي ليست لها أية وسيلة للتأكد من المفهـوم الذي يحددها ولا أن تصل إلى التوازن. ومن تم فإن النقـد لا يمكن ولا يجب أن يستخـدم أداة أخرى غير ذلـك التفكير الذي يجد نفسـه فيـه والمتمثل في التعبير الخالص عن مبدإ الأزمنـة الحديثة. وبـالفعل إذا كانت الحداثة مـدعوة لكي تـؤسس لنفسها وسـائلها الخاصـة، فـان هيغل كان مضطـرا لتطويـر مفهوم نقـدي للحداثة انطلاقا من جدل ملازم لمبدإ الأنوار نفسه»[2].

وبدون أن ندخل في تفاصيل مفهوم الحداثة عند هيغل كما تناوله هابرماس، يمكن أن نشير إلى أنـه بالاضـافة إلى الحداثـة الفلسفيـة التي صاغهـا هيغل انطـلاقا من الـوعي التـاريخي بـزمنيتهـا الخاصـة ومن بيـاضـات النص الكـانطي، فإن هيغل نظـر للمجتمع الحديث من زاوية اعتبـاره أن ما يميـز هذا الزمـن هو أن الدولـة فيه تجسـد أسمى تجليات العقل بل وتمثل التحقق الفعلي للحـرية وللعقل، وهي تحقيق للفلسفـة وللروح بـالفعل. ولأن الدولة كذلك فإن هيغل يميز بين المجتمع المدني والمجتمع السياسي. ويرى هابرماس أن هذا التمييز يدخل لأول مرة في الفكر الأوروبي. لأن هـذا الفكر ومنذ العهد اليوناني كان يتصـور السياسـة كمجال يشمل الـدولـة والمجتمع في نفس الآن. لكن هيغل، بنظريتـه للدولـة، فرّق بين المجال السياسي للـدولة ومجال «المجتمع»، لأنه يعتقد أنـه ليست هناك طبقة مـرشحة لتحمـل معها المصلحة والعقـلانية، بـل إن هذه المهمة هـي مهمة الـدولة وحدها شريطة أن تكون متعالية على الطبقات وأن تُمثِّل الضبط الواعي والعقلي للتناقضات الاجتماعية. .

(1) Habermas (J) : "Le discours ....", op. cit, P. 23.
(2) Ibid, P. 25.

حـداثة فكـرية تبرر الحاجـة إلى الفلسفة، ودولـة عقلانيـة تحقق الفلسفة والـروح والحرية. وينغلق النسق على نفسه وتنتهي الفلسفة. ويرى هابرماس أنه بالرغم من النهاية التي وصل إليها هيغل، وبـالرغم من أنه ليس أول فيلسوف ينتمي إلى الحداثـة، فإنه يبقى «أول فيلسوف تحولت معـه إلى مشكلة. ففي نظريته أولا، تظهـر هذه المجموعة المفهـومية التي تضم الحداثـة، الوعي بـالزمن والعقلنـة. غير أنه يجعل العقلنـة ـ التي ضخمهـا في شكل روح مطلقة ـ تزيح الشروط التي سمحت للحـداثة من أن تتوصل إلى صيغة للوعي بذاتها.. فإن هيغـل كسَّر هذه المجموعـة المفهوميـة. وبذلك لم تحل المشكلة التـي كانت تتمثل، النسبة للحداثة، في إيجاد ضماناتها الخصوصية في ذاتها»[1].

إن انغلاق النسق الهيغلي سيحـاول تلامـذة هيغل الشباب، بـالخصوص، العمل على إعادة فتحه وذلك بإدخال مُقوِّم أساسي مـن مقومات فلسفة الأنوار المتمثل في النقد. وإذا كان «هيغل قـد دشَّن خطاب الحداثـة، فإن الهيغليين الشباب هم الـذين وضعوه في الزمان. إنهم بالفعل، هم الذين حرروا فكـرة نقد الحداثة التي تتغذى من روحها من ثقل المفهوم الهيغلي للعقل»[2].

ومع استئنـاف التفكير في البعد النقـدي للحداثـة وإعـادة الروح للنظـر الفلسفي الذي حكم عليـه هيغل بالانغـلاق والاكتمال، يكون الهيغليـون الشباب قـد استقلوا عن الفلسفة التأملية التي لم تكن، في حقيـة أمرها، «إلا لا هوتـا اتخذ شكلا فلسفيا»[3]. ومن أجل تأسيس فلسفـة جـديـدة، أي فلسفة تستجيب لحاجـة الانسـان والمستقبل، يتعين الانطلاق من الواقع والانسـان والعالم، والتخلي التام عن الاقتناع بوجود قـوة وهمية خارج الذات الانسانية.

ويلاحظ هـابرماس أن مـا يميز الخطاب الفلسفي للحداثـة هو أن هناك مـؤاخذة ثابتة تظهر عنـد كل الفلاسفة الذين اقتربوا أو نظروا لمسألـة الحداثة «من هيغل إلى ماركس إلى نيتشه إلى هـايدغر، وبـاطاي ولاكان وفوكـو وديريدا، وهـذه المؤاخذة تتمثل في اتهام ـ موجه ضد عقل يتأسس على مبدإ الذاتية ـــ مفاده أن هذا العقل لا يدين الأشكال الظاهرة للطغيان وللاستغلال إلا لكي تحل محلها السيطرة الثابتة للعقلانية نفسها»[4] أي أن الذاتية تُحوِّل وسائل الـوعي والتحرر إلى أدوات للمـراقبة وإقـامة سيطـرة مخفية تـارة وظاهـرة تارة

---

(1) Ibid, PP. 52-53.

(2) Ibid, P. 64.

(3) Feuerbach : "Manifestes philosophiques", paris, Ed. UGE, 10/18. 1960, P. 160.

(4) Habermas (J) : "Le discours............", op. cit. P 67.

أخرى. وإذا كان الخطاب الفلسفي للحداثة قد ظهر، في البداية، متمفصلا مع المقولات الخاصة بفلسفة الوعي، أي مع مفاهيم المعرفة والوعي بالذات، أي الفلسفة التي تظهر فيها العلاقة الداخلية واضحة لمفهوم العقل أو للعقلانية. غير أن هذه العلاقة لم تعد من قبيل البداهة حين تعلق الأمر بالنظر إلى الحداثة من زاوية ارتباطها بمقولات الفلسفة العملية، مثل مفاهيم الفعل وعملية الابداع الذاتي والعمل.. الخ. ويلاحظ هابرماس أن التداخل الذي كان حاصلا بين مفاهيم المارسة والعقل، النشاط الانتاجي والعقلانية في نظرية قيمة العمل الماركسية تمت إعادة النظر فيه ـ أي في التداخل ـ لا سيما في بداية القرن العشرين على يد كل من غرامشي ولوكاتش والنزعة الاقتصادية.

ويعتبر أن هناك تياران تطورا داخل الماركسية الغربية، يتحدد الأول في احتكاكه بعطاءات ماكس فيبر، والثاني بعطاءات هوسرل وهايدغر، وهكذا «فإن لوكاتش الشاب والنظرية النقدية تصوروا التشيؤ بوصفه عقلنة وذلك للوصول إلى مفهوم نقدي للعقلنة، وبتملك النظرية الهيغلية من زاوية مادية وبدون استدعاء نموذج الانتاج»[1]. أما التيار الثاني فيتمثل في «القراءة التي قام بها كل من ماركوز الشاب، وسارتر فيما بعد، للكتابات الأولى لماركس على ضوء الفينومينولوجيا الهوسرلية، حيث سمحت لها بتجديد نموذج الانتاج وتطوير مفهوم المارسة، القوي بمضمونه المعياري، وذلك كله بدون استدعاء مفهوم العقلنة»[2].

ويستنتج هابرماس أن هذين التقليدين لا يمكنهما أن يلتقيا إلا بتغيير البنية. وهذا ما حصل بالفعل حين تم الانتقال من النشاط الانتاجي إلى النشاط التواصلي إذ حصلت إعادة صياغة لمفهوم العالم المعيش اعتمادا على نظرية التواصل...

ويبدو أن مسألة الحداثة عند هابرماس تتحدد انطلاقا من هذين التيارين، أي التيار الذي يمثله لوكاتش والنظرية النقدية من جهة والتيار الذي مثله ماركوز الشاب حين كان متأثرا، بقوة، بالفينومينولوجية الهوسرلية والهايدغرية وكذلك بسارتر. على اعتبار أن هذين الموقفين مكناه من القيام بتركيب جديد على صعيد نظرية الحداثة استنادا إلى نظرية التواصل. فنظرية «النشاط التواصلي تقيم، بالفعل، علاقة داخلية بين المارسة الإبداعية (أو بالأحرى المارسة) والعقلنة. وتدرس المضمرات العقلانية التي تفترضها المارسة

(1) Ibid, P. 93.
(1) Ibid, P. 93.

التواصلية اليـومية وتسعف المضمون المعياري الملازم للنشاط الموجه نحـو التفاهم ليتوصل إلى مفهوم العقلنة التواصلية»[1].

ويضيف هابرماس أن ما دفعه إلى القيام بتغيير هذه البنية يتمثل في عجز الموقفين، معا «على إنتاج الأسس المعيارية لنظرية نقدية للمجتمع»[2].

إن هذه الإشارة التي يقـوم بها هابرماس تعتبر أساسية بـالنسبة لعملية البحث عن ملامح نظريـة للحداثة عنده. إذ أنه بتغيير السياق المفهـومي لكل من الإنتاج والعقلنة في علاقتهما بمسألة الممارسـة، وبالانتقال من مستوى النشاط الانتـاجي إلى النشاط التواصلي اعتمادا على نظرية التواصل، عمل هابرماس على إعادة بناء نظرية الفاعلية التواصلية التي تستهدف في الأساس إقامـة نظرية نقدية للمجتمع. غير أن هابرمـاس لا يتوقف عند هذا الحد، لأنه في كتابه «نظرية الفاعلية التواصليـة» حاول أن يعيد بناء نظرية العقلنة انطلاقا من ماكس فيبر وماركس، ونظرية التواصل إعتمادا على «هـربرت ميد» بالأساس ومفكرين آخرين. لكنه لكي يتسنى له صياغة ما أسماه بـ «المضمون المعياري للحداثة» كان عليه أن يُصفِّي حسابه مع كثير من المواقف اللاعقلانيـة أو تلك التي وجهت انتقادا مبدئيا للعقل الغربي من منطلق فوضوي أو باسم إرادة للقوة والانفلات من هيمنة الحداثة.

ويرى هـابرمـاس أنه مع نيتشـه «يتخلى نقد الحداثـة، لأول مرة عن المحـافظة على مضمونه التحرري. والعقل المتمركز حول الذات يواجه، لأول مرة، الآخر المطلق للعقل، وبحجة الاعتراض على العقـل يستند نيتشه إلى تجارب الكشـف الذاتي المعيشية مـن طرف ذاتية غير متمـركزة ومتحررة من كل ضغوط الإدراك والنشـاط الغائي، ومن كل الضرورات النفعية والأخلاقية»[3] إن الأمر يتعلق عنـد نيتشه بتمزق مبـدإ اكتساب التفـرد الذي يفتح المجال المؤدي إلى إمكانية الهروب من الحداثة.

وحين يقول نيتشه بهذا الهروب فهو ينطلق من زاويتين : الأولى تؤكد الاعتبار الجمالي للعالم الذي يخدم فلسفة إرادة القوة التي تنفلت من وهم الإيمان بـالحقيقة؛ والزاوية الثانية تتمثل في كون نيتشه وجه نقدا لاذعا للميتافيزيقا، وأقام «ديونيسوس» الفيلسوف حين رأى في ذاته، أي نيتشه، آخرا تابعا ومُطّلعا على هذا الإله الفيلسوف. ونيتشه حين أدخل هذه الأبعاد إلى التفكير الفلسفي يكـون قد وضع الانفتاحات الأسـاسية لما يسميه هابـرماس بـ

(1) Ibid, P. 94.
(2) Ibid, P. 94.
(3) Ibib, P. 115.

«النقد النيتشوي للحداثة»[1] الذي أثر بشكل كبير في هايدغر، وكذلك في أغلب الفلاسفة الفرنسيين المعاصرين. فالاعتبار الجمالي للعالم والنقد اللاذع للميتافيزيقا موقفان نيتشويان اثنان، عمل مجموعة من الفلاسفة على تطويرهما، منهم «الباحث المرتاب الذي يحاول الكشف عن انحراف إرادة القوة وتمرد قوى رد الفعل Réactives ونشأة العقل المتمركز حول الذات وذلك باستعمال مناهج الانتروبولوجيا وعلم النفس والتاريخ، يجد في باطاي، لاكان وفوكو خلفاؤه وأتباعه، في حين أن النقد المطلع على أسرار الميتافيزيقا، والذي يطالب بمعرفة خاصة ويستعرض نشأة فلسفة الذات ابتداء من أصولها ما قبل السقراطية، يجد ورثته في هايدغر وديريدا»[2]. إن الأمر يتعلق عند هؤلاء الفلاسفة بخلخلة الأساس الميتافيزيقي للفكر الغربي وتفكيك النزعة المتمركزة حول العقل، وذلك للانفلات من هيمنة فلسفة الذات.

غير أن هابرماس نفسه، في سياق مشروعه الفلسفي، يريد الانتقال من «نظرية الوعي إلى نظرية التواصل»[3] مُعْلِنا أن ما يهمه هو دلالة نهاية فلسفة الذات بالنسبة لنظرية المجتمع وليست «الدلالة التي يتخذها تاريخ الفلسفة»[4]. بمعنى آخر أن هدف هابرماس يتمثل في إدخال نظرية للفاعلية التواصلية تبرز القواعد المعيارية للنظرية النقدية للمجتمع والتي تفرض مهام جديدة على التفكير الفلسفي المتفاعل مع عطاءات العلوم الانسانية. إن الأمر يتعلق بنظرية نقدية جديدة تستفيد من ثغرات النظرية النقدية الأولى ومن التراث الفلسفي الحديث لبلورة نظرية للعقلنة وللحداثة مستندة إلى عقل تواصلي يتغيى التفاهم بين الذوات وخلق مجال عمومي جديد متحرر من كل الضغوط.

من كانط الذي سمح نسقه الفلسفي بانفتاحات فكرية لتدشين أول نظر فلسفي في الحداثة مع هيغل، كما يرى هابرماس، إلى ديريدا الذي يُعَبِّر عن لحظة فكرية من لحظات ما بعد الحداثة التي تستلهم، بشكل من الأشكال، نمط السؤال النيتشوي، مرورا بماركس وفيبر وهايدغر ولوكاتش والنظرية النقدية وتالكوت بارسنز وبياجي وهربرت ميدودوركهايم.. الخ استنادا إلى كل هذا الرصيد الفلسفي والعلمي وانطلاقا من الرغبة في تحيين النظر الفلسفي داخل عالم تنتصر فيه الوضعية والذرائعية ويُلْغى فيه كل فكر نقدي. وفي ضوء المفارقات المتعددة لعمليات عقلنة المجتمع، أراد هابرماس إعادة بناء نظرية تتفاعل فيها العقلنة والتحديث والتواصل.

---

(1) Ibid, P. 118.
(2) Ibid, PP. 118-119.
(3) Habermas (J) : "Théorie de l'agir communicationnel", op. cit, t. 1, P. 9.
(4) Ibid, P. 400.

3. عقلنة الحداثة وتحديث العقلنة

إن هابرماس، في كل كتاباته، يؤكد على أنه بالرغم مما يمكن توجيهه من نقد للحداثة وللعقلانية، وبالرغم من بعض النتائج التراجيدية التي ولدتها العقلانية التقنية، فإنه لا يمكن، بأي حال من الأحوال، التخلي عن العقل أو الدعوة إلى التخلص منه. إن العقل بحكم كونه «الموضوع الأساسي للفلسفة»[1] يُشكِّل في نفس الوقت، الاداة المشتركة التي تستعملها أكثر الأنساق الفلسفية بهدف التفكير في الكائن وتفسير مختلف أنواع التجارب. وإذا كانت الفلسفة، لا يمكنها اليوم أن تنتج معرفة كلية عن مجموع العالم والطبيعة والتاريخ والمجتمع، فإن ذلك يرجع إلى تطور العلوم التجريبية وإلى الوعي التأملي الذي يصاحب هذا التطور، بحيث يسمح هذا الوعي للفلسفة بالقيام برجوع نقدي إزاء أساليب تفكيرها والتساؤل عن القدرات التي يمكن تحقيقها في إطار الموافقات العلمية.

الفلسفة إذن، حقل فكري يتخذ من العقل وسيلة للتفكير في الأشياء والكلمات والزمن، وفي نفس الوقت لمحاكمة نتائج هذا التفكير، وذلك بدون ادعاء القدرة على تكوين فكر نسقي وكلي للمرحلة الحاضرة، و«سواء في المنطق أو في نظرية العلوم، في نظرية اللغة أو الدلالة، في الأخلاق أو نظرية الفعل بل وحتى في علم الجمال، أي حيث عملت الفلسفة المعاصرة على إقامة برهنة منسجمة حول الموضوعات الثابتة، فإنها وجهت، دائما، اهتمامها بالشروط الصورية لعقلنة فعل المعرفة، والتفاهم اللغوي والعملي بين الذوات: وهذه الشروط يمكن أن يوجه البحث عنها إما في الحياة اليومية وإما في التنظيم المنهجي للتجربة أو أيضا في الترتيب المنهجي للمناقشات»[2].

وفي هذا السياق فإن صياغة نظرية للبرهنة تكتسي أهمية قصوى، لأن لها دور أساسي يتمثل في إعادة بناء الافتراضات والشروط التداولية الصورية لسلوك عقلاني واضح، وبالتالي تأسيس نظرية للعقلنة تعمل على الكشف عن العناصر الداخلية لتاريخ العلوم والتفسير المنهجي، في سياق التطورات الاجتماعية للتاريخ الواقعي للعلم كما تم التعبير عنه في تشكيلات خطابية مختلفة. و«ما ينطبق على تشكيلة العقلانية المعرفية المعقدة مثل العلم المعاصر يهم أيضا أشكال أخرى للفكر الموضوعي وتجسدات أخرى للعقلنة، سواء تعلق الأمر بالعقلنة المعرفية الأداتية أو الأخلاقية ـ العملية أو أيضا الجمالية

(1) Habermas (J) : "Théorie de l'agir communicationnel", t. l, op. cit, P. 17.
(2) Ibid, P. 18.

ـ العَملية»[1]. ذلك أن المفاهيم الأساسية المستخدمة من طرف الأبحاث التجريبية من هذا النوع يجب أن تكون منسجمة بطريقة أو بأخرى مع عمليات إعادة البناء العقلانية للعلاقات المختلفة المنتجة للمعنى.

ويرى هابرماس أنه في إطار العلوم الاجتماعية فإن علم الاجتماع هو العلم الذي يمكن أن يرتبط أكثر في مفاهيمه الأساسية، بإشكالية العقلنة. فهذا العلم بالرغم من أنه تمَّ استبعاده من طرف اهتمامات تخصصية أخرى مثل الاقتصاد وعلم السياسة، فإنه يبقى العلم الأجذر على معالجة المشاكل التي تنجم عن الممارسة السياسية والاقتصادية.. فعلم الاجتماع بحكم أنه يبحث في موضوع التحولات التي تخلخل الاندماج الاجتماعي وتؤثر في مسار نظام الدولة الحديثة وفي الاقتصاد، يصبح في طليعة العلوم التي تهتم بمختلف مظاهر الأزمة التي تولدها عمليات التحديث والعقلنة بل «إن علم الاجتماع هو علم الأزمة بامتياز، علم يهتم بشكل جوهري، بتشكيلة الأنظمة الاجتماعية الحديثة، بالمظاهر المرتبطة بتفكك الأنظمة التقليدية»[2].

هكذا يحدد هابرماس موقع علم الاجتماع ودوره في مواكبة تحولات القيم والسلوكات والمؤسسات. وفي سياق البحث في المجموعة الاجتماعية وفي الثقافة وفي دراسة أنظمة السياسة والاقتصاد، لا يمكن القيام بفصل بين هذا البحث وبين المشاكل الخاصة بأسس العلوم الاجتماعية وبنية العالم المعيش. لذلك فإن هناك ارتباطا وثيقا بين علم الاجتماع وبين نظرية المجتمع، أي أن كل حديث عن العقلنة والتحديث يستدعي استحضار علم الاجتماع بوصفه علما ضروريا لمقاربة تحولات المؤسسات وتبدلات المعنى. ومن ثم، وعلى ما يبدو، فإن هذا التأكيد من طرف هابرماس، يفسر اهتمامه المبدئي بأكبر علماء الاجتماع الذين ساهموا في تأسيس نظريات اجتماعية تسعف على الإنصات إلى تحولات الحداثة ومفعولات العقلنة، وعلى رأسهم كارل ماركس، وماكس فيبر، وإيميل دوركهايم وتالكوت بارسونز. لذلك فإن القول بالعقلنة يستدعي الوقوف عند نمط التحديث. وتطبيق هذا التحديث يستوجب عقلنة التفكير في مفعولات التحديث وفي التحولات التي تحصل على صعيد الاقتصاد والاجتماع أو السياسة والأخلاق أو على مستوى الثقافة والذوق.. الخ ومن ثم فإن هابرماس يربط بين مفهومه للعقلنة وفهم العالم الحديث، أي أن نظرية العقلنة ونظرية المجتمع مرتبطتان باعتبار أن المفاهيم السوسيولوجية الموجهة للفعل والممارسة تسند نظرية العقلنة وتتفاعل معها.

(1) Ibid, P. 19.
(1) Ibid, P. 20.

إن المجهود النظري الذي يبذله هابرماس يصب في اتجاه إعادة بناء إشكالية العقلنة الاجتماعية والتحديث التي طرحها ماكس فيبر، وعملية البناء هذه تعتمد على ممارسة برهانية تعضد نظرية الفاعلية التواصلية.

ويجب أن نشير إلى أن هابرماس، منذ كتابه «التقنية والعلم كايديولوجيا»، أي منذ أن اتخذ من أعمال هربرت ماركوز مناسبة لاقتراح بعض عناصر مشروعه الفلسفي، وذريعة للابتعاد، قليلا، عن النظرية النقدية الأولى، منذ هذا الكتاب وهو منشغل بنظرية العقلنة عند فيبر، وذلك من منطلق أن ماكس فيبر لم يستطع القيام بتأطير نظري مقنع لعملية العقلنة في المجتمع الحديث. ولهذا السبب وجد نفسه مضطرا، كما يقول، «إلى اعادة صياغة المفهوم الفيبري في اطار نظام مختلف الاحالات للتمكن من مناقشة أساس النقد الذي يوجهه ماركوز لماكس فيبر وكذلك لأطروحته القائلة بالوظيفة المزدوجة للتقدم العلمي والتقني باعتباره قوة منتجة وايديولوجيا»[1] ذلك أن ماكس فيبر، بإدخاله لمفهوم العقلنة، حاول صياغة انعكاسات التقدم التقني والعلمي على المجال المؤسسي للمجتمعات التي انخرطت في مشروع التحديث. ومن أجل بناء نموذج مفهومي يمتلك كفاية تفسيرية للتحولات التي تُوَلِّدها عملية التحديث على صعيد المؤسسات وأنماط السلوك والعلاقات، حاول فيبر صياغة مجموعة ثنائيات لفهم مختلف التحولات التي تطرأ على المؤسسات من جراء ما يفعله فيها توسع الأنظمة الفرعية للنشاط العقلاني بالنسبة لغاية معينة، منها مثلا «وضع وتعاقد، جماعة ومجتمع، تضامن آلي وتضامن عضوي، جماعات صورية وجماعة لا صورية، علاقة أولية وعلاقات ثانوية، ثقافة وحضارة، سلطة تقليدية وسلطة بيروقراطية، تصورات قدسية وتصورات دنيوية مجتمع عسكري ومجتمع صناعي.. الخ كم من ثنائية مفهومية ومن محاولات لفهم تغيرات البنية التي تمس الاطار المؤسسي لمجتمع في صيرورة تحوله إلى مجتمع حديث»[2].

ولكي يتمكن هابرماس من إعادة صياغة ما يسميه فيبر بالعقلنة، فانه يقترح إطارا مفهوميا آخر ينطلق من تمييز أساسي بين العمل Travail والتفاعل Interaction، ويحدد العمل في اعتباره «نشاطا عقلانيا بالقياس إلى غاية وأقصد بذلك إما نشاطا أداتيا أو اختيارا عقلانيا أو أيضا تنسيقا بين الاثنين»[3] وذلك أن النشاط الأداتي يخضع لقواعد تقنية تستند إلى معرفة تجريبية بكل ما تفترض من قدرة على التنبؤ والرجوع إلى الوقائع القابلة

(1) Habermas (J) : "La technique et la science comme idéologie", op. cit, PP. 18-19.
(2) Ibid, PP. 19-20.
(3) Ibid, P. 21.

للملاحظة . أما أنماط السلوك المرتبطة بالاختيار العقلاني فإنها «تنتظم حسب استراتيجيات تعتمد على معرفة تحليلية . والاستراتيجيات تتضمن استنتاجات على أساس قواعد الأفضلية (أي أنظمة القيم) والمبادىء العامة»[1]. ومن ثم فإن النشاط العقلاني بالقياس إلى غاية Activité rationnelle par rapport à une fin يحقق الأهداف المحددة في الشروط المعطاة . غير أنه «في الوقت الذي يُستثمر فيه النشاط الأداتي الوسائل المناسبة أو غير المناسبة بالنسبة لمعايير المراقبة الناجعة من طرف الواقع ، فإن النشاط الاستراتيجي لا يخضع إلا للتقويم الصائب لبدائل أنماط السلوك الممكنة ، وذلك التقويم الذي ينتج ، بشكل استثنائي ، عن الاستنتاج المثبث بالرجوع إلى بعض القيم والمبادىء»[2].

أما النشاط التواصلي ، فهابرماس يقصد به «ذلك التفاعل المصاغ بواسطة الرموز. إنه يخضع ، ضرورة ، للمعايير الجاري بها العمل ، والتي تحدد انتظارات سلوكات متبادلة حيث يتعين ، وجوبا ، أن تكون مفهومة ومُعْترفا بها من طرف شخصين فاعلين على الأقل»[3] وتحصل تقوية هذه المعايير الاجتماعية من خلال مجموعة من الموافقات Sanctions تتخذ معناها داخل التواصل الذي يتأسس من خلال اللغة العادية . و«في الوقت الذي يرتبط فيه صدق القواعد التقنية والاستراتيجيات بصدق القضايا التجريبية أو التحليلية الحقيقية ، فإن صدق المعايير الاجتماعية يتأسس على تفهُّم النوايا بين الذوات وحده بحيث يكون مضمونا من خلال الاعتراف بالتزامات الجميع»[4].

وعلى أساس هذين النوعين من النشاط (الأداتي والتفاعلي) يمكننا ، في نظر هابرماس ، تمييز الأنظمة الاجتماعية والنظر إذا ما كانت يسيطر فيها النشاط بالقياس إلى غاية أو التفاعل . لأن الاطار المؤسسي لمجتمع ما يتمثل في مجموعة من القواعد والمعايير توجه التفاعلات المختلفة والمصاغة بواسطة اللغة . غير أنه توجد أنظمة فرعية ، مثل الاقتصاد أو أجهزة دولة ، تكون فيها مبادىء النشاط العقلاني بالقياس إلى غاية هي التي تجد لنفسها أطرا مؤسسية ملائمة .

وفي هذا السياق لم يعمل هابرماس إلا على الاستفادة من نظرية فيبر بخصوص العقلنةوالتحديث ، أو بالأحرى أن فيبر كان ينظر إلى التحديث باعتباره عملية عقلنة ، أي عملية عقلنة تدريجية للمجتمع ، وهذه العقلنة يجري تطبيقها اعتمادا على أنظمة نشاط

(1) Ibid, P. 21.
(2) Ibid, P. 22.
(3) Ibid, P. 22.
(4) Ibid, P. 22.

مضبـوطـة اجتماعيـا وعلى رأسها الاقتصـاد الحديث والبيروقـراطيـة الحديثـة. ثم إن هـذه الأنظمـة أو مجالات النشـاط المنظمـة اجتماعيا في الاقتصـاد والحقـوق والادارة تكـون محلا للـدمج المادي للعـامل التطبيقي للعقلنـة المؤسسة نظـريـا داخل أشكـال العلم الحديث والأخـلاق الفردانيـة. ومـاكس فيبر يرى بأن التـوسع التـدريجي لهذه المجالات أو أنظمـة النشاطات العقلانية في كلية المجتمع هو ما ينعته بالتحديث. باعتبار أن هذا التحديث له فعل يُولِّـد العقلنة ويخضع الممارسات والعـلاقات والمؤسسات الاجتماعية لمقـاييس العقلنة الصـوريـة الموجهـة أسـاسا إلى الفـاعليـة الاستراتيجيـة وإلى النجـاح التقني للمبـادرات الاقتصادية والسياسية.

ثم إن هـذا النمط من التطـور المرتبط بـالعقـلانية الغـربيـة، وبها فقط، يهدد، لا محالـة، المجالات التقليـدية للمجتمع حيث يعـاد إنتاج العقـائد وتصورات العـالم والقيم والمعايير التقليدية والرموز الدينيـة والثقافية. . الخ بمعنى آخر أن عملية التحديث المقترنة ضرورة بفعل العقلنة تـؤدي إلى استبعاد صيغـة القداسة عن التصـورات التقليديـة للعالم. وتقـوض الأسس الثقـافيـة لإجماع متكىء على سلطـة التقليـد. وضمن هـذه الشروط فإن إجماعا من نوع حديث، حتى ولو تصورناه ممكنا، لا يمكن بحال من الأحوال، أن يتشكل اعتمادا على هوية ثقافية مشتركة معطاة هكذا بدون مناقشة.

ومعلـوم أن عمليـة التحديث ولـدت مـواقف انتقـاديـة عديـدة من طـرف بعض الفلاسفة. فالنظرية النقدية، مثلا كانت تعتبر التحـديث بأنه «غائية بدون غاية للعقلانية الأداتيـة» (هوركهـايمـر) أو «الصيرورة اللاعقليـة للعقل» وبـ «نهايـة الفرد» (أدورنـو) أو بالتداخل العضوي بين التقنية والسيطرة، باعتبار أن العقلانية تتضمن مشروعا لاستخدام الأشياء والنـاس في نفس الوقت (ماركـوز). أما هـايدغر فقـد اعتبر، وكما سنرى ذلك فيما بعد، بأن التقنية هي امتداد للميتافيزيقا وهي «إرادة الارادة» والتحكم الكلي في الموجود.

غير أنه بالرغم من هذه المواقف النقديـة وبالرغم من أن هابرماس استلهم كثيرا من قضاياه وأساليب تفكيره من النظرية النقدية، فإنه، مع ذلك، يصر على الرجوع إلى ماكس فيبر، بل أكثر من ذلك فإنه يدعو إلى الـرجوع إلى كل من كانط وهيغل، كما رأينا من قبل، لتلمس مـلامح نظـريـة للحـداثة. كما يظهـر ذلك جليـا في كتـابـه «الخطـاب الفلسفي للحداثة».

يرى ماكس فيبر بأن عالم الحداثة يتميـز بتكوين مجالات محددة للصلاحية، متمايزة ومستقلة وهي : مجال الوقائع والموضوعية العلمية، مجال المعايير والمشروعية القانونية، مجال

القيم والدلالة الرمزية . ويلاحظ أحد الباحثين بأن التمييز الذي قام به فيبر لهذه المجالات من القيم، أي تمييز ما هو موضوعي في النظام العلمي، وما هو مشروع في النظام السياسي وما هو دال في النظام الرمزي يجعل من فيبر امتدادا، بشكل من الأشكال «لنظرة معينة للحداثة أسسها كانط (في بنائه للعقل الخاص) وبعد ذلك تم تأويلها بطريقة غير مباشرة، من طرف هيغل الشاب (في فلسفة الروح لايينا) . وهنا نلاحظ تمييزه ثلاثة مجالات للصلاحية وللعقلنة : العلم، الأخلاق وعلم الجمال عند كانط، والعمل، التفاعل والتمثل عند هيغل الشاب»[1] وبمعنى آخر فإن المجالات الثلاثة التي نظّر لها الفلاسفة المثاليون في القرن الثامن عشر يمكن تأويلها بوصفها كوامن للعقل تحدد منطقا مستقلا للتطور الاجتماعي حسب وجهات ثلاث متميزة للتحديث . لذلك يعتبر ماكس فيبر أن «تطور العقلانية الاقتصادية متوقف، بصفة عامة، على التقنية وعلى الحق العقلانيين ويتوقف كذلك على القدرة والاستعدادات التي يملكها الانسان لاعتماد نماذج معينة للسلوك العقلاني العملي»[2].

وبدون أن نفصل أكثر في موقف فيبر من نمط الانتاج الرأسمالي وخصوصية الحضارة الغربية التي تمكنت، وحدها، من بناء عقلانية خلخلت قواعد التصورات التقليدية للعالم وأقامت مؤسسات حديثة، نود أن نشير إلى بعض أسس نظام العقلنة Rationalité الحديثة، وهي أسس تحيل إلى المجالات الثلاثة التي عمل فيبر على تمييزها باعتبارها مجالات مستقلة تنفرد بها الحداثة العقلانية .

هناك أولا، عالم «الموضوعية» . هو أول، كما يشير إلى ذلك «جان مارك فيرى»، لأنه العلامة الأكثر بداهة للحداثة . وهذا المجال ينظر إليه بوصفه يقابل شكل العقلنة المفكر فيه استنادا إلى نموذج العلم الحديث . إنه «عالم حالات الأشياء المعطاة داخل الاطار المكاني ـ الزماني، ولا سيما باعتبارها أحداثا مادية قابلة للملاحظة وللقياس»[3]، أي أنه في الوقت الذي تؤول فيه حالات الأشياء من وجهة نظر ما هو كائن، فإننا نكون أمام ما يسمى بالوقائع، تقدم من صيغة أحكام للوجود، أو «ملفوظات إثباتية» مشفوعة بادعاء للحقيقة . وتكوين هذه الوقائع يفترض تركيبا موضوعيا يحدد علاقة معينة بين الذات والموضوع .

---

(1) Ferry (J-M) : "Consensus et modernisation", Revue, Esprit, N. 6, Mai 1985. P. 17.

(2) Weber (M) : "L'ethique protestante et l'esprit du capitalisme", paris; Ed. Librairie Plon, 1964, P. 24.

(3) Ferry (J-M) : "Consensus et modernisation", op. cit, P. 17.

وبمجرد أن تتشكل هذه الوقائع في التجـربة وأن يتم مراقبتها داخل عملية تجريب علمي ، يتعين البرهنة على هذه الوقائع ثم بعد الاعتراف بحقيقتها وبصلاحيتها تحتل موقعا داخل مجال للتأويل وللتفسير يتحدد بكونه مجالا للقوانين العلمية .

ثانيا ، عالم «المشروعية» Légitimité وهو مجال ثان لأنـه يقابل شكل العقلنة التي لا يفكر فيها استنادا إلى نموذج العلم الحديث بل إلى نموذج الاخلاق الحديثة ، ومن وجهة النظر الانطـولوجيـة فإن هذا المجال مـن الصلاحية يتحـدد بكونـه ينتمي إلى مجال «العالم المشروع» الذي تحركه المصالح أكثر مما تحدده وقائع عالم الأشياء .

وفي الوقت الذي يتم فيه تأويل المصالح ، ليس من وجهة نظر ما هو كائن ، بل من زاوية ما يجب أن يكون يصبح الأمر يتعلق بـ «حقوق» تُقَدَّم في شكل ملفوظات معيارية أو وصفية مسنـودة بادعـاء الدقة . إن تكـوين هذه الحقوق يفترض تـركيبا لا يحيل إلى عـلاقة الذات بالموضوع بل إلى علاقة بين مصلحـة الفرد ومصلحة المجتمع في كليته . بمعنى آخر أن مشكلة هذا المجال تطرح قضيـة توفيق بين الخاص والعام بهدف القيام بتركيب لا يرجع إلى الموضوعية وإنما إلى المشروعية ، غير أن هذه التشكيلات الحقوقية طالما أنها مجرد ادعاءات فإنها تبقى إشكاليـة إلى أن يتم الاعتراف بها عموميـا باعتبـارها مقبولـة شرعية من النـاحية الاجتماعية . وهـذا يفترض البرهنة على ذلك عمـوميا . ومن ثـم فإن هذه الحقـوق المفترضة ذاتيا والمعترف بها من طرف مختلف الذوات يمكنهـا أن تحتل موقعا داخل مجال مستقل هو مجال المعايير التشريعية . .

أما المجـال الثالث فهو المتعلق بعالم الـدلالة Signification وهو عالم يكـون فيه «التحليل المنطقي صعبا للغـاية ، لأن هذا الميـدان ، بدون شك لا يطابق شكـلا للعقلنة ، يكـون صعبـا كثيرا أو قليـلا كما هـو الشـأن في العلم الحديث أو في الأخـلاق الصـورية كذلك» [1] أي أن هـذا المجال يقـابل شكـلا للعقلنة منظـورا إليـه من زاوية نمـوذج علم الجمال . وما دامت لفظة «استيتيقا Esthétique تفيد من الناحية الاشتقـاقية ، ما نشعر به ذاتيا . لذلك فـادعاء كونية ما وبالتـالي عقلنة ما للتجربة المعيشة ، أي مـا تشعر به الذات بالنسبة لما هو كائن (المجال الأول) وبـالنسبة لما يجب أن يكون (المجال الثاني) يجب أن يتم توصيلها من خلال لغة . لذلك فإن العالم المناسب لهذا المجال هو «العالم الرمزي» ، أي أن ما هو معطى فيـه لا يرجع إلى حالة الأشياء أو المصـالح وإنما إلى الانفعالات المحسوس بها

---

(1) Ibid, P. 18-19.

والتجارب المعيشة في هذا المجال يمكن تأويلها، ليس من زاوية ما هو كائن أو ما يجب أن يكون، وإنما من وجهة نظر ما له معنى بالنسبة للذات وللآخرين أي من وجهة ما هو دال. وفي هذه الحالة فإننا نتحدث عن «تركيب للتواصل». فالتجارب الحميمية يتعين التعبير عنها من منطلق أن هذا التعبير يجب أن يمثل ما تشعر به الذات، سواء إزاء ما هو كائن أو ما يجب أن يكون، وهذا التمثيل يجب، بدوره، أن يبلغ المضمون المُمَثَّل لدرجة يكون فيها سهل المنال لكل ذات، ثم يتعين على هذا التبليغ أو التوصيل أن يشكل موضوعا للتقييم الموضوعي الذي لا يصاغ اعتمادا على المقياس العلمي للحقيقة (الصواب) ولا على المقياس الأخلاقي للدقة (التوافق) وإنما استنادا إلى معايير جمالية للتعبير القابل للفهم، أي استنادا إلى معيار التمثيلية Représentativité (الدلالة). إن الأمر يتعلق، هنا، بالتعبير عن التجربة المعيشة الحميمية التي يعيشها الفرد في شكل تمثيل قابل للتوصيل ولتبليغ معنى. لذلك فإن «تركيب التواصل» في هذه الحالة، لا يحيل إلى علاقة بين الذات والموضوع أو إلى التوفيق بين الخاص والعام وإنما إلى العلاقة بين التجربة واللغة.

ويمكن تلخيص ما تقدم كالتالي: «هناك حالات الأشياء مؤولة من وجهة نظر ما هو كائن تأخذ موقعها داخل نظام القوانين العلمية باعتبارها وقائع؛ وهناك مصالح مؤولة من وجهة نظر ما يجب أن يكون، تأخذ لنفسها موقعا داخل نظام المعايير التشريعية باعتبارها حقوقا، ثم هناك، في الأخير تجارب مؤولة باعتبارها حقوقا، ثم هناك، في الأخير، تجارب مؤولة من وجهة نظر ما هو دال تأخذ لنفسها موقعا داخل نظام الأشكال الرمزية باعتبارها تمثلات»[1].

إن هذا التحليل المركز لنظام العقلنة يُظْهِر أننا نقبل أن لا نعتبر الواقعة حقا، أو العقل النظري عقلا عمليا، وبأن موضوعية القوانين العلمية ليست هي مشروعية المعايير التشريعية. أما المجال الرمزي فإنه يتميز ليس فقط عن مجال الموضوعية، أي مجال القوانين العلمية، وإنما يتميز كذلك عن مجال المشروعية الذي هو مجال المعايير التشريعية. فالمعايير ليست هي القيم، والمؤسسات ليست هي التمثلات، وجوهر ما هو سياسي ليس هو الرمزي. وانطلاقا من كل هذا فإن العقلانية ليست مختلفة فقط بل إن عملية العقلنة منظور إليها باعتبارها مبدأ للتحديث لا تتم بنفس الشكل وفي المجالات المختلفة.

---

(1) Ibid, PP. 19-20.

هذه، بشكل عـام ومركز، المجـالات الثلاث التي تتحقق فيها عمليـة التحديث، على أساس أن لكل مجال مُقَـوِّماته ومنطقه واستقـلاله، فضلا عن أن هـذه العملية لا تتم بشكل مماثل في المجالات الثلاثة.

وحينما يتعرض هابرماس لماكس فيبر، فإنه دائما يقوم بذلك من منطلق اعتباره «ترك أثرا في شكل شـذرات» وبأنه لهذا السبب «من الممكن إعـادة بناء مشروعـه في مجمله بتتبع سياق نظريته في العقلنة»(1) ومن ثم فماكس فيبر يسمى عملية عقلنة «كل تعبير عن معرفة تجريبية وعن القـدرة على التنبؤ والتحكم الأداتي والتنظيمي في العمليات التجـريبية، ومع العلم الحديث أصبحت عمليات التعلم من النوع التأملي يمكنهـا أن تندمج في مؤسسات داخل المبادرة العلمية» (2). ويلاحظ هابرمـاس أن فيبر يفهم العلم الحديث بوصفه القدرة التي تـدير قـدر المجتمع المعقلن من منطلق تمييـزه بين التحكم النظـري والتحكم العملي للواقع في عملية العقلنة يـركز على ما هو عملي أي على العقلانية العملية بـوصفها مجموعة من المعايير التي اعتمادا عليهـا يقوم الناس بالتحكم في بيئتهم، و«مفهـوم النشاط العقلاني بالقياس إلى غـاية هو مفتاح المفهوم المعقد للعقلنـة منظورا إليها، أولا وقبل كل شيء، من خلال جوانبها العملية»(3).

إن مشروع هابرمـاس المتعلق بالحداثة وبالتـواصل ينطلق، كما أشرنا إلى ذلك، من إعـادة بناء لمفهـوم عملية العقلنـة Rationalisation الاجتماعيـة في المجتمـع الحديث. وإعادة البناء هذه استلزمت نقد أسس النظرية الفيبرية للعمل، لا سيما وأن فيبر يؤكد على الجانب العملي في العقلنـة، وفرضت بـالتالي، على هـابرمـاس الانتقال من بنيـة الفاعليـة الغائية إلى بنية الفاعلية التواصلية.

فعملية العقلنـة الاجتماعية، في نظـر هابـرماس، لا تعنـى ذيوع النشـاط العقلاني بالقيـاس إلى غاية، وتغيير مجالات النشـاط التواصلي إلى أنظمة فرعيـة للانشطة العقـلانية بالقياس إلى غايـة. لأن ما هو أساسي هو إمكان العقلنـة الملازم لأساس صدق الخطاب. هكـذا فإن فيبر مثـلا ينظـر إلى عملية «الانتقـال إلى الحديث كفعل تمايـز لمجـالات القيم وبنيات الوعي التي يتيح إمكانية تغيير نقدي للمعـرفة التقليدية حسب ادعاءات للصدق خاصة في كل مرة»(4). ثم إن إلحاحه المبدئي على النشاط العقلاني بالقياس إلى هدف يطرح

---

(1) Habermas (J) : "Théorie de l'agir communicationel", t. 1, op. cit, P. 159.
(2) Ibid, P. 173.
(3) Ibid, PP. 182-183.
(4) Habermas (J) : "Théorie de..........." t2, op. cit, P. 361.

مشكلة أساسيـة، ذلك أنه بالنسبة لهابـرماس، إذا أردنا دراسة المظـاهر المرضية للمجتمع الحديث فإنه يتعين امتلاك مفهوم أكثر تعقيدا يسـاعد على فهم المجال الذي يفتح عقلانية تصورات العـالم، كما وصل إليها الغـرب، على عملية تحديث للمجتمع. ومن هنـا يمكن تحليل أنظمة الممارسـة في امتداداتها وتوسعهـا، وليس فقط من الزاوية المحـدودة للمستوى المعرفي الأداتي بل بادخال أبعاد عملية ـ أخلاقية وجمالية ـ تعبيرية.

وبعد دراسة مُعَمَّقة للمجهود النظري الفيبري المتعلق بتحولات الحداثة ومفعولات العقلنـة، لا سيما على صعيد خلخلـة البنيات التقليـديـة للمجتمع واستبعاد التصـورات الميتافيـزيقية والدينية من مـؤسسات الدولة الحديثـة. بعد ذلك يتساءل هابـرماس: «لماذا تعمل العلـوم الحديثـة في خـدمتهـا للتقــدم التقني على تشجيع النمـو الـرأسمالي والادارة العقلانية، وليس على فهم الذات وفهم عالم المواطنين الذين يتواصلون فيما بينهم؟ ثم لماذا تضعف المضامين المتفجرة للحداثة الثقافية؟»[1] ويلاحظ هابرماس أن فيبر أمام هذا النوع من الأسئلة، يلتجيء فقط إلى الحديث عن مقاومـة مجالات القيم الثقافية لأشكال التنظيم الجديدة. ولكنه لا يقدم أي تفسير مقنع حول تبنيـه للأسباب التي تجعل عملية التحديث خاضعـة لنموذج إنتقـائي يلغي مظهرين أساسيين اثنين: «تطـور مؤسســات الحرية التي تحمي مجالات الممارسة، المُبَنْيَنَـة من خلال التواصل في المجال الخاص والمجـال العمومي، لدينامية التشيؤ الملازم لأنظمة الفعل الاقتصـادية والادارية من جهة، والتأثير الانعكاسي للثقافة الحديثة على الممارسة اليومية التابعة للتقاليد المنتجة للمعنى من جهة ثانية»[2].

ولـلإحـاطـة بمختلف التحولات التـي أنجزتها الحداثـة الغـربيـة في مجالات القيم الثقافية والأخلاقية والفنية وفي مجالات العلوم، عمل هابرماس على محاولة تحديد الدلالات المختلفـة التي تتخـذها عمليـة العقلنـة. فبـالنسبـة له، في كل مـرة يستعمل فيهـا تعبير «عقلاني» فإنـه يتعين افتراض أن هناك عـلاقة وثيقة بين العقلنـة والمعرفـة. على أساس أن هذه المعرفة لها بنية قضوية أي أن آراءنـا تصاغ في شكل ملفوظات. أكثر من هذا إنه يعتبر أن مفهوم المعرفة نفسه لا يحتاج إلى تـوضيح أكبر «لأن العقلنة لا تهتم كثيرا بالمعرفة وبإنتاج المعارف بقدر مـا تهتم بالطريقة التي تعمل الـذوات القادرة على الكلام والفعل على تطبيق هذه المعارف»[3].

---

(1) Ibid, P. 361.
(2) Ibid, P. 361.
(3) Habermas (J) : "Théorie de.........", tl, op. cit, P. 24.

ومن تم فإنه يمكن أن ننعت أشخاصا بأنهم عقلانيون، قليلا أو كثيرا، إذا امتلكوا معرفـة ما وتعابير رمـزية لغويـة أو غير لغويـة، تواصلية أو غير تـواصلية، تدمج معـرفة ما»[1].

ويلاحظ هـابرماس أنه إذا انطلقنا مـن التطبيق غير التواصلي لمعرفة قضـوية معينة داخل ممارسـات موجهة نحـو هدف فاننا، في هـذه الحالة، نعطي الامتياز لمفهـوم العقلنة المعرفيـة الأداتية، ذلـك المفهوم الذي أثـر، بشكل كبير، في عملية فهـم مظاهـر الحداثة، وذلك من خلال النزعة التجريبية. على اعتبار أن هذا المفهوم يتضمن دلالات متعلقة بنوع من تأكيد للذات يمكن أن يتوج بنجاح معين. لأن ما يسعف على هذا التأكيد الذاتي، هو القدرة على امتلاك معرفة تساعد على التحكم في البيئة المحيطة، وعلى العكس من ذلك إذا ما انطلقنا من التطبيق التـواصلي لمعرفة قضويـة داخل أفعال الكلام، فإننا نقـرر، عفويا، لصالح مفهـوم أكثر شمولا للعقلنـة يرتبط بتصـورات قديمة للعقل. «إن مفهـوم العقلنة التـواصلية يتضمن دلالات تحيل، في النهـاية، إلى التجـربـة المركزيـة لهذه القوة السلميـة للخطـاب البرهـاني التي تساعـد على تحقيق الاتفـاق وخلق الاجماع»[2]. إذ أنه في سيـاق الخطـاب البرهـاني يتغلـب مختلف المشـاركين على الصفـة الـذاتيـة الأصليـة لتصـوراتهم ويطمئنون على وحدة العالم الموضوعي وعلى التداخل بين الذوات لسياقهم الحياتي في نفس الآن، وذلك بفضل وحدة القناعات المبررة عقلانيـا. من ثم فإن «تأكيدا ما لا يمكن نعته بالعقلاني إلا إذا استجاب المتحدث للشروط الضرورية للوصول إلى الهدف الكلامي المتمثل في الاتفاق حول شيء ما في العـالم مع مشارك آخر في التواصل، على الأقل»[3] في حين أن الفعل الموجـه في اتجاه هدف معين لا يمكن أن ننعتـه بالعقـلاني إلا إذا استجاب الفـاعل للشروط الضرورية من أجل تحقيق نية التدخل في العالم بنجاح.

هنـاك اذن مستـويان لتحليل العقلنـة والتي يمكن أن تطبـق على مفاهيم المعـرفـة القضـويـة والعالم الموضـوعي. ويكمن الاختـلاف بين هـذين المستـويين في «نمط تطبيق المعرفة القضوية» [4] وتطبيق هـذه المعرفة يمكن أن ينظـر إليه من زاويتين اثنتين: إمـا من زاوية الاستخدام الآداتي وإما من زاوية الإتفاق التواصلي.

(1) Ibid, P. 24.
(2) Ibid, PP. 26-27.
(3) Ibid, P. 27.
(3) Ibid, P. 27.

وبالـرغم من تأكيد هـابرماس على مسألـة الاجماع فإن عقلانيـة الناس لا تتمثل في الوصـول إلى هذه النتيجة أو القيام بممارسـات فعالة. صحيح أن هذه الشروط مطلـوبة في كل سلـوك عقـلاني ولكنهـا ليست كـافيـة، ومن ثم يسمى «عقـلانيـون»، الأشخـاص القادرين على الكلام والفعل والـذين يتوهمون أقل ما يمكن حول الوقائع وعـلاقة الوسائل بالغايـات. ولكن هناك نماذج أخرى من التعبير التي يمكن التدليـل على وجودها بحجج عديـدة، بدون أن تكون هـذه التعابير مرتبطـة بادعاءات الحقيقـة أو النجاح، ومن يحمل تأكيدا معينـا يستطيع تأسيسه في مـواجهة ناقـد ما بالاشـارة إلى التوضيحات المنـاسبة لهذا التأكيـد، ولا يمكن اعتبار الحامل لهذا التأكيـد لـوحده عقـلانيا في سيـاقات التـواصل. ولذلك نسمي، كـذلك، عقلانيا من يتبع معيارا مـوجودا ويستطيع تبرير فعله تجاه نـاقد معين، وذلك بتفسير وضع معطى بالقيـاس إلى الانتظارات الشرعيـة للسلوك. ثم نسمي أيضا، عقلانيـا من يعبر بصدق، عن أمنية أو عاطفة أو حالـة شعورية أو كشف عن سر أو اعتراف بفعل . . الخ ويتمكن، بـذلك من خلق يقين لـدى النـاقـد يتعلق بتجـربتـه الحميمية التي عمل على الكشف عنها، وذلك بالانسجـام مع الانعكاسات العملية التي يستخلص من أجل سلوكه»[1].

ويرى هـابرماس أن أفعـال اللغة التقريـرية التي تعمل، بطريقـة أو بأخرى، على رصد الأشياء، والممارسـات المنظمة من خلال معايير، والأشكـال التي تسلكها الذات من أجل تقديم تعـابيرها، كل ذلك مجموعـة من الصيغ والتعبيرات المحملة بالمعنى، مفهـومة داخل سياقهـا المحدد والمرتبطة بـادعاءات للصدق قابلـة للنقد وللمحاكمـة. لذلك فإن هابرماس يحيـل هذه التعبيرات والصيغ الى مرجعيتها المعيارية أو إلى التجـربة المعيشة أكثر مما يربطها بـوقائع ملموسة، «لأن ما يُكوِّن عقلانيتها هـو إمكان اعتراف الذوات فيما بينها بالادعـاء النقدي للصدق. ولكن المعرفـة التي تتجسد في أفعال منظمة من خـلال معايير وكذا في التجليات التعبيرية لا تحيل إلى وجود حالات الأشياء إنما، فقط، إلى قيمة ما يجب أن تكون عليه المعايير، وإلى مظاهر التجارب الذاتية، المعيشة»[2] وبهذه التعبيرات لا يمكن للمتكلم أن يرجع إلى شيء بعينه في العالم الموضـوعي، ولكنه يمكنه أن يستند، فقط، على العـالم الاجتماعي المشترك أو على العالم الـذاتي الخاص بكل واحـد. على الا يعني ذلك أن ليس هنـاك أفعالا تواصليـة أخرى لها عـلاقة مختلفـة بالعـالم تعتمد على ادعـاءات أخرى للصدق غير التعبيرات التقريرية.

(1) Ibid, PP. 31-32.
(2) Ibid, P. 32.

هناك إذن ادعـاءات مختلفة للصـدق تربط علاقـات مختلفة مع أشيـاء الواقع ومع المعايير بهدف خلق أنماط متنـوعة للتواصل. غير أن اختلاف هـذه الادعاءات للصدق لا يجعل عمليـة التواصل تضطـرب بقدر ما يكمـل هذه الادعـاءات. فالأفعال المنظمـة من خلال المعايير والأشكال التعبيرية للتقديم الـذاتي والتعبيرات التقويمية تكمل أفعال اللغة التقريرية داخل الممارسة التـواصلية، وذلك من أجل اكتساب أو الحفاظ أو تجديد الإجماع في العالم المعيش، باعتبار أن الإجماع يعتمد على الاعتراف بـادعاءات الصدق القابلة للنقد بين مختلف الذوات. ومن ثم فإن العقلنـة المُتَضَمَّنة في هذه الممارسة تظهـر في الواقع نتيجة اتفاق مُحَصَّل عليـه وبطريقـة تواصليـة واعتمادا على حجج. لذا فإن عقلنـة من يشارك في هـذه الممارسة التـواصليـة تقاس بـالاستطـاعة التي يحوزونها، في سيـاق ظـروف مناسبـة، لتأسيس تعبيراتهم والـدفاع عنهـا. فالعقلنـة «الملازمة للممارسـة التواصليـة اليوميـة تحيل كذلكَ إلى ممارسة البرهنة باعتبارها دليلا مـرجعيا يسعف، عند الاقتضاء، متابعة الفاعلية التواصلية بوسائل أخرى»[1].

بمعنى آخر أن الفعل العقلاني من خلال اللغـة والتعبيرات وادعاءات الصلاحية، سواء في عـلاقتها بالأشيـاء أو بالمعايير يحتـاج دوما، إلى عملية بـرهانية لإسنـاده وإبرازه، داخل التواصل، كفعل قـادر على الدفاع عن ادعاءاتـه والجواب على مختلف أشكال النقد التي من المحتمل أن توجه إليه.

ويحدد هابرماس البرهنة باعتبارها «نوعا من الخطاب حيث تعمل الأطراف المشاركة فيه على صياغة ادعاءات الصلاحية التي تكـون موضوع خلافات وتحاول أي هذه الأطراف قبـولها أو نقـدهـا بواسطـة بـراهين. والبرهـان يتضمن حججـا مـرتبطـة، بشكل منظم، بادعاءات صلاحية التعبيرات الاشكالية، ومن تم فـان قوة برهان ما تقاس، داخل سياق محدد، بصحة الحجج، وهذه الصحـة تظهر، من بين ما تظهر فيـه، في قدرة تعبير ما على إقناع المشاركين في المناقشة أو التحفيز على قبول ادعاء معين للصلاحية»[2].

واعتمادا على شرعية الحجج أو صحتها يمكننا أن نحكم على عقلنة ذات قادرة على الكلام وعلى الفعل انطلاقا من الطريقة التي تسلكها في وضع حـالة معطاة باعتبارها طرفا مشاركـا في البرهنة. وكل فرد يشـارك في عملية بـرهنة ما إمـا أنه يظهر عقلنـة أو لا عقلنة حسب الأسلـوب أو الطريقـة التي يعالج بها الحجج التي تقـدم له لتبنِّي أو رفض ادعـاء

(1) Ibid, P. 34.
(2) Ibid, P. 34.

معين، ثم أيضا بالطريقة التي يصوغ بها أجوبته. وبحكم أن التعبيرات العقلانية المستعملة قابلة للنقد، فانها أيضا قابلة لأن تعدل وتطور وتصحح المحاولات الخاطئة في حالة ما إذا تمكّنا من وضع اليد على هذه الأخطاء. ولذلك يرى هابرماس أن مفهوم التأسيس العقلاني مرتبط، بشكل كبير، بمفهوم التعلم، فهو يسمي «عقلانيا ذلك الشخص الذي يمكنه، في المجال المعرفي الآداتي، التعبير عن الآراء المؤسسة ويتدخل بفعالية. ولكن هذه العقلنة تبقى محتملة إذا لم تكن متصلة بالقدرة على التعلم بالاستفادة من الأخطاء المرتكبة وتفنيد الافتراضات وفشل بعض التدخلات»[1].

ومن الوجهة الفلسفية لا يكون الأمر مُكْتَسَبا ومفروغا منه، بمجرد الاستطاعة على تأسيس ادعاءات الصدق بطريقة خطابية قياسا على ادعاءات الحقيقة، باعتبار أن ادعاءات الصدق مرتبطة بمعايير الفعل، وعليها تعتمد توجيهات ومبادىء الواجب. ولكنه على صعيد الحياة اليومية، فإنه لا أحد ينخرط في عمليات برهنة أخلاقية بدون أن ينطلق من افتراض أنه من الممكن، بصورة مبدئية، الوصول إلى إجماع مؤسسي عقلاني بين الناس المعنيين.

إن هذه الشروط التي يفترضها هابرماس بالنسبة للسلوك العقلاني لا تقتصر، فقط، على المستوى المعرفي الأداتي، بل أيضا تهم المجال الأخلاقي العملي وكذلك التعبيرات التقويمية. ويسمى «عقلانيا الشخص الذي يؤول طبيعة حاجاته في ضوء القيم الموحدة والجاري بها العمل من الناحية الثقافية. ولكن يمكن أن نقوم بذلك أكثر إذا ما تمكّن هذا الشخص من تبنّي موقف تأملي إزاء القيم النموذجية نفسها التي تؤول الحاجات»[2] ومن تم، وبخلاف معايير الفعل والممارسة، فان القيم الثقافية لا تتضمن ادعاءا للكونية يمكن أن تقوم مجموعة من الأشخاص بوصف مصلحة مشتركة يجوز أن تتحول إلى معيار ولكن أن يتشكل اعتراف بين الذوات حول قيم ثقافية لها أبعاد كونية، فإن هذه الحالة ليست ممكنة دائما، فضلا عن أن عمليات البرهنة التي تستخدم لتبرير القيم النموذجية لا تستجيب لشروط الخطاب بالضرورة لأنها تنتمي أكثر إلى مجال «النقد الجمالي».

نفس الأمر ينطبق، تقريبا، على بعض الحالات النفسية العلاجية حيث يتمثل تخصصها في تمرين المُحَلِّل على اتخاذ موقف انعكاسي إزاء تجلياته التعبيرية. ومن ثم نسمي «عقلانيا، سلوك شخص على استعداد، وفي مستوى التحرر من أوهامه : يتعلق الأمر،

(1) Ibid, P. 35.
(2) Ibid, P. 36.

هنا في الواقع بأوهام لا تعتمد على الخطأ (في موضوع الوقائع) ولكن على الوهم الذاتي Auto-illusion (في موضوع التجارب الخاصة المعيشة)»[1]. باعتبار أن هناك أوضاعا مختلفة يعمل فيها المرء على إخفاء نواياه الحقيقية أو على إسقاط من يدخل معه في عملية تفاعل وفي وهم أن ما يدعيه هو حقيقة تجربته المعيشة. وفي هذه الحالة فانه في سياق تواصل يستهدف التفاهم بين الذوات، فإن المظاهر التعبيرية يمكن قياسها حسب دقتها. لأن من يوهم ذاته فانه، في واقع الأمر، يتصرف بطريقة لا عقلانية، ولكن لا ينطبق هذا على المرء الذي هو على استعداد لتقبل تفسيرات عن لا عقلانيته. لأنه لا يمتلك فقط عقلنة ذات تفعل بذكاء وعقلانية بالقياس إلى غاية، أو عقلنة ذات متفتحة اخلاقيا وقادرة على الاشتغال عمليا، أو تستطيع، كذلك، القيام بفعل التقويم بحساسية معينة وتقدر على التلقي على الصعيد الجمالي. بل إنها، بالاضافة إلى كل ذلك، لها القوة على أن ترجع، بطريقة انعكاسية، إلى ذاتيتها الخاصة، وأن تكشف عن حدودها اللاعقلانية التي تؤثر، منهجيا، على تعبيراتها المعرفية والعملية والأخلاقية والجمالية *.

لذلك يسمي هابرماس «نقدا علاجيا ذلك الشكل من البرهنة الذي يساعد على تفسير الأوهام الذاتية المُنَظَّمة»[2].

ويخلص هابرماس إلى القول بأنه يمكن أن نسمي «ذلك الشخص الذي يظهر استعدادا على التفاهم بين الذوات، يعبر عن ردود إزاء اضطرابات التواصل وذلك بالتفكير في القواعد اللغوية، بأنه عقلاني. وما هو موضوع محل سؤال هنا، هو من جهة مراقبة قابلية الفهم أو التكوين الجيد للتعبيرات الرمزية، اذ يتعلق الأمر بمعرفة إلى أي حد تم إنتاج التعبيرات الرمزية وفق القواعد، وهل تتطابق، بتعبير آخر، مع النظام المقابل لقواعد الانتاج، والبحث اللساني يمكن أن يشكل نموذجا هنا. وما هو موضوع محل سؤال من جهة ثانية، هو تفسير دلالة التعبيرات المنتجة. وهنا تقترح ممارسة المترجم نموذجا مناسبا ضمن مهمة التأويل، اذ أن من يستعمل وسائله الخاصة للتعبير الرمزي بطريقة وثوقية يتصرف بطريقة لا عقلانية»[3]. فالخطاب التأويلي يمثل شكلا للبرهنة حيث الطابع المفهوم أو الصحيح، نحويا، للتعبيرات الرمزية، ليس مفترضا أو مطعونا فيه بسذاجة وإنما، على العكس من ذلك، يصاغ بوصفه ادعاءا مجادلا فيه. ولذلك يعتبر

---

(1) Ibid, P. 37.

* من الواضح، هنا، أن الأمر يتعلق بعملية تأمل ـ ذاتي لا شك أن التحليل النفسي يساعد على الكشف عن آلياته.

(2) Ibid, P. 38.

(3) Ibid, P. 38.

هابرماس أن العقلنة يمكن فهمها باعتبارها «استعدادا خاصا لدى ذوات قادرة على الكلام والفعل. إنها تترجم في أنماط سلوك حين تظهر الحجج الجيدة في كل مرة. وهذا يعني أن التعبيرات العقلانية قابلة لأن تكون محل تقويم موضوعي»(1).

نلاحظ مما سبق أن هابرماس يتناول العقلنة كإجراء عقلي يتحدد في علاقته مع اللغة ومع السياقات المعرفية ــ الأداتية ومع مختلف أشكال التعبيرات الرمزية، كما أنه يؤطرها ضمن درجة صياغتها لادعاءات الصلاحية والاقتراب من الحقيقة ودور الوهم الذاتي في اضطراب العملية التواصلية وفي مسار التفاهم بين الذوات. غير أن هابرماس، في هذا المستوى من التحليل، يدخل مفهوم العقلنة لتوضيح شروط العقلنة لتعبيرات أو لذوات قادرة على الكلام وعلى الفعل، مع وعيه التام بأن هذا المفهوم لا تنطبق على المقاربة السوسيولوجية، تلك المقاربة التي سيوظفها حين يحاول صياغة مفهوم ما أسماه بـ «العقلانية التواصلية»*.

ويرى هابرماس أنه لكي نحيط بمفهوم العقلنة لا بد من إبراز أهمية ما يسمى بـ «سابق الفهم» Précompréhension الذي يوجد متجذرا في المواقف الحديثة للوعي. بمعنى آخر أن هناك افتراضا ساذجا يقضي بأن الفهم الحديث للعالم يتم التعبير عنه بواسطة وعي ينتمي إلى العالم المعيش المعقلن ويجعل من السلوك العقلاني للحياة مبدءا ممكنا. وهكذا نربط، ضمنيا، الفهم الغربي للعالم بنوع من ادعاء الكونية. في حين، كما يعتبر هابرماس، أنه لكي ننظر أين يتمثل هذا الادعاء للكونية يجب القيام بمقارنة بين الفهم الحديث للعالم والفهم الأسطوري له. «فالأساطير داخل المجتمعات القديمة تشكل أمثلة جيدة على الوظيفة التوحيدية التي تقوم بها التصورات للعالم».

«وفي نفس الوقت، وفي داخل التقاليد الثقافية التي يمكننا الوصول إليها، فإن هذه الأساطير تشكل التضاد الأكثر حدة مع فهم العالم الذي يسيطر على المجتمعات الحديثة.. وبالقياس إلى الشروط، التي أتينا على ذكرها، والتي يتعين توفرها في سلوك عقلاني للحياة، فإن هذه الأساطير تكون نقيض الموضوع Antithèse للفهم الحديث للعالم. ولهذا السبب وفي مرآة الفكر الأسطوري، يجب علينا أن نبين الافتراضات المسبقة للفكر الحديث والتي لم يتم صياغتها موضوعيا بعد»(2).

---

(1) Ibid, P. 38.

* وهذا ما سنعرض له في الفصل الثاني

(2) Ibid, P. 60.

وقد عمل هابرماس، وبشكل مُطوّل، على تحديد خصائص الفكر الأسطوري وما يشكل أسس التصورات التقليدية للعالم ودورها في خلق تنظيم تواصلي داخل المجتمعات التقليدية، والملاحظ أنه قام بذلك اعتمادا على الانفتاحات النظرية والتحليلات التي قام بها ماكس فيبر لهذه التصورات. ففي نظر هابرماس لا يمكن فهم العالم الحديث بدون الاحاطة بالتعبيرات الرمزية للفعل الاسطوري والديني والميتافيزيقي. فالحداثة هي، في عمقها، نتيجة لتجزىء وتشظية «للعقل الجوهري»، ولأنها يمكن بل ويجب أن ننظر إليها باعتبارها مشروعا غير مكتمل، فإنه يتعين عقلنة هذه الحداثة وتحديث عقلانيتها لغويا واجتماعيا وسياسيا، بل على صعيد كل مجالات القيم التي عمل العقل الحديث على بلورة منطقها ومعاييرها.

وقد أشرنا في بداية حديثنا عن العلاقة بين التحديث والعقلنة أن هابرماس يركز، بشكل واضح، على دور علم الاجتماع في نظرية العقلنة. ومع أننا لاحظنا أنه يعطي أهمية خاصة للغة في صياغة نظرية العقلنة في علاقتها بالخطاب، بالحقيقة وبعمليات البرهنة، فإنه يعتبر أن هذا المجهود لن يكتمل إلا بإدخال الأبعاد الاجتماعية والثقافية لبناء «عقلانية تواصلية». وهو من أجل ذلك يعمل على الاجابة على سؤال واضح هو : «كيف يمكن تصور عمليات التحديث في أفق عمليات العقلنة ؟»

وللجواب على هذا السؤال ـ الذي يبدو أنه يشكل السؤال المحرك لمشروعه في الحداثة ـ اختط هابرماس لنفسه مسالك نظرية ثلاثة : أولها معالجة مفهوم النشاط التواصلي من خلال التداوليات الصورية، أي محاولة الربط بين علم الدلالة الصوري ونظرية أفعال اللغة لإعادة بناء عقلاني للقواعد العامة والافتراضات الصورية للممارسات الموجهة للتفاهم بين الذوات. أما المسلك الثاني فيتمثل في تقدير القيمة الاستعمالية التجريبية لمسلمات التداوليات الصورية، وذلك على صعيد تفسير النماذج المرضية والمُربكة للتواصل، وتطور أسس أشكال الحياة الاجتماعية والثقافية وتطور القدرات على الفعل، في حين أن المسلك الثالث فإنه على ما يبدو، أهم محطة في تفكير هابرماس، ويتجلى في نقد وتقويم النظريات السوسيولوجية لإقامة نظرية للعقلنة الاجتماعية. وهو في هذا الجهد يعيد النظر في مجموعة من الاستراتيجيات المفهومية وفي فرضيات وعمليات البرهنة التي اقترحها كل من «ماكس فيبر» و«تالكوت بارسونز» وذلك بهدف إبراز المشاكل لايجاد الحل «الذي يمكن أن يساعد نظرية للعقلنة مطورة اعتمادا على مفاهيم أساسية للنشاط

التواصلي»[1] وليس أي شكل من التواصل، لأنه يتبنى الشكل الحديث للتفاهم بين الذوات.

ومن أجل الكشف عن انعكاسات فعل العقلنة على مجالات العمل والبنيات الرمزية للعالم المعيش يلاحظ هابرماس، استنادا إلى نظرية فيبر في العقلنة، أن مجالات العمل المُنَظَّمة بشكل صوري يمكنها أن تنفصل عن سياقات العالم المعيش، فقط، حين تتمايز البنيات الرمزية عن العالم المعيش بما فيه الكفاية. وأن التكوين التشريعي للعلاقات الاجتماعية يتطلب قيما معمقة على مستوى عال، وتباعدا قويا للفعل الاجتماعي بالنسبة للسياقات المعيارية ولتقسيم الحياة الاخلاقية العينية إلى سلوكية وشرعية. لذلك على العالم المعيش أن يعرف عملية عقلنة على صعيد ميادين الفعل المحايدة حتى تتمكن الأخلاق من التنظيم بطريقة مشروعة بفضل الأسلوب الصوري في تعيين وتأسيس المعايير. كما يجب على التقليد الثقافي أن يبلغ درجة من التمييع لكي تتمكن الأنظمة الاجتماعية المشروعة من الاستغناء عن القواعد الدوغمائية المُسَطَّرة من طرف التقليد. ويستلزم على الأشخاص أن يتمكنوا من التدخل، بطريقة مستقلة، في إطار مجال الاحتمال الذي تمثله ميادين العمل المنظمة بصورة مجردة وكونية وأن يتمكنوا من الانتقال إلى سياقات للعمل محددة أخلاقيا وموجهة نحو التفاهم بين الذوات داخل مجالات عملية منظمة من خلال القانون، ولكن دون أن يعرضوا هويتهم للخطر.

4. المضمون المعياري للحداثة

إن ماكس فيبر أدخل مفهوم العقلنة لتمييز الشكل الرأسمالي للنشاط الاقتصادي، وشكل التبادل داخل المجتمع البورجوازي سواء على صعيد القانون الخاص أو على مستوى تنظيم المؤسسات الادارية والاجتماعية. ومن ثم فعملية العقلنة تشير، بالدرجة الأولى عند فيبر، إلى امتداد ميادين وأصعدة المجتمع التي تخضع لمقاييس القرار العقلاني، إضافة إلى عملية تصنيع العمل الاجتماعي حيث تتغلغل مقاييس واعتبارات النشاط الأداتي داخل مجالات أخرى للوجود الاجتماعي قبل تحضير وتمدين نمط الحياة وإدخال وسائل تقنية في التبادل بين الناس. بمعنى آخر أن العقلانية الفيبرية ذات طبيعة غائية لأنه ليس هناك، بالنسبة لها نشاطا عقلانيا إلا بالقياس إلى غاية محددة. ولذلك فان عملية العقلنة المتنامية للمجتمع مرتبطة أشد ارتباط بالتنظيم المؤسسي للتقدم التقني والعلمي.

---

(1) Ibid, P. 156.

غير أن هابرماس، من خلال قراءته لنظرية فيبر ويهدف إعادة بناء مسألة الحداثة اعتمادا على أدوات مفاهيمية جديدة، يلاحظ أن عملية عقلنة أنظمة الممارسة عند فيبر يتم تحليلها، بشكل استثنائي ،من زاوية العقلانية الغائية، ولذلك وإذا ما أردنا وصف وتفسير سلبيات الحداثة وأمراض المجتمع الحديث لابد من اعتماد مفهوم أكثر تعقيدا لفعل العقلنة حيث يمكن مساعدتنا على فهم المجال الذي يفتح عقلانية تصورات العالم، كما تم التوصل إليها في الغرب، على تحديث المجتمع. من هذا المنطلق فقط يمكن تحليل عملية عقلنة أنظمة الممارسة في امتدادها، وليس من الزاوية المحدودة لما هو معرفي ـ أداتي وإنما بإدخال الأبعاد الاخلاقية ـ العملية والجمالية ـ التعبيرية»[1] ولإنجاز هذا الشرط اضطر هابرماس إلى تحليل تاريخ النظريات المتعلقة بالموضوع للعمل، في النهاية، على بناء مفاهيم مثل الفاعلية الموجهة نحو التفاهم بين الذوات، أو العالم المعيش المُبَنْيَن رمزيا والعقل التواصلي. . الخ.

والمشكل الثاني الذي يترتب على نظرية فيبر هو أن بناءه المفهومي لنظرية الممارسة، في نظر هابرماس، يبقى بناء ضيقا بل ويُطابق النمط الرأسمالي للتحديث بعملية عقلنة المجتمع بشكل عام. أي أن الطاقات الفكرية والمعرفية المتراكمة من خلال الثقافة تراجعت إلى درجة الانهاك واستنفذت كل قدراتها «غير أننا إذا أردنا أن نجعل من حكم فيبر التشخيصي للزمن الحاضر حكما أكثر خصوبة فإنه يتعين علينا الرجوع إلى التأثيرات الثانوية المرضية للبنية الطبقية والتي لا تسمح أدوات نظرية الممارسة بتملكها ثانية في مداها الكافي.

«ومن تم فإن ظهور أنظمة فرعية للممارسة العقلانية من أجل غاية يتخذ معنى آخر تماما»[2]. فعملية العقلنة التي تمس سياقات الفاعلية التواصلية وبروز أنظمة فرعية للممارسة الاقتصادية والادارية المطبوعة بالعقلانية للوصول إلى هدف معين تشكل، في نظر هابرماس، عمليات يتعين التمييز بينها بدقة في التحليل.

وتمشيا مع هذا الاحتياط المنهجي يرى هابرماس أن فعل العقلنة المقترن بعملية تحديث المجتمع لا يجب أن يقطع، بشكل مطلق، مع التصورات الثقافية ما قبل العقلانية، لأنه لا دنيوية تصورات العالم ومحاولة نزع صفة القداسة عنها، ولا التمايز البنيوي للمجتمع في ذاتها لهما مفعولات ثانوية باتولوجية. كما أنه لا التمايز ولا الانتشار

---

(1) Habermas (J) : "Théorie..............", T2, op. cit, P. 333.
(2) Ibid, PP. 333-334.

المستقل لمجالات القيم الثقافية يؤديان إلى الافقار التواصلي للممارسة اليومية. فالتمييز النخبوي بين ثقافة الخبراء وسياقات الفاعلية التواصلية الجارية، وليس الفصل بين الأنظمة الفرعية المنظمة من خلال وسائط (مثل المال والسلطة) مع أشكالها التنظيمية والعالم المعيش، هو الذي يؤدي إلى عقلنة أحادية أو إلى تشيؤ الممارسة التواصلية الجارية، وإنما الدخول العنيف لأشكال العقلنة الاقتصادية والادارية في مجالات الممارسة التي تتعارض مع حالة الارتداد التي تريد وسائط المال والسلطة فرضها. إن هذه المجالات «تكون مختصة في النقل الثقافي والاندماج الاجتماعي وفي التربية، وتبقى تابعة للتفاهم بين الذوات باعتبارها آلية تنسيق للممارسة. . »[1].

ومهما يكن فان هابرماس حين يقوم بتوجيه النقد لنظرية العقلنة الفيبرية فمن اجل بناء نظرية العقلانية التواصلية المستندة إلى إيقاع للتفاهم بين الذوات، يسمح بتحديث العقلنة وعقلنة التحديث، بدون ممارسة أية ضغوط على التبادل التواصلي داخل المجتمع الحديث. ثم إنه لا يكتفي بفيبر لأنه يدمج في سياق تحليله لنظرية الحداثة الغربية أهم الفلاسفة والباحثين الذين اقتربوا من ظواهر الحداثة نظريا، وحاولوا نقد عملياتها أو تفسير آلياتها وأنماط تحركها. فمنذ كانط والفلسفة المثالية إلى ماركس مرورا بفيبر ولوكاتش والنظرية النقدية إلى فلاسفة ما بعد الحداثة، والفكر الغربي يعمل جاهدا على مواجهة إيقاعات الحداثة، نظريا، سواء من وجهة نظر الفلسفة أو من منطلق العلوم الانسانية والاجتماعية التي اكتسبت شرعيتها الابتسمولوجية مع بروز المجتمع الحديث.

وكان على هابرماس أن يغربل كل هذا الرصيد الفلسفي والعلمي، ويحلل مختلف مكوناته المفاهيمية والفلسفية والعلمية والقيام بما يحرص على تسميته بـ «إعادة بناء» العناصر النظرية التي تسهم في صياغة نظرية العقل التواصلي أو الفاعلية التواصلية. وهو حينما يُقوِّم هذا الرصيد يلاحظ أن نظرية الفعل العقلاني عند فيبر وكيفية تلقيها من طرف الفلاسفة والباحثين، ولا سيما منذ لوكاتش إلى أدورنو، تظهر أن عملية عقلنة المجتمع تم فهمها دائما باعتبارها تشيؤ للوعي، ثم إن تناول هذا الموضوع في نظر هابرماس، لا يمكن أن يكون منتجا في سياق مفهومي تسيطر عليه فلسفة الوعي، كما أن اجتهادات فلاسفة ما بعد الحداثة لم تستطع تلمس هذه الاشكالية بحكم تحركهم داخل حقل مفاهيمي نيتشوي وبسبب انطلاقهم من قاعدة ما يسميه «كارل اوتو آبل» بـ «النقد الكلي للعقل»[2].

---

(1) Ibid, P. 364.

(1) Apel (K-O) : "Esquisse d'une théorie philosophique des types de rationalité", Revue, Débat, N. 49, Mai-Avril, 1988; P. 141.

فالتحديث عند هابرماس، وهذه إشارة أساسية في سياق تلمسنا لتحليله للحداثة، هو عبارة عن إعادة امتلاك نقدية لما تنتجه الحداثة نفسها وإعادة نظر متواصلة لكل ما هو مستعمل في العلم والسياسة والثقافة. غير أن عملية عقلنة العالم استنادا إلى النقد، حيث تفكر الحداثة في ذاتها وتحاكم مقوماتها هي - أي عملية العقلنة ـ ما يشكل عظمتها وهشاشتها في نفس الآن. فالتحديث هو «تراكم نظري وتطبيق لانتاج العقلنة في نفس الوقت، وذلك في مختلف ميادين العلم والتقنية، القانون والسياسة، الفن والنقد. وهنا تظهر إحدى مفارقات هذه الحداثة. اذ أنه اعتبارا لهذه الوظيفة النقدية الكامنة في فعل العقلنة المنتج للتحديث، فان الفاعل النظري أو العملي في هذا السياق، في الوقت الذي يريد أن يستقل بإنتاجه يجد نفسه مهددا بالضياع في إنتاج نفسه، أي أن الذات مهددة بالذوبان في النسق.

وهذه مشكلة فلسفية جوهرية ارتبطت بالنظر الفلسفي منذ هيغل مرورا بفيورباخ وماركس، ولوكاتش والنظرية النقدية، والمتعلقة بمسألة استلاب الذات في علاقتها بذاتها وبآخرها سواء كان هذا الآخر إنتاجا سلعيا أو جماعة أو نسقا قيميا، حيث يعمل الانسان على تجاوز ذاته بخلق أشياء وإخراجها إلى الوجود. غير أنه يضيع فيها و«تشيؤ» علاقاته بذاته وبموضوعات العالم.

غير أن النقد له وجهة أخرى لا تقل أهمية عما يقوم به في اتجاه المواكبة المتسائلة لصيرورة الحداثة، وهذه الوجهة تتمثل في الخلخلة الدائمة والمنهجية لعناصر التقليد التي تعمل، مبدئيا، على تأسيس إجماع مُسْتَنِد إلى قناعات موحدة وإلى مسبقات مشتركة، أي بمعنى آخر مستند إلى سلطة.

الحديث عن الاجماع بهذه الطريقة دفع بهابرماس إلى تصور صيغة مغايرة لتأسيس الاجماع، لا تعتمد فقط على قيم حديثة ـ لأن هذه القيم نفسها ستخضعها الحداثة، بحكم بعدها النقدي، للمحاكمة وللنقد ـ وإنما داخل شروط التحديث، أي داخل الشروط العقلانية للنقد بالضرورة. فمنطق التصور الحديث لا يقبل، بأي شكل من الأشكال، أن يحصل إجماع معطى بطريقة مسبقة وعلى أساس الرجوع إلى السلطة، لأن الاجماع الحديث لا يكون، في حقيقته إلا إجماعا إشكاليا وقابلا، في كل لحظة، لأن يوضع موضع سؤال واعادة نظر، باعتباره - أي الاجماع ـ مبني على قاعدة العودة المستمرة إلى الحقيقة، تلك الحقيقة التي توجد في حالة جريان دائم التحول.

وبديهي، داخل إطـار فكر هـابرمـاس، أن القول بالحقيقـة، بهذا المعنى الحديث المعطى لها، يستـدعي نـوعا من التنظيـم المؤسسي العام للمنـاقشـة العمـومية في شكلهـا العقلاني البرهاني. فـلا شيء يقترح بشكل مجاني، وكل قضية لا بد أن يدافـع عنها أو تفند اعتمادا على اعتبارات عقلانية ذات قواعد برهانية. لذلك فان «حقيقة قضية ما تعني الوعد بالوصول إلى إجماع عقلاني حول ما تم قوله»[1].

من هنا نلاحظ أن عقلنة الحداثة وتحديث العقلنة عنـد هابرماس فعلان متداخلان ومتفاعلان في سياقات تواصلية تختلف باختـلاف نمط البرهنة وفي اطار ما أسماه بـ «نظرية الحقيقة الاجماعية».

وإذا كان هابرماس يؤكد على التفـاعل النقدي بين العقلنة والتحديث فلأنه يرفض النظر إلى الحداثة من زاويـة فلسفة الوعي، حتى ولو كانت، هي كـذلك، تتضمن علاقة ضروريـة بمفهوم العقل والعقـلانية، فهـو يعتبر أن نظـرية النشـاط التواصلي، في سيـاق الحداثة تقيم علاقة داخلية بين الممارسة وفعل العقلنة «إنها تدرس المضمرات العقلانية التي تفترضها الممارسة التـواصلية اليومية وتسـاعد المضمون المعياري الملازم للنشـاط الموجه نحو التفاهم بين الذوات للوصول إلى مفهـوم العقلانية التواصلية»[2]، لأن ما حفـز على تغيير هذه البنية يتمثل في عجز كثير من الاجتهادات النظريـة على إنتاج الأسس المعيارية لنظرية نقدية للمجتمع.

من أجل صياغـة المضمون المعياري للحـداثة عمل هابرمـاس على إخضاع التراث الفلسفي الـذي تكـونت وتبلورت في داخلـه نظـريـة الحداثة. سـواء بتبني استراتيجيتهـا العقلانية أو من منطلق نقد عملياتها وإنتاجـاتها، وذلك منذ كانط إلى «كاستورياديس»، أي ابتـداء من أول نسق فلسفي نقدي حـاول تلمس الملامح الفلسفية للحـداثة إلى أكثـر المواقف الفلسفية نقدا لكلية العقل.

إن الخطاب الفلسفي الـذي يتخذ من النقد اعتبـارا مبدئيـا في نظريته للحـداثة لا سيما، في القرن العشرين عنـد هايدغـر والنظريـة النقدية الأولى وفـلاسفة ما بعـد الحداثة الفرنسيين، لا يمكن لأصحابـه، أو بالأحرى لا يريدون فهم الموقع الـذي يحتلونه، لأنهم ينتجون مفارقة هائلة تتمثل في كونهم يرفضون الارتباط الأحادي سواء مع الفلسفة أو العلم أو نظريـة الاخلاق أو القـانون أو الأدب أو الفن، وفي نفس الـوقت يعارضـون كل عملية

(1) Habermas (J) : "Logique des sciences sociales", op. cit, P. 285.
(2) Habermas (J) : "Le discours philosophique de la modernité", op. cit, PP. 93-94.

رجوع إلى الأشكال الدوغمائية للفكر التقليدي. غير أنهم لا يكفون عن صوغ ادعاءات الصلاحية لكي يكذبوها فيما بعد. ثم إن هناك «لا تماثل بين الحركة البلاغية التي من خلالها تطلب هذه الخطابات أن تكون مفهومة وبين المعالجة النقدية التي يخضعون لها على الصعيد المؤسسي، في إطار الدرس الجامعي على سبيل المثال»[1]. ويلاحظ هابرماس أن ادعاء أدورنو بطريقة لا معقولة، لقيمة الحقيقة أو رفض ميشال فوكو واستخلاص النتائج من تناقضاتها الظاهرية، أو تهرب كل من هايدغر وديريدا من ضرورة تبرير أقوالهما باللجوء إلى نزعة باطنية أو بخلطهما بين المنطق والبلاغة، كل هذا يؤدي إلى القول بأن هناك، وفي كل مرة، «وحدة عناصر غير متطابقة فيما بينها، وخلطا يتعارض، بشكل أساسي مع التحليل العلمي«العادي»»[2].

أن يحصل تناول الحداثة، بوصفها حياة مُشَيَّأة ومُسْتَغلة، بل وموضوعة تحت تصرف التقنية أو معروضة بطريقة توتاليتارية خاضعة للسلطة، موحدة ومسجونة، فإن هذا النوع من التناول تحفزه حساسية خاصة إزاء الجروح المعقدة المتعددة وأشكال العنف المكبوتة. بمعنى آخر أن هذا التناول النقدي أقرب إلى التجربة الجمالية منه إلى الانصات العقلاني النقدي لتحولات اللحظة الذاتية وسياقات التواصل الحديث.

بهذا يلاحظ هابرماس بأن إبراز قيم مثل الاشراق والنشوة المُفْتَتِنَة وحرمة الجسد واكتمال الرغبة والحميمية الواقية.. الخ يخفي وراءه ـ أي إبراز هذه القيم ـ تفاوتا واضحا بين الأسس المعيارية المعلن عنها وتلك التي تبقى مخفية، وهذا التفاوت يمكن تفسيره بالرفض اللاجدلي للذاتية. ومن ثم فإنه بهذا المبدإ للحداثة «فإننا لا نرفض النتائج الباثرة لعلاقة مُسْقَطَة على الذات، فقط، ولكننا نرفض كذلك المفهومات الاخرى التي كانت الذاتية مُحَمَّلة بها فيما قبل باعتبارها وعدا لم يوف به بعد. أي باعتبارها أفقا لممارسة واعية بذاتها حيث يتطابق التحديد الذاتي التضامني مع التحقيق الذاتي لكل فرد»[3].

هناك ضعف آخر يميز الخطاب الفلسفي الرافض للاشكال الحديثة للحياة، يتمثل في أنه إذا كانت أشكال النقد كما تمت صياغتها من طرف هيغل وماركس، ماكس فيبر ولوكاتش.. الخ كل حسب موقعه وسياقه السياسي والمعرفي العام، تُميز في عمليات العقلنة الاجتماعية بين المظاهر الحاملة للتحرر وللتوافق من جهة وبين المظاهر القمعية

(1) Ibid, P. 397.
(2) Ibid, P. 398.
(3) Ibid, P. 399.

التهـديمية والمسيرة للتقسيم من جهـة ثـانية، فـان «النقـد التهديمي» يخلط بين المفـاهيم والمستويات بشكل مثير للانتباه مثل «العقل المحـرر والاستخدام، الوعي واللاوعي، قوى الانتاج وقوى الهدم، التحقق الذاتي التعبيري والطـابع القمعي لعدم التصعيد، التأثيرات الضـامنة للحـريـة وتلك التي تحرمنـا منها، الحقيقـة والايـديـولوجيـا»[1]. ولـذلك فـان الاختلافات والتعارضات أصبحت ملغومة إن لم نقل منهارة لدرجة أنه في المشهد السطحي والبـاهت لعـالم خاضع كلـه لادارة يقظـة، وللسلطـة، فإن النقـد لم يعد قـادرا على تمييـز التناقضـات والاختلافـات والفروق. «لا شك أن نظـرية أدورنـو في العالم المنظـم إداريا، والنظرية الفوكاويـة للسلطة نظريتان غنيتان، بل إنهما أكثر تنويرا مـن اجتهادات هايدغر وديريدا المرتبطة بالتقنية بوصفها تشكُّلا مُرَكَّبا، أو بالجوهر التوتاليتاري للسياسة. ولكن ما يقربهم كلهم هـو أنهم لا يدركـون المضمون المتنـاقض للحداثـة الثقافيـة والإجتماعية»[2]، إضافة إلى أنهم لا يفرقون بين حياة الناس في المجتمع الحديث وحياتهم في مجتمعات ما قبل الحداثة، سواء على صعيـد العمل اليدوي أو شروط العيش أو امكانيـات الاختيار الفردي أو على مستوى المشاركة السياسية وضمان الحقوق والتكوين المدرسي والثقافي.

ثم إن التمايـز الـذي خلقتـه حـركـة الحداثـة على صعيـد مجالات القيم العلميـة والاخلاقيـة والفنية يعتبر، عند هـؤلاء الفلاسفة، تجسيـدا لعقل يغتصب قوة الفن بـوصفه انفتاحا شعريـا على العالم. فالحداثة الثقافية هي في حقيقتها سيادة للـرعب تتميز بمظاهر توتاليتارية لعقل متمركز حول الذات.

ويـرى هابـرماس أنـه لكي يبين المرء أن هـذا النمط من الأسلوب في ممـارسة نقـد العقل، يفتقر إلى القدرة على التمييز بين المستويات والمجالات، فإنه لابد من تقديم شروح تخضع تحديـدات معيـارية، حيث إن هـذا «المضمـون المعيـاري يمكن أن يستنتج ويبرر انطلاقا من الامكان العقلاني الملازم للممارسة اليومية»[3] فمفهوم العقل التواصلي مطالب، بناء على ذلك، بتجاوز العقل المتمركز حول الذات، كما أن له دور التغلب على تناقضات وتبسيطات النقد الذي يتخذ من ذاته مرجعـه الوحيد في مواجهته للعقل. ذلك أن فلسفة الممارسة بما تعنيه من انفصـال عن محورية الذات ونقد للعقل تستمـد مضامين الحداثة من عقل مجسـد في العمليـة التـوسطيـة للممارسـة الاجتماعيـة. غير أنـه إذا أردنـا تغيير البنيـة

---

(1) Ibid, P. 399.
(2) Ibid, PP. 399-400.
(3) Ibid, P. 402.

المفـاهيمية لكل ذلك فإنـه يتعين الانتقال مـن مقولـة العمل الاجتماعي الذي تنطلق منـه فلسفة الممارسة إلى مقولة النشاط التواصلي.

فإنتـاج العالم المعيش يتغـذى من عطاءات النشـاط التواصلي الـذي يتوقف، هـو بدوره، على الموارد التي يمنحها له العـالم المعيش. لكن «الفرق بين العالم المعيش والنشاط التواصلي لا يُلْغَى بالرجوع إلى الـوحدة، بل إنه، على العكس من ذلك، يتعمق لأن إعادة إنتاج العالم المعيش لا تكتفي بالانتقال من خلال وساطة النشاط الموجه نحو التفاهم ولأن الفاعلين أنفسهم مطالبون بالقيام بمجهود التأويل»[1].

وحين يتحدث هـابرمـاس عن مكونـات العالم المعيش فـإنه يقصد بـذلك الثقـافة والمجتمع والشخص البشري، باعتبار أنه يسمى «الثقافـة تلك المعرفة المهيأة والجاهزة التي تستمـد منها الـذوات الفـاعلة في النشـاط التـواصلي، التأويلات ذات الطـابع الاجماعي فرضيـا، وذلك بالبحث عن التفـاهم حول شيء معين مـوجود في العـالم. وأسمي مجتمعا (بالمعنى الضيق لتركيبة من تركيبات العالم المعيش) تلك الانظمة المشروعة التي تستمد منها ذوات النشاط التواصلي، التضامن المؤسس على الانتماءات الجماعيـة المنتجة لعلاقات بين الناس. في حين أن الشخصيـة Personnalité وهو هنـا، لفظ تقني، يعني الامكـانات التي بفضلها تكتسب ذات ما قدراتها على الكلام والفعل وبالتالي على المشاركة في عمليات التفاهم بين الذوات داخل سيـاق يختلف في كل مرة»[2]. إن الأمر يتعلق بإمكـان أن يتوفر للذات القدرة على إثبات هويتها داخل سياقات التفاعل المختلفة.

ويلاحظ هـابرماس أن هذه «الاستراتيجيـة المفهومية» تقطع مع التصـور التقليدي الذي ما زالت كل من فلسفـة الذات وفلسفة العمل تحافظ عليه وتـدافع عنه، على اعتبار أن المجتمعات في نظـرها تتألف من جماعات وهـذه الجماعات تتكون بدورهـا، من أفراد. فالافراد والجماعات هم بالمعنى المجازي أعضاء في العالم المعيش.

إن مفهـوم العـالم المعيش عند هـابـرمـاس مفهـوم أساسي في بنـائه النظـري حيث خصص له نصوصا عـديدة لا سيما في علاقة هذا العالم بـالنسق. وواضح من التعريفات التي يعطيهـا للثقافـة وللمجتمع والشخص، أي العناصر المكـونة للعـالم المعيش، يؤطـر هابـرماس، باستمـرار، النشاط التواصلي داخـل السياقات المختلفـة التي تنتجها مجالات العالم المعيش. «إذ تكـون الأنوية البنيـوية للعـالم المعيش ممكنة من خلال عمليـات إعادة

---

(1) Ibid, P. 404.
(2) Ibid, P. 405.

الانتاج المناسب الموظفة من طرف النشاط التواصلي»[1]. لأن إعادة الانتاج الثقافي تضمن إمكانيـة ربط الأوضاع الجديدة بـالشروط الموجودة في العالم، كما تضمن استمـرارية التراث وانسجام المعرفـة التي تفترضها حاجات التفاهم بين الذوات التي تقيمهـا وتخلقها الممارسة اليومية. في حين أن الادماج الاجتماعي يضمن، من جهة، إمكانية ربط الأوضاع الجديدة (في أبعادهـا المرتبطة بـالمجال الاجتماعي) بـالشروط الموجودة في العالم. إنـه يضمن تنسيق الممارسات من خـلال علاقـات الأفراد فيما بينهم منظمة بطـريقة مشروعـة، كما أنه يضمن استمرار هوية الجماعات. أما ما يسميه هابرماس بالتنشئة Socialisation التي يخضع لها الافراد فـإنها تضمن إمكانيـة ربط الاوضاع الجديـدة (في بعدها المتعلـق بالزمـن التاريخي) بالشروط الموجودة في العالم. إنها تضمن اكتساب مهارات عملية عامة للاجيال المقبلة، كما تراعي انسجام الحالات الذاتية بأشكال الحياة الجماعية. وفي داخل هذه «العمليات الثلاثة لاعادة الانتاج تتجدد بنيات التأويل الحاملة للاجماع (أو لـ «المعرفة الصادقة») والعلاقات بين الاشخـاص المنظمـة بشكل مشروع (أو «التضـامن») وكـذا إمكـانـات التفـاعل (أو «الهويات الشخصية»)»[2].

إن البنيات العامة للعالم المعيش تتغـاضى عن المظاهر، التي تبرز في كل مرة بشكل مختلف، والتي تقدمها كليات العوالم المعيشة. فعلى المستـوى الثقافي تنفصل أنوية التقاليد الضامنـة للهوية عن المضامين الملمـوسة التي كانت تـرتبط بها فيما سبق داخل التصورات الاسطورية للعالم. بل إن هذه الانوية تختزل إلى عناصر مجردة تتمثل في الافتراضات المسبقة للتواصل، وإجراءات البرهنـة والقيم الأساسية المجردة.. الخ». أمـا على صعيد المجتمع فاننـا نلاحظ تبلور مبادىء عـامة انطلاقـا من سياقات خـاصة كانت ترتبط بها سـابقا في المجتمعات البدائية. غير أنه في المجتمعات الحديثة تستطيع مجموعة من المبادىء القانونية والاخلاقية فرض نفسها وتتغلغل داخل مختلف أشكال الحياة الخاصة أو المنغلقة. في حين أنه على صعيـد الشخصية فالبنيـات المعرفية المكتسبـة طوال مـراحل التنشئة، تنفصل عن مضامين المعرفة الثقافية التي كانت تشكل كلا داخل الفكر العيني.

هكذا تحصل مـراجعة دائمـة لرمـوز التراث على صعيد الثقـافة بإنتـاج قيم مختلفة تتغايـر مع مقومات التقليـد، أما على مستوى المجتمع فإن الأنظمـة المشروعة لا يمكن أن تقوم أو تبرر معاييرها الا استنادا إلى المناقشة. فـالتواصل البرهاني هو الكفيل بوضع معايير

(1) Ibid, P. 406.
(2) Ibid, P. 406.

أو تبريرهـا أو تغييرها. وداخل هـذا الواقع الثقـافي والمعياري الجديـد ليس للشخصية أي سبيل الا بتأكيد هويتها كذات في مستوى الـدفاع عن كلامها وافعالها. ومن ثم فإن هناك «ضغوطا بنيوية تتطلب، في نفس الوقت، التحليـل النقدي للمعرفة المضمونة، وتأسيس قيم ومعايير معمقة، وفي الأخير، فردنة ذات تتحمل مسؤولية ذاتها على أساس أن الهويات الشخصية المجردة تحيل إلى نوع من تحقيق الذات»[1].

ويعتبر هابرماس أن الوعي بالـذات يعود، في هذه الحالة، في شكل ثقافة أضحت انعكاسيـة، وتحديد ذاتي يبرز من جديـد داخل القيم والمعايير المعممة، أمـا تحقيق الذات فانها تعاود الظهور في الفردنة المتقدمة للذوات الخاضعة لعملية التنشئة.

ويخلص هابرماس بعد هذا التحليل إلى القـول بأنه «في شروط نسيج، أكثر اتساعا وكثافـة في نفس الآن، للتداخل بين الـذوات الذي تـولده اللغـة، تُجرى وتُنْجَز الصيرورة التأملية للثقـافة وتُعَمَّم القيم والمعـايير، والفردنة المتنـامية للـذوات الاجتماعية، وفي نفس الوقت يتطـور فيه الـوعي النقدي والتكويـن المستقل للارادة والفردنـة تتقوى فيـه عناصر العقلنة التي كانت منسوبة سابقا إلى ممارسة الذوات. إن عقلنة العالم المعيش تعني التفريق والتكثيف في نفس الآن، أي عقلنة اللحظـة المتحركة التي تشكل نسيج الخيوط المتـداخلة بين الذوات، وذلك بجمع عناصر متمايزة دوما للثقافة والمجتمع والشخص»[2].

غير ان نمط إعادة إنتـاج العالم المعيش لا يتغير بشكل خطي في الاتجاه المشـار إليه بلغة الانعكاسية، الكونية المجردة والفـردنة. بل على العكس من ذلك تماما، اذ بالوسائل المتقطعة للنقـد يضمن العالم المعيش المعقلن استمـرارية المجموعـات المنسجمة للمعنى. «ففي الحقل الدلالي لا تكون الاستمـراريات معرضة للقطيعة في الـوقت الذي لا تنتقل فيه عملية إعـادة الانتاج الثقافي إلا من خلال النقـد. وفي العالم المعيش، المتمايز بنيـويا، فإن تطـور احتمالات وإمكـانات السلب الملازمـة للتفـاهم اللغـوي بين الذوات يغـدو شرطـا ضروريـا لكي تشكل النصوص استمـرارية ولكي يصبح ممكنـا إدامة التقـاليد ذات القـوة الاقنـاعية والتي تمثل شرطـا للبقاء. نفس الأمـر بـالنسبة للمجـال الاجتماعي، فإن نسيج التداخل الـذاتي المشكل من علاقات الاعتراف المتبادل لا يمكن أن يتعـرض للتمزق إذا لم يتمكن الاندمـاج الاجتماعي من الانتقال الا من خـلال كونيـة مجردة ومنحوتـة على قياس النزعة الفردية في نفس الآن»[3]. ومن حيث ان عمليات تكوين الارادة، من خلال المناقشة

(1) Ibid, P. 407.
(2) Ibid; P. 408.
(3) Ibid, P. 409.

والمواجهة والحوار وأساليب البرهنة القائمة في العالم المعيش، لها دور اجتماعي أساسي يتمثل في ضمان العلاقة الاجتماعية لكل شخص بالآخرين انطلاقا من أخذ مصالح كل واحد في الاعتبار وبشكل متساو، إذ بمشاركته في المناقشات، فالفرد الذي تكون له القدرة على الجواب بنعم أو بلا، بدون أن يحل شخصا آخر محله، لا يمكن أن يبقى مستقلا الا بشرط أن يمكث مندمجا في الجماعة الشاملة وذلك من خلال البحث التعاوني عن الحقيقة»[1].

هذه بعض الجوانب الفكرية لما يسميه هابرماس، أحيانا، بنظرية التداخل الذاتي بين الناس، وهذه الجوانب تساعد على فهم المعالجة النقدية للوعي كما تسهم في تقوية استمرارية التقليد المجرد من كل عفوية طبيعية، بل وتسعف على فهم الاسباب التي تجعل الاجراءات المجردة والكونية لتكوين الارادة من خلال المناقشة، المفتقدة لكل مشروعية تقليدية، تتقوى ــ أي هذه الاجراءات ـ أكثر، فضلا عن أن الهوامش المعطاة للفردنة ولعملية تحقيق الذات تسهم في جعل سيرورة التنشئة المتحررة من النماذج الجامدة التي خضعت لها في السابق، أكثر اتساعا وكثافة .

يتعلق الأمر، عند هابرماس، بتحرير مستمر للامكان العقلاني الذي يختزنه النشاط التواصلي شريطة أن لا تخضع عملية التحرير هذه لأسلوب من النظر يطابق، بشكل كبير، التأمل الذاتي، أو بالأحرى أن يكون هذا النظر في التحرير كتأمل ذاتي.

وحينما يؤكد هابرماس على هذه النتيجة فانه يقوم بذلك من منطلق الوعي بحدود أي نظرية للمجتمع تقتصر على نظرية التواصل، لأن مفهوم العالم المعيش، في مكوناته المختلفة يتقدم في الأفق المفهومي للفاعلية الموجهة نحو التفاهم بين الذوات، لذلك يقترح تطور المجتمعات الحديثة، في نفس الآن، بوصفها أنظمة وعوالم معيشة، على أساس أن العالم المعيش يتقدم من خلال «مجموعة من نماذج التأويل منقولة بواسطة الثقافة ومنظمة في اللغة»[2] ومن ثم يبرر العالم المعيش باعتباره السياق الذي يشكل أفق عمليات التفاهم بين الذوات. وفي نفس الوقت الذي يحد فيه مجال التوافق لوضعية معينة، فإن هذا الأفق يبقى منفلتا من الصياغة الموضوعية داخل هذه الوضعية نفسها. المهم أن الطابع الوظيفي للتفاهم بين الذوات للفاعلية التواصلية يبرز عندما يتم نقل أو تحديد المعرفة الثقافية، أما من زاوية خاصيته في تنسيق الممارسة، فانه يُسْتعمل لإقامة ودمج مختلف اشكال التضمن

(1) Ibid, P. 409.
(1) Habermas (J) : "Théorie de............", T2, op. cit. P. 137.

في النسيج الاجتماعي، في حين أنه من زاوية دور التنشئة فان الفاعلية التواصلية تستخدم لتكوين الهويات الفردية.

إن البنيات الرمزية للعالم المعيش يعاد إنتاجها بفضل الاستعمال المتواصل للمعرفة الصادقة، وبفضل استقرار الجماعة وبتكوين فاعلين قادرين على الكلام والفعل وتحمل مسؤولياتهم. هذه العمليات التي يحصل فيها إعادة الانتاج الثقافي والاندماج الاجتماعي والتنشئة بوصفها مكونات بنيوية للعالم المعيش هي ما أسماها هابرماس، وكما رأينا ذلك سابقا، بالثقافة والمجتمع والشخص.

ولعل ما يجمع الافراد المنتمين لعالم معيش بعينه يتمثل في نسيج الافعال التواصلية التي لا تحقق غاياتها الا استنادا إلى تقاليد ثقافية، لأن العالم المعيش يبنى بواسطة أفراد ينطلقون من تقاليد ثقافية مشتركة. وهذا العالم يجذب إليه، من خلال آلياته، مجموع العمليات التي تنجز اعتمادا على التأويل التعاوني الجماعي.

يعتبر هابرماس بأن بنية التواصل في مجالات العمل الدنيوية تتميز بكون الأفعال التواصلية تنفصل، بشكل واضح، عن السياقات المعيارية وتتمركز، بقوة، في مجالات الاحتمال والامكان المتزايد، هذا من جهة. ومن جهة أخرى فإن أشكال البرهنة تتمايز حسب اختلاف المؤسسات، باعتبار أن الخطابات النظرية تكون في المؤسسات العلمية، والخطابات الأخلاقية العملية في الحياة السياسية والنظام التشريعي، وأخيرا النقد الجمالي في العالم الفني والأدبي. وهذا ما يسميه هابرماس بـ «الشكل الحديث للتفاهم بين الذوات»[1].

إن هابرماس يعرف أنه يبحث عن المضمون المعياري للحداثة داخل عالم تتجاذبه نوعان من إرادة القوة: إرادة التحرر والنزوع نحو السعادة، وإرادة السلطة والانتاج. وهذا التنابذ الموجود بين هذين الارادتين يميز الحداثة منذ أكثر من قرنين. وهو حين يؤكد على الاجماع والمرجعية المعيارية والتفاهم بين الذوات وتمييز مجالات القيم وتحديث العقلنة من أجل عقلنة التحديث، يعني ـ أي هابرماس ـ أن مقاربته للحداثة لها بعد مثالي واضح معتبرا أن «المقاربة التي وظفتها نظرية التواصل لا تظهر أنها قادرة على المحافظة على المضمون المعياري للحداثة إلا لصالح مجموعة من التجريدات من النوع المثالي»[2].

(1) Habermas (J) : "Le discours philosophique.......", op. cit, P. 412.
(2) Ibid, P. 413.

وهو بالرغم من اعترافه بهذا البعد المثالي لمقاربته، يسعى مع ذلك، إلى الابتعاد عن توريط نظرية العقل التواصلي في متاهـات تجريدية وفي أوصاف العالم المعيش المعقلن بدون الأخـذ بعين الاعتبار ضغـوط الانتاج وإعـادة الانتاج المادي في المجتمع الحديث. بل إنـه يذهب إلى القول بـأن نظرية التواصل يمكن أن تساهم في تفسير الكيفيـة التي يتشابك بها اقتصاد السوق، في سياق الحداثة، مع الدولة بوصفها احتكارا للقوة، والكيفية التي تخرج هـذه القوة من العـالم المعيش لتصير مُكوّنـا لاجتماع بدون معـايير، يتعارض مع متطلبـات العقل الملازمة للعالم المعيش، ويفرض متطلباتها ومقاييسها لتأمين المحافظة على النظام.

ويلاحظ هابرماس أنه مهما كانت درجة التمايز البنيوي للعوالم المعيشة وكيفما كانت مستويات تخصـص الانظمة الفرعية التي تنمـو وتتطور لصالح المجالات الـوظيفية لاعادة الانتاج الثقافي والانـدماج الاجتماعي والتنشئة، فإن تعَقُّد كل عـالم معيش، محدود للغاية بسبب آلية التفاهم بين الذوات التي لا تتحمل إلا أعباء ضعيفة. ومن تم إذا كانت العوالم المعيشة لا تمتلك إلا وسائل قليلة لضمان التنسيق والتفـاهم بين الذوات فإنه من الضروري إدخال وسـائل متخصصة محل اللغة العـادية. ولذلك فـانه «في الوقت الـذي يتعقلن فيه العالم المعيش فان الذوات الفاعلة في النشـاط التواصلي مضطرة لبذل جهود إضافية لضمان الاتفاق والتفاهم»[1].

إن هابـرماس يـؤكد على التفـاهم والاتفاق والتـواصل والاجماع، وتمشيا مـع فهمه المعياري للحداثة، باعتبار أن العـالم الحديث، بمختلف عوالمه المعيشة، يحتاج إلى أخلاق تواصليـة بهدف خلق شروط معيارية للاتفـاق على الحقيقة المبرهن عليها دوما، والمتحـولة على الدوام. على أسـاس أن ادعاء الحقيقـة يفترض، إضافة إلى عـامل البرهنة، نـوعا من التنظيم المؤسسي للمنـاقشة العمـومية، إذ لا شيء يُطـرح أو يُقترح أو يُقصى بدون تبريـر عقلاني، لأن نظـرية الفاعلية التـواصلية تؤكـد على العلاقة العضويـة بين مختلف أشكال الممارسة وفعل العقلنة.

ولـذلك فإن المنطق الحديث حسب هـابـرماس يـرفض كل إجماع معطى سلفـا أو مؤسسـا على سلطة تحيل دوما إلى التراث، ويفترض تـدخلات برهـانية عقلانيـة في سياق تواصلي عمومي، ينبذ المسبقات ويشجع على إبراز تشكيلات خطابية للارادة.

---

(1) Ibid, P. 413.

وبذلك فان هابرماس يتعارض، تماما، مع فلاسفة ما بعد الحداثة الذين ينعتهم بأنهم يمثلون نوعا من النزعة الفوضية ذات العمق المحافظ. فالاحتجاج على الحداثة مطلب مُكَوِّن للحداثة نفسها، ولكن رفضها مطلقا أو نفيها إنما يعبر عن نفي للذات، فضلا عن أن هذا النفي ليست له أية قيمة معيارية.

تفاهم، تواصل، إجماع، تشكيل خطابي للارادة، مناقشة عمومية.. الخ مصطلحات يريد هابرماس أن تكون ملازمة للاخلاق التواصلية وللمضمون المعياري للحداثة، هل معنى هذا أن مشروعه يستند إلى خلفية سياسية ؟ وكيف ينظر هابرماس إلى عملية التحديث في المجال السياسي ؟

5. الحداثة السياسية من المنظور التواصلي

إذا كانت الحداثة تبتعد في جوهرها عما هو تقليد وإعادة إنتاج لقيم الماضي، وتتضمن في عملياتها وحركاتها احتمالات الأزمة وإمكانات تخطيها في نفس الآن، ثم إذا كانت الحداثة قد بشرت بالفرد وبنت أكثر مقوماتها وعلاماتها على فضاء المدينة، وأعطت للجسد الانساني، ولا سيما النسوي، إمكانيات لا حصر لها للتعبير عن رغباته وللاستجابة لانتظاراته ـ حتى ولو أنها قامت بشكل متساوق، بتنظيم قنوات التعبير عن الرغبات وترتيب الفضاءات لتوفير اقتصاد إنساني يخدم، في الأول والأخير، آليات الانتاج المادي واستمرارية توازن النظام ـ. اذا كانت الحداثة كل ذلك، وأشياء أخرى كثيرة، فإنها مع ذلك تنفلت من كل إرادة للتحديد وتبقى انفتاحا لأكثر من اجتهاد ولأكثر من تدخل نظري.

وقد تبين مما سبق أن هابرماس حاول، في سياق حديثه عن بناء نظري للحداثة، القيام بقراءة نقدية تأويلية للتراث الفلسفي المثالي الذي دشن التفكير في الحداثة داخل الاطر الفكرية لفلسفة الوعي. وأخضع نظريات فيبر وماركس ولوكاتش والنظرية النقدية، لعملية إعادة بناء مفاهيمية دفعته إلى القول بضرورة عقلنة التحديث وتحديث العقلنة، ثم انخرط في مرحلة تالية في سجال فلسفي وسياسي مع بعض مفكري ما بعد الحداثة للكشف عن الأسس الفلسفية لمواقفهم والأبعاد السياسية المحافظة في تعبيراتها الفوضوية لآرائهم في الحداثة ومنطق السلطة والهامش.. الخ وذلك كله لكي ينتهي ـ أي هابرماس ـ إلى التأكيد على ما يسميه بـ «المضمون المعياري للحداثة».

ويبدو أن فكر هابرماس تسكنه خلفية سياسية واضحة، حاولنا الاقتراب منها في الفصل الثاني من القسم الأول من هذا البحث، ونريد، هنا أن نتناول، بدقة أكبر، ملامح هذه الخلفية. ذلك أن أي فكر يسائل الحداثة فهو، في عمقه، يسائل السلطة، ومنذ فلسفة الانوار بادماجها عاملي العقل والنقد في النظر إلى الأشياء والتجارب والزمن والفكر، ومنذ شعاراتها الأساسية المتمثلة في الحرية والمساواة والعدالة والاخاء. . الخ والفكر الغربي يسكنه هم سياسي يصعب التمييز بينهما. وبمعنى آخر أن الحداثة والسياسة متلازمان بتلازم التحديث بالعقلنة وارتباط هذين المستويين بالتجسيد العملي من خلال مؤسسات الدولة الحديثة.

«إن الحداثة تقلق وتغري»[1] في نفس الآن كما يقول «جورج بلانديي». وإذا كان الأمر كذلك بالنسبة للحداثة فان نفس الموقف المتوتر والمتناقض يمكن أن ينطبق على آليات السلطة ومجالات السياسة، ثم إن «الحداثة من خلال حركتها نفسها وشكوكها والمشاكل التي تتربت عنها تؤدي إلى تساؤل أكثر نقدية (أو أكثر شكا) لما هو سياسي»[2] لذلك فان هناك علاقة إشكالية دائمة التوتر بين الحداثة، بكل ما تتضمنه من ميل مستمر نحو الجديد وإعادة النظر في المألوف، وبين السلطة السياسية التي تعمل دوما على خلق شروط التوازن لضمان استمرارية النظام.

ويمكن أن نلاحظ أن هابرماس، منذ كتابه الأول حول «جوانب فلسفية وسياسية» إلى آخر نص نشر له بالفرنسية عن «المفهوم المعياري للمجال العمومي» وهو منشغل بأسئلة السياسة*، سواء بطريقة مباشرة أو من خلال أبحاثه الفكرية والفلسفية، أي ان هابرماس جعل من المسألة السياسية موضوعا حاضرا، باستمرار، في أغلب كتاباته ومواقفه.

وقد سبق أن أشرنا إلى أن هذا المفكر انشغل بالهم السياسي بسبب «الصدمة» الوجودية والرمزية التي مثلتها، وما تزال، التجربة النازية في ألمانيا أولا، وبسبب الانتفاضات المختلفة التي قام بها الطلبة في الستينات ثانيا، فضلا عن اهتمامه المبدئي والفلسفي بنظرية فيبر حول مجالات القيم وعملية عقلنة المجتمع الحديث.

(1) Balandier (G) : "Le détour ; Pouvoir et modernité", op. cit, P. 15.

(2) Ibid, P. 14.

* وتجدر الإشارة إلى أن هابرماس منذ الخمسينات إلى الآن لم يتوقف عن التدخل في المناقشات السياسية الألمانية، كان آخرها السجال الذي برز حول كتابة التاريخ الألماني المعاصر وموقف الظاهرة النازية في الوعي الألماني، إضافة إلى أن له تجربة صحافية متميزة من خلال المقالات أو مراجعة كتب أو التحقيقات.

ويبدو انه بمجرد الانتباه إلى القاموس اللغوي والمفاهيمي الذي يستعمله هابرماس، نلاحظ إلى أي حد يبرز انشغاله بالسياسة وبالنظرية السياسية. فمصطلحات مثل الايديولوجيا وتسييس العلم أو علمنة السياسة، والنقد والسيطرة وسلطة التراث والتحرر والمؤسسة والقانون والمشروعية والديمقراطية والمجال العمومي والاخلاق والجماعة والحوار. . الخ كلها مصطلحات لا يمكن أن نحصرها في الحقل السياسي ولكن هابرماس استعملها ونظر لها من زاوية الفلسفة السياسية المتطلعة الى بناء نظرية للحداثة ذات مضمون معياري وسياسي.

ولذلك فان مشروع الحداثة الغربية، عند هابرماس، منذ عصر الأنوار إلى الآن، ارتبط بمسألة التنظيم المؤسسي للمجتمع وبموقع الدولة الحديثة في عملية التنظيم والعقلنة والتحديث. وما دامت الدولة أصبحت تستند إلى معايير عملية في تسيير شؤونها، وأضحى العلم، أيضا، خاضعا للاستراتيجية السياسية للدولة، فان هذه العلاقة تطرح قضايا فكرية واجتماعية على صعيد العالم المعيش وعلى مستوى مختلف مجالات القيم. ذلك أن العلاقة بين التقدم التقني، مثلا، بالعالم المعيش الاجتماعي وترجمة المعارف العلمية على صعيد الممارسة العلمية لا تتمثل في قضية التكوين الخاص للفرد أو بثقافته الخاصة، لأن الأمر يتعلق بتكوين الارادة السياسية داخل مجتمع يجعل من التقنية سلطة لعقلنة مفاصله وأنظمته ومن الديمقراطية إطاره السياسي، باعتبار أن الديمقراطية هي «الأشكال المؤسسية الضامنة لتواصل كوني وعمومي مكرس للسؤال العلمي المتمثل في الكيفية التي يمكن للناس أو يريدون العيش جماعيا في إطار الشروط الموضوعية المحددة من طرف السلطة المتزايدة ،التي يمتلكون ،في السيطرة على الأشياء»[1] هنا تطرح العلاقة الوثيقة بين العلم والتقنية والسياسة، بمعنى آخر، كيف يمكن للقدرة التي يمتلكها الانسان في تحكمه تقنيا في الأشياء، ان تدمج داخل سياق من الممارسات والمفاوضات بين المواطنين لخلق اجماع بينهم ؟

ويرى هابرماس أن العلاقة بين التقدم التقني والعلم باعتبارهما قوى منتجة وإيديولوجيا في نفس الآن، وبين الديمقراطية، لا يمكن أن يستوعبا إلا اعتمادا على وعي سياسي وفكري حاد يعمل على الكشف عن «لا عقلانية السيطرة» وتجاوزها اعتمادا على «تكوين إرادة سياسية مرتبطة بمبدإ المناقشة العامة، ومجردة من كل سيطرة»[2] ومن ثم فإنه

(1) Habermas (J) : "La technique et la science comme idéologie", op. cit, PP. 88-89.
(2) Ibid, P. 96.

لا يمكن تصور «عقلنة للسيطرة» إلا في وضع تنمو وتتطور فيه القدرة السياسية على فكر مرتبط بالحوار.

غير أن كل فكر أو معرفة هو فكر يتدخل ضمن سياق علمي محدد ويخدم مصالح بعينها . بل إن النظر إلى الواقع لا يمكن أن يحصل إلا من ثلاث زوايا من النظر، عند هابرماس، تحدد ثلاث مجالات ممكنة للمعرفة، وهي أولا المعلومات التي تُمَدِّد سلطتنا التقنية للتحكم في الأشياء، ثانيا، التأويلات، وهي تساعد توجيه العمل في إطار التقاليد المشتركة، وثالثا، التحليلات التي تفصل الوعي عن تبعيته لمجموعة من القوى الجامدة. إن وجهات النظر هذه «موجهة من خلال مجموعة معقدة من المصالح من النوع الذي يخضع لبعض الاوساط المتعلقة بالتنشئة، أي العمل، اللغة والسيطرة»[1] أي أن المصالح الموجهة للمعرفة تتشكل داخل أوساط العمل واللغة والسيطرة، باعتبار أن العلاقة بين المعرفة والمصلحة تختلف من مجال إلى آخر بما فيها المعرفة الفلسفية التي تدخل ضمن ما يسميه هابرماس بـ«المصلحة التحررية».

فالخطاب الفلسفي نفسه متورط في المصلحة وبالتالي فهو ملتزم، بشكل من الأشكال، بمعنى أن اليقين الشخصي يمكنه أن يتحول إلى حقيقة عامة. لا سيما حين تنخرط الأنا في محاولة لتجاوز إطارها المحدود والدخول في «نحن» تمثل نوعا من «التفاهم السياسي بين أشكال الوعي».

ومع ذلك فان الواقع يؤول حسب مجالات المعرفة وبالتالي حسب المصالح المتعددة التي تحرك الممارسة النظرية. بمعنى آخر ان المجال المعرفي التحليلي الذي تقابله مصلحة تقنية والمجال المعرفي التأويلي الذي تحركه مصلحة عملية والمجال المعرفي النقدي الذي تحفزه مصلحة تحررية، كل هذه المجالات تنظر إلى الواقع من زاوية خاصة. لذلك وبالرغم من التفاهم أو الاتفاق الذي من المفترض أن يحصل داخل سياق تواصلي ديمقراطي، فان اختلاف المجالات والمصالح يمكن أن يؤدي بإحدى المعارف أو المصالح إلى الهيمنة على هذا السياق مما يولد الصراع والمواجهة على الصعيد السياسي.

غير أن احتمال الهيمنة داخل مجتمع معقلن يمكن تجنبه، في نظر هابرماس، باحترام معايير محددة تسترشد بما يسميه بـ«أخلاق التواصل» لأنها تقدم وجهة نظر نقدية لمختلف وجهات النظر المعرفية للسياسة. وهكذا فإنه «بالنسبة للتحليلي فان التأويلي لا يرقى إلى

(1) Ibid, PP. 154-155.

مستوى الموضـوعية العلميـة، وإلى «عالم الـواقع» القـابلة للتفسير وللمـلاحظة. وبـالنسبة للتأويلي، فـان العلمـي لا يصل إلى البُعـد مـا قبـل العلمي لتـاريخه الخاص، وإلى «مجال المعنى» القابل للمساءلة وللتأويل. أما بـالنسبة للجدلي، أخيرا، فان المقاربتين السابقتين جـد أحـاديتين، في حين أن مقـاربتـه الخاصـة تقترح «تـركيبـا» كما يقـوم بـذلك التحليل النفسي، بين «تفهم» بنيـة رمزيـة و«تفسير عملية سببيـة»[1] وبمعنى آخـر أن كل مقاربـة تعتبر أنها أكثر مشروعيـة من الأخرى، ومن هنا يتحول صراع التأويـلات إلى نوع من صراع الادعاءات حين يعمل كل اتجاه أو مجال أو مقـاربة على إضفاء طابع الاطـلاقية على وجهة نظرها وتقييماتها.

في هذه الحالة تتدخل أخلاق التواصل لتأسيس وجهة نظر نقدية لا تعطي الاهمية، فقط، للمنطلقات المنهجية أو للمنطق المحرك للموقف المعرفي بل تهتم كذلك بالصيرورة الايديـولوجية، أي أن هـذه الاخلاق تعترف لكل مجال بقدرتـه على التبرير والتفسير داخل حدود مجالـه الخاص، بدون أن تسمح له بادعـاء التعميم انطلاقا من المقدمـات والنتائج والأحكام التي تنتجها ممارسته المعرفية على موضوعاته الخاصة. وهابرماس يدعي أن نظرية «التداوليات الكونية» يمكن أن تقدم عناصر هذه الـوجهة من النظر باعتبار أنها تكون نوعا من «الوضعيـة المثاليـة للكلام» وللتواصل يمكـن أن يحصل داخلها الاعتراف المؤسس على ادعـاءات الصدق والقـادرة على البرهنة على مـواقفها داخل سيـاق تواصلي محدد. وهـذه التـداوليـات الكونيـة «هي التي تقـدم، حقيقـة، المدخل إلى فكـرة مشروعية ديمقـراطيـة معينة»[2].

الاخلاق التـواصلية، عند هابـرماس، إذن من خلال «التداوليـات الكلية»، هي التي تخلق إطـارا عقـلانيـا للتفـاهم بين مختلف مجالات المعـرفـة وللتفـاوض بين المصـالح المتعددة، وذلك كلـه بالتأكيد على العـلاقة الضرورية بين العقـلانية السياسيـة والمشروعية الديمقراطية، والتساؤل الدائم عن شروط الاتفـاق بين ما هو ضروري عمليا وما هو ممكن مـوضـوعيا. ويبـدو أن هـذه المعـادلـة هي التي تشكل الهم المركـزي لما هو سيـاسي عنـد هابرماس ضمن تصوره العام للمفهوم المعياري للمجال العمومي.

إن هـابـرماس، وكما رأينـا ذلك بخصـوص فهمـه للعقلنـة في عـلاقتها بـالبرهنـة وبالمعايير المختلفة بـاختلاف المجالات والسياقات، يعتبر أن المجال العمـومي يتدخل فيه

(1) Ferry (J-M) : "Habermas ; L'ethique de la communication", op. cit, P. 43.
(2) Ibid, P. 45.

أشخـاص قـادرون على الكلام وعلى الفعـل وفي مستطاعهم الابتعـاد أكثـر مـا يمكن عن أوهامهم واتبـاع معيار محدد شريطة أن يكونـوا في مستوى الدفاع عنـه وتبريره. وهو حينما يـؤكـد على المجـال العمومي والقـدرة على الكـلام والفعل فهـو يـربط ذلك بتصـور محدد للممارسـة داخل العـالم أو العـالم المعيش وعـلاقـة كل ذلك بـالنظـام وبمعـايير العقلنـة والتحديث والمشروعية الديمقراطية.

إن مفهوم العالم عنـد هابرماس لا يـريد أن يحدد ضمن منظور انطولـوجي، وبدل ذلك يختـار ما يسميـه بنظـرية التكـوين Théorie de la constitution وتبني ثنـائية العالم/ العالم المعيش، إذ أن «الـذوات التي خضعت لعملية تنشئة هي التي تطبق، بشكل ضمني، مفهوم العـالم، حينما تشارك في مجهودات تعـاونية للتأويل»[1] وهكذا فإن التراث الثقافي يضمن مجموعـة من الادوار حسب الوظيفة التي يقوم بها هـذا التراث، والمتمثلة إما في اعتباره رصيدا ثقافيا للمعرفة يستمـد منه المشاركون في التفاعل تأويلاتهم، أو في وصفه موضوعا للعمل الثقافي؛ «بالنسبة للحالـة الأولى فإن التراث الثقافي له صفة تكوينية للعالم المعيش الـذي يجده الفرد مـؤولا بشكل مسبق. وهذا العـالم المعيش المتقاسم بين الـذوات يشكل خلفية النشاط التواصلي»[2] أما بالنسبة «للحالة الثانية فإن بعض المكونات الخاصة للتراث الثقافي نفسه تصـاغ في شكل موضوعات، وعلى المشاركين أن يتبنوا مـوقفا تأمليا في مواجهة النماذج الثقافية التي عـادة ما تساعدهم، فقط، على تحقيق تأويلاتهم»[3]. المهم أن مختلف العوالم تشكل في مجموعها نسقا مرجعيا يفترض أنه مشترك في عمليات التواصل. ومن خلال هذا النسق يقوم المشاركون بخلـق اتفاق، بالتفاهم حول شيء معين، بدون أن يعني ذلك أن ما يرجع إليه هؤلاء المشـاركون متوقف على شيء جرى أو يمكن أو يحصل في العالم الموضوعي، ولكنهم يمكن أن يتفقوا على أشياء في العالم الاجتماعي وحتى بخصوص العالم الذاتي.

أما بـالنسبة للعمل ولمستويـات الفاعلية البشرية في العـالم، فان هابـرماس يقسم مفاهيم العمل كما تنـاولتها نظريـات العلوم الاجتماعيـة إلى أربعة مفاهيم أسـاسية، يجب التمييز بينها على صعيد التحليل. هناك أولا مفهوم «الفـاعلية الغائية»، أي أن الفاعل في هذه الحالة يحقق هـدفا أو يخلق حالة يمكن تحقيقها باستعمال أو اختيـار الوسائل الملائمة داخل وضعيـة معينة، والتي يـراها مؤهلـة لكي تضمن لـه النجاح. و«هذا النمـوذج من

(1) Habermas (J) : "Théorie de ....", T1, op. cit, P. 98.
(2) Ibid ? P. 98.
(3) Ibid, P. 98.

العمل عادة مـا يؤول في معنى نفعي»[1] ثانيا، «مفهوم الفاعليـة المنظم بواسطة معايير»، ويهم مجموعة اجتماعيـة توجه عملها حسب قيم مشتركـة، على اعتبار أن المعايير تعبر عن اتفـاق موجـود بين أعضاء الجماعـة، أي أن المعيـار الجمـاعي يغـدو هـو المرجع الحاسم للقيام بعمـل معين أو بتركه». والمفهـوم المركزي للامتثـال إلى معيار يعنـي أن انتظارا عـاما للسلوك قد توفر»[2] ثالثا، مفهوم «الفاعلية المسرحية» وهو مفهوم لا يهم، في البدء، الفاعل ولا أعضاء جماعة معينة، وانما المشـاركين في تفاعل يشكلون من ذواتهم جمهورهم الخاص، أي أن الفاعل يخلق لـدى جمهوره شعورا ما أو صـورة لنفسه بالكشف عن ذاتيتـه. في هذا النموذج من الفاعلية يسير المشاركون تفاعـلاتهم بتنظيم الوصول المبادل إلى الذاتية الخاصة لكل واحد «فالمفهوم المركزي للتقديم الذاتي لا يعني إذن سلوكا عفويا للتعبير، ولكنه يعني صياغة أسلوبية للتعبير عن التجارب الخاصة موجهة إلى الجمهور»[3]. إن هذا النموذج من «العمل المسرحي» يصلح، بـالـدرجة الاولى، لـوصف مجموعة من التفـاعـلات بطريقـة فينومينولوجية. وأخيرا، هناك مفهـوم «الفاعلية التواصلية» التي تهم التفاعل الحاصل بين شخصين، على الاقل، قادرين على الكلام وعلى الفعل، خالقين، بذلك علاقة شخصية متداخلـة سواء اعتمادا على وسائل لغـوية أو غير لغويـة، «والفاعلون يبحثـون عن اتفاق حـول وضعيـة عمليـة بهدف تنسيق مخططـاتهم العمليـة، بطـريقـة اجتماعيـة، وكـذلك ممـارساتهم. والمفهـوم المركزي للتـأويل يهم بالـدرجة الاولى، التفـاوض حـول تعريفـات الوضعيات الكفيلة بخلق الاجماع»[4] في هذا النموذج من العمـل تحتل اللغة، كما يظهر، مكانة بالغة الاهمية.

ولكي لا نطيل في تفصيل مستـويـات هذه المفـاهيم الاربعـة كما ضاغتهـا مختلف النظريات الاجتماعيـة فان مفهوم الفاعليـة التواصلية مرتبط عنـد هابرماس بمسـألة العالم المعيش، لأنـه لا يمكن التفكير في هـذا العالم إلا من خـلال مجموعـة من نماذج التأويل منقولة بواسطة الثقافة ومنظمة بواسطة اللغة. ثم إن العالم المعيش يشكل السياق الذي من خلاله تتم عمليات التفاهم بين الذوات.

ومـا دامت عمليـة التحـديث في ارتباطهـا الجدلي بعمليـة العقلنـة، خلقت مجالا عموميا يسمح بإبراز مختلف وجهات النظر والآراء والمصالح والادعاءات، فإن هذا المجال

(1) Ibid, P. 101.
(2) Ibid, P. 101.
(3) Ibid, P. 102.
(4) Ibid, P. 102.

العمـومي نفسه ، بـالـرغم من تعبيره النسبي عن بعض قضـايا العـالم المعيش ، فإنـه يبقى مـرتبطـا بـاستراتيجيـة النظـام المؤسسـة ، بشكل أولي ، على أشكـال التنظيم الاقتصـادي الرأسمالي والادارة الحديثة الموجهة من طرف الدولة المعقلنة .

وفي هذا السياق فان هابرمـاس رجع ، مرة أخرى ، إلى الاجتهادات النظرية لماكس فيبر كما استفـاد من الانفتـاحات الفكـريـة والعلميـة لكل من تـالكـوت بارسنـز وكـارل ماركس .

فالحداثة بحكم تمايزهـا إلى مجالات محددة للعلم والاخلاق والفن ، باعتبار أن لكل مجال منطقه المستقل وأنه قابل لأن يستقبل تدخلات عقلانية قد لا تمس المجال الآخر ، فإن هذه الحداثة ، في نظـر فيبر ، يجب أن تستند إلى مؤسسات اقتصاديـة وبيروقراطية من أجل تحقيق غايـات العقلنة وإنجاز التحـديث . بل إن هابـرماس يلاحظ أن «عمليـة التنـظيم الاداري تشكل بـالنسبة لفيبر ظـاهـرة جوهـريـة لفهم المجتمعات الحديثـة»[1]. غير أن الاشكال التنظيميـة للدولـة الحديثة يمكن أن تمس مجالات أخـرى غير الاقتصاد والادارة . من هنـا ضرورة عقلنـة النظام «لأن المعـرفـة القـادرة على العقلنـة تظهر في قـدرة الانظمـة الاجتماعية على التنظيم الذاتي»[2].

وبناء على ذلك فإن كل نظام يفرز أنظمة فرعية داخل العالم المعيش ، كما يعمل على خلق وسـائط Médiums تلعب دورا أسـاسيا في ضبط تـوازنه وعـلاقاته . مـن بين هذه الوسائط هناك المال والسلطة واللغة . . الخ وقد قام هابرماس بتحليل طويل لنظرية النظام عند تالكوت بارسونز في علاقتها بنظرية الممارسة ، حيث تعرض لمختلف هذه الوسائط على مستوى الـوظيفة التي تقـوم بها داخل المجتمع الحديث ، باعتبـار أنها تعطي للنظام بعض الوسائل لتسيير مـؤسساته ومراقبـة تحركاته ونزوعـات فئاته . بل إنها تؤثـر ، وأحيانا بشكل قوي ، حتى على مستـوى التفاهم بين الذوات . ذلك أن المال مثلا ليس بسلعـة ولا بعامل إنتاج لأنه «يرمز إلى مقدار من القيم ، ولكنه كـوساطة فانه لا يملك أية قيمة داخلية . وفي هذه النقطة فـانه لا يتميز تماما عن وساطـة أخرى مثل اللغة ، اذ أنه بملفوظـات تواصلية فاننا نعبر عن معرفة ، ولكن التعبيرات الرمزية ليست هي المعرفة .

(1) Habermas (J) : "Théorie de........", T2, op. cit, P. 336.
(2) Ibid, P. 337.

غير أن وساطـة المال لا يجب، فقط، «أن تحل محل اللغة كنـاقلة للمعلومـات لأنه يجب أن تقوم بذلك، أولا وقبل كل شيء، فيما يتعلق بعملية التنسيق»[1] التي يتم التوصل إليها في الفاعليـة التواصلية بين الذات المعبرة عن ادعـاءات الصدق والآخر المستقبل لهذه الادعاءات.

بمعنى آخر أن المال يعتبر «وساطة «منظمـة» مثله في ذلك مثل السلطة التي «تمثل تجسيدا لمقـادير القيم بدون أن تكون لها، هـي، قيمة ذاتية أصلية. فـالسلطة لا تتمثل في العمليات الفعلية ولا في استعمال القوة المادية. ووساطة السلطة تعكس، هي كذلك، بنية الادعاءات على إفسادالاشياء والنـاس ماديا»[2] إلا أن من يملك السلطــة ومن يخضع لها كلهم ينتمون لنفس الجماعة. وإذا كـانت المنفعة تميز وساطة المال فـان الفعالية في التحقيق الفعلي للهدف تمثل القيمـة العامـة للسلطة. ومن ثم «من يملك السلطـة يمكن أن يحدد مسبقا موقف من هو خاضع لها، بدون أن يبقى تابعا لاستعداده للتعاون[3]. فالحكومة في المجتمع الحديث، لا يجب أن تقتصر على تسيير رأسمالها في السلطـة لأنــه يتعين عليهـا، تجديده باستمرار ـ أي رأسمال السلطة ـ بتحيينه وبمواجهته، أحيانا، مع سلطات أخرى. اذ عليها أن تبرهن على سلطتها بإخضاعها للامتحان.

إن هابـرماس يتعبر أن الانفصال بين النظـام والعالم المعيش يشكل شرطـا ضروريا للانتقـال من المجتمعات الطبقية للفيوداليـة الاوروبية إلى المجتمعات الطبقية للحـداثة في مـراحلها الاولى، غير أن النمـوذج الرأسمالي في التحـديث يمتلك خـاصية تتمثل في كـون «البنيات الرمـزية للعالم المعيش تفسد أي تشيؤ من خلال ضرورات الانظمـة الفرعية التي تمايزت واستقلت بواسطة المال والسلطة»[4].

ولكي لا نطيل في استعراض التفسير الـذي قدمه هابـرماس لتبرير هذه الاطـروحة نشير، بشكل أساسي، إلى أنـه للقيام بـذلك عمل على إدماج نظريـة الحداثة ذات النـزعة الوظيفية عند تالكوت بارسنز في إشكالية فيبر عن العقلانية الغربية، لا سيما وأن بارسنز لا يتعرض للامـراض الاجتماعية التي تنتجها الحداثة في حين أن نظـرية فيبر تسمح بالاقتراب من ذلك. في حين أن نظرية النظام يمكنها أن تقدم بعض عناصر التحليل لمسألة الازمة.

(1) Ibid, P. 292.
(2) Ibid, P. 295.
(3) Ibid, P. 295.
(4) Ibid, P. 311.

ويرى هابرماس أنه للحديث عن عقلنة المجتمع والمؤسسات وتأثير ذلك على العالم المعيش ومجالات القيم لابد من نحت مفهوم للازمـة يمكن أن تستعين به العلوم الاجتماعية في مقـاربتها لظـواهر الحداثـة، لذلـك «فالأزمـات تبرز حين تقبل بنية نظـام اجتماعي في مواجهة مشكل مـا، أقل ما يمكن من إمكانيات الحلـول التي يطالب بها النظام من أجل المحـافظة على ذاتـه. وبهذا المعنى فإن الازمة هي عبـارة عن اضطـرابات دائمـة لاندمـاج النظام»(1). غير أن التغييرات التي يمكن أن تطـرأ على النظـام لا يجوز أن نعتبرهـا كلهـا، مولدة للأزمـة، فالانظمة لا تقدم بوصفها ذوات لأن «هـذه الذوات وحدها.. يمكن أن تتورط في الأزمات»(2) بل إنه في الوقت الذي يعتبر فيه أعضاء المجتمع أن التغييرات البنيوية تشكل خطرا بالنسبة لوجود النظـام ويشعرون بأنهم مهددون في هويتهم الاجتماعية في هذه الحالة، فقط، يمكن أن نتكلم عن أزمة.

«فالاضطرابات الناتجة عن اندماج النظام ليست خطيرة بالنسبة لوجود النظام نفسه إلا في الوقت الذي يكون فيه الاندماج الاجتماعي معرضا للخطر أي حينما يصبح الاجماع، الذي يشكل قـاعدة للبنيات المعيـارية، مهددا يـدخل المجتمع في فوضى. وبالتـالي فان حالات الازمة تتقدم في شكل تفكيك للمؤسسات الاجتماعية»(3).

للأنظمـة الاجتماعية هـويتها الخاصـة كذلك. فـالمؤرخ قادر، اعتمادا على وسـائله الخاصة، على التمييز بين الثورة التي تقلب نظام دولـة بأكمله وانهيار امبراطوريات، وبين مجرد تحولات بنيوية. ومن ثم فإن القطيعة مع التراث، مثـلا والتي تنزع عن أنظمة التأويل الضـامنـة لهوية جماعيـة معينـة، قـدرتها على الدمج الاجتماعي، تعتبر مـؤشرا على انهيـار الانظمـة الاجتماعية. وفي هـذا الافق «فإن المجتمع يفقـد هـويته في الـوقت الـذي لا تجد الاجيال الجديدة نفسها في التراث»(4).

غير أن القطيعـة مع التراث مقيـاس يفتقـر إلى شيء من الـدقـة، لأن وسـائل نقل التراث وأشكال الوعي بـالاستمرارية التاريخية تتغير، هي بـدورها، حسب تغَيُّر التاريخ. فـالمجتمع لا يـدخل في أزمـة بمجـرد أن يقـول اعضـاؤه ذلك أو أن يعلنـوا عن ذلك لأن «ظواهر الازمـة تتوقف موضوعيتها على واقع أنها تبرز مـن مشاكل التنظيم التي تبقى بدون حل. وأزمات الهويـة لها ارتباط بمشـاكل التنظيم. والذوات الفـاعلة لا تكـون واعية، في

(1) Habermas (J) : "Raison et légitimité", op. cit, P. 13.
(2) Ibid, P. 14.
(3) Ibid, PP. 14-15.
(4) Ibid, P. 15.

كثير من الاحيان بهذه المشاكل، غير أن هـذه المشاكل تولد مشاكل متفرعة تنتج مفعولات بطريقة خصوصية على وعي الذوات لدرجة يغدو فيها الاندماج في خطر»[1].

أما على الصعيد السياسي فان النظام في حاجة، ومنـذ البدء إلى وفاء الجماهير، كما يلاحظ هابرماس، وبحكم أن الدولة توجهها اختيارات اقتصادية ومؤسسات ادارية، فان الازمات التي يسقط فيها النظـام، تكون في عمقها، أزمات عقـلانية، لأن النظام الاداري يعجز عن ضبط متطلبـات النظام الاقتصـادي مع متطلبات تنظيم المجتمع، الامـر الذي يؤدي إلى نوع من أزمـة المشروعية. وبالتالي فإن «نظام المشروعيـة لا يتوصل إلى الحفاظ على وفـاء الجماهير في المستـوى الضروري بتحقيق متطلبـات التنظيم التي يتلقـاهـا من النظـام الاقتصادي»[2].

إن تحليل هابرمـاس للعلاقة بين الاقتصاد والادارة والسياسـة والمجتمع يبدو متأثرا فيه بـالنظرية الماركسيـة، وهو لا يخفي هذا التأثير، غير أن المرء يـلاحظ كثيرا من التداخل بين المنطلقات الماركسية والنظرية الفيبرية لا سيما فيما يتعلق بمسألة المشروعية، إذ يعتبر أن أزمة العقلانية هي، في الواقع، أزمـة نظام تُعَبِّر عن نفسها في الخلل الذي يحصل في تنظيم أجهزة الدولة ولا سيما على صعيد المشروعية، لذلك يرى هابرماس أن «أزمة المشروعية هي، بشكل مباشر، أزمة هوية»[3] على أساس أنها لا تنتقل من خـلال وضع اندمـاج النظام في خطر، بل تبرز من واقع أن استكمال مهام التخطيط التي تتكفل بها الدولة تضع بنية الرأي العام غير المسيس موضع سؤال.

إن مسألة المشروعية لا بد أن تطرح قضية الحقيقة، بالنسبة لهابرماس، لان النظام، من أجل تنظيم اختـلالاته، في حـاجـة دوما إلى سنـد شرعي أو إلى السيطرة أو هما معـا. وماكـس فيبر كان من بين الـذين نظروا لما يسميـه بـ «السيطرة الشرعيـة»، بحيث يعتبر أن «الدولة الحديثة بـاعتبارها تجمعا للسيطرة ذا طابع مـؤسسي، بحث (بنجاح) على احتكار العنف المادي الشرعي بوصفه وسيلة للسيطرة داخل حدود جغرافية معينة»[4]. غير أن هذا التصور يفترض التسـاؤل عن العلاقة بين الاعتقـاد في مشروعية قرارات معينـة وقدرتها على التبرير من جهة، وصدقها الفعلي من جهة ثانية.

(1) Ibid, PP. 15-16.
(2) Ibid, P. 70.
(3) Ibid, P. 71.
(4) Weber (M) : "Le savant et le politique", Paris, Librairie Plon, 10/18.

لا يمكن أن نفسر ادعـاء صلاحيـة معايير معينـة بـدون أن نرجع إلى اتفـاق مُعلَّل بواسطة حجج عقليـة، أو على الاقل أن نرجع إلى القناعة بأن هـذه الحجج يمكن أن تولد إجماعا من أجل تبني هـذا المعيار أو ذاك. وهذا لا يمكن أن يتم إلى داخل جماعة تـواصلية تعالج القضايا المطروحة عليها في سياق منـاقشة عقلانية لادعاءات صلاحية هذه المعايير، يمكن أن يترتب عنها القول بأن المعايير المقترحة صحيحة. غير أن العنصر المعرفي للمعاير لا يختـزل إلى مضامين قضـويـة لانتظارات سلـوكيـة تقبل المعـايير لأن «الادعاء المعيـاري للصلاحية هو نفسه معرفي، بمعنى أنه يفترض دائما (حتى ولو كان بطريقة مزيفة) إمكانية قبولـه داخل منـاقشة عقـلانية، وبعبارة أخـرى، أنه يمكـن أن يكون مـؤسسا على إجماع الأطراف المهتمة وإقامته بفضل البراهين»[1].

إن مفهوم هابرماس لهذه القضية يدخل ضمـن تصوره العام للاخلاق التواصلية، تلك الاخلاق التي لا تحتاج إلى أي مبدإ مسبق لأنها تستند، أساسا، على المعايير الاساسية للخطـاب العقـلاني الـذي يتعين افتراضـه، طـالما أننـا نتحـرك داخل سيـاق للمنـاقشـة وللتـواصل. ويبدو أن الطـابع المثـالي للغـة، في هذا الفهم، يمكـن أن يعاد بنـاؤه ضمن التداوليات الكلية*. Universelle .

ويميز هابرماس في حديثـه عن المعايير بين تلك التي تحتمل إمكانية تبريرها وتلك التي تستقـر على عـلاقات قـوى محددة. ومن ثم فـالمعـايير التي تعبر عن مصـالـح قابلـة للتعميم تعتمد على اجماع عقلاني، في حين أنه في الوقت الـذي لا تكون فيه المصالح قابلة للتعميم فإنها تستند إلى القوة. وفي هذه الحالة يجب أن نتحدث، كما يقول هابرماس، عن «قوة معيارية»[2] مثل ما يحصل في حالة التسوية Compromis التي هي عبارة «عن توازن حسب المعـايير بين المصـالح الخاصـة، شريطـة أن يـوجـد تـوازن بين سلط الأطـراف المعنية»[3].

إن الفصل بين السلطـات يشكل مبدءا تنظيميـا يـوجه لضمان التـوازن بين مختلف مجالات المصـالح الخاصـة لكي تكـون التسـويـات ممكنـة، وفي كل الحالات فـان تعميم المصالح لا يمكن أن يتم إلا من خلال المناقشة العمومية. إلا أنه يجب التفريق بين «فصل

(1) Habermas (J) : "Raison et légitimité", op. cit, P. 146.

*الكلية universalité تعني عند هابرماس "موضوعية المعرفة ومشروعية المعايير الجاري بها العمل". Ibid, P. 23.

(2) Ibid, P. 154.

(3) Ibid, P. 154.

السلطات والديمقراطية لأنها لا يشكلان مبادىء للتنظيم السياسي من نفس المكانة» [1].
ففصل السلطات لا يمكن أن يحصل بطريقـة مشروعة الا إذا وجد تنظيم مجالات المصالح التي لا يمكن تبريرهـا خطابيا وتطـالـب، بالتـالي، بشكل من أشكال التسويـة. هذا من جهة، أما من جهة ثانية فان التشكيلة الخطابية للارادة تسعف على التمييز، بطريقة يمكن أن يحصل حولها إجماع بين المصالح الخاصة والمصالح القابلة للتعميم. ولهذا فان تسوية ما لا تنعت بأنها كذلك إلا إذا تـوفر شرطان : تـوازن السلط بين الاطراف المتنازعـة، والطابع غير القابل للتعميم للمصـالح التي تكون موضـوع مفاوضات». وإن لم يتوفـر شرط واحد من هذين الشرطين العامين لتكـوين التسويات فان الأمر يتعلق حينذاك بتسـوية مزيفة. وفي المجتمعات المعقـدة تكون التسـويات المزيفـة شكلا مُهما للمشروعيـة. ولكن ذلك لا يمثل قاعدة من النـاحية التاريخية. أما مـا يسيطر، على العكس من ذلك، في المجتمعات الطبقية التقليـدية وفي مجتمعـات الرأسمالية الليبراليـة، فهو الشكل الايـديولـوجي للتبرير الذي يُؤكد أو يفترض، بطريقة مزورة، بأن المصالح قابلة للتعميم» [2].

لـذلك فان الـديمقراطيـة لم تعد تعبر عن نمط من الحيـاة يجسد المصـالح القابلـة للتعميم لكل الأفرادبقـدر ما أضحت نهجا لاختيـار الزعماء ولتزيين جهـاز التسيير. اننا لم «نعد نفهم الديمقراطية على أنها تمثل الشروط التي تساعد على تحقيق كل المصالح المشروعة عن طريق تحقيـق المصلحة الاساسيـة من أجل المشاركـة وتقريـر المصير. إنها لم تعد تعني الآن، إلا إطارا اصطلاحيا للتوزيع من أجل التعويضات المناسبة للنظام، بمعنى آخر إنها عامل تنظيمي لاشباع المصالح الخاصة» [3]. فالديمقراطية لم تعـد، إذن، مرتبطة بالمساواة السياسية، بمعنى التوزيع المتساوي للسلطة السياسيـة ولحظوظ ممارسة السلطة. فالمساواة لا تعني الا الحق الشكلي في الوصـول إلى السلطة على أسـاس الحظوظ المتسـاوية بـالنسبة للجميع. ومن تم فالديمقـراطية لم تعد تستهدف عقلنة السيطـرة بفضل مشاركة المواطنين في العمليات الخطابية لتشكيل الارادة، بقدر مـا يجب أن تخلق صيغا ممكنة للتسويات بين النخب المسيطرة.

ويـلاحظ هـابرمـاس أن هـذا التحليل يـؤدي، بالضرورة إلى التخلي عن النظـريـة الكلاسيكية للديمقراطية، أي أنه لم تعد كل القـرارات، التي لها انعكاسات سياسية بالغة الأهميـة، هي التي يجب إخضاعهـا لتوجيهـات التشكيل الـديمقراطي لـلارادة، ولكن،

(1) Ibid, P. 154.
(2) Ibid, P. 155.
(3) Ibid, P. 169.

فقط، النظام الحكومي التي تتحدد بوصفها سياسية. ومن تم فان تعددية النخب تحل محل تقرير مصير الشعب وتجعل النظام الاجتماعي خاضعا لادارة خاصة مستقلة عن ضغوط المشروعية ومحصنة ضد مبدإ التشكيل العقلاني للارادة.

من هنا ضرورة النقد والكشف عن الآليات المحركة للمجال العمومي والتدخل في معمعة البرهنة والمواجهة العقلانية بهدف «تشكيل رأي عام من خلال المناقشة»[1].

بمعنى آخر أن هابرماس يرى أن مشروعية النظام السياسي لا يمكن الدفاع عنها الا بواسطة المناقشة العمومية المبنية على اعتبارات برهانية، ذلك ان انماط الخطاب التقليدي لم تعد قادرة، في الزمن الحديث، على اضفاء المشروعية على النظام السياسي الذي أسس أجهزته ومجالاته على قوة البرهنة والعقلنة. والمشروعية عند هابرماس هي «الاعتراف الذي يستفيد منه نظام سياسي معين. فضرورة المشروعية ترجع إلى ضمان الاندماج الاجتماعي الخاص بهوية مجتمع محدد بالمعايير. أما أشكال المشروعية فلها وظيفة الاستجابة لهذه الضرورة، أي باظهار الكيفية والسبب اللذين يجعلان من هذه المؤسسات القائمة (أو المطلوبة) في مستوى تنظيم السلطة السياسية لدرجة أن القيم المكونة للهوية الاجتماعية تُبلغ عن الواقع فعليا.. وهذه الاشكال من المشروعية لا تتكون في استقلال عن القوة التبريرية التي تحتويها هذه الأشكال نفسها، والتي يتعين اخضاعها للتحليل الصوري، بمعنى آخر أن هذه الدوافع تابعة كذلك لإمكانيات إضفاء المشروعية أو للحجج المقدمة»[2]. وبالتالي فإن المشروعية لا يمكن أن تكون إلا اجرائية.

فالأنظمة التبريرية لا يمكن أن تكون الا برهانية لذلك فان المجال العمومي الحديث يجب أن يشتغل في ارتباط مع المشروعية الاجرائية وفي سياق إجماعي لانه بدونه من الصعب الدخول في تواصل برهاني مؤسس على العقلنة «فما يميز المشروعية السياسية هو أن الاجماع بوصفه قابلا للتحقيق احتمالا وضرورة.. يتم في مجال عمومي نفترض أنه حر وخال من أي سيطرة»[3].

إن هابرماس في كتاباته السياسية الأخيرة بدأ يتخذ موقفا أكثر جذرية من مسألة السلطة والديمقراطية والسياق التواصلي، فهو بالرغم من تأكيده على الاجماع الناتج عن المناقشة العقلانية فإنه، مع ذلك، يلاحظ أن الدولة الحديثة لم تصل بعد إلى المستوى

(3) Habermas (J) : "L'espace public........", op. cit, P. 260.
(1) Habermas (J) : "Après Marx", op. cit, 257.
(2) Hunyadi (M) : "La souveraineté de la procédure.......", op. cit, P. 22.

المعياري المطلوب، بل إن «دولة القانون تحافظ على معنى معياري فقط من منظور أنها مشروع تاريخي»[1]. لأنه من زاوية النظرية السياسية فإن التاريخ عبارة عن مختبر للبراهين. فالجدل الذي كانت تتطلع الثورة الفرنسية إلى تحقيقه بين الليبرالية والديمقراطية الجذرية تفجر في العالم كله، كما يرى هابرماس، فالصراع يستهدف «معرفة الكيفية التي يحصل بها التوافق بين المساواة والحرية، والوحدة والتعدد، حق الأغلبية وحق الأقلية»[2]. بل إن هابرماس يأسف بحزن على «فشل مشروع لا يمكن التخلي عنه مع ذلك»[3]. وهذا الفشل كما القرار بعدم التخلي عنه، يبين كيف أن المشروع الثوري (يقصد الثورة الفرنسية) كان ينظر إلى ما وراء الثورة نفسها، لذلك يتعين ترجمة المضمون المعياري لهذه الثورة، الفريدة من نوعها، إلى المفاهيم السياسية المعاصرة. وذلك من خلال إعادة تأويل لمبدإ السيادة الشعبية، تلك السيادة التي «لا يمكن أن تصل إلى مستوى القدرة على التعبير عن ذاتها الا في الشروط الخطابية لعمليات ذاتية متمايزة لتشكيل الرأي والارادة»[4]على اعتبار أن العلاقة الداخلية بين تشكيل الارادة السياسية وإرادة الرأي العام لا يمكن أن تضمن عقلانية القرارات إلا إذا كانت المداولات بين البرلمانيين لا تجري بناء على معطيات مسبقة.

ويبدو أن هابرماس بالرغم من تجذير بعض آرائه الأخيرة حول الديمقراطية والمضمون المعياري للممارسة السياسية، فانه، مع ذلك، ظل يؤكد على أن التفاهم، داخل سياق تواصلي عقلاني يضبط العلاقة بين المعرفة والسلطة وبين المعرفة والرغبة، شرط حاسم لخلق إجماع حقيقي يستطيع الفرد من خلال المناقشة، الخروج من ذلك «الاستعمار الداخلي» الذي فرضته وسائل الاتصال الحديثة وعاملا المال والسلطة في ضبط توازن النظام. لأن واقع السلطة أو السلطة كواقع لا توجد، حقيقة، إلا بواسطة إجماع يكتسب اعتمادا على تواصل بدون ضغوط ومؤسس لتداخل بين الذوات والمواطنين، ومن ثم تغدو المؤسسات السياسية تجسيدا لهذا الإجماع، بحيث يتعين عليها حماية التواصل من كل التحريفات المحتملة. وبمجرد ما تغيب الشروط التواصلية للتفاهم بين الذوات ويضعف الاجماع أو ينتهي، يختفي معه السياسي وتحل القوة محل السلطة.

لذلك فإن التعارض بين السلطة والقوة تعارض أساسي، اذ لا وجود لسلطة حقيقية بدون اتفاق وإجماع وتفاعل حر وإرادة مستقلة للفعل والعمل في ضوء نموذج

---

(1) Habermas (J) : "La souveraineté populaire comme procédure; Un concept normatif d'espace public", Revue, Lignes, N7, 1989, P. 31.
(2) Ibid, P. 31.
(3) Ibid, P. 30.
(4) Ibid, P. 34.

معياري. في حين انه في الـوقت الذي تبرز فيه ارادة استخدام الافـراد والضغط أو خلخلة التواصل واذلال الرأي العام وتشويه الاجماع من أجل أهداف خاصة، يسود منطق السيطرة والقوة وتنسحب الممارسة السياسية الحقيقية.

يتعلق الأمر إذن، بأخلاق تواصلية تستلهم عمليـاتها من «تداوليات كونية» تحيلنا إلى خطاب برهـاني وإلى سلوك عقلاني يستهدفـان خلق إجماع بواسطة تواصـل حر وبدون ضغوط. غير ان الفهم المتعالي للعقل السياسي عند هابرماس، يعبر، في العمق، عن مجرد «شروط امكـان اعـادة بنـاء» معـايير عامـة للخطـاب العقـلاني لأن القـول بضرورة الحوار والمناقشـة واستعمال الحجج في التبادل العمومـي واحترام أخلاق للممارسة الاجماعيـة، هو قول، في حقيقة الأمر، لا يتلاءم مع أية قوة عملية مسبقة لأنه يبقى في مجال الامكان والحق المعياري، بمعنـى آخر أن المشروعيـة السياسيـة عند هـابرمـاس تفترض أخلاقـا ومعايير، وبالتـالي فان الحداثة السيـاسية عنـده ذات مضمون معياري. ولهذا السبب يـؤكد على ان الحداثة مـا زالت لم تكتمل بعد ويتعين فتح مجال للنقد يجمع بين الـواقع والممكن ويؤسس لنظرة تغييرية للخطاب وللاشياء تجعل من العقل التواصلي أساس نقدها للحداثة العقلية في تجسداتها الآداتية.

الفصل الثاني

النظرية التواصلية وعقلنة الفاعلية

إن عمليـة التحديث تفترض العقلنـة وهذه تستـدعي معقوليـة تستند إلى معـايير. فَفَوْضَى الزّمن الحديث وانحـرافات العقل والعلاقات وتَعْويم المجـال العمومي، كل هذا يشترط عند هـابرماس، أخـلاقا تواصليـة تعتمد على مـا أسماه بالتداوليـات الكلية حيث التبادل المتكـافىء ومواجهة الحجـة بالحجة والقـدرة على تبرير أي ادعاء للصـلاحية لأجل خلق سياق تواصلي يتيح فرص التفاهم.

ولقد رأينا، في الفصل الأول أن هابرماس تأثر بشكل واضح بماكس فيبر بخصوص مسألة العقلنة والتحـديث محاولا تجاوز محدودية الإطار الذي وضع فيبر فيـه فعل العقلنة، بحيث نظر إليه على أنـه موجه نحو النجـاح وتحقيق الغاية المتوسلـة بنشاط أداتي. ولذلك فإن نظرية المجتمع عند فيبر تعتمد وتُبْنَى على مفاهيم أساسية للأنشطة العقلانية. وارتباط هذه الأنشطة بأهـداف وغايات لايقلص من أهمية نظريـة فيبر في العقلنة لاسيما وأنه جعل مفهوم النشاط العقلاني يحيل بالضرورة إلى مقـولات عملية منظمة إجتماعيا، وإلى نظام من التـدخلات تـدمج نوعـا من المعرفـة وتعقلن الواقع الاجتماعي في الاتجاه الخصـوصي لهذه المعرفـة. وبالتالي فإن نظريـة النشاط العقلاني بحكم اعتمادها على نظـرية للمجتمع فإنها كذلك نظرية في المعرفة.

ولقـد لاحظ أحـد البـاحثين أن «مقـولـة» النشـاط العقـلاني «كـاكتشـاف هـائل للسوسيولوجيـا الفيبرية، تجد عند هابرماس خصـوبة جديدة ومنفردة مع نظـرية الفاعلية التواصلية» [1]. بدون أن يعني ذلك أن هـابرماس اكتفى باستكمال العمل السـوسيولوجي

(1) Ferry (J-) : "Habermas, Ethique de la communication", op. cit, P.25.

لفيبر اعتمادا على الوسائل الفلسفية الكانطية. ذلك أن هابرماس يلاحظ أن النزعة الكانطية الجديدة عند فيبر تفتقد إلى كثير من العمق الفلسفي والتأسيس النظري. وبالتالي إذا ما أمكن القول بخصوص ماكس فيبر «بنوع من القصور الفلسفي» فإن ذلك يمكن أن ينتج بعض التأثيرات على الصعيد السوسيولوجي الخاص[1].

إن ملاحظة هابرماس حول هذا الموضوع سوف نتعرض لها بشيء من التفصيل عندما نتناول نظريته حول المجتمع ومدى اقترابها أو ابتعادها عن نظرية ماكس فيبر. المهم أن هابرماس يؤطر مشروعه ضمن الدعوة إلى إعادة الاعتبار لنوع من «العقل العملي» يسترشد بأخلاق تواصلية لا تفرض بواسطة سلطة أو اعتمادا على مرجع تقليدي، ولذلك فإن هذا الفيلسوف، وكما رأينا بخصوص مسألة الحداثة، يعتبر أن المجتمع الحديث يتكون من مجموعة من المجالات لها منطقها الخاص، ولكن مع الإلحاح على مواكبة التمثلات الجماعية وأشكال المشروعية السياسية والقيم الأخلاقية والمعايير القانونية، داخل مجال عمومي ينسج تواصلا بدون ضغوط، أي أن هابرماس يهتم بكل ما يتعلق بإنتاج «المعنى»، على اعتبار أن هذا المعنى نفسه لا ينتج بشكل اعتباطي وإنما يتولد داخل سياق اجتماعي له منطقه المرتبط بمسألة الحقيقة.

فصيرورة المعايير، كما رأينا سابقا، لها قيمة اجتماعية مستمدة من الإيقاع التواصلي ومعترف بها بين الذوات، أي أنها متوقفة، أساسا على الفكرة التي تُكَوِّنها جماعة محددة عن الحقيقة والصدق والصلاحية، ومن ثمَّ فإن صلاحية المعايير الاجتماعية لاتتأسس إلا انطلاقا من تذاوت وتفاهم بين الأفراد المُكوِّنين لهذه الجماعة.

ويبدو أن البناء النظري لهابرماس يستند على مقولة التواصل بشكل أساسي. فالتداوليات الكلية التي عمل على التنظير لها تبرز شروط تفاهم ممكن، لذلك فإن نظرية الفاعلية التواصلية بوصفها فاعلية موجهة، بالدرجة الأولى، إلى التفاهم، تستهدف، منطقيا البحث عن شروط مجتمع ممكن. فهذه النظرية تدرس وتهتم بما ينتج داخل التفاعلات الاجتماعية بين الأفراد الذين يتواصلون من أجل تحقيق مشروع معين، ولكن بالعمل على تنسيق مواقفهم وترتيب شؤون مصالحهم. لاشك أن الأمر يتعلق هنا بنوع من النشاط العقلاني بالقياس إلى غاية، وهابرماس يقر بذلك، لكنه يلاحظ أن لهذا النشاط العقلاني ذي الطبيعة الاستراتيجية، بُعْدُ اجتماعي لأنه يظهر في سياق منطق تفاعلي يفترض، ضرورة، علاقة تذاوتية.

(1) Ibid, P. 25.

ومنذ البداية ونحن نتحدث عن النظرية التواصلية وعن العلاقة الوثيقة بين الحداثة والتواصل عند هابرماس. ويهمنا في هـذا الفصل، أن نقف عند أسس الفاعلية التواصلية ونظرتها لأخلاق التواصل والمناقشة وطبيعة تفاعلها مع مسألة الحداثة ضمن ما يسميه هابرماس بـ "العقل التواصلي."

1. حول الفاعلية التواصلية

لم يكف الفكر الإنساني عن طرح سؤال اللغة في علاقتها بالزمن والمجتمع والفكر، سواء تعلق هـذا السؤال بالمجال الفلسفي العـام أو بالحقول العلميـة المتعددة التي جعلت من اللغة موضـوعا لتفكيرها، كما أن التواصل يشكل هـاجسا نظريا وفكـريا راهنا، بل إن راهنيته في صيرورة لا متـوقفة، لأن أساليب وقنـوات التبادل الإنساني تتجدد بـاستمرار لا سيما في زمن الثورة التكنـولوجية التي جعلت من العـالم "قرية" تلتقي فيهـا كل الأجناس وتتواصل فيها كل الثقافات واللغات والتجارب.

لذلك فإن التـواصل لا يمكن حصر تَحَرُّكاته داخل مجالات اللغة بـاعتبار أن الزمن المعاصر خلق وساطات وقنوات كثيرة توفر للإنسان إمكانيات تواصلية لاحصر لها وتسعفه من إنتاج زمنيته الخاصة.

غير أنه يصعب علينـا، هنا تعميم هذه الحالة، لأن الحداثـة الغربية، بـالرغم من نـزوعها المعلن نحـو الكونيـة ونشر علامـاتها عبر أكثر منـاطق الجغرافيـا العالميـة، إلا أنها اصطدمت بكثير من أشكال المقاومة الثقافيـة والحضارية لشعوب شكلت الحداثة بالنسبة لها صدمة حضارية وارتجاجا قويا في وعيها بالعالم وبالزمن والفكر.

فالحداثـة ثوَّرت التـواصل. والتواصل، بكل تعبيراته، سمح للحـداثة بـالانتشار أكثر وبـالتفاعل أو التنابـذ مع مختلف المرجعيات الثقافيـة الإنسانية سـواء منها تلك التي تستجيب لضوابط العقل وتقبل بإدماج بعض مقومات الحداثة أو تلك التي بقيت محتفظة بمعايير وقيم ما قبل الحداثة وبالتصورات التقليدية للكون والزمن والمجتمع.

التفكير في التـواصل، إذن، هـو في العمق، تفكير في مسألـةالحداثـة. وإذا كـان الأمـر كذلـك، فإن الحداثة بـاعتبـارها تتـويجا لعقـلانيـة محددة يتداخل فيهـا التحـديث والعقلنة، وتناول التـواصل يستدعي، بطريقة أو بأخرى، النظر في مقـومات العقل المُوَلِّد للحداثـة. وبالتـالي فإن المعرفة الحديثـة يمكن إدراك حركتهـا وتعبيراتها من خلال نمطين

إثنين : النمط الأداتي وهـو الذي نظّـر لـه ماكس فيبر بشكل قـوي من خـلال ما يسميـه بـالعقلنة بـالقياس إلى غـاية ، والنمط التـواصلي الذي عمل هـابرمـاس على اقتراح بعض عناصره النظرية .

ومنذ الكتابات الأولى لها برماس تظهـر الأهمية الخاصة التي يعطيها لمسألة التفاعل والعمل في علاقتها بما هو أداتي أو تواصلي . ومن تمَّ فإنـه ينظر إلى إشكاليته المركزية ضمن تصور عام للنشاط الاجتماعي . فالتفاعل يتحدد عنده بوصفه نشاطا تواصليا ، أي باعتباره ممارسة اجتماعيـة رمزية تصاغ بواسطة اللغـة العادية . كما أنه يتحدد بالـرجوع إلى «المعايير» الجاري بها العمل ، أي بالرجـوع إلى إشكالية التنشئة والمحددات الاجتماعيـة والثقافية التي تؤثر في النشاط الاجتماعي وفي السياق العام للتبادل .

وهكذا ينعت هابرماس «العمل» أو «النشاط العقلاني بالقياس إلى غاية إما بوصفه اختيارا عقـلانيا أو تنسيقا بين الإثنين . فـالنشاط الاداتي يخضع لقواعـد تقنية تتأسس على معرفة تجريبية . وفي كـل حالة على حدة ، فإن هذه القواعد التقنيـة تتضمن تنبؤات شرطية تتعلق بالوقـائع القابلة للملاحظة ، سـواء فيزيائية أو إجتماعيـة . وهذه التنبؤات يمكن أن تكـون صحيحة كما يجوز أن تكـون خـاطئة . والسلـوكـات ذات الاختيار العقـلاني تتنظم حسب استراتيجيـة تستند إلى معـرفة تحليلية . والاستراتيجيـات تتضمن استنتـاجات على أساس قواعد الأفضلية (أنساق القيم) والمبـادىء العامة ، وهذه القضايا يمكن أن تستنتج بدقة كما يمكن أن لاتكون كذلك»(1).

إن النشاط العقلاني بالقياس إلى غاية يحقق الأهداف المحددة داخل شروط معطاة ، أي أنه إذا كان النشاط الاداتي يوظف وسائل منـاسبة ، أو غير مناسبة ، بالقياس إلى معايير المراقبة الفعالة ، فإن واقع النشـاط الاستراتيجي لا يتوقف إلا على التقويم الصحيح لبدائل السلوكات الممكنة ، التي تُستَنتَج من بعض القيم والمبادىء المتعارف عليها .

أما النشاط التواصلي فإن هابرماس يقصد بـه ذلك «التفاعل المصاغ بواسطة الرموز وهـو يخضع ، ضرورة ، للمعـايير الجاري بها العمل والتي تحدد انتظـارات مختلف أنماط السلوك المتبـادلة ، على أساس أن تكـون مفهومة ومُعْتَرَف بها ، بـالضرورة ، من طرف ذاتين فاعلتين على الأقل . »(2)

(1) Habermas (J) : "La technique et la science comme idéologie", op. cit, P. 21.
(2) Ibid, P.22.

ويحصل أن تتقوى هذه المعايير الاجتماعية انطلاقا من مجموعة من الموافقات بحيث تتموضع دلالتها داخل التواصل الذي يتأسس اعتمادا على اللغة العادية.

وهكذا إذا كانت صلاحية القواعد التقنية والاستراتيجية متوقفة على صلاحية القضايا الصحيحة تجريبيا أو تحليليا، فإن صلاحية المعايير الاجتماعية تتأسس على التذاوت الذي يحصل في عملية التفاهم بحيث تضمن صلاحيتها من خلال الاعتراف بالتزامات الجميع ويرى هابرماس أن «القواعد المكتسبة من النشاط العقلاني بالقياس إلى غاية تُوفِّر لنا إمكانية امتلاك مختلف المعارف العملية، أما المعايير المُسْتَبْطَنة فهي تُرَسِّخُ بعض بنيات الشخصية. ولذلك فإن المعارف العملية تضعنا أمام حل المشاكل التي تعترض المرء، أما الحوافز فإنها تعطينا فرصة الفاعلية المنسجمة مع المعايير»(1).

وانطلاقا من هذا التمييز بين هذين النوعين من الفاعلية والنشاط يمكن التفريق بين الأنشطة الاجتماعية التي يسيطر عليها النشاط العقلاني بالقياس إلى غاية أو تلك التي يبرز فيها التفاعل أو النشاط التواصلي، ذلك أن الاطار المؤسسي لمجتمع ما يتمثل في مجموعة من المعايير التي توجه التفاعلات المُعبَّر عنها بواسطة اللغة. غير أنه توجد أنظمة فرعية مثل النظام الاقتصادي أو أجهزة الدولة التي تبرز فيها مبادىء النشاط العقلاني بالقياس إلى غاية، وبالمقابل هناك أنظمة فرعية أخرى مثل العائلة أو القرابة، تقوم بوظائف عديدة وتنقل كثيرا من المعارف العملية ولكنها تعتمد أساسا على القواعد الأخلاقية للتفاعل. ولهذا يلح هابرماس على ضرورة التمييز بين الإطار المؤسسي لمجتمع ما أو العالم المعيش الاجتماعي الثقافي من جهة وبين الأنظمة الفرعية للنشاط العقلاني بالقياس إلى غاية والمتداخلة فيما بينها من جهة ثانية.(2)

غير أنه بين هذين القطبين، أي بين النشاط العقلاني بالقياس إلى غاية وبين النشاط التواصلي، يتعين الانتباه إلى موقع الاستراتيجيات التي كثيرا ما تتحدد بشكل متداخل بين هذين النمطين من النشاط، على أن ندرك ضرورة عدم مماثلتها بسياق التفاعل. ويعتبر هابرماس أنه بالرغم من أن بعض الغموض بين التواصل والاستراتيجيات يُمْكن أن يحصل إلا أنه يتعين التمييز بين النشاط الاستراتيجي والأنشطة التواصلية. ذلك أن الاستراتيجيات تخضع للمنطق الحواري المفرد.

(1) Ibid, P. 23.
(2) Ibid, P. 24.

أما منطق التفـاعل فإنه، على العكس من ذلك، حواري بشكل أسـاسي : أي أنه بـالنسبة للحـالـة الأولى، فإننـا نبلغ نوعـا من التـذاوت المتعالي المواقـف لبعض القواعـد التركيبية، أمـا التفاعل فإنه يـرجع في الحالة الثـانية إلى سياق التـواصل وهو يَتَشكَّل، وإلى تذاوت يَتَكَوَّن بين من يفعلون في الأشياء على أساس الاعتراف المتبادل.

ولكن كيف يكون النشاط ممكنا باعتباره نشـاطا اجتماعيا؟ بل وكيف يكون النشاط الاجتماعي ممكنا؟ ثم كيف يكون النظام الاجتماعي ممكنا؟

هذه هـي الأسئلة الأساسيـة التي يبدو أنها شغلـت هابـرماس في سياق بحثـه عن صياغـة عناصر نظـرية لمسألـة الفاعلية التـواصلية. وهـو يرى أن «نظـرية للفعل مُـؤَهَّلة للجواب على هـذه الأسئلة يجب أن تكـون قادرة على الإشـارة إلى الشروط التي يكـون فيها الآخر قـادرا على «ربط» أفعالـه بأفعـال الانا»[1] ذلك أن النظرية السوسيـولوجية للفعل لاتهتم، فقط، بالخصـائص الصوريـة للنشاط الاجتماعي بشكل عـام، وإنما تهتم كذلك بآليات التنسيق بين الأفعال والممارسات التي تسـاعد على الربط المتواصل والثابت لمختلف أشكال التفاعلات. فتشكيل نماذج التفاعل يفترض بـأن تَعَاقُب الأفعال المكون من طرف مختلف الفاعلين لا يتوقف بشكل حـدثي وإنما يكون مُنسَّقا حسب مجموعـة من القواعد. وهذا الشرط عنـد هابـرماس، ينطبق على السلـوك الاستراتيجي، الذي رأينـا أنه ذا طـابع مونولوجي، كما ينطبق على السلوك التعاوني الحواري.

وبدون أن نُفصِّل في المنـاقشة التي دخل فيها هابـرماس مع مجموعة من الفـلاسفة وعلماء الاجتماع حول نظـرية الفعل، نكتفي بالقول بأن هـابرماس يلاحظ أن هنـاك فوارق كبيرة بين النظـريـات السـوسيـولـوجيــة والفلسفـة فيما يخص الفعل والممارسـة. ذلك أن «النظريــة السوسيولوجــية للفعل لاتهتم بالمشـاكل الأسـاسيـة المتعلقـة بحريـة الاختيـار والسببيـة أو بعلاقـة الروح بـالجسد أو بـالقصـدية . . . إلخ وهي مـوضوعـات تناولتهـا الانطولوجيا والإبستمولوجيا ونظرية اللغة كما تتناولها النظرية الفلسفية للفعل، في حين أن ضرورة تفسير النظام الاجتماعي المتذاوت يؤدي بالنظريـة السوسيولوجية للفعل إلى الابتعاد عن المقدمات الخاصة بفلسفة الوعي»[2].

(1) Habermas (J) : "Logique des sciences sociales", op. cit, PP. 413-414.
(2) Ibid, P. 414.

ويرى هـابرمـاس أن نظريـة تداوتيـة للفعل والعمل يمكنها أن تسـاهم «في إعادة صياغة الأسئلـة التي تعتبر الفلسفة، لحد الآن، أنها تشكل مجالها الخاص»[1]. ومن أجل ذلك عمل هابرماس على تقويم المساهمات النظرية لمجموعة من الاجتهادات الفكرية منها نظرية التبادل الاجتماعي والوظيفية النسقية، ونظرية الفعل المؤسسة على الأدوار الاجتماعية وفينومينولـوجيا التعبير عن الذات والتفاعلية الـرمزية والاثنوميتودولـوجيا . . . إلخ بل إنه بسبب «الطـابع الأحادي وضعف هـذه المقـاربات النظـرية «أدخـل هابـرماس» مفـاهيم النشاط التواصلي والعالم المعيش»[2]. وهكذا فإن الفعل، عنـده، يمكن فهمه «بـاعتباره تحقيقـا لمشروع عملي مُـؤسَّس على تأويل معين للـوضعيــة، إذ بتحقيق مشروع عملي مـا يتحكم الفاعل في وضعيـة معينة. ووضعيـة الفعل تشكل جزءا من محيط الفـاعل. وهذا الجزء يتكون في ضـوء إمكانيـات الفعل، ذات الدلالـة بالنسبـة للمشروع العملي والمدرجة باعتبـارها كذلك من طـرف الفاعل. »[3] ولكن الفعل لايمكـن أن ينحصر في المستــوى الاستراتيجي المتعلق بـالحوار الذاتي للفـاعل مع ذاتـه، بل يفترض نـوعا من التقـارب بين مختلف الذوات الفـاعلة. وكل هذا يتم مـن خلال المشاركـة في تواصل مُعَبَّر عنه بـواسطة اللغة، أي أن الأمر يفترض اتفـاقا ومعرفة مشتركة أو على الأقل تأثيرا يمارسـه الفاعلون على الآخرين.

ويرى هابـرماس أنه لكي توجـد هذه المعرفة المشتركـة، لايكفي أن تكون للفاعلين وجهات نظـر متقاربـة أو حتى وعي بهذا التقارب، ذلك أنـه يتكلم عن «المعرفـة المشتركة حين تكـون مُكوِّنـة لاتفـاق مـا ـ وهـذا الاتِّفـاق يتحـدد بالاعتراف المتـذاوت لادعـاءات الصلاحيـة والقابلـة لكي تكون موضـوعا للنقـد ـ والاتفـاق يعني بأن الأشخاص المعنيين يقبلون صـلاحية معرفـة ما، أي قدرتها على الالـزام التذاوتي»[4] ولهذا السبب فقط تقـوم المعرفة المشتركة بوظيفة التنسيق بين الأفعال ما دامت تتضمن عناصر دالة بالنسبة لاستمرار التفاعلات. فـالقناعات المُتَّفق عليها بطريقـة تذاوتية تشكل التزامـا متبادلا بين المشاركين في التفاعل. واعتبارا لهذه القاعدة فإن «القناعات المونولوجية، أي ما يعتبره كل واحد، في داخله صحيحا أو خاطئا، لا يمكن أن تؤثر إلا على المواقف الفردية»[5].

(1) Ibid, P. 414
(2) Ibid, P 415.
(3) Ibid, P. 415.
(4) Ibid, P.416.
(5) Ibid, P.416.

هناك، إذن، فـرق بين الاتّفاق والتأثير. وبالرغم من أنهما يشكـلان آليات لتنسيق الأفعال فإنه يستحيل الدخول "في عمليات تفاهمية بهدف الوصول إلى اتفاق مع مشارك في التفاعل، وفي نفس الوقت لغاية التأثير عليه" (1) فالاتفاق لا يمكن أن يكون مفروضا من فوق أو مقبولا نتيجة ضغط أحد المشاركين على الآخر. وبذلك فإن الاتفاق يفقد خاصيته الناتجة عن القنـاعة المتبادلـة في الوقت الذي يتنبـه المعني بالأمر أن الاتفـاق ناتج عن تأثير خارجي مارسه عليه شخص آخر.

وهكـذا فإن "الموقف التفاهمي يُـوَلِّد تـداخـلا بين المشاركين في التفـاعل. فهم لا يمكنهم تجنب اتخاذ مـواقف، إمـا بـالإيجاب أو بـالسلب، يُعَبَّر عنهـا من طـرف المرسل إليهم، ذلك لأنـه لا يمكنهم الـوصـول إلى إجماع مـا إلا على أسـاس الاعتراف التـذاوتي لادعاءات الصلاحية" (2).

غير أن التفـاعل والتـداخل والتـذاوت الذي يحصل داخـل سياق تـواصلي يتميـز بالاعتراف المتبـادل، لايمكن التفكير فيه إلا من زاوية الطـريقة التنظيمية التي تميـز النظام الاجتماعي وأنماط الفعل التي تتميـز بها مختلف التـدخـلات في الممارسـة الاجتماعيـة. فالفـاعل، مثلا، يحقق هـدفا مـا أو يخلق الشروط الملائمة لتحقيق ما يتطلـع إليه، وذلك بـاختيار الـوسـائل المنـاسبة داخل وضعيـة معينـة من أجل الـوصول إلى النجـاح، أي أن "العنصر المركزي هو المشروع العملي المُؤسَّس على تأويل معين للوضعية والهادف إلى تحقيق غايـة ما، وهـو مشروع يسمح باختيـار فعل محدد داخل مختلف الأفعال الممكنـة كذلك. وهذه البنيـة الغائية هي بنيـة تكوينية بالنسبـة لكل مفاهيم النشاط، ولكننـا نُميِّز مختلف مفـاهيم النشاط الاجتماعي بـالقياس إلى طـريقتها في التنسيق بين الأفعـال المتفرقـة" (3). لذلـك فإن تصنيف أنواع الأنشطـة يتوقف على طـريقة الإجـابة على السؤال التـالي: هل المقـاربات العمليـة تنظر إلى تـأثير الفعل التجريبي لـلانا في الآخـر أم تقيم اتفـاقا مُعَلَّـلاً عقلانيا بين الآنـا والآخر؟ وهكذا وحسب الإجـابة المعطاة لهذا السؤال يتـوزع المشاركون في التفـاعل إلى موقفين: مـوقف مُـوجَّه نحـو النجاح، ومـوقف مُـوَجَّه نحـو التفاهـم. أمـا "نموذج النشاط الاستراتيجي فإنه يكتفي بتفسير قواعد النشاط المُوجَّه نحو النجاح، بينما تقوم النماذج الأخرى بتحديد شروط الاتّفاق الـذي يساعد المشاركين في التفاعل على تحقيق مشارعهم العمليـة. فالنشاط المنظم بـواسطة المعايير يفترض، بين المعنيين بالأمـر، وجود

(1) Ibid, P.417.
(2) Ibid, P.417.
(3) Ibid, P. 418.

إجماع قيمي axiologique. والنشـاط التمثيلي dramaturgique يستنـد إلى العلاقـة الإجماعية بين الفاعل الذي يقوم بعمليـة التمثيل وبين جمهوره، وأخيرا فإن التفاعل المصاغ بواسطـة اللغة يتطلب إقـامة إجماع سـواء بتبنّي وتأويل وخلق دور معين، أو بالمشـاركة في تأويلات مشتركة " (1).

ولذلك فإن النظريات التي اهتمت بالتبادل أو بالسلطة والتي تأسست اعتمادا على نمـوذج النشاط الموجـه نحو النجـاح، تفترض أن المشاركين في التفـاعل ينسقون أفعـالهم بطـريقة يـؤثـر كل واحـد في الآخر، في حين أن النظـريـات غير التجريبيـة للفعل يُحِلُّـون عمليات التفاهم محل التأثير.

ويـلاحظ هــابـرمـاس أن النمـــوذج الغـائي يمتـد ويتحـــول إلى نمـوذج للفعل الاستراتيجي حين يأخذ الفـاعل في حسبانه قرارات الفاعلين الآخـرين أو واحدا منهم على الأقل، في تقييمـه للنجاح. وهـذا النموذج للفعـل يأخذ، من كثير من الأحيـان، معنى نفعيا utilitaire، أي أننا نقبل فيه أن الفـاعل يختار بحسب وسائله وغاياتـه بالقياس إلى المنفعة القصوى. مادامت العلاقـات بين الأشخاص الفاعلين بهدف النجاح لاتتنظم إلا من خلال التبادل والسلطة فإن المجتمع "يظهر وكأنه نظام أداتي، أي أن هذا النظام يختزل التـوجيهـات العملية في المنـاقشـة من أجل المال أو من أجل السلطـة، وينسق القـرارات اعتمادا على العلاقات الخاصة بالسوق أو السيطرة. " (2) إن هذا النوع من النظام سواء اتكأ على المال أو على السلطة، أي سـواء اعتمد على منطق الاقتصـاد أو على منطق السيـاسة، يشكل نظاما أداتيـا، لأنه لا يتعامل مع الذوات والأشخاص ومع عـلاقاتهم إلا من زاوية اعتبار المشاركين في التفاعل أدوات لبعضهم بهدف النجاح.

إن القيمة العامة، هنا، تتمثل في المنفعة، أي أن المشاركين في التبادل، وخصوصا فيما يتعلق بوسـاطة المال، يـؤثرون أو على الأقل يمكنهم أو يؤثـروا في الاختيارات المتبـادلة للعـروض، دون مـراعات الـروح التعـاونيـة المفترضة في النشـاط التـواصلي. ولـذلك فإن المردودية هي التي تشكل المقيـاس الذي يسـاعد على حساب النجـاح. وبشكل عام فإن " التفـاعلات الاستراتيجيـة تفهم، هي كذلك، بـوصفها تفـاعلات مُعبَّرا عنهـا بواسطـة اللغـة، ولكن داخل هـذا النمـوذج، فـإن أفعـال الكـلام نفسهـا تماثل الأفعـال الهادفـة للنجاح. ذلك أنه بالنسبة للذوات الفاعلة في النمو الاستراتيجي والباحثة، بشكل مباشر،

---

(1) Ibid, P.418.
(2) Ibid, P.419.

عن تحقيق مشـاريعهـا العملية فإن التـواصل بـواسطـة اللغـة يمثل وسيلة مثل الـوسـائل الأخرى. " (1).

أما نماذج النشاط غير الاستراتيجية فإنها تفترض ما يسميـه هابرماس بـ " الاستعمال التفاهمي " (2)، وذلك أنه في النشـاط المنظم بواسطـة معايير، فإن وظيفـة التفاهـم تتمثل في تنشيط وتحيين الاتّفـاق المعيـاري المحترم من طرف الجماعـة. ومن ثَمَّ فإن مفهـوم النشـاط المنظم بواسطة معـايير لا ينطبق على سلوك فاعل منعزل بقدر مـا ينطبق على أعضاء جماعة يُوَجِّه نشاطها بواسطة قيم مشتركـة. فالفاعل المعزول يخضع أوْلاً يَخْضَع لمعيار ما في الوقت الذي تقدم فيه وضعيـة معطاة الشروط المناسبة لتطبيق هذا المعيار. إذ أن المعايير تُعَبِّر عن اتفاق موجود داخل الجماعة الاجتماعية. إن " المفهوم المركـزي لملاحظـة المعيـار يشيـر إلى كونه يطابق انتظـارات السلوك المُعَمَّم " (3).

وتحديد عملية الاتفاق المعياري بين أعضاء الجماعة يعني أن المعنيين بإيقاع التفاعل يميـزون بين العنـاصر المعيـاريـة والعناصر الحديثـة الملازمـة للـوضعيـة التي يحصل فيهـا التفاعل. أي أنهم يميزون بين الوسائل والشروط التي تنظم الحقوق والواجبات وبالتالي فإن نموذج النشـاط المعياري يفترض أن المعنيين بشأن التفـاعل قادرون على تبني مـوقف يجعل منهم موضـوعا للنظـر والسؤال وعلى اتخاد مـوقف مطابق للمعـايير في نفس الآن. أي أننا نفترض أن المشـاركين في التفاعل يـربطون عـلاقـات مع العالم بطـريقة تجعلهم، أيضـا، يتحكمون في هذه العلاقـات بواسطة اللغة ويوظفونها من أجل أهـداف تفاهمية. ومن ثمَّ فالفـاعلون لا يـرجعون، مباشرة، إلى عنـاصر العالم الموضـوعي، الاجتماعي أو الذاتي على أساس أن التفـاهـم يقوم بـوظيفة "آلية لتنسيق الفعل بطـريقة تجعل المشـاركين في التفاعل يتفـاهمون حول الصـلاحيـة التي تطالب بها تلفُّظَـاتهم، بمعنى أنهم يعترفـون، تداوتيـا، بادعاءات الصلاحية التي يتراسلونها بشكل متبادل " (4).

وإذا أراد كل فـاعل خلق نوع من التفـاهم فإنـه يتعين عليه أن يعبر في تلفُّظـه عن ثلاثـة ادعاءات للصلاحية. أي أن يكـون ملفوظه صحيحـا ودقيقا وصادقا. فـالمتحدث " يطالب بحقيقة الملفوظات أو القضايا من حيث الـوجود، وبدقة الأفعال المنظمة بطريقة مشروعة وبسياقها المعياري وبصدق تمظهرات التجارب الذاتية " (5).

---

(1) Ibid, P.421.
(2) Ibid, P.421.
(3) Ibid, P. 422.
(4) Ibid, P. 429.
(5) Ibid, P.430.

ويعتبر هابرماس أنه إذا سلمنـا بأن النشاط يعني التحكم في الوضعية المعطاة، فإن مفهوم النشاط التواصلي يحدد مظهرين إثنين من مظـاهر التحكم في هذه الوضعية، يتعلق الأول بالجانب الغائي المرتبط بتحقيق مشروع عملي، ويتعلق الثاني بالجانب التواصلي الذي يهم تأويل الوضعية والوصول إلى اتِّفاق معين.

ومن أجل تعميق مفهوم النشاط التواصلي ودعمه نظـريا، لجأ هابرماس إلى إدخال مفهوم العـالم المعيش. فإذا كان التواصـل في حاجة إلى سيـاق فإن العالم المعيش لا يقتصر دوره على توفير بعض عناصر هذا السياق، لأنه يشكل كـذلك خزانا من القناعات يعمل المشاركون في التفاعـل على استلهام بعض علاماته ورموزه لاتباع الحاجـة إلى التفاهم الذي يتولد داخل وضعية محددة، بواسطة التأويلات القابلة لخلق الإجماع. وقد أدخل هابرماس العالم المعيش بوصفه "خَلْفِيَة للنشاط التواصلي"[1].

أي أن المشـاركين في التـواصل، ومن أجل التفـاهم حـول وضعيـة خـاصـة بهم، يرتبطون بتراث ثقـافي يستمدون منه بعض العناصر، ولكن بالعمل على تحديـدها. ولذلك فإنـه "من الزاويـة الوظيفيـة للتفاهم، يعمل النشـاط التواصلي على نقل وتجديـد المعرفـة الثقافيـة، ومن وجهة نظـر تنسيق الفعل فإنـه يقوم بوظـائف الاندمـاج الاجتماعي وخلق التضامن، أمَّا من زاوية التنشئة، أخيرا، فإن النشاط التواصلي يقوم بدور تشكيل الهويات الفردية"[2].

فالبنيات الرمزية للعالم المعيش يعاد إنتاجها من خلال الاحتفاظ بالمعرفة الصالحة، أي ما يمثل الجانب المحتفظ بصلاحيتـه في التراث الثقافي والعمل على تجديده، ومن جهة ثانية، العمل على استقرار أشكال التضامن بين أعضاء الجماعة، ثم من جهة ثالثة تكوين فاعلين مسـؤولين. إن عـمليات الإنتـاج هذه تربـط الأوضاع الجديدة بـالأشكال القـائمة للعالم المعيش، وهذا الـرباط يتم على الصعيد الدلالي للمعاني والمضـامين المتعلقة بالتراث الثقافي، وعلى صعيد المجـال الاجتماعي للجماعات المندمجة اجتماعيـا، وأيضا على مستوى الزمن التـاريخي، أي تعاقب الأجيال. وفي مقابـل هذه العمليات المتعلقة بإعـادة الإنتاج الثقافي والانـدماج الاجتماعي والتنشئة هنـاك ما يسميه هـابرماس بـ "المُكَوِّنات البنيـوية للعـالم المعيش والمتمثلـة في الثقـافـة والمجتمـع والشخص. على اعتبـار أن "الثقـافـة هي الذخيرة المتوفرة للمعرفة التي يستمد منهـا المشاركون في التواصل تأويلاتهم حينما يتفاهمون

(1) Ibid, P.434.
(2) Ibid, P. 435.

حول شيء ما ينتمي إلى العالم" (1) أما المجتمع فهو "الأنظمة المشروعة التي ينظم، بواسطتها، المشاركون في التواصل انتماءهم للجماعات الاجتماعية ويضمنون، بذلك تضامنهم" ثم يضيف هابرماس، إنه يفهم من الشخصية تلك "الكفاءات التي بفضلها تكتسب الذات قدرتها على الكلام والفعل وبالتالي على المشاركة في عمليات التفاهم وعلى تأكيد هويتها الخاصة" (2).

وهكذا فإن الحقل الدلالي للمضامين الثقافية والمجال الاجتماعي والزمن التاريخي يشكلون الأبعاد التي تتطور فيها الأنشطة التواصلية، أي أن التفاعلات التي تنسج شبكة الممارسة التواصلية اليومية تُكَوِّن الوسط الذي من خلاله تتم إعادة إنتاج الثقافة والمجتمع والشخص. وهذه العمليات الثلاث تتعلق بالبنيات الرمزية للعالم المعيش، أي أنها تحصل، بشكل مختلف عن العمليات التي تتم على صعيد النشاط الغائي.

فإعادة الإنتاج المادي تكون في سياق النشاط الموجه من أجل غاية أي من خلال ذلك النشاط الذي يقوم به الأفراد الاجتماعيون أثناء تدخلاتهم في العالم لتحقيق أهدافهم.

ولذلك فإن النشاط التواصلي والنشاط الاستراتيجي باعتبارهما نمطان من النشاط الاجتماعي يشكلان بدائل بالنسبة للفاعلين أنفسهم، إذ أن المشاركين في التفاعل لهم القدرة على الاختيار بين الموقف التفاهمي أو البحث عن النجاح. والتحليل، وحده، هو الذي يسمح بالتمييز بين بنيات النشاط الغائي وبنيات النشاط التواصلي. "وفي إطار التفاعلات الاستراتيجية فإن وسائل التواصل تستعمل في اتجاه استخدام اللغة بالقياس إلى النتائج المتوخاة: بخلاف النشاط التواصلي، فإن تكوين الإجماع بواسطة اللغة لايؤدي وظيفة الآلية التي تسمح بتنسيق الأفعال. إذ أنه في النشاط التواصلي يضع المشاركون في التفاعل مشاريعهم العملية موضع التنفيذ آخذين بالاعتبار الاتفاق الحاصل من خلال وسائل التواصل، بينما تحافظ الأنشطة المنسقة على خاصية الأنشطة الغائية" . (3)

وهكذا فإن النشاط الغائي يعتبر مُكَوِّنًا للنشاط التفاهمي وللنشاط الذي يستهدف النجاح في نفس الوقت. وفي كلتا الحالتين فإن الأفعال يتم ترجمتها في سياق التدخلات التي يقوم بها الفاعلون في العالم الموضوعي.

---

(1) Ibid, P. 435.
(2) Ibid, P. 435.
(3) Ibid, P. 442.

ويعتبر هابرماس أن الأنشطة الاستراتيجة والأنشطة التواصلية تشارك في إعادة الإنتاج المادي للعالم المعيش بواسطة النشاط الغائي، في حين أن إعادة الإنتاج الرمزي للعالم المعيش تتوقف على النشاط التفاهمي بشكل تام. ومن البديهي أن الأساس المادي يشكل شرطا ضروريا للحفاظ على البنيات الرمزية للعالم المعيش. غير أن "اكتساب التقاليد وتجديد أشكال التضامن وتنشئة الأفراد يتطلب كل ذلك تأويلا عفويا للتواصل اليومي، وبالتالي وساطة تتمثل في تكوين الإجماع بواسطة اللغة، إذ أن التفاعلات التي يتم فيها تعامل الشخص مع الآخر بوصفه موضوعا يجب التأثير عليه لا يتصل بهذا التداوت المؤسس بواسطة اللغة، ففي إطار التأثيرات المتبادلة يستحيل نقل المضامين الثقافية وإدماج الجماعات الاجتماعية وتنشئة المراهقين". [1]

وباعتبار أن التفاهم ينسق بين الأفعال، فإنه يفترض، في نظر هابرماس، أن الأطراف المشاركة في التفاعل تتفاهم حول صلاحية تعابيرها وتعترف، تذاوتيا، بادعاءات الصلاحية التي تعلن عنها بشكل متبادل. فالفاعل حين يصوغ تعبيرا ما أو يقوم بتدخل ما فهو يرجع، بطريقة أو بأخرى، إلى عالم محدد، وبالتالي فإن تعبيره أو تدخله يكون قابلا للنقد. وهكذا فإن "مفهوم النشاط التواصلي يفترض اللغة باعتبارها وساطة من أجل عمليات التفاهم ضمن طبيعة خاصة، أي عمليات يتم فيها الإعلان عن ادعاءات الصلاحية من طرف الأطراف المعنية، والتي يمكن أن تُقْبَل أو ترفض". [2]

ولذلك فإن الأطراف المشاركة في التفاعل تُعَبِّىء كل إمكاناتها العقلية من أجل الوصول إلى التفاهم، أي أن المشاركين في التفاعل بهدف تحقيق الإجماع، عليهم أن يحترموا، في ادعاءات الصلاحية التي يعبرون عنها، حقيقتها ودقتها وصدقها. ففي أثناء الفاعلية التواصلية يتوقف التفاعل على الإمكانية التي يتوفر عليها المشاركون على التفاهم بشكل متبادل، حول تقييم صالح لعلاقاتهم بالعالم. ومن ثمَّ فإن النموذج العملي لانجاح هذا التفاعل يتمثل في الحصول على إجماع بين مختلف المشاركين على اعتبار أن هذا الإجماع يتوقف على المواقف الإيجابية أو السلبية المتخذة إزاء الادعاءات المعتمدة على الحجج والبراهين.

طالما أن الاتفاق أو الاختلاف يقاس بادعاءات الصلاحية المعلن عنها بصورة متبادلة، وطالما أن هذا الاتفاق أو الاختلاف لا يحصل بسبب ظروف خارجية، فإنه يعتمد،

---

(1) Ibid, P.443.
(2) Habermas (J) : "théorie de l'agir ...", Tl, op? cit, P. 115.

بشكل تام، على الحجج التي يحوزها المشاركون في التفاعل باعتبار أن هذه الحجج تُشَكِّل، في نظر هابرماس، المحاور التي يستند إليها التفاهم. فالحجة تُعَبِّر عن القدرة على القيام بتأويل عقلي، وبالتالي فإننا "لا يمكن أن نفهم الحجج إلا إذافهمنا الأسباب التي تجعل منها حججا قوية" (1)

لكن ماهي الدلالة التي يعطيها هابرماس للتفاهم؟ وللإجابة على هذا السؤال يشير، منذ البداية، إلى أن التفاهم ينظر إليه بوصفه اتفاقا بين ذوات قادرة على الكلام وعلى الفعل، لأنه من المحتمل جدا أن نجد جماعة من الأشخاص تشعر بنوع من التقارب والوحدة بسبب نزوة أو موقف مزاجي يصعب علينا تحديد مضمونه القضوي أو الكشف عن الموضوع القصدي الذي يتمحور حوله، فهذا النوع من الوحدة في نظر هابرماس، لا يستجيب لشروط الاتفاق الذي يؤسس لعمليات التفاهم. ولذلك فإن "اتفاقا محصل عليه بطريقة تواصلية في الفاعلية التواصلية هو اتفاق متميز قضويا. وبفضل هذه البنية اللغوية فإن الاتفاق لا يمكن أن يستنبط من جراء تأثير ذي مصدر خارجي، لأنه يجب أن يقبل بوصفه صالحا من طرف المشاركين ولهذا السبب فإنه يتميز عن التوافق concordance . . . ذلك أن عمليات التفاهم تصبو إلى اتفاق يستجيب لشروط التصديق المبرر، عقلانيا، لمضمون تعبير ما. ومن تم فإن اتفاقا محصل عليه من خلال التواصل له أساس عقلاني . . . إنه يستند إلى قناعات مشتركة" (2).

فأفعال الكلام التي يعلن عنها شخص ما لا تتوفق إلا إذا قبل شخص آخر العروض التي تتضمنها وذلك باتخاذ موقف (ضمني) بنعم أولا إزاء ادعاء للصلاحية قابل لأن يُنْتَقَد. لذلك فإنه كما تعلن الذات عن ادعاءاتها للصلاحية فإن الآخر يعترف أو يرفض هذه الادعاءات اعتمادا على حجج ممكنة. فالتفاهم ملازم للغة الإنسانية ولكن بدون أن يعني ذلك أن التفاهم يرجع إلى اللغة كما هو الأمر بالنسبة للغاية والوسيلة، ولكننا "لا يمكننا تفسير مفهوم التفاهم إلا إذا بيَّنَّا ما يعني استعمال الجمل بقصد تواصلي. إن مفهومي الكلام والتفاهم يتدخلان بشكل متبادل. ولهذا السبب يمكننا تحليل الخصائص التداولية الصورية للموقف الموجه نحو التفاهم باتخاذ موقف الأطراف المعنية بالتفاعل كنموذج. حيث تقوم فيه الأولى في الحالة البسيطة، على إنتاج أفعال للكلام، وتتخذ الأخرى، بالقياس إلى هذه الأفعال، مواقف بنعم أَوْلَا (حتى ولو أن التعابير المنتجة

(1) Ibid, P. 132.
(2) Ibid, PP. 296-297.

في الممارسة التواصلية اليومية ليست لها، في غالب الأحيان شكلا لغويا واضحا، أو شكلا شفويا بصفة عامة) " [1].

ولكننا حيث نتحدث عن التفاهم فإننا نسلم بأننا متفقون على معنى الفهم أي متفقون على المستويات الثلاث التي يكون على كل مشارك في التفاعل أن يحترمها لتحقيق غرض الفهم. ولهذا فإن المستمع يفهم التعبير أولا، أي يدرك دلالة ما يقال، ثم يتخذ هذا المستمع موقفا بالإيجاب أو بالسلب، بالقياس إلى ادعاء معلن مع فعل للكلام ثانيا ؛ أي أنه يقبل أو يرفض العرض الذي يقترحه فعل الكلام. ونتيجة اتفاق ما يُوَجِّه المستمع فعله حسب المتطلبات القائمة بشكل توافقي ثالثا. ويرى هابرماس أن "المستوى التداولي للاتفاق الفعَّال من أجل تنسيق يربط المستوى الدلالي لمفهم المعنى بالمستوى التجريبي لتحول لاحق للاتفاق الدال بهدف متابعة التفاعل " [2].

ولكن ما معنى فهم جملة تواصلية مستعملة؟ أو بلغة أكثر تبسيطا، ما معنى فهم تعبير معين؟ للإجابة على هذا السؤال يلاحظ هابرماس أن هذا السؤال هو الذي يشكل منطلق نظرية الدلالة المُؤسَّسَة على التداوليات الصورية. فالدلالة الصورية تقوم بقطيعة مفهومية بين ما تدل عليه جملة معينة وما يريد متحدث ما قوله، لأن الدلالة النصية لجملة ما لا يمكن تفسيرها في استقلال عن الشروط التي تُحدِّد مقاييس استعمالها التواصلي.

المهم أن عملية فهم تعبير ما تتم في سياق معرفة بالشروط التي يقبل فيها هذا التعبير من طرف أحد المستمعين، أي " أننا نفهم فعلا للكلام إذا عرفنا ما يجعله مقبولا" [3].

لذلك فإن هابرماس يلح في تصوره للفاعلية التواصلية على احترام سياقات التفاعل وعلى اعتبار العالم المعيش مجالا جوهريا يسند النشاط التواصلي ويزوده ببعض رموزه وعلاماته. وانطلاقا من هذا الاعتبار فهو يؤكد على ما يسميه بـ "التأويل التعاوني" لمختلف أشكال النشاط، وذلك بهدف خلق إجماع مبني على العقل ومتحرر من كل أشكال الضغط والإكراه. فالمشاركون في هذا الإجماع أو التأويل يرجعون، في نفس الوقت، لأشياء في العالم الموضوعي والعالم الاجتماعي أو العالم الذاتي. وفي عملية رجوعهم إلى هذه العوالم يدركون ضرورة إدخال شيء من النسبية على ادعاءاتهم، لأنهم يفترضون

(1) Ibid, P. 297.
(2) Ibid, P. 306.
(3) Ibid, P. 307.

إمكانية الخطأ أو إمكانية الاحتجاج على هذه الادعاءات أو نقدها . من هنا يلزم الانتباه إلى مستويات التواصل " فالتفاهم يعني موافقة المشاركين في التواصل على صلاحية تلفظ ما ، في حين أن الاتفاق يعنـي الاعتراف الذاتي بادعـاء الصلاحيـة التي يعلن عنـه المتحدث في شأنه "(1).

ولقد أشرنا فيما قبل إلى أنه يتعين على كل ادعاء للصلاحية أن يراعي حقيقة الادعاء ودقتـه وصـدقـه ، لأنـه لا يمكن تحقيق أي إجماع إذا قَبِل مشـارك مـا حقيقـة تعبير معين وشكَّك في دقته المعيـارية ، كما أنه لن يحصـل الإجماع في الوقت الذي يقبل فيـه المشارك في التفاعل الصـلاحية المعيـارية لنظام مـا ، ولكن ليست له أيـة ثقة في جـدية الإرادة التي لا يكف عن الإعلان عنهـا . وبالتالي فـإن الفاعلية التـواصلية تفترض من المشاركين متـابعة مخططـاتهم وقراراتهم في سيـاق اتفـاق متبادل وعلى أسـاس التعـريف المشترك للوضعيـة ، بمعنى آخر أن " الممارسة التـواصلية الجارية تدخل في سياق عـالم معيش يتحدد من خلال التقاليد الثقافية والتنظيمات المشروعة والأفـراد المندمجين اجتماعيا . فالأعمال التأويلية تعيش على رأسمال إجماعي داخل العالم المعيش "(2).

غير أن قـوة المعقوليـة الحاضرة في التفـاهم بواسطـة اللغـة يتعين تنشيطها وتحيينهـا عنـدما يتقـدم تعميم التعليـلات والقيم . فالضغط بـاتجاه العقلنـة والذي يقـوم به العـالم المعيش حين يدخل في وضعية إشكالية ، يزيد من الحاجة إلى التفاهم . ومن ثم فإن العمل التأويلي وخطر الانشقاق (الذي يتنامى حين تؤخذ الطاقات النقدية بعين الاعتبار) يُعْلِنان عن نفسيهما .

إن هذه الوضعية هي التي تستدعي تـدخل بعض الوساطات مثل المال أو السلطة لتنظيم أو إعادة تنظيم إيقاع التفاعل ، ولكن من منطلق التأثير على المشـاركين فيه وتوجيه أنشطتهم حسب غايـة محددة . في حين أن الفاعليـة التواصلية تستنـد ، في جوهـرها ، على الثقـة المبررة عقليا وتعتمـد على أخـلاق تفـاعلية تعترف بـالقـوة البرهـانية للمشـاركين في التواصل .

ويمكن القول إن هـابرمـاس لا يفصل بين النشاط التـواصلي وفعل العقلنة ، وبأن نظريتـه المعيارية في الحداثة تـدمج التواصل والعقلنة ضمن جـدلية تعطي للفعل البشري أبعـاده العملية المبـدعة . فهـو يرى أن ادعـاءات الصلاحيـة التي تُصَاغُ في شكل أفعـال

(1) Habermas (J) : "Théorie de l'agir...", T2, op. cit, P.133.
(2) Ibid, P. 200.

للكلام لا يمكن فهمها إلا من منطلق أخلاق فلسفية معيارية تتكىء في تصورها للفاعلية التواصلية على التداوليات الصورية وعلى نظرية خاصة للبرهنة.

لذلك فإنه يسمي تواصلية "تلك التفاعلات التي يتفق فيها المشاركون على تنسيق خططهم العملية بمهارة عقلية. وحين يحصل التوافق الذي يتحدَّدُ بالقياس إلى الاعتراف التذاوتي بادعاءات الصلاحية. وحين يتعلق الأمر بعملية تفاهم لغوية واضحة، فإن الفاعلين باتفاقهم على شيء ما، يُعْلنون عن ادعاءاتهم للصلاحية، أو بشكل أدق، عن ادعاءاتهم للحقيقة وللدقة أو للصدق حسب رجوعهم إلى شيء ينتج في العالم الموضوعي (بوصفه بمجموعة حالات من الأشياء الموجودة) أو في عالم الجماعة الاجتماعية (باعتبارها مجموعة من العلاقات الشخصية المتداخلة، والقائمة بشكل مشروع داخل الجماعة الاجتماعية) أو في العالم الذاتي الشخصي (باعتباره مجموعة من التجارب المعيشة التي لكل واحد امتياز معيشتها). وإذا كان النشاط الاستراتيجي يتميز بكون الواحد يؤثر في الآخر تجريبيا (سواء بتهديده بعقوبة ما أو بإغرائه بمكافأة معينة) وذلك للحصول على الاستمرارية الموجودة للتفاعل، ففي النشاط التواصلي كل واحد يُحَفَّز عقلانيا من طرف الآخر للفعل بطريقة مشتركة وذلك بمقتضى مفعولات الالتزام الكلامي الملازمة لما نقترحه من أفعال الكلام " (1).

إن هابرماس، وكما سبق أن أشرنا إلى ذلك، أراد أن يعيد النظر في إشكالية العقلنة كما صاغها الخطاب الفلسفي الغربي منذ القرن الثامن عشر إلى الآن، وأن يكشف عن الجوانب "الباتولوجية" للحداثة في المجتمع الصناعي الغربي. وذلك كله من أجل صياغة عقل قادر على محاسبة آلياته ومحاكمة إنتاجاته، وفي استطاعته المساهمة في بلورة إجماع مستقل عن كل أشكال السلط ذات النزوع الهيمني.

فالتفاهم عند هابرماس، يتحقق في اللغة ومن خلالها، سواء تعلق الأمر بملفوظ لغوي أو بفعل إنساني يقوم به الفرد داخل إطار معايير قابلة للتحليل، لأنها تُعَبِّر عن تواصل لغوي عقلي. إذ التفاهم لا يكون إلا نتيجة ادعاءات للصلاحية تراعي قواعد المعقولية والحقيقة والدقة والصدق، وتستند إلى الحجج والبراهين. وبمعنى آخر أن نظرية الفاعلية التواصلية عند هابرماس تنبذ كل شكل من أشكال السيطرة والعنف وترفض اللاعقلانية التي أنتجتها الحداثة الغربية في سياق توظيفها لقدرات العقل وإمكانات الفرد

(1) Habermas (J) : "Morale et communication", op. cit, P. 79.

والجماعة. ولذلك فإن هَمَّ هابرماس بقدر ما يشمل القضايا الأساسية في الفكر الغربي، بقدر ما يركز على تَفَاصيل الحياة العادية والعَوالم المعيشة بما تتضمنه من ثقافة ورأسمال رمزي وآليات اجتماعية ومؤسسات تربوية . . . إلخ.

غير أن هذا الفيلسوف، المتعدد الاهتمامات والمُسْتَلْهِم لأكثر من علم اجتماعي، لم يكتف بالقول بنظرية للفاعلية التواصلية تُسْنِدُ مفهومه للعقلنة وللتحديث، بل عمل على تدعيم هذه النظرية بتداوليات صورية وبإجراءات برهانية وحاول اقتراح بعض عناصر ما سماه بـ "أخلاقيات التواصل" داخل المناقشة العامة التي يفترضها المجال العمومي الحديث. كل ذلك من أجل أن يتصالح عقل الحداثة مع حداثته وحداثة العقل مع عقلانيته.

2. التداوليات الصورية وأخلاقيات المناقشة

إن التجربة التواصلية تأتي من العلاقة التفاعلية التي تربط شخصين، على الأقل، داخل العالم المعيش وفي إطار من التوافق اللغوي والتذاوتي. ومن تم فإن كل شخص أو فاعل يملك القدرة على الكلام والفعل يمكنه أن يشارك في التواصل، وأن يعلن عن ادعاءاته للصلاحية، لكن شريطة أن يراعي مقاييس المعقولية والحقيقة والدقة والصدق.

وتأكيد هابرماس على هذه المقاييس يرجع سببه إلى إلحاحه على قضية التفاهم داخل مجال عمومي حديث لبلورة نوع من "النظرية الإجماعية للحقيقة" من جهة، وإلى حرصه على نسج علاقات تواصلية غير خاضعة لأي نوع من أنواع الضعف والسيطرة من جهة أخرى. ولذلك فإن نظرية الفاعلية التواصلية، بالرغم من تأكيدها على أهمية التفاعل اللغوي أو بسبب هذا التأكيد، فإنها تؤدي إلى التفكير في شروط إمكان ماهو مجتمعي نفسه، وبالتالي إلى التفكير في المجتمع بصفة عامة.

وقد تبين لنا أن النشاط التواصلي يتضمن معقوليته الخاصة، تتمثَّل في ذلك النشاط المُوَجَّه نحو التفاهم، بينما النشاط الموجه نحو النجاح فإنه مرتبط بالنشاط الاداتي. كما ظهر لنا أن الفاعلية التواصلية هي عبارة عن صياغة جديدة لمسألة العقلانية في الفكر الغربي، وحين يدعو إلى نظرية للمجتمع فإنه ينظر إليها من زاوية المفاهيم الأساسية للأنشطة العقلانية، ومن تم فإن نظرية الفاعلية ليست مرتبطة فقط بنظرية المجتمع ولكنها تؤسس، كذلك، لنظرية في المعرفة.

إن اهتمام هابرماس باللغة والمعنى والحقيقة والتواصل والبرهنة المرتبط، بشكل أساسي، بإشكاليته المركزية المتعلقة بالعقلنة والحداثة استدعى منه ــ أي هذا الاهتمام - تطويره وتعميقه بقاعدة نظرية نعتها بـ " التداوليات الصورية " والتي يرى أن وظيفتها تتمثل في " إعادة بناء شروط الإمكان الكلية للتفاهم " (1). على اعتبار أن كل فاعل تواصلي يقوم بفعل للكلام مضطر للتعبير عن ادعاءات كلية للصلاحية على أساس أنه يَقْدر على تبريرها للمشاركة في أي عملية من عمليات التفاهم. بمعنى آخر أنه يتعين على كل متكلم أن " يختار تعبيرا معقولا لكي يتمكن المتكلم والمستمع من تفهم الواحد للآخر، والمتكلم يجب أن تكون له نية توصيل مضمون قضوي حقيقي لكي يتمكن المستمع من مشاطرة معرفته، وعلى هذا المتكلم أيضا، أن يعبر عن مقاصده بصدق، لكي يتمكن المستمع من تصديق تلفظ المتكلم (والثقة به) وأخيرا يتعين على المتكلم اختيار تلفظ دقيق بالقياس إلى المعايير والقيم الجاري بها العمل، لكي يتمكن المستمع من قبول هذا التلفظ، بطريقة تجعل المتكلم والمستمع في وضعية القدرة على الاتفاق على التلفظ ذي الخلفية المعيارية " (2).

فالهدف من التفاهم هو الوصول إلى نوع من الاتفاق يؤدي إلى التذاوت المشترك وإلى التفهم المتبادل والثقة المتبادلة وإلى التقارب في النظرات والآراء. وهذه الأبعاد من التذاوت تقابلها ادعاءات للصلاحية تتمثل في المعقولية والحقيقة والدقة والصدق والتي يستند عليها كل شكل من أشكال الاتفاق. ومن تم فإن " التفاهم هو العملية التي من خلالها يتحقق اتفاق معين على الأساس المفترض لادعاءات الصلاحية المعترف بها باتفاق مشترك " (3).

غير أنه بمجرد ما يوضع الإجماع موضع سؤال ويتعرض ادعاء ما من ادعاءات الصلاحية للطعن أو أن المشارك في التفاعل لا يقدر على تبريره والدفاع عنه، فإن النشاط التواصلي يَخْتَل بل ويتوقف طالما أن إحدى شروط استمراره انعدمت. وفي هذه الحالة، يرى هابرماس، إما أن يحصل انتقال من الوضعية التواصلية التي افتقدت شرطا من شروطها العقلانية، إلى النشاط الاستراتيجي، وإما توقيف التواصل، وإما استئناف النشاط التفاهمي على صعيد الخطاب البرهاني لمعالجة ادعاء الصلاحية المُعَرَّض للاختلال، وذلك بواسطة المناقشة. ويعتبر هابرماس أن دلالة الإجماع الأساسي، أي الاعتراف المشترك لادعاءات الصلاحية المعبّر عنها بشكل متبادل تتمثل - أي هذه الدلالة - فيما يلي :

(1) Habermas (J) : "Logique des sciences sociales", op. cit, P. 329.
(2) Ibid, P. 331.
(3) Ibid, P. 332.

ـ "إن كـان الأمـر يتعلق بتحقيق تـواصل في اتجاه نشـاط تفـاهمي، فإن المتكلم والمستمع يعـرفـان، ضمنيـا، بأن على كـل واحـد منهما أن يعبر عن هـذه الصـلاحيـات المذكورة؛

ـ كلاهما يفترضـان أنهما يحققان، فعليا، هذه الافتراضـات للتواصل، بمعنى أنهما مُفَوَّضين للتلفظ بادعاءاتهما للصلاحية؛

ـ هذا يتضمن الاقتناع المشترك بأن ادعاءات الصلاحية المعبَّر عنها في كل مرة، أنها إما مبررة (كما هـو الشأن بالنسبـة لمعقوليـة الجمل المتلفظ بها) أو يمكنها أن تكـون كذلك (كماهو حال الحقيقة والصدق والدقـة). وذلك لأن الجمل والقضايا والمقاصد والتلفظات المعبر عنها تستجيب لشروط المطابقة في كل مرة" [1].

إن شروط صلاحية جملة صحيحة من النـاحية النحوية، أو قضية حقيقية أو تعبير قصدي صادق أو تلفظ ملائم للسياق والدقيق من الوجهة المعيارية، وهذا يجب تمييزه عن الادعاءات التي يطـالب بها المتحدثـون بالاعتراف التداوتي، بأن الجملـة مُكَوَّنـة جيدا وأن القضية حقيقيـة وبأن التعبير القصدي صادق وبأن فعل الكلام دقيق، تمييـز كل هذا عن عملية تبرير ادعاءات الصلاحية المعبر عنها بطريقة مشروعة. وتبرير هذه الادعاءات يعني أن الشخص الذي يقترحهـا يقدم ما يكفي من العنـاصـر لكي تكـون هـذه الادعـاءات مقبـولة أو أنه يرجع إلى التجارب للقيام بذلك، وإما أنه يعتمد على البراهين وعلى النتائج العملية على أساس أن يبرر صلاحيتها بطريقة تفضي إلى التذاوت والتفاعل ضمن الظروف المناسبة. يُسمِّي هـابرماس البرنامج الهادف إلى إعادة بناء القـاعدة التي من خلالها يمكن تبرير ادعاءات الصلاحيـة بـ "التداوليات الكلية". أي أن هابـرماس لا يهتم باللغة، في سياق التداوليـات الكلية، من زاوية اعتبارها نسقـا من الرموز له تركيبـه النحوي ومعجمه وصوتياته . . . إلخ أو لـه خصائصه الدلالية وتمظهراتـه اللغوية المختلفة، فقط، بل يهتم باللغـة من منظور خصـائصها التـداولية كذلك. فـاللغة عنـده تُشَكِّل نسقا من القـواعد تسـاعد على تـوليـد تعبيرات لدرجـة أن كل تعبير مصـاغ بشكل صحيح يعتبر عنصرا من عنـاصر هذه اللغـة. ومن ثمَّ فإن الذوات القـادرة على استعمال هذه التعبيرات تشـارك في عمليات التواصل لأنها تستطيع التعبير وفهم الجمل والجواب عليها.

ويرى هابرماس أن اللغة، وكـذا الكلام، أي استعمال الكلمات في تلفظات، قابلة للتحليل الصـوري. فـالـوحـدات الأوليـة للغـة (الجمل) والـوحـدات الأوليـة للكـلام

(1) Ibid, P. 332.

(التلفظات) قابلة للتحليل من وجهة النظر المنهجية التي تسعى إلى إعادة بناء عقلي للمفاهيم والمقاييس والقواعد. ومن أجل تبرير هذا الاختيار المنهجي يدخل هابرماس في تحليل مُفَصَّل لمفاهيم التجربة الإدراكية أو الملاحظة، والتجربة التواصلية أو التفهم، بكل ما يترتب عن ذلك من علاقات إبستمولوجية بين أفعال التجربة وموضوعاتها وارتباط الفهم بالتعبير الرمزي، ومن علاقات وصفية لمجال محدد من الواقع في شكل مضمون دلالي، أو من علاقات تعبيرية لأفعال قصدية تتعلق بالتعبير عن الفهم في شكل مضامين قضوية أو مضامين . . . إلخ.

وهابرماس في تحليله للأبعاد الصورية والكلية للتداوليات يحاول ما أمكن الاستفادة مما يسميه بـ "التأويل المتعالي" (1) لاسيما عند كانط وعند الاستعمال الذي يقوم به "كارل أوتو آبل" لهذا التأويل، لأن هابرماس يعتبر "أن البنيات الكلية للخطاب يجب أن تدرس أولا وقبل كل شيء من جانب مسألة التفاهم وليس حسب التجربة، وبمجرد ما نقر بهذا الواقع فإن المقارنات مع الفلسفة المتعالية (كيفما قمنا بفهمها) تأتي في الدرجة الثانية" (2).

إن القصد الأساسي لنظرية أفعال الكلام المرتبطة بالتداوليات الكلية يتمثل، عند هابرماس، في الصياغة الموضوعية للوحدات الأولية للخطاب (التلفظات) وذلك بتبني الموقف الذي بموجبه تصوغ اللسانيات الوحدات اللغوية بشكل موضوعي (الجمل). ومن تم فإن التحليل الذي يسعى إلى إعادة بناء اللغة يهدف إلى الوصف الواضح للقواعد التي يتعين على المتكلم المقتدر امتلاكها لتكوين جمل نحوية والتعبير عنها بطريقة مقبولة. فالوحدة الأولية للخطاب تتمثل في فعل الكلام، والوحدة الأولية للغة تتجلى في الجمل. إذ "بالقياس إلى شروط الصلاحية تتمايز هذه الوحدات، فالجملة المصاغة جيدا من الناحية النحوية تستجيب لشروط المعقولية، وعلى من يشارك في التواصل أن يكون مستعدا للتفاهم بالتعبير في كل مرة، عن ادعاءات الحقيقة والصدق والدقة، ومفترضا، بشكل متبادل، إن هذه الادعاءات محترمة. ومن تم فإن الجمل تكون موضوع تحليل لساني بينما أفعال الكلام تكون موضوع تحليل تداولي" (3).

---

* إن هابرماس يدخل، في سياق تحليله لهذه القضايا، في نقاش مُطوَّل مع مختلف النظريات اللسانية والمنطقية، وعلى رأسها التحليل المنطقي للغة واللسانيات البنيوية ونظريات أخرى، وذلك كله من أجل تبرير الاستعمال الصوري للتداوليات.

(1) Ibid, P. 354.
(2) Ibid, P. 358.
(3) Ibid, P. 367. - 368.

ويرى هابرماس أن هناك ثلاث وظائف للتداوليات الكلية، تتمثل الأولى في وصف شيء ما بواسطة جملة معينة، والثانية في التعبير عن قصد المتكلم؛ والثالثة في إقامة تذاوتية بين المتكلم والمستمع. وهذه الوظائف الثلاثـة تكون مُتَضَمَّنة في كل الوظائف التي يمكن لتلفظ ما القيام به حسب السياقات المختلفة. وهذه الوظائف تقاس بالشروط الكلية للصلاحية المُتَمَثلة في الحقيقة، الصدق والدقة. " إن نظرية الجملة الأولية تدرس المضمون القضوي حسب معايير تحليل الملفوظ من نوع الدلاليات الصورية، ونظرية التعبير القصدي... تدرس المضمون القضوي المتعلق بالمتكلم، حسب معيار العلاقة بين ذاتية وتذاوت اللغة، وأخيرا إن نظرية أفعال الكلام تدرس القوة الكلامية حسب معيار التحليل التفاعلي لإقامة العلاقات المتداخلة بين الأشخاص " (1). ما يهم هابرماس هو النظر في الشروط التي تسمح بنجاح أفعال الكلام من منظور قابلية هذه الأفعال لأن تكون مقبولة، أي أن نظرية النشاط التواصلي، بحكم تأكيدها على النشاط الموجه صوب التفاهم، تحكم على فعل للكلام بأنه مقبول في الوقت الذي يصُوغ المتكلم قضية جدية، بل ويصوغها بصدق في نفس الوقت، أي أن النموذج الذي أدخله يتمثل في تواصل " تدمج فيه القضايا النحوية بواسطة ادعاءات الصلاحية الكلية، بالعلاقات الثلاثة مع الواقع، مضطلعا من خلال ذلك بالوظائف التداولية المرتبطة بالتقديم الوصفي، وإقامة علاقات متداخلة بين الأشخاص والتعبير عن الذات " (2).

ويمكن تلخيص النموذج اللغوي الذي يقترحه هابرماس من منظور التداوليات الكلية على الشكل التالي : إنه يعتبر أن هناك قطاعات محددة من الواقع تتمثل في ما يسميه بالطبيعة الخارجية والمجتمع، الطبيعة الداخلية واللغة، تقابل هذه القطاعات مباشرة أنماط محددة من العلاقات مع الواقع. وهذه الأنماط هي : الموضوعية، المعيارية، الذاتية، والتذاوت. هذه الأنماط تقابلها ادعاءات الصلاحية المتمثلة في الحقيقة، الدقة، الصدق والمعقولية، كل هذا تقابله وظائف كلية لأفعال الكلام تتمثل في تقويم حالة الأشياء وإقامة علاقات متداخلة بين الأشخاص والتعبير عن التجارب الذاتية.

ولذلك يرى هابرماس أن نواة التداوليات الصورية تتكون من خلال تحليل الافتراضات التداولية الكلية، لأفعال الكلام أولا، لأن الأمر يتعلق بالدور التداولي الذي تلعبه ادعاءات الصلاحية القابلة للنقد والتي تتطلب اعترافا تذاوتيا وتحيل إلى القدرة على

(1) Ibid, P. 370.
(2) Ibid, P. 409.

تقـديم ما يكفـي من الحجج لتبرير ذلك. ومـن ثمَّ فإن كل فعل تفـاهمي للكلام مأخـوذ بشكل عام يمكن أن يُسْتَبْعَدَ أو يرفض في جوانب ثلاثة "من جانب الدقة التي يطالب بها المتكلم من أجل الفعل المقصود المرتبط بسياق معياري (أو المرتبط مبـاشرة بالمعايير نفسها) ومن جانب الحقيقة التي يُطالب بها المتكلم من خلال تلفظـه... للافتراضات الوجودية المتعلقة بمضمون ملفوظ إسمي. وأخيرا من جانب الصدق الذي يطالب به المتكلم لتلفظ تجارب معينة.." [1]. لذلك فإنه يتعين على القصد التواصلي للمتكلم أن يقوم بفعل دقيق بالقياس إلى السياق المعياري المعطى لتحقيق عـلاقة تذاوتية بينه وبين المستمع على أساس أن تكون هـذه العلاقة معترف بها بطريقـة مشروعة. كما أنه يجب عليـه أن يعبر عن ملفوظ حقيقي (أو افتراضـات وجوديـة صحيحة) يساعـد المستمع على تبني أو مشـاطرة معـرفة المتكلم، ومن جهـة ثالثـة عليه أن يُعبِّر عن آراءه ومقـاصده وعـواطفه وآمالـه... إلخ. بطريقة صادقة لكي يتمكن المستمع من الثقة فيما يقال له.

أمـا من الناحيـة الثانيـة، فإن تحليل ادعـاءات الصلاحيـة الذي يهدف إلى وحـدة القناعات المعيارية وإلى معرفة قضوية وإلى ثقة متبـادلة يُوفِّر ـ هذا التحليل ـ المفتاح الذي يسعـف على تعيين الوظائف الأساسيـة للتفاهـم بواسـطـة اللغة. وهكـذا فإن اللغة لها وظيفة "أ ـ إقامـة العلاقات بين الأشخاص وذلك برجوع المتكلـم إلى عناصر عالم الأنظمة الاجتماعية المشروعـة؛ ب ـ تقـديم أو افتراض حالات الأشيـاء والأحداث، وذلك بـرجوع المتكلم إلى عناصر عالم حالات الأشياء الموجودة؛ د ـ إبراز التجارب المعيشة، وذلك برجوع المتكلم إلى عناصر العالم الذاتي" [2].

تقابل هـذه الوظائف من النـاحية الثالثـة، أنماط أساسية لاستعمال اللغـة. ويرى هابـرماس أن هناك بعض النماذج الكـلامية التي تحوز طابعا كُلِّيـا، فالوعـود والأوامر تُمَثِّل الاستعمال المُنَظِّم، الملاحظـات والتأكيـدات تُعبِّر عن الاستعمال التقـريـري، والاعتراف للاستعمال التعبيري للغة.

ثم يعتبر هـابـرمـاس رابعا، أن أنـواع الاستعمال التـواصلي الخالص، ـ وقبل كل الحالات النموذجية لاستعمال القضايا المعيارية، التأكيدية والتعبيرية العادية، ـ تقدم نماذج جيدة بهدف تحليل العـلاقات مع العـالم والمواقف الأساسيـة التي يتعين على المتكلم تَبنِّيها بالـرجوع إلى عنصر ينتمي إلى أحد العـوالم الثلاثة. فأمـام مفاهيم العالم الموضـوعي والعالم

(1) Ibid, P.439.
(2) Ibid, P.439.

الذاتي والعالم الاجتماعي نجد موقفا موضوعيا attitude objectivante حيث يدخل ملاحظ محايد في علاقة مع شيء وقع في العالم؛ وموقفا تعبيريا attitude expressive حيث تعطي الذات صورة عن نفسها بطريقة تجعلها تكشف عن جزء من حياتها الداخلية، وأخيرا هناك الموقف المتوافق مع المعايير حيث يجيب عضو في جماعة اجتماعية على الانتظارات المشروعة بالنسبة لسلوكه وذلك بالتقيد بها أو بمخالفتها.

إن هابرماس بعد تحليله لمقاييس وقواعد ووظائف اللغة ضمن تصوره للتداوليات الصورية التي يعتبرها اجتهادات ضرورية لأسناد نظرية الفاعلية التواصلية، يؤكد على أن نظرية النشاط التواصلي لها أبعاد فلسفية واضحة مرتبطة بنظرية المجتمع تجعل من التواصل الاجتماعي قاعدة جوهرية لمفاهيمها فضلا عن أنها تقدم مساهمة واضحة لنظرية الدلالة.

فالتداوليات الصورية بتتبعها للمقاربة الدلالية للحقيقة تُرْجع "تفهم تلفظ معياري للغة إلى معرفة الشروط العامة التي يمكن لمستمع ما قبول تلفظ معين. ولذا فإننا نفهم فعلا للكلام حين نعرف ما يجعله مقبولا. . . وإننا نقر بأن فعلا للكلام يمكن أن نسميه (مقبولا) حين يستجيب للشروط الضرورية التي تساعد المستمع على الجواب بنعم على الادعاء المُعَبَّر عنه من طرف المتكلم"[1]. أي أن هذه الشروط لايمكن أن تتوفَّر بطريقة أحادية أو متعلقة بالمتكلم فقط أو بالمستمع فقط، بل إنها تتعلق بالاعتراف التذاوتي لادعاء يتم الإعلان عنه بواسطة اللغة بحيث يؤسس، نوع فعل الكلام المستعمل، اتفاقا خصوصيا، من حيث مضمونه، على المتطلبات الدلالية لضمان استمرارية التفاعلات.

يضاف إلى ذلك أن نظرية النشاط التواصلي، وكما تبيَّن لنا من كل ما تقدم، تقترح الكشف عن العقل الملازم لممارسة التواصل اليومي وإعادة بناء "مفهوم غير اختزالي للعقل"[2]، انطلاقا من قاعدة صلاحية الخطاب. أي أنَّنا حين ننطلق من استعمال غير تواصلي للمعرفة العضوية، بسلوك أفعال غائية فإننا سنتخذ قرارا مسبقا لصالح مفهوم العقلنة المعرفية الأداتية، غير أن هذا المفهوم "مُثْقل بالاعتبارات المتعلقة بفعالية تأكيد الذات المتحققة بفضل الاستغلال الجيد للشروط المعطاة من طرف بيئة محتملة وبفضل التكييف الذكي لهذه الشروط نفسها"[3].

في حين أنه حين ننطلق من استعمال تواصلي لمعرفة قضوية ـ أي ما نقوم به بواسطة أفعال الكلام ــ فإننا نتخذ موقفا مسبقا لصالح مفهوم أكثر اتساعا للعقلنة وهذا المفهوم

(1) Ibid, P/ 445.
(2) Ibid, P. 445.
(3) Ibid, P. 445.

المتعلق " بعقلنة تواصلية مثقل بـاعتبارات ترجع في نهاية المطاف إلى التجربـة المركزية للقوة الخاصة بالخطاب المبرهن عليه، القادر على خلـق اتفاق بدون ضغـوط، وعلـى إحـداث إجماع بواسطة هـذا الخطاب المبرهن عليه، باعتبار أن مختلـف المتكلمين يتجاوزون الذاتية الأصلية لتصوراتهم، وبفضل وحدة قناعاتهم المبررة عقليا يضمنون وحدة العالم الموضوعي وتذاوت حياتهم في نفس الوقت " (1).

ويرى هابرماس أن التعـارض بين العقل الغائي الاداتي والعقل التواصلي هو نتيجة للمحـاولة الخاطئـة التي عَمِلَت على تفريق جـانب العقل الأداتي عن مفهوم العقل الـذي يتضمنـه. لاشك أن التوجهـات العقـلانية تمايـزت لـدرجة أن التهييء التأملي للمشـاكل المتعلقة بـالحقيقة والعدل والجمال يخضع لمنطق مختلف في كل مـرة، غير أن " وحدة العقل تُضْمَن من خلال طريقة العمل، أي الأسلوب الـذي يتمثل في تبرير ادعاءات الصلاحية بواسطة البراهين. وانطلاقا من الأدوار المتمايزة التـي تلعبها ادعاءات الصلاحية في النشاط التواصلي، فإن نظـرية البرهنة مـؤسسة على تداوليـات صورية يمكنهـا التمييز بين مختلف أشكال المناقشة، وتوضيح العلاقات الداخلية الموجودة بين هذه الأنواع من المناقشة " (2).

وهنا ننتقل إلى مستـوى آخر من الحديث عن الفاعلية التـواصلية عند هابـرماس. فهـو حين يؤكـد على أهميـة نظـرية البرهنـة والتـداوليات الصـوريـة، وعلى مـا يسميه بـ " أخلاقيات التـواصل ". أي أن للتواصل معايير أخلاقية تنظم تبـادل الأفكار وادعاءات الصلاحية من خلال المناقشة. فكل ما هو عقلي عنـد هابرماس، هو قابل للمناقشة، لأن كل دلالـة مقترحـة من طـرف شخص مـا تُشَكّل قضيـة مَعْنَى، وكل قضيـة معنى يمكن مناقشتهـا في إطار مقـولة الصـلاحية. وإذا كـان يتعين علينا أن نبرهن على كل صـلاحية انطـلاقا من الحجج الممكنـة فإن الـدلالات والتحولات " نـوع من الخطـاب، تصوغ فيـه الأطـراف المعنية، ادعـاءات للصـلاحية تكـون موضع خـلاف، وتحاول قبـولها أو نقدهـا بواسطـة البراهين. وكل برهان يتضمن حججـا مرتبطة، منهجيـا، بادعاءات الصـلاحية للتعبيرات الإشكالية. إن " قـوة " برهان ما تقـاس، داخل سياق معين، بصحة الحجج، وهـذه الصحة تظهـر من بين مـا تظهر فيـه، في قـدرة تعبير معين على إقناع المشـاركين في المناقشة وعلى تبرير قبول ادعاء ما للصلاحية " (3).

---

(1) Ibid, PP. 445-446

(2) Ibid, P.446.

(3) Habermas (J) : "Théorie de l'agir ..." Tl, op. cit, P. 34.

لذلك فإن نتيجة التفاعل، داخل الفاعلية التواصلية، تتوقف على الإمكانية، التي يحوزها المشاركون على التفاهم، بشكل متبادل، حول تقييم صَالِح لعلاقاتهم بالعالم. ومن تم فإن الأسلوب الوحيد لتحقيق التفاعل هو الحصول على إجماع بين المشاركين على أساس أن هذا الإجماع يتوقف، هو بدوره، على المواقف الإيجابية أو السلبية المتخذة اتجاه ادعاءات الصلاحية المُعتَمَدة على الحجج.

إن القول بالبرهنة وبالتفاهم يقتضي في تَصَوُّرَ هابرماس، طرح مسألة التفهم والتأويل. على اعتبار أن التأويل هو القدرة التي نكتسب في الوقت الذي نتعلم كيف نتمكن من لغة طبيعية، وبالتالي فإنه "يتعلق، بالفعل بفن تفهم المعنى القابل للتوصيل، وبتوضيح هذا المعنى حين يكون التواصل مُختَلاً. إن تفهم المعنى يستهدف المضامين الدلالية للخطاب، ولكنه يستهدف أيضا الدلالات المُثْبَتَة فيما هو مكتوب أو المتضمنة في الأنساق الرمزية غير اللسانية. لاسيما إذا كان من الممكن، مبدئيا، إعادة ترجمتها في مصطلحات خطابية" (1). ويعتبر هابرماس أنه ليس صدفة أن يَتَحَدَّث، بهذا الصدد، عن فن التفهم وفن التفسير. لأن القدرة التي يمتلكها كل متكلم على التأويل يمكن أن تصاغ بشكل أسلوبي متقن لدرجة يصبح فيها فنا. لذلك فإن هناك علاقة بين هذا الفن وبين فن الإقناع. بل إن نفس الحالة تقريبا تنطبق على البلاغة أو الخطابة التي تعتمد على قدرة ملازمة للأهلية التواصلية لكل متكلم والقابلة لأن تتطور إلى مهارة خاصة.

وبدون أن ندخل الآن في تفصيل موقف هابرماس من الوعي التأويلي ومن المناقشات والسجالات التي أجراها مع مجموعة كبيرة من الفلاسفة الألمان في هذا الموضوع، وعلى رأسهم "هانس جورج غادامير" و "هانس ألبير" و "كارل أوتو آبل"، وهي سجالات من أعمق كتابات هابرماس في دفاعه عن تصوراته وأطروحاته، قلت قبل أن نشير إلى ذلك نود التركيز الآن على ما يسميه بـ "منطق المناقشة".

ولقد تبين لنا من خلال استعراضنا للنظرية الإجماعية للحقيقة أن هذه النظرية تدعي الوصول إلى الحقيقة اعتمادا على عمليات صورية للمناقشة. أي أن نتيجة المناقشة لا يمكن التقرير في شأنها بواسطة الاعتبار المنطقي، أو بواسطة الاعتبار التجريبي، وإنما من خلال "قوة أفضل برهان"، هذه القوة يسميها هابرماس بـ الحافز العقلي"، وبالتالي فإن منطق المناقشة في أساسه، لايمكن إلا أن يكون منطقا تداوليا، على اعتبار أنه يدرس

(1) Habermas (J) : "Logique des sciences sociales", op. cit, P. 239.

الخصائص الصورية التي تقدمها السياقات البرهانية، لأن البرهان يَتَمَثَّل في التحليل الذي يجب أن يحفـزنا على الاعتراف بـادعاء صـلاحيـة تَأْكِيدٍ أو أمـر أو تقييم معين. لاسيما وأن هابرماس يؤكد على أن البرهنة تظهر في "سلسلة من أفعال الكلام وليس من القضايا" [1]. لأن الانتقال بين الوحـدات التداولية للخطاب لا يمكن أن تتأسس بطريقـة منطقية محضة أو بطريقة تجريبية خالصة.

فتقدم المعـرفة، في نظر هابـرماس، لا يحصل إلا بنقد اللغة. لـذلك يمكن اعتبار الإجماع المحصل عليه بـواسطة البرهنـة مقياسـا للحقيقة، شريطـة أن تكون مسألـة اللغة التبريـرية ممكنـة. فالبرهنـة لا يمكنها أن تـدعي الوصـول إلى القوة الإجماعيـة إلا إذا تمت مُسَاءلة ومراجعة اللغة التي يُعبِّر بها الناس عن حاجياتهم.

ويميز هـابرماس، في سياق حـديثه عن المناقشة، بين المنـاقشة النظرية والمنـاقشة العملية. وهو يرى أن شكل المناقشة النظرية يساعد على التجذير التَّدْرِيجي و "على التأمل الذاتي للذات الفـاعلة للمعرفة". أمـا المناقشة العملية فهي تسعف كـذلك على التجذير التدريجي" وعلى التأمل الذاتي للذات المُتَدَخِّلة في الفعل" [2] ومهما كانت طبيعة المناقشة، فإن القوة الإجماعية للبرهـان تستند إلى اعتبار أن الناس يتوصلـون إلى تحقيق الإجماع بالرغم من تذبذبهم بين أنـواع المناقشات. لأن المُهم هو أن الإجماع المُحَصَّل عليـه بالبرهنة يشكل معيارا كافيا لتبرير الادعاءات الخطابيـة للصلاحية شريطة أن تَضْمَنَ الخصائص الصورية للمناقشة حرية الانتقال من مستوى من المناقشة إلى مستوى آخر.

وهـذه الخصائص الصـورية يـربطها هـابرمـاس بما يسميه بـ "الوضعيـة المثاليـة للكلام situation idéale de parole إن "وضعية الكلام التي لا تُعَرْقَلُ فيها التواصلات لا بسبب الأفعال الخارجيـة أو الطارئة، ولا بسبب الضغوط الملازمة لبنية التـواصل نفسها أسميها "مثالية". ذلك أن الوضعية المثاليـة للكلام ترفض التشويهات المنظمة للتواصل، لذلك فإنه لكي لا تولد بنية التواصل أي ضغط فإنه يجب على كل المشاركين في المناقشة أن يكون لهم حظٌّ متعـادل في اختيار وإعلان أفعـال كلامهم" [3]. فبنية التـواصل التي تميز الوضعية المثاليـة للكلام تستبعد التشويهات المُنَظَّمة وتضمن بشكل خـاص حرية الانتقال من الفعل إلى المنـاقشة والعكس صحيح. ومن ثمَّ فـإن الرجـوع إلى وضعية مثـالية معينـة

(1) Ibid, P. 308.
(2) Ibid, P. 320.
(3) Ibid, P. 323.

للكـلام، هو الـذي يسمح للمشاركين في التفـاعل، بإمكانيـة التمييز بين إجماع عقـلاني مُحَصَّل عليه بواسطة البرهنة وإجماع خادع. ومن هنا يتعين إدخال الأخلاق في التواصل بين النـاس. ذلك أن النشاط التـواصلي من زاويـة التـداوليات الصـوريـة يساعـد على إدراك الظواهر الأخلاقيـة داخل العالم المعين، لاسيما وأن هذا النشاط تتحرك فيـه الذات الفاعلة اعتمادا على ادعاءات الصلاحية.

ويعتبر هابرماس أن مفتاح أخلاقيات المناقشة يتكون من الافتراضين التاليين :

" الافتراض الأول يتمثل في كـون الادعـاءات المعياريـة للصـلاحيـة تتضمن معنى معرفيا ويجوز التعامل معها بوصفها ادعاءات للحقيقة ؛

والافتراض الثـاني يتمثل في ضرورة الدُّخـول في منـاقشة حقيقيـة لتأسيس المعـايير والأوامـر اعتمادا على العقـل، وهـذا يستحيل القيـام بـه، في نهايـة التحليل، بطـريقـة مونولوجية، أي بواسطة برهنة فرضية مفصلة فكريا "[1] ويرى هابرماس أنه لا يمكن ادعاء صلاحيـة أي معيار إلا إذا تمَّ الـرجوع إلى اتفـاق مبرر بالحجج العقليـة، أو أن يكون على الأقل اقتنـاع بأن هـذه الحجج يمكنها أن تُولِّد إجماعا مـا لتَبَنِّي معيار من المعايير الموصى بها. ولـذلك فإن " أفعال الإرادة الـلاعقلانيـة لـلأطراف المشـاركة في التقـاعد لاتـؤسس ادعاءات صـلاحية المعـايير، وإنما ما يـؤسس ذلك هو الاعتراف المبرر عقليـا بينهم، وهو اعتراف مسمـوح دائما بإعـادة صيـاغته بطـريقـة إشكـاليـة. ومن ثمَّ فإن العنصر المعـرفي للمعايير لا يختـزل إذن في المضامين القضـويـة للإنتظـارات السلوكية المقـابلة للمعـايير. فالإدِّعَاء المعياري للصلاحية هـو نفسه معرفي، بمعنى أنه يفترض دائما . . . بأنه يمكن أن يكون مقبولا في مناقشة عقلية أو بتعبير آخر أن يكون مُؤَسَّسًا على إجماع الأطراف المعنية وأن يكون مُتَّكِئا على براهين "[2].

إن المبـدأ الأساسي لأخـلاقيات المنـاقشـة يرجع إلى المسطـرة التي تـؤكد على تبريـر الادعاءات المعيارية للصلاحية بواسطة المناقشة. وهنا يلاحظ هابرماس أنه من الجائز جدا نعت هـذه المناقشـة بكونها منـاقشة صـورية لأنها لا تُكَـرِّس نفسها للتـوجيهات المتعلقـة بالمضمون بل للطـريقة الإجرائية أي للمناقشـة العملية، ذلك أن موضوع هـذه الطريقة لا يتمثل في إنتاج معـايير معترف لها بمشروعيتها بقدر مـا يتمثل في إمتحان صلاحيـة المعايير المقترحة أو المنظور إليها على سبيل الافتراض. لذلك يتعين، إذن، على المناقشات العملية

(1) Habermas (J) : "Morale et communication", op. cit, P. 89.
(2) Habermas (J) : "Raison et légitimité", op. cit, P. 146.

أن تَتَلَقَّى مضامينها من الخارج " (1). وبدون اتخاذ العالم المعيش أفقا أثناء المناقشة واعتبار الصراعات العملية الملازمة لوضعية يتحرك ضمنها المشاركون في التواصل، حيث يعملون على حل مشكل إجتماعي ما بواسطة الإجماع، بدون أخذ هذه المسائل بعين الاعتبار، فإن الرغبة في الدخول في مناقشة عملية، عند هابرماس، ليست لها أية أهمية.

بمعنى آخر أن المناقشات العملية ترجع إلى شكل من أشكال الحياة. أو على الأقل إلى التاريخ الفردي المعيش. لذلك فإن الشكلانية الأخلاقية في نظر هابرماس لها دور قاطع مثل الخنجر "يقطع بين "الجيِّد" و "الدقيق"، بين الملفوظات التقييمية والملفوظات المعيارية. حقا إن القيم الثقافية تكون حاملة لادعاءات الصلاحية التذاوتية ولكنها تكون في هذا الموضوع بالذات مأخودة في كلية شكل من أشكال الحياة الخاصة، بحيث لا يمكنها أن تدعي على الفور صلاحية معيارية بالمعنى الحصري " (2). ومن تم فإن المجال القابل لتطبيق أخلاقيات ذات طبيعة أدبية يتحدد في الوقت الذي يتعلق الأمر بمسائل عملية قابلة لأن تَخْضَعَ للمناقشة العقلية من أجل الوصول إلى الإجماع. لكن هابرماس يلاحظ من زاوية أخرى أن القول بتأسيس معايير اعتمادا على العقل كما تتطلع إلى ذلك أخلاقيات المناقشة يمكن أن يحتمل توليد نتائج عملية خطيرة لأن "تطبيق قواعد يتطلب فكرا عمليا سابقا على العقل العملي. فكر مُؤَوَّل في اتجاه أخلاقيات المناقشة ولكنه، بالنسبة إليها غير خاضع لقواعد المناقشة" (3) أي أن مبدأ أخلاقيات المناقشة لا يمكن أن يكون ساري المفعول إلا بالعمل على ربطه بالموافقات المحلية لعالم معيش معين، وإرجاعه إلى ما يسميه هابرماس بـ "محلية أفق تاريخي مُعْطَى" (4).

وأمام هذا النوع من التحديدات، فإن التاريخ يلعب دورا كبيرا في توجيه مسار المناقشات العملية، لأن أشكال التطبيق يمكن أن تزيف المعايير كما يمكن أن تحترم عناصرها، من هنا ضرورة تأسيس "أخلاقيات تواصلية" تضبط تدخلات الناس وتنظم أساليب تبادلهم؛ وهي أخلاقيات تجد في العقل مرتكزها ومرجعها.

بمعنى آخر إن هابرماس يؤسس أخلاقيات التواصل على مبادىء عقلية تستمد بعض عناصرها من التداوليات الكلية. لأن هذه التداوليات هي التي تسمح بالتفكير في الأساس الذي يجعل من التلفظات أو أفعال الكلام حقيقية أو دقيقة. ثم إن هابرماس

(1) Habermas (J) : "Morale et communication", op. cit, P. 125.
(2) Ibid, P. 125.
(3) Ibid, P. 126.
(4) Ibid, P. 126.

حين يؤكـد على المناقشة وعلى التواصل الاجتماعي فإنـه يُسَلِّم بأن التفاعل يتعين أن يحصل داخل مجال عمومي حديث يجمع بين العقلانية السياسية والمشروعية الديمقراطية .

ويبـدو أن هـابـرمـاس يجعل من الـديمقـراطيـة مبـدأ أسـاسيـا في تفكيره . لأن الديمقراطية "تتوقف على الإمكانية الأساسية بنقد التمثلات الاجتماعية والمعايير الأخلاقية وأشكال المشروعية السياسية ، وبدفعهـا نحو التطور في اتجاه ما نعتبره حقيقيا أو دقيقا" (1) أي أنـه يتعين الافتراض بأن الاعتقاد في مشروعيـة المعايير، بـالمعنى العام، ليس عبـارة عن مجرد ظواهر نفسية اعتباطية ، وإنما يرتبط بشكل وثيق بمسألة الحقيقة ، وبالتالي فإن عملية إضفاء طـابع المشروعية على شيء أو معيـار أو مؤسسة مـا ، هي عملية تابعـة للإشكـالية العامـة للحقيقة كما يتصورهـا هابرمـاس ، على اعتبار أن ما يتعين الاعتراف بـه في النشاط التـواصلي وفي التذاوت يخضع إلى الحجج القـابلـة أو القادرة على تبريـر ادعاءات حقيقـة الدلالات ودقة المعايير.

غير أن الحجج التي يتعين الاعتراف بها داخـل التـذاوت لا يمكن أن تكـون إلا براهين مُعبَّر عنهـا داخل سياق المناقشـة . ولهذا السبب يرى هابـرماس ، أن الديمقـراطية تعثر على شرطهـا الرئيسي في منطق النشـاط التواصلي الـذي تعمل التداوليـات الكلية على إعادة بنـائه ، ثم إن هذه التـداوليات تفترض ، هي بـدورها ، أخلاقـا تواصليـة تتخذ من المناقشة العقلية ومن البرهنة العمومية مبدءها العملي .

إن تطـور التمثـلات والمعايير والمشروعيـات يخضع لمنطق تـابع لمسألـة الحقيقـة كما تؤسسها التـداوليات الكلية ، التي تقوم بإعادة بناء الافتراضـات الكليـة للتفاهم الممكن بين الذوات الفاعلـة اجتماعيا ، وتأسيس معايير كلية للتذاوت التواصلي . سواء على صعيد الدلالات ونظريـة المعرفة أو على مستوى المثـال الأخلاقي والسياسي للممارسـة السياسية ، باعتبارهـا مناقشة عقلانيـة وبرهنة عموميـة ، وبالتـالي يكون الانتقـال من التداوليـات إلى الأخلاقيات تعميقا لمفهوم النشاط التواصلي والتفاعل المتحرر من كل ضغط أو سيطرة .

3 . الحداثة والعقل التواصلي

إن المجهود النظـري العام لهابرمـاس ، وكما تبين لنا ، يتمثل في الكشف عن العقل المرتبط والملازم للممارسـة التواصليـة اليوميـة ، وفي إعادة بنـاء مفهوم غير اختـزالي للعقل ،

(1) Ferry (J-M) : "Habermas, l'éthique de la communication", op. cit, P. 562.

اعتمادا على قاعدة صلاحية الخطاب. ذلك لأن العقلانية الغربية تعطي أولوية خاصة للعقل الغائي وللممارسات التي تستهدف تحقيق مصالح وغايات معينة. ولأجل ذلك تدمج أكثر من وساطة وعلى رأسها المال والسلطة لضمان التوازن الاجتماعي الذي يسمح بمبادرات تدخل في سياق النشاط الاداتي أو الاستراتيجي.

في حين أن ما يسميه هابرماس بـ "العقلانية التواصلية" فإنها تتأسس على الخطاب البرهاني الذي يحفز على خلق اتفاق بدون ضغوط، وعلى بلورة إجماع داخل بنية ديمقراطة، أو بالأحرى داخل مجال عمومي ينتزع فيه الفرد من ذاتيته الضيقة لينخرط في المجهود الجماعي المؤسس على التفاهم والتواصل العقلي.

لذلك فإن مفهوم التفاهم يحيل عند هابرماس إلى اتفاق مُبَرر عقليا يتوصل إليه مجموعة من المشاركين في التفاعل. وهذا الاتفاق يقاس، بالدرجة الأولى، بادعاءات الصلاحية القابلة للنقد وللمناقشة. إن ادعاءات الصلاحية المتمثلة في الحقيقة القضوية والدقة المعيارية والصدق الذاتي، تميز مختلف المقولات المعرفية المتجسدة رمزيا في تعبيرات محددة. فالمتكلم يدعي حقيقة ملفوظات، أو افتراضات متعلقة بالوجود، ويدعي دقة الأفعال المنظمة حسب المشروعية وحسب سياقها المعياري. كما يدعي الصدق بالنسبة لتوصيل التجارب الذاتية المعيشة. وهكذا فبمجرد ما يطرح مفهوم النشاط التواصلي في نظر هابرماس، تنسب هذه العلاقات الثلاث للمتكلمين وللمستمعين على السواء. لأن عملية التفاعل تُحددها مقاييس الحقيقة والدقة والصدق لتوفر شروط الإجماع الذي لا يقبل أن يحتكر التأويل من طرف جهة من الجهات، ذلك أنه "في الفاعلية التواصلية تتوقف نتيجة التفاعل نفسه على الإمكانية التي يمتلكها المشاركون للتفاهم، بشكل متبادل، حول تقييم صالح، تذاوتيا، لعلاقاتهم مع العالم. وحسب هذا النموذج من الفعل فإن النجاح الوحيد الممكن لتفاعل ما يتمثل في الحصول المشترك على إجماع ما بين المشاركين" (1).

ويبدو أن هابرماس من خلال كل أعماله وكتاباته، ولاسيما من منطلق اهتمامه بمسألة الحداثة في تمفصلها مع التواصل، يريد أن يؤكد على ما يسميه بـ "العقل التواصلي" كصيغة تركيبية لقضية الحداثة الغربية والعقلانية، سواء في تعبيرها الأنواري أو في تمظهراتها النقدية. صحيح أن فكر الأنوار يؤكد على عنصر النقد في دعوته العقلانية، لكن تطورات المجتمعات الصناعية وتطبيقات العقلانية، التي لاتكف عن التجدد

(1) Habermas (J) : "théorie de l'agir ...", Tl, op. cit, P. 122.

والتبدل، جعل الفكر الأنواري يستنفد طاقاته المفاهيمية من جهة، وتحول بشكل من أشكال إلى خطاب يضفي المشروعية على المجتمع الحديث من جهة أخرى.

إن هابرماس لاسيما في كتابه "المعرفة والمصلحة" ركز بوضوح على أهمية التأمل في الفلسفة المثالية الألمانية، باعتباره نمطا خصوصيا من المعرفة ووسيلة لممارسة النقد وإعادة بناء الأفكار والمفاهيم. لهذا أكد باستمرار في كتاباته الأولى على مسألة التأمل الذاتي. غير أنه ابتداءا من كتابة "منطق العلوم الاجتماعية" إلى "الخطاب الفلسفي للحداثة"، لم يكف عن الإلحاح على تغيير اتجاه الفكر الفلسفي، من فكر يهتم بالموضوعات وبالأشياء إلى فكر ينشغل بقضايا التفاهم بين الناس القادرين على الكلام وعلى الفعل. أي أن الأناحين تقوم بفعل للكلام، وأن الآخر حين يتخذ موقفا إزاء هذا الفعل، فإنهما - أي الآنا والآخر - ينسجان علاقة تذاوتية. ومشاركة الناس في النشاط التواصلي المصاغ بواسطة اللغة تجعل كل واحد منهم أمام علاقة أخرى غير تلك التي تسمح له باتخاد مواقف اتجاه الوقائع المادية الموجودة في العالم.

لذلك أكد هابرماس على أن فلسفة الوعي أو فلسفة الذات استنفدت كل طاقاتها، ويتعين إدخال مسألة التفاهم والتواصل لتنشيط التفكير الفلسفي في اللغة والزمن والذات والحداثة والعقل... إلخ وكذلك إعادة النظر في العقلانية الفلسفية الغربية منذ كانط إلى الآن. فكتابه "الخطاب الفلسفي للحداثة" يشكل نوعا من المُواكبة "الجنيالوجية" لمسألتي العقلانية والحداثة، للقول في الأخير بـ "العقل التواصلي" الذي يريده عقلا نظريا وعمليا من طِرَازٍ آخر.

فالعقل التواصلي هو الذي ينظم النشاط التواصلي، غير أن الحديث عن هذا العقل يستلزم استحضار أهمية التداوليات الصورية التي تُرتب أسس الخطاب البرهاني. والفرق الموجود بين التداوليات الصورية وبين نظرية النشاط التواصلي هو أن الأولى تبحث عن الشروط الممكنة للتفاهم، في حين تسعى نظرية النشاط التواصلي، باعتباره نشاطا موجها أساسا نحو التفاهم، إلى وضع شروط مجتمع ممكن. مادام التفكير في التواصل في شكله العقلاني البرهاني هو في العمق تفكير فيما هو مجتمعي.

إن نقد هابرماس للعقل الغربي لا يلتقي مع "النقد الجذري" الذي دشّنه نيتشه لهذا العقل، أو للفلاسفة الذين استلهموا منه أسئلتهم أو بعض أفكارهم. ذلك أن هابرماس يرى أن هذا النقد الجذري يفتقر إلى الانسجام "لا في نقد الميتافيزيقا أو في نظرية السلطة، إننا نجد أنفسنا مدفوعين، بالفعل، إلى وجوب الخروج من فلسفة الذات من

خلال مَخْرَج آخر " (1). ويتمثل هذا المَخْـرَج في الانتقال من عقل متمركز حـول الذات إلى عقل تواصلي.

من أجل الـوصول إلى الدعـوة إلى تغيير اتجاه النقد الفلسفي للعقل الغـربي، عمل هابرماس على مواكبة تجليات النقد في الفلسفة الغربية الحديثة منذ كانط إلى ديريدا، مرورا بهيغل والهيغليين الشباب ونيتشه وهايدغر والنظرية النقدية... ولاحظ أن القول بتفكيك العقلانيـة الغربية أو الانـزياح عن فلسفـة الوعي، لا يمكن أن تكون لـه نتائج محددة إلا إذا "تم استبدال الوعي بالذات والإحالة الذاتية لفرد يعرف ويفعل في العزلة، بنموذج آخر ـ أي نموذج التفاهم ـ حيث العلاقة التـذاوتية بين الأفراد الذين يعترفون ببعضهم البعـض والذيـن خضعوا للتنشئـة من خلال التـواصل " (2) ذلك أن النقـد يتخـذ لنفسـه، بهذه الطـريقـة، شكـلا واضحـا، لاسيما وأن هـذا النقـد "يتخلى عن الأصـالـة المبـالغ فيهـا للإنسحـاب نحو البدايـات العتيقة. إنه يفضل تحرير القـوة المشاغبة التي يحتـويها الفكر الحديث نفسه لتوجيههـا ضد النموذج الذي فرضه ديكارت ثم كـانط، أي نموذج فلسفة الوعي " (3).

ويظهر أن هابرماس بقدر ما يتبرم من العقـلانية الاداتية بقدر ما يتحفظ من النقد الجذري للعقل كما مارســه نيتشه وهايدغـر والفلاسفة الفرنسيين، لـذلك يعتبر أن فلسفته تُساهم في تغيير منطلقـات النظر الفلسفي بتحويل اتجاه نمط التساؤل وأسلـوب النظر إلى اللغة والـزمن والمجتمع. أي الانتقال من نمط للفكر وللفاعليـة مُوجَّه نحو غـاية إلى نمط للفاعلية مُوجَّه نحو التفاهم. وبالتالي تحويل مجال البحث من العقلانية المعرفية الأداتية إلى العقلانية التواصليـة "فما هو نموذجي بالنسة لهذه العقلانية ليست علاقـة الذات المنعزلة بشيء مـا في العالم الموضـوعي، القـابل للتمثل والاستخـدام، بل مـا هو نمـوذجي، على العكس من ذلك، هي العلاقـة التذاوتيـة التي يقيمها الناس القـادرين على الكلام وعلى الفاعلية، حينما يتفاهمون بينهم حول شيء معين " (4).

أي أن الناس الـذين يتدخلون بطـريقة تواصلية يتحـركون داخل "وساطـة" اللغة الطبيعية ويقومـون بتأويلات موروثة ثقـافيا، كما أنهم يرجعون في آن واحـد، إلى أشياء من

(1) Habermas (J) : "Discours philosophique de la modernité", op. cit, P. 356.
(2) Ibid, PP. 366-367.
(3) Ibid, P. 367.
(4) Habermas (J) : "Théorie de l'agir communicationnel", TI, op. cit, P. 395.

العالم الموضـوعي في العالم الاجتماعي المشترك، أو في العالم الـذاتي لكل واحد منهم. ذلك أنه من وجهة نظـر الشخـص المشــارك، فإن التفــاهم لا يعنـي "عملية تجريبية تـؤدي إلى اتفـاق حدثي، وإنما هـو عملية إقنـــاع متبـــادل تنســق أفعـال أطراف متعـددة تشــارك في أســاس التعليل بـواسطة الحجج. إن التفاهم يعني التواصل من أجل اتفاق صالح"(1).

ولكي لا نـدخل من جديـد في استحضار أهميـة التفاهم وعـلاقته باللغـة والمعنى والفهم والحقيقة والإجماع، نشير إلى أن هـابرماس يسمى العقلانيـة بأنها ذلك "الاستعداد الذي يبرهن عليه الناس القادرين على الكلام والفعـل، على اكتساب وتطبيق معرفة قابلة للخطأ"(2)، أي أن العقل المتمركز حـول الذات يجد معايير عقلانيتـه في مقاييس الحقيقة والنجاح الـذي تُنَظِّم عـلاقات الـذات العارفـة بعالم الموضـوعات، في حين أن العقـلانية التواصلية تُقَاس "بالقدرة التي يحوزها الأشخاص، المسؤولون والمشاركون في تفاعل ما على التوجه بالقياس إلى ادعاءات الصـلاحية التي تستند إلى اعتراف تذاوتي. فالعقل التواصلي يضع مقـاييس العقلنة تبعـا للعمليات البرهـانية التي تسعى إلى تبريـر ادعاءات الحقيقـة القضوية والـدقة المعيارية والصـدق الذاتي وأخيرا الانسجام الجمالي بطريقـة مباشرة أو غير مباشرة"(3).

ويؤكد هابرماس أن مفهوم العقل التواصلي يتضمن معنى مِسْطَرِيًا وإجرائيا. ولأنه يدمج الأبعاد العملية والأخلاقية والأبعاد الجماليـة والتعبيرية فإنه يظهر "أنه أكثر غنى من ذلك المفهوم الذي تقدمه العقلنة الغائية المنحوت على البعد المعرفي والأداتي".

ويضيف هابرماس أن مفهومه للعقل التـواصلي يعبر عن تلك الطاقة العقلية المنبثة في أساس صـلاحية الخطـاب. بل إن "العقـلانية التـواصلية تـذكر بـالتطورات القـديمة للـوغوس بمقـدار مـا تتضمن، على مستـوى المفهومـات، تلك الفضيلـة التي يمكن أن يحوزهـا خطـاب مـا على التـوفيق بـدون ضغط وعلى تـأسيس إجماع حين يتغلب النـاس المشاركون فيه بفضل توافق مُبرر عقليا، على التصـورات المطبوعة، أولا بالانحياز الذاتي. فالعقل التواصلي يعبر عن ذاته داخل فهم لا متمركز للعالم" (4).

---

(1) Ibid, P. 396.
(2) Habermas (J) : "Discours philosophique de la modernité", op. cit, P. 371.
(3) Ibid, P. 372.
(4) Ibid, P. 372.

تأكيد هابرماس على هذه الطبيعة المتميزة للعقل التواصلي يعني أنه يعتبر أن " العقل المتمركز حول الذات هو انقسام واغتصاب، أي أنه نتاج عملية اجتماعية شهدت، أثناء تلاحقها، لحظة ثانوية تحل محل الكل، بدون أن تكون لها القدرة الكافية على امتصاص بنية هذا الكل. إن هوركهايمر وأدورنو، على غرار فوكو، وصفوا العملية التطورية للذاتية، بوصفها تتخطى قدراتها الخاصة، وتتشيؤ كعملية على صعيد التاريخ الكلي. ولكن لا أحد منهم أدرك بأن هذه العملية كانت مسرحا لسخرية عميقة. وقد تطلب الأمر من الإمكان العقلي المتضمن في التواصل أن يتحرك فيما يُكَوِّن حداثة العوالم المعيشة، لكي تتمكَّن متطلبات الأنظمة الجزئية ــ الاقتصادية والإدارية ـ المنفلتة من سلاسلها، من القيام برد الفعل إزاء هذه المنطقة الهشة المتمثلة في الممارسة اليومية، ومن مساعدة المجال المعرفي والاداتي على وضع الجوانب المقموعة للعقل العملي تحت سلطته. وبتعبير آخر فإن تطور التحديث الرأسمالي جعل من إمكان العقل المتضمن في التواصل يظهر ويتشوه في نفس الوقت " (1).

ويبدو أن هابرماس بالرغم من الطابع المسطري الذي يعطيه للعقل التواصلي، فإنه يرى بأن هذا العقل معني بما يجري في الحياة الاجتماعية، على اعتبار أن أفعال التفاهم تلعب دور آلية تستهدف تنسيق مختلف أشكال الممارسة التي يقوم بها الناس داخل العوالم المعيشة. ذلك أن " الأفعال التواصلية تُمَثِّل نسيجا تتغذى منه مُكَوِّنات العالم المعيش وتُشَكِّل من خلال ذلك، وساطة، انطلاقا منها يُعَاد إنتاج أشكال الحياة الملموسة " (2).

ولقد رأينا كيف يربط هابرماس النشاط التواصلي بمفهوم العالم المعيش باعتباره عالما يُسْنِد الفاعلية التواصلية ويُزَوِّدها ببعض مكوناتها، سواء على صعيد الثقافة والمجتمع أو الشخصية، كما تعرضنا، كذلك لمسألة الممارسة كشكل من أشكال التدخل في العالم الاجتماعي وكنمط سلوك يخضع للمحاكمة العقلية. غير أن هابرماس بالرغم من تأكيده على أن التفاهم يُنَسِّق الأفعال العملية فإنه يرفض الاعتماد على المفهوم الماركسي للممارسة الاجتماعية. حتى ولو تصور البعض بأن نظرية النشاط التواصلي لا تمثل إلا تأويلا خاصا لفلسفة الممارسة. ولكنه مع ذلك فإنه يعتبر أن مهمة نظرية النشاط التواصلي تتمثل في " تصور الممارسة العقلية باعتبارها عقلا مجسدا في التاريخ، والمجتمع والجسد واللغة " (3).

---

(1) Ibid, P. 373.

(2) Ibid, P. 373-374.

(3) Ibid, P. 375.

لاشك أن هابرماس يعترف، كما رأينا أثناء حديثنا عن مفهوم الحداثة المعيارية عنده، بجانب مثالي في نظريته، بل إن هذه القولة الأخيرة تكشف عن خلفية هيغلية واضحة. والمتتبع لكتابات هابرماس، لاسيما الأخيرة منها، يلاحظ أنه لا يعثر على أي نص يدعو إلى الالتزام بالمنطلق المادي وكل ما هنالك هو الدعوة إلى تعويض مفهوم الممارسة باعتبارها عملا، بمفهوم النشاط التواصلي*.

كما أن القول بالنشاط المُوجَّه قياسا لادعاءات الصلاحية يستدعي إدخال نوع من مثالية العقل الخالص، وبذلك يتم استحضار ثنائيات فلسفة الوعي، من ترنسندنتالي وتجريبي. . . إلخ غير أن هابرماس يعتبر، جوابا على هذا التحفظ، أن "عقلا خالصا لا يمكن إلباسه لباس اللغة إلا بعد فوات الأوان، وهو عقل غير موجود. ذلك أن العقل يتجسد، فورا، في أنسجة النشاط التواصلي وفي بنيات العالم المعيش في نفس الآن" [1]. ذلك أن الممارسة التواصلية اليومية مُفكَّر فيها، لأن التفكير، أو التأمل، لم يعد قضية شخص منعزل، أو ذات مفكرة تنظر إلى العالم وتقيس معرفتها بالرجوع إلى ذاتها، بقدر ما أصبح التفكير يخضع للخطاب وللفعل داخل سياق تواصلي يشترط تبرير مختلف أشكال ادعاءات الصلاحية.

لا يوجد خطاب خالص في نظر هابرماس، ولا يمكن أن نتكلم عن عقل خالص في عملية التواصل والمناقشة، بل إن المثالي والواقعي متداخلان بشكل كبير في التفاعل، لأن المشاركين في التبادل البرهاني "يفترضون، بصورة متبادلة، أن شروط وضعية مثالية للكلام متوفرة ولو في حدها الأدنى، ومع ذلك، فإنهم يَعْرِفون بأن المناقشة لا يمكن أبدا أن تكون "مُصَفَّاة" من الدوافع المخفية ومن ضغوط الممارسة" [2].

ولكي لا ندخل، الآن، في تناول ردود هابرماس على منتقديه، يبدو أن التفاهم التذاوتي والاعتراف المتبادل بين الناس القادرين على الكلام وعلى الفعل يشكلان الإطار الذي يتأكد فيه العقل التواصلي، ليس فقط كأداة وإنما كقوة برهانية تُنَظِّم أشكال الممارسة كذلك. غير أن هذا العقل التواصلي، بحكم كونه يتحرك داخل مختلف أشكال الحياة العينية، فإنه يتأثر بتحولات الزمن والعلاقات، لدرجة أن هذه التحولات تفرض عليه "أن

---

* بصدد البعد المثالي لنظرية الفاعلية التواصلية يرد هابرماس على مجموعة من الانتقادات التي وجهت له في "الخطاب الفلسفي للحداثة" (صفحات 380 - 381 - 382) وهو يرى أن نظرية النشاط التواصلي تؤكد على أن إعادة الإنتاج الرمزي للعالم المعيش مقرونة بإعادة الإنتاج المادي لهذا العالم.

(1) Ibid, P. 381.
(2) Ibid, P. 383.

يتشعب في أبعاد الزمن التـاريخي، والفضاء والاجتماعي والتجارب المتمركـزة حول الجسد. فإمكان العقل الذي يحتويه الخطاب يمتزج بمكونات ressources عالم معيش خاص في كل مرة، لكن في الـوقت الذي يقوم فيـه العالم المعيش بوظيفـة المانح للمكونات تكـون له صفات معرفة حدسيـة ثابتة وحلولية holiste بحيث لا يمكن صيـاغتها إشكـاليا تحت الطلب كما أنها لا تُمثِّل أية معرفة "بالمعنى الدقيق في هذا الصدد" [1]. ويضيف هابرماس أن العـالم المعيش، باعتبـاره خزانـا يستمد منـه العقل التواصلي بعض مقـوماتـه، يتمكن المشاركـون، من خلاله صيـاغة ملفوظاتهم الجذيـرة بالمساهمة في خلق الإجماع، فإنـه ـ أي العـالم المعيش ـ "يسـاوي ما كـان يمكن لفلسفة الـذات من تحقيق التركيب والذي كـان مسنوبـا إلى الوعي بشكل عام. صحيـح أن العمليات المنتجة لا تـرجع، فيما يخصنا، إلى الشكل ولكن إلى مضمون تفـاهم ممكن. وفي هذا الإطـار، فإن أشكال الحيـاة العينية هي التي تعوض الـوعي المتعالي المُوَحِّد. وعبر البديهيـات التي تفرضها الثقافـة، وعبر أشكال تضامن الجماعة التي يَكون لنا عنهـا وعيا حدسيا، وعبر كفاءات ـ المُقَوِّمة بـاعتبارها معرفة عملية ـ الأفراد المندمجين اجتماعيـا، فإن العقل الذي يُعَبِّر عن نفسه في النشـاط التواصلي يقوم بـالوساطـة، مع التقاليد والممارسـات الاجتماعية ومركبـات التجارب المرتبطة بـالجسد والتي تذوب، في مجموعها، في كلية خاصة" [2].

إن هابرماس يسعى، من بين ما يسعى إليـه، من خلال تأكيده على التفاهم وعلى العقل التواصلي إلى اقتراح عناصر نظـرية نقدية للمجتـمـع. ولذلك فإن محاكمته للعقل الغربي في نظـرته للحداثة وللعقلانية وإدخاله لنظرية التواصل، استهدف من ورائها وضع بعض القواعـد لنظريـة فلسفية واجتماعية وسيـاسية تسمح بإمكـانية التفكير في الظـواهر المرضية للمجتمع الحديث. فالممارسـة التواصلية الجارية مُنْبَثَّة، كما رأينـا ذلك، في سياق العالم المعيش المحدد بواسطة التقاليد الثقافية، والتنظيمات المشروعة والأفراد الذين خضعوا للتنشئة الاجتماعيـة. ومن ثم فإن الكفاءات التأويليـة تنتعش اعتمادا على رأسمال إجتماعي داخل العالم المعيش.

غير أن إمكان العقلنة الموجود في التفاهم بواسطة اللغة يتم الكشف عنه بمقدار ما تُعَمَّمُ التعليلات وتنشر القيم وتتقلص المناطق الإشكـالية. ويبدو هنا أن هابـرماس متأثر بماكس فيبر بخصوص نظريته في العقلنـة وتوسعها، بل إن هابرماس يكـرر مرارا اسْتِلْهامه

(1) Ibid, P. 385.
(2) Ibid, P. 386.

لنظريـة فيبر ورغبته في إعـادة بنائهـا بسبب تركيـزها على الجانب الغـائي للعقلنة و إهمالها للفاعليـة التواصليـة . إلا أنه يُدخل عمليـة إعادة البناء هـذه ضمن تصور خـاص لمسألة التفـاهم ، لأنه يختـار " الشكل الحديث للتفـاهم الذي تبلـور منـذ القرن الثـامن عشر في الغرب ، واعتباره نقطة انطلاق لنظرية للحداثة مرتبطة بأطروحة العقلنة كما طورها فيبر" (1) بل إن هابرمـاس وتمشيا مع هذا المشروع ، عَمِلَ ، كما تَبَيَّنَ لنا ، على إدخال نظريـة الفاعلية التواصليـة لإبراز الأسس المعياريـة لنظرية نقديـة للمجتمع . من هنا ابتعاده عن فـلاسفة النظرية النقدية ، لأن نظرية النشـاط التواصلي تسعى إلى الحلول محل فلسفة للتاريخ لم يعد من الممكن استمرار تَبَنِّيها .

صحيح أن النظرية النقدية الأولى بشَّرت بنظـرية جديدة للمجتمع ، ولكنها انتهت إلى نوع من التشاؤم الوجودي من إمكانية التغيير و إعادة الاعتبار للفرد داخل مجتمع متعدد الأبعاد ، واستغرق بعض منظريها في عوالم يوتُوبية أو دينية كما حصل لماكس هوركهايمر.

في حين أن هابـرماس يـرى أن إدخال البعـد التواصلي في عمليـات العقلنة وتنظيم حركـات الحداثة حسب معايير متفق عليهـا وتوجيـه التفاعل بين الناس بنـاءً على أخلاق تواصليـة ، كل ذلك ، يقتضي الاهتمام بالعلوم الاجتماعية لبنـاء نظرية مجتمعية ذات تـوجه نقـدي . لا يتعلق الأمر بـانسحاب مـا للفلسفة ، و إنما بإعـادة تحديد دورهـا داخل الفهم الحديث للزمن واللغة والحقيقة ، ذلك أن " مفهوم العقلانية التواصلية ، الحاضر في الممارسة اللسانية المُوَجَّهة نحو التواصل يستدعي مجددا ، من الفلسفة القيام بعمل نسقي . فالعلوم الاجتماعية قـادرة على نسج علاقـات تعاون مع فلسفة تضطلع بمهمـة المساهمة في نظـرية للعقلنة " (2).

لقـد حصلت تحولات ابستمولـوجية لا حصر لها . وثَـوَرَات معرفيـة في كل مجالات التفكير، وذلك بـدون تدخل للفلسفـة ، كما يرى هـابـرماس ، فـالعلم الحديث والقانـون الوضعي والفـن والنقد . . . إلخ مجالات معرفيـة وجمالية تبلـورت كيانـاتها بـدون مساهمة الفلسفــة في ذلك ضرورة . بل " إنه بـدون معـرفة نقـد العقل الخالص والعقل العملي فإن أبنـاء وبنات الحداثـة يعرفـون كيف يسلسلون ويمـددون التقليد الثقـافي حسب الجوانب العقلية الثلاثة : أسئلة الحقيقة أسئلـة العدالة أو أسئلة الذوق " (3) غير أن هابرماس وضد

(1) Habermas (J) : "Théorie de l'agir ..." T2, op. cit, P. 216.
(2) Ibid, P. 437.
(3) Ibid, P. 438.

كل نزوع وضعي يـؤكد على أنه يتعين على العلم والأخلاق والفن أن يتـواصلوا فيما بينهم. لأنـه بتفاعلهم يمكـن الحديث عن نظريـة للمجتمع وعن دور محدد للفلسفـة. لا يتعلق الأمر، هنا بالدعوة إلى أن تبحث الفلسفة عن أسئلتها أو أجوبتها خارج ذاتها بل لأن تفكر في زمنها بالانفتـاح على المجالات المعرفية الأخرى مـن اللسانيات وعلم اجتماع وعلم نفس وعلم سياسة، وذلك لصياغة نظرية نقدية جديدة للكشف عن المظاهر المرضية للحداثة. ذلك أن النظريـة النقدية الأولى، بحكم اعتمادهـا على فلسفة التـاريخ، باعتبارهـا فلسفة ذات قواعد هشة" [1]، انتهت إلى الفشل، حتى حين أكـدت على معـارضة وعي الأفـراد بآليـات الدمج الاجتماعي، في حين أن النظـرية النقـدية المُستَنِدة إلى الفـاعلية التـواصلية تتميز بمـرونة كبيرة. ولكنهـا " لن تبرهن على خصوبتها إلا عبر بحـوث متقاطعـة للعلوم الاجتماعية والفلسفـة . . . وإذا لم تعد تـوفر العلـوم الاجتماعية شرارة أدنى فكـرة، في هذه الحالة، وفيها فقط، سينتهي زمن نظرية المجتمع" [2].

وفي سياق صياغة لعناصر نظرية نقدية للمجتمع لا يفوت هابرماس ضرورة التمييز بين العالم المعيش المتضمن للثقـافة والمجتمع والشخص، والذي يمنح النشـاط التواصلي بعض مقوماته، وبين أنظمة الممارسة المُنظَّمة بطريقة صورية قِيَاسًا إلى وسائل الضبط. أي أنه حين نمتلك نظريـة فعلية للتواصل لا نكون مضطـرين فقط إلى التصرف حسب نظرية الممارسة أو أن نتكلم عن الفاعلين وعن مصيرهم ومعـاناتهم، بل علينا أن نتكلم أيضا عن خصائص العالم المعيش الذي يتحرك فيه هؤلاء الفاعلون وأن نقوم بذلك بشكل جماعي إذا اقتضى الحال. لأن الحقيقة الممتلكـة من طرف الفيلسـوف المنعزل في عالمه الفـردي لم تعد مقنعـة في الزمن الحديـث. بل إن هذا الفهم النخبـوي للحقيقـة الذي أتـى من القدمـاء يشكل عنصرا أسطوريا يتعين نقده. لِهَذا السبب نفهم لماذا يُؤكـد هابرماس على "النظرية الإجماعيـة للحقيقـة". فهـو يـرى أن الحقـائق النظـريـة لايمكن أن تقـام "إلا في شكل إمكانيات للتفهم" [3].

لا يسعى هابرماس إذن إلى تشييد نسـق فلسفي على الطريقة الهيغلية أو الماركسية، لأنه بالرغم من رغبته في تأسيس مشروع فلسفي للحداثـة فإنه جعل من النقد مطلبا فكريا ضروريا، وعبَّر أكثـر من مرة، عن تَحفُّظه المبـدئي من كل نزوع نسقي لـه سمات الانغلاق

(1) Ibid, P. 420.
(2) Ibid, P. 422.
(3) Habermas (J): "Dialectique de la Rationalisation." (entretien), Les cahiers de philosophie, P.99.

وميولات الاستقطاب، لذلك اعتبر أن الحقيقة ليست رهانا فرديا في زمنية المجتمع الحديث ولا يمكن أن يكون نتاج اجتهاد عقلي متعالي لفيلسوف بعيـد عن حركة التاريخ. إن تأكيد هابرماس على الاتفاق والتوافق والإجماع والتفاعل هو تأكيد استلهمه من الاحتكاك المُباشر بالمناقشات السياسية والفكرية داخل المجال العمومي الحديث.

وهكذا وفي سياق اقتراحه لنظريته في المجتمع وانطلاقا مما سبق أن تعَرَّضنا له يمكن القول بأن هابرماس ركَّز في مشروعه على أربعة قضايا مركزية، عَمِل على صياغتها في شكل نظريـات أربعة وهي: أولا: نظـرية العقلنة، في شكل عقلنـة تواصلية، ثـانيا؛ نظـرية النشاط التواصلي حيث حـاول صياغة نمط للبرهنة يتعلق بالنشاط الموجَّـه نحو التفاهم، ثالثا؛ نظرية للحداثة مُؤَكِّدا مِنْ خـلالها على إمكانية تطوير نظرية متميزة للحداثة اعتمادا على نظريـة التواصل لتحليل الظواهـر السوسيو ــ مرضية التي أفـرزها المجتمع الحديث، لـذلك اضطـر هابـرمـاس رَابِعًا؛ إلى تطـويـر مفهـوم للمجتمع يجمَع نظـريات الممارسـة والأنظمة.

هـذه بشكل مُـركَّـز أهم مفـاصل المشروع الهابـرمـاسي. وهي مفـاصل تسمح لنـا بالملاحظة أن مسألتي الحداثة والتواصل تشكلان النواة النظرية التأسيسية في هذا المشروع، بما يقتضي كل حديث عن الحداثة من عقلنـة، وبما يفترض كل تناول للتواصل من تفكير فيما هو مجتمعي. لذلك فإن العقل التواصلي عنده متشابك بالضرورة مع المقومات المعيارية للحداثة. وهنا يتجلى رهان هابرماس: كيف يمكن التنظير للعقلنة في وقت يتحدث فيه الفلاسفة عن انهيـار العقل وتحطيمه وعن المظاهر القمعية للعقـلانية الأَدَاتية؟ وهل يصح اقتراح نظريـة للحداثة في زمن نتحدث فيـه عن ما بعد الحدثة وعن الانفتـاح عن تجليات المُتَخَيَّل؟.

الفصل الثالث

العقل التواصلي والحداثة الفلسفية

لقد ظهر لنا في الفصلين السابقين كيف عمل هابرماس على اقتراح عناصر نظرية لتأسيس مفهوم متميز للعقلنة يتخذ من نظرية الفاعلية التواصلية قاعدته ومن الحداثة مكونا من مكوناته، وكيف أنه يؤكد على أهمية العقل في الفلسفة وفي العلوم الاجتماعية، كلفظة وكمفهوم، باعتباره حاملا لتاريخ مليء بالتناقضات، منذ اللوغوس الإغريقي إلى العقل الغربي كما بلورته مختلف اتجاهات الفلسفة الحديثة. ذلك أن الفلسفة اقْتُرنت بالعقل منذ بداياتها إلى الآن، سواء من منطلق تدعيم مبادئه وأضفاء الشرعية على ضوابطه، أو من زاوية نقده والاحتجاج على صرامته وعلى إهماله لمناطق وكفاءات أخرى في الجسد البشري.

إن العقل يعني إما نظاما للكون (الكوسموس) كما هو الشأن بالنسبة للوغوس الإغريقي، وإما أنه يشير إلى القدرة البشرية على التفكير والبرهنة. وحسب هوركهايمر، فإننا يمكن أن نتحدث في الحالة الأولى عن " عقل موضوعي " وفي الحالة الثانية عن." عقل ذاتي "[1]. وقد يتخذ العقل الموضوعي شكل حقيقة مطلقة، كما نجد ذلك عند هيغل. أما العقل الذاتي فإن ديكارت يمثل محطة مركزية في التأسيس له.

المهم أن هابرماس يتجنب، قدر الإمكان، استعمال العقل باعتباره جوهرا موضوعيا أو ذاتيا، وإنما ينظر إليه بوصفه محمولا وبالتالي فإن ما يشغله، نظريا، ليس العقل في ذاته، بل ما هو عقلي. لهذا السبب يختار الحديث عن العقلنة في أغلب كتاباته بدل العقل.

---

(1) Horkheimer (M) : "Eclipse de la Raison", Paris, Ed. Payot, 1974. P.13.

ويرى هابرماس أن هناك مستويات يمكن العثور فيهما عما هو عقلي، هما :

الأشخاص والتعبيرات الرمزية . ذلك أن العقلنة لا ترتبط بعملية امتلاك معرفة ما ولكنها تتوقف على الطريقة التي يعبر بها الأشخاص القادرون على الكلام والفعل عن هذه المعرفة . العقلنة إذن تتمثل في الأسلوب المتبع لاكتساب أو استعمال المعرفة من طرف شخص ما، وفي الطريقة التي تصاغ بها التعبيرات الرمزية . ومن ثمَّ فإن العقلنة هي، بالدرجة الأولى، مسألة إجرائية (أو مسطرة procédure). أي أن الأشخاص القادرين على الكلام والفعل، ومن خلال تعبيراتهم الرمزية المطوقة داخل سياق تواصلي، يستطيعون تبرير ونقد القضايا أو أفعال الكلام المتلفظة أو الملفوظة . وبالعكس فإن كل قضية أو فعل للكلام يرفض تقديم حججه ويقاوم النقد فإنه يطرد نفسه مما هو عقلي .

وقد تبين لنا كيف أن العقلنة في استعمال القضايا تتجلى في شكلين اثنين : عقلنة معرفية ــ أداتية تتأكد في المقاييس النفعية للنجاح وفي التحكم التقني بالقياس إلى غاية، والعقلنة التواصلية المستندة إلى قوة الإقناع و إلى الخطاب البرهاني لخلق إجماع بدون ضغط ولا سيطرة . أي أن استعمال المعرفة في حالة العقلنة التواصلية يمكن نعته بكونه عقليا حين يخضع لتداول بين الذوات، لا يعتمد على أي مقياس آخر غير القوة البرهانية . لذلك فإن عملية الاتفاق التذاوتي يمكن أن يقيم دقة المعايير وصدق الأحكام والمشاعر بل وحتى الأذواق . وكل معيار أو شعور ينفلت أو يريد صاحبه أن ينسحب من إطار التقويم التذاوتي، فإنه معيار أو شعور لا عقلي . أي أن كل اختلاف حول معرفة أو معيار أو حكم ما، لا يمكن تجاوزه إلا اعتمادا على التقويم التذاوتي المستند إلى قوة أفضل برهان .

إن هابرماس يؤكد على اعتبار أساسي في فلسفته، أو بالأحرى في قراءته وتأويله للتراث الفلسفي والسياسي والاجتماعي الذي تعامل معه في سياق تأسيسه لتصوُّره للزمن الحديث . وهذا الاعتبار يتمثل فيما يسميه بـ "إعادة البناء" reconstruction، بل إنه يعتبرها منطلقا منهجيا مُكوِّنا لنصه الفلسفي ومميزا لأسلوبه في النظر والتأويل . وإعادة البناء لا تعني تبعية للنص الأصلي الخاضع للقراءة، بقدر ما تشير إلى عملية امتلاك نشط لأعمال الفيلسوف أو عالم الاجتماع . . . إلخ أو بعبارة أخرى هي إعادة تنشيط للنظرية التي يود هابرماس التحاور معها، وإعادة اكتشاف لما يشكل اللحظات النقدية فيها . لذلك فإن مفهوم إعادة البناء عنده له تاريخ خاص حين يتقدم دائما بوصفه عملية تأويلية لإعادة امتلاك النص الموضوع للتفكير. سواء كان هذا النص منسوبا إلى كانط أو هيغل أو ماركس أو نيتشه، أو هايدغر أو فيتجنشتاين، أو النظرية النقدية، أو غادمير. . . إلخ .

ولأننا لا يمكن في هذا العمل المحدد، أن نتناول مختلف الأساليب التي سلكها هابرماس في تطبيق قراءاته الخاصة لمختلف المتون، وفي كيفية التقاط ما يُشَكِّل سندا لنظريته النقدية، فإننا اقتصرنا على ما هو أساسي في موضوع الحداثة والتواصل، وركزنا بالدرجة الأولى، على الطريقة التي انتقل بها هابرماس من العقلانية الاداتية إلى العقلانية التواصلية. وعلى الكيفية التواصلية التي صَهَر بها نظريات كانط وماركس وفيبر والنظرية النقدية ودوركهايم "وميد" وبياجي وآخرين، في مشروعه الفلسفي الذي هدف إلى تأسيس نظريته للعقل التواصلي.

ولكن هل نظرية الفاعلية التواصلية نظرية ممكنة في كل السياقات وفي كل المجتمعات حتى ولو كانت تنتمي إلى ما يطلق عليه "المجتمعات الصناعية الحديثة" أم أن هذه النظرية لا يمكن أن يكتمل تطبيقها إلا داخل عالم معيش مُعَقْلَن؟

لا شك أن هذا السؤال يفترض، بطريقة أو بأخرى، استدعاء نظرية ماكس فيبر المتعلقة بالعقلنة والتحديث. غير أن ما يهمنا فيه هو محدودية القول بنظرية للفاعلية التواصلية باعتبارها "نظرية" بالفعل، تحل إشكالية التواصل داخل عالم معيش محدد.

فالعقلانية الحديثة تحل محل العالم المعيش التقليدي بتعميم النشاط التواصلي بدل العلاقات الموجهة من طرف السلطة أو التقليد.

وقد رأينا كيف عدل هابرماس مفهوم العقلنة وأضاف الفاعلية التواصلية كشرط مؤسس لنظرية المجتمع، على اعتبار أن العقلانية التواصلية تنطلق من كون العقل محايثا للممارسة التواصلية اليومية، بحيث يحدد وحدة العقل في الإجراءات البرهانية، على أساس أن هذه الوحدة الصورية يقابلها تنوُّع ما يسميه هابرماس بـ "ثقافات الخبراء" المختصين في العلوم والتقنيات، في الأخلاق والقانون، أي أن هذا العقل، الذي ينزع عنه كل طابع جوهري، يفترض عقلنة العالم المعيش ويستدعي مجتمعا حلَّ فيه العقل الخطابي وادعاءات الصلاحية محل المقدس والمعايير السلطوية.

ومادام الأمر كذلك فإن الفلسفة، في تصور هابرماس، تلعب دورا أساسيا في هذه النظرية، بل عليها أن تقوم بذلك أمام اكتساح النزعات الوضعية والعلموية والنفعية لمجالات الفكر المختلفة، أي أنه يتعين على الفلسفة القيام بالتوسط بين مختلف المعارف المتخصصة، من زاوية قبول تطور المنطق الخصوصي لكل شكل من أشكال الممارسة المعرفية، ومن وجهة نظر التوسط بين هذه الثقافات المتخصصة والعالم المعيش اليومي حين تتحدد القيم وتتجدد في نفس الآن.

ويمكن القول إن نظرية النشاط التواصلي بسبب تركيزها على اللغة والمنطق والخطاب فإنها تحمل في طياتها فلسفة للغة، على أساس أن مفهوم العقلانية التواصلية ينطلق ويرجع إلى التجربة المركزية لقوة الخطاب البرهاني القادر على خلق اتفاق وإجماع بدون ضغوط.

غير أنه إذا كانت العقلانية التواصلية تشكل، جوهريا، المجتمع الحديث من حيث إنه مجتمع استطاع التقليص من حضور التصورات التقليدية في المجال العمومي، فإنه من الملاحظ أن هذه النظرية لا تصدق إلا داخل عوالم معيشة مُعَقْلَنَة ليست، هي بدورها، إلا نتيجة حديثة لعملية تطور طويل نسبيا، وإذا كان الأمر ينطبق على المجتمعات الصناعية المتقدمة فكيف يمكن الحديث عن عقلانية تواصلية في المجتمعات التي بقيت مرتهنة للعلاقات الاجتماعية التواصلية في سياق علاقات دولية غير متكافئة تُعطي الأولوية للإعتبارات الغائية والاستراتيجية وترفع من شأن المال والسلطة أكثر مما تحترم القيم والمعايير وتحتكم إلى الخطاب البرهاني.

إن ما كان يهم هابرماس هو صياغة مفهوم تركيبي للعقل لا يُفرق بالضرورة بين ما هو نظري وما هو عملي وما هو مرتبط بالحساسية الجمالية، كما هو الشأن عند كانط، أو بين مجالات القيم المستقلة عن بعضها البعض كما عند فير، بل إن هابرماس يؤكد على أن "واجب العقل هو إظهار وحدة لحظات العقل كما تصورتها الثلاثية النقدية الكانطية بشكل متفرق، أي إبراز وحدة العقل النظري مع المعقولية الأخلاقية والعملية مع قدرة الحكم الجمالي" (1). من هذا المنطلق أراد هابرماس التشديد على هذا المفهوم للعقل وذلك اعتمادا على التداوليات الصورية، أي بواسطة تحليل الخصائص الكلية للممارسة الموجهة نحو التفاهم من جهة، وتطبيق مفهوم العقلانية التواصلية على العلاقات الاجتماعية وعلى العلاقات المؤسسة للتفاعل من جهة ثانية.

ومعلوم أن هابرماس، ومنذ كتابه "التقنية والعلم كإيديولوجيا" إلى "الخطاب الفلسفي للحداثة"، يعتبر نفسه مُفكرا يتخذ من الفلسفة انتماءه الأساسي ومن مجالات البحث الأخرى فرصا للتفهم والاقتباس والتبادل المعرفي. وانطلاقا من هذا فإنه لم يكف عن إلحاحه على ضرورة تغيير بنية واتجاه الفكر الغربي، ولاسيما فيما يخص الموقف من

---

(1) Habermas (J) : "Dialectique de la Rationalisation" (entretien), Les cahiers de PHILOSOPHIE, N°3, P.66.

الحداثة والعقلنة والمجتمع. وتغيير بنية التفكير عنده معنـاه، الانتقال من فلسفة الوعي أو الذات إلى نظرية التواصل.

وهذا الانتقال عنـده، تمَّ اعتمادا على أسلوب نقدي يتخد من إعادة البنـاء مقياسا منهجيا لقراءة ونقـد النصوص الفلسفية المؤسسة للحداثـة الفكرية الغربيـة. سواء كانت هذه النصـوص تجعل من العقل قوتها التأمليـة الوحيـدة "وأسطورتها" الحديثـة أو كانت تلتجىء إلى الشعر والفن للابتعاد عن المركزية الصارمة للعقل، وتأسيس ميتولوجيا جديدة تتخد من العقل خصمها المبدئي الدائم ومن نتائجه وانعكـاساته موضوع قلقها وتحفظها. إن الأمر يتعلق بصراع العقل الأنواري والنقد النيتشوي في امتداداته المختلفة.

ومادام هـابرماس يموضع نفسـه داخل اختلاف فلسفي متميز، منتقدا العقـلانية الآداتية ذات الطبيعـة الغائية من جهة، ومُهَـاجِما الفلسفات التفكيكية للأسـاس العقلاني للثقافة الغـربية من جهة ثـانية، فإننا في هذا المقـام، نَوَدُّ الاقتراب والمقارنة بين هـابرماس وهايدغر وبين هابرماس وبعض الفلاسفة الفرنسيين بخصوص الحداثة والعقل والذات.

1. الحداثة بين هايدغر وهابرماس

يعتبر هايـدغر من بين الفلاسفـة الذين عـرفهم تاريخ الأفكار الغـربي، سواء من زاوية تأويلاته الخاصة للفلسفة منـذ الإغريق إلى بداية القرن العشرين أو من منظور النمط التساؤلي الذي أدخلـه في الممارسة الفلسفية، ولقد عمل هـذا الفيلسوف الألماني على نحت مجموعة كبيرة من المفاهيم الفلسفية ذات العمق الوجـودي، المرتبطة بقضايا الكائن والزمن واللغة والنسيـان والاختلاف . . . إلخ. إنه بممارستـه للسؤال الأنطولـوجي وتعبيره الدائم عن إرادة خلخلة مكونات الثقافة الغربية وزحـزحتها عن أساسها العقلاني، يموضع نفسه في سياق النقد الجذري للحداثـة الغربية ولمختلف تعبيرات عقلانيتها. إنـه يندرج بطريقة أو بأخرى، ضمن الاحتجـاج النيتشوي على الأساس الفكري والروحي والأخـلاقي الذي ارتكز عليه المجتمع الغربي.

ولذلك فإن هـايدغر يـرى أن تاريخ الميتافيـزيقا الغـربية قد تـوقف وانتهى، وبأنه يتعين القيام بعملية قلب فعلية للفكر حتى يأخـد الكائن معناه الواقعي. وهكذا يكتسب فكر هـايدغـر دلالاته الحقيقية حين نفهمـه من منطلق اعتباره يشكل نهايـة لنوع محدد من الفلسفة، وانفتاحا لنوع آخر يتخد من الاختلاف همه المركزي.

لا يهمنا، هنا، تناول فكر هايدغر في شموله أو تلخيص أهم مفاصل فلسفته بقدر ما نسعى إلى إبراز موقفه من الحداثة والتقنية ومقارنته مع التصور النقدي لهابرماس من العقلانية الغربية.

ونشير هنا، إلى أن هابرماس لم يكف عن الاهتمام بفكر هايدغر، ذلك أنه منذ كتابه "جوانب فلسفية وسياسية" وهو يُعبِّر عن انشغال خاص بفلسفة هايدغر وبموقفه من الزمن الحديث وبحقيقة التزامه النازي وتأثير هذا الالتزام على أفكاره*. كما كان هابرماس أيضا مطالبا بالرجوع إلى هذا الفيلسوف في سياق سجّاله مع هانس غادامير الذي يعتبر أحد الامتدادات المحافظة للفلسفة الهايدغيرية. غير أن هابرماس في إطار صياغته للمضمون المعياري للحداثة في كتابه "الخطاب الفلسفي للحداثة" حاول تصفية الحساب مع التراث الهايدغيري معتبرا إياه أنه يشكل امتدادا للانفتاحات الفلسفية الجوهرية التي قام بها نيتشه. ذلك أن "الهدف الذي اجتهد نيتشه من أجل الوصول إليه بواسطة نقد شامل للإيديولوجيا ـ وهو نقد ينتهي إلى إنهاك ذاته بذاته ـ أراد هايدغر بلوغه من خلال تدمير محايث للميتافيزيقا الغربية" [(1)]. ثم إن بدايات الأزمنة الحديثة تميزت بالقطيعة التاريخية الأساسية الذي قام بها ديكارت، بينما يمثل نيتشه، في تصور هايدغر، الحداثة الأخرى، والحداثة الراهنة، أي أنه إذا كان نيتشه بشَّر بنهاية فلسفة الوعي والذات، فإنه في نفس الآن، دشَّن انطلاقة فلسفية جديدة تنزاح عن هيمنة الهوية وتقول باختلاف جذري يعيد للكائن وللزمن معناهما الواقعيين، ويعبران عن إرادة للقوة لا تعترف بإيقاع الزمن الحديث ولا بأخلاقيته النفعية.

إن مبدأ الهوية "يشكل مبدءا للفكر ومبدءا أونطولوجيا. إنه يعبر عن هوية الكائن مع ذاته بوصفه قانونا جوهريا لبروز الكينونة Etre، وهوية الفكر مع الكينونة في تمثل هذه الهوية في نفس الآن" [(2)]. فالكينونة، عند هايدغر، هي كينونة الكائن étant إنها تكشف عن جوهره، بحيث تشكل الكينونة المتعالي المطلق. أما الاختلاف فإنه يحتمل كينونة الكائن في هويتها وتغايرها، بل إن "الاختلاف الأنطولوجي هو حركة الكينونة ذاتها" [(3)].

---

* وكان آخر نصٍّ كتبه هابرماس عن هايدغر هو مقدمته الطويلة لكتاب "فكتور فاريا" عن "هايدغر والنازية" في طبعته الألمانية وقد ترجمت هذه المقدمة في كتاب

Habermas : "Martin heidegger, l'oeuvre et l'engagement", Paris Ed. du Cerf, 1988.

(1) Habermas (J)Discours philosophique...", op. cit, P. 119.

(2) Trotignon (P) : "Heidegger", Paris, Ed. PUF, 1974, P. 34.

(3) Ibid, P.38.

إن هابرماس يرى أن هايدغر جعل من نيتشه لحظة فكرية تبشر ببداية حداثة فلسفية مختلفة. وإذا كان نيتشه جعل من فاغنر Wagner نموذجا رومانسيا للانفلات من صرامة الزمن الحديث، فإن هايدغر وجد في الشاعر هولدرلن Holderlin النموذج المُمَثِّل للإله الغائب.

لكن هل الإصرار على عدم الانتماء للحداثة، سواء من طرف نيتشه أو من طرف هايدغر، سبب كاف للخروج، فلسفيا، من الذاتية الحديثة؟ وماهي الأسباب العميقة التي جعلت هايدغر يتخذ موقفا مضادا للحداثة وللنزعة الإنسانية؟

إن هايدغر يعتبر أن تاريخ الإنسان لا يخضع، بالضرورة كما هو الشأن عند هيغل أو ماركس، لصيرورة أو لمسيرة تفضي إلى هدف حتمي. ذلك أن التقلبات الجوهرية لعلاقة الإنسان مع الكينونة تبقى في حد ذاتها، تقلبات مجانية ولا متوقعة. من هنا يتحفظ هايدغر على كل نزعة إنسانية، كيفما كان مصدرها. صحيح أنه رجع إلى تاريخ الفلسفة ابتداءا من الإغريق، لأنه يرى أن بداية تاريخ كل فكر توجد في العهد الإغريقي باعتباره عهدا اكتشفت فيه الكينونة، لا سيما على يد أفلاطون الذي جسَّد الانتقال من الفكر إلى الفلسفة، وفتح عالم الميتافيزيقا بشكل واضح.

ويتميز عهد الميتافيزيقا بما يسميه هايدغرب "نسيان الكينونة" الذي يفترض في تصوره، نسيان الاختلاف، وذلك بالخلط بين الكينونة والكائن، ويرى هايدغر أن المهمة الوحيدة للفلسفة هو التفكير في اختلاف الكينونة والكائن. فالكينونة لا وجود لها بدون كائنات، والكائنات لا وجود لها بدون كينونة، ومع ذلك فإن هناك اختلافا أساسيا بين الكينونة والكائنات. فتعريف الكينونة يؤثر على تعريف الكائن. غير أن "الكينونة ليست في ذاتها شيئا آخر غير كينونة الكائن" [1]. ثُمَّ إن الكائن في كينونته له علاقة خاصة مع مقولة الحاضر، وبالتالي يغدو الكائن هو ما يوجد، وما يشكل ذات الكينونة أي مايسميه هايدغر بـ "الاختلاف الأنطولوجي" [2].

وحسب منطق هايدغر فإن الميتافيزيقا التي تتضمن الكينونة واستمرارية الحضور تجسد أشكالا غير أصلية للزمن. وهكذا فإن الدعوة إلى التفكر في اختلاف الكينونة والكائن يستدعي كذلك الحديث عن الوجود الأصيل.

(1) Lalloz (J-P) : "Qu'est ce que l'Etant?", Revue Philosophie, N° 18, P. 17.
(2) Ibid, P.18.

غير أن مـا يهمنا، في هـذا المقام، هـو الموقف الفلسفي الذي اتخذه هـايدغـر من الحداثة بـاعتبارها تتـويجا لعقلانية تنتج، هي بدورهـا، عالما يفتقد إلى الأصـالة. ذلك أن العقل الحديث لم يعـد مجرد تأمل للكينـونـة، كما كـان الأمر عنـد الإغـريق، لأن الحداثـة أسست محكمة العقل حيث يخضع كل موضوع أو قيمة للتشريع اللامشروط لإرادة القوة الإنسانيـة، بل إن انتصار العقل الحسابي يظهـر من خلال التوحيـد الكلي للكائن بحيث يختزل الكائن في الزمن الحديث، في مكننة العقل. ذلك أن "العقلنة تجد شكلها الخالص في الصياغـة الرياضيـة للواقع التي تعجل بتـوحيده، مُسَهِّلة، بـذلك، عملية إخضـاعه لإمبرالية الإرادة" [1].

إن المشروع الفلسفي لهايدغر ينـدرج ضمن المطالبة بالخروج من هيمنة الميتـافيزيقا والانفلات من مـركزية العقل، بـل إن "العقل هو العدو اللـدود للفكر" [2]. لذلك فإن فكـر الاختلاف بـاعتبـاره فكرا تأمليـا غير حسـابي يسعى إلى معـالجة الكائن من أمـراض العقلنة وهو حين يقول بـذلك فإنه لا يستعرض فضائل اللاعقلنة لدرجـة يغدو فيها نقده عبـارة عن نقـد "عدمي". أي أنـه في الـوقت الـذي يدعـو إلى الابتعـاد عن العقل وعن العقلنة فإنه لا يقترح عوالم أخرى جديـدة. اللهم إلا القول بالاختلاف والبقاء ضمن دائرة اللايقين، وبالتالي فإن رفض هايدغر اقتراح بدائل تنبؤية يعبر عن اكتفائه بإقراء الغموض الحاسم لنسيان الكينـونة. "فـالنسيان يمكن أن يـؤدي إلى المأزق، ولكنه يستشعـر وكأنه استغاثة وانسحاب الكينونة ذاتها" [3].

أمام هذه الوضعية، أي وضعية التبرم المطلق من هيمنة العقل المواكب للميتافيزيقا في تعبيرها التقني الجذري، فإن هـايدغر لم يبق أمـامه إلا البديل الأسطـوري. لذلك فإن اللجـوء أو الـرجـوع إلى الأسطورة يعبر عـن قلق الفكـر الهايدغيري إزاء القـول بـانغـلاق الميتافيزيقـا، لا سيما وأنه جمع بين العقل والميتافيزيقـا ووضعهما في نفس المستوى. فالعقل الذي سيطر عبر تطور الميتافيزيقا، هو العقل الحسابي باعتباره أداة لإرادة القوة. وهو نفس العقل الذي ينعته كل من هوركايمر وأدورنو بالعقل الأداتي.

(1) Grondin (J) : "Dc Heidegger à Habermas", Les Etudes philosophique, Janvier-Mars, 1986, P.22.

(2) Heidegger (M) : "Chemins qui ne mènent nulle part", Paris, Ed. Gallimard, 1962, P/ 219.

(3) Grondin (J) : "De Heidegger à Habermas", op. cit, P. 22.

ويلاحظ " جان غراندان " أن محاكمة العقلنة تستدعي، بشكل ضمني، عقلنة من نوع آخر، وذلك لأنه " يتعين إدانة الخراب التقني الناجم عن نسيان الكينونة، باسم نظام مختلف للأشياء بطبيعة الحال، هذا النظام الذي نفترض أنه أفضل وأنه لهذا السبب يمكن نعته بـ " عقلاني " . وبعبارة أخرى، فإن نقد العقلنة الميتافيزيقية يجب أن يتم انطلاقا من عقلنة ما بعد ميتافيزيقية، أي عقلانية لأنها ما بعد ميتافيزيقية . وهذه العقلانية المنشودة يمكن تسميتها بـ " العقلانية الأخلاقية " ، هذا أولا؛ ثانيا، إن هايدغر بمجرد ما يمسك القلم لنقد جنون العقلنة التقنية، فإنه يلتمس من القراء الاحتكام إلى عقلهم. لأنه يثق في نضج وصحوة بعض معاصريه على الأقل القادرين على إدراك ما يهدد الإنسانية، اعتمادا على حجج هايدغر" [1]، بمعنى آخر أن هذا الفيلسوف، وبالرغم من نقضه للعقل فإنه يقوم بعمليات " برهنة " عقلية، لأنه لا يمكن نقد العقل باللاعقل أو القيام بذلك بدون حجج عقلية حتى ولو انخرط المرء في عوالم الأسطورة والمتخيل .

لكن المطالبة بالخروج من الميتافيزيقا وبتجاوز العقلنة التقنية وبنبذ كل نزعة إنسانية، يتضمن بالنسبة لهايدغر موقفا من النظام السياسي الحديث . لأن الاختلاف الجذري مع العقلانية الغربية في تجلياتها الديكارتية أو الانوارية يفترض رفض المسألة الديمقراطية بكل ما يستدعي ذلك من حل المشاكل بواسطة المناقشة العمومية .

إن النقد الهايدغيري للحداثة، إذن، يتضمن، بالضرورة، موقفا سياسيا، لأن السياسة الحديثة، هي نفسها، نتاج العقل الحديث الذي صنع التقنية، ومن ثم فالاحتجاج على التقنية كجوهر ميتافيزيقي وكنسيان للكينونة هو احتجاج على البنية السياسية التي تنظم وتؤطر بعض تدخلات العقل وتبرمج وتخطط للممارسة العلمية . ذلك أن هايدغر يرى أن العلم الحديث أصبح خاضعا، هو بدوره، للأساليب التقنية، لأن ما يهيمن في الزمن الحديث، هو نوع من " العقل المحاسب " [2]الذي لا يقوم، في جوهره، إلا بما يسميه بـ " الترجمة التكنولوجية لزماننا " [3]. ومن تم فإن التقنية توصف عنده، وكما أشرنا إلى ذلك، بكونها الظاهرة الجوهرية للأزمنة الحديثة، ولأنها كذلك فإن جوهرها " يتطابق مع جوهر الميتافيزيقا الحديثة " [4].

---

(1) Grondin (J), op. cit, P. 23.
(2) Heidegger (M) : "Nietzsche", t_I, Paris, Ed. Gallimard, 1971, P. 269.
(3) Heidegger (M) : "Questions" I, Paris, Ed. Gallimard, 1968, P. 287.
(4) Heidegger (M) : "Chemins qui ne mènent nulle part", op. cit, P. 69.

إن الزمن الحديث، عند هايدغر، سواء باعتباره "عهدا نوويا" أو تجسدا لحضارة استهلاكية، يتميز بكون الإنسانية وصلت إلى مرحلة تريد أن تمتلك كلية الكائن بفضل التحكم التام في كل الطاقات الطبيعية، بما فيها الطاقات التدميرية. ولذلك فإن اختزال الواقع إلى "مخزون" جاهز للإستعمال باستمرار، يحدد العلاقة التقنية الموجودة بين الإنسان والعالم. بل إن الهيمنة القاهرة والكلية للتقنيةعلى العالم تجعل من الإنسان الحديث مجرد "موظف للتقنية" (1).

لقد سبق أن أشرنا إلى أن هايدغر يفكر في التقنية انطلاقا من جوهرها، بوصفها نهاية للميتافيزيقا الحديثة، أي لميتافيزيقا الذاتية. فجوهر التقنية يعادل جوهر "الميتافيزيقا المكتملة" (2) ذلك أن الميتافيزيقا الحديثة تتمثل في تصور الواقع بوصفه خاضعا للمبادىء المكونة للعقل البشري، كما هو الشأن عند ديكارت، أو كما يظهر من خلال التأكيد الهيغلي على هوية العقل والواقع، بل إن "إعادة التأويل الكانطية للكوجيتو (أنا أفكر. . .) باعتباره أنا أريد، وخاصة المذهب الكانطي لاستقلال الإرادة، قد مهدا للخطوة الحاسمة نحو التأويل التقني للعالم" (3).

عملية التدَخُّل في الواقع تقنيا والتحكم في طاقاته بما فيها الإنسان، والقول بالصفة الإطلاقية للإرادَة كما تصورها كانط لا يمكن التبرُّم من كل ذلك إلا بوساطة تقدمها نظرية نيتشه المتعلقة بإرادة القوة. لأن هذه الإرادة تنهي المشروع الديكارتي للتحكم في الطبيعة وامتلاكها وتضع حدا للتطلع الأنواري لتحرير الإنسان، لأنها إرادة تتمثل في البحث عن السيطرة من أجل السيطرة.

هايدغر لا يتوقف عن التأكيد على أن التقنية كتجلٍّ سامٍ للحداثة لا يمكن للإنسان أن يتحكم فيها، اللهم إلا إذا حصل انعطاف تاريخي بظهور عصر جديد للكينونة وبالتالي نمط جديد لانسحابها. ذلك أن سيادة التقنية ليس انحرافا أو شذوذا إنسانيا في نظر هايدغر وإنما هو ظاهرة تتجذر في صلب كل تاريخ بوصفه نسيانا للكينونة وانسحابا لها.

---

(1) Heidegger (M) : "Chemins qui ne mènent nulle part" op. cit. P 240.
(2) Heidegger (M) : "Essais et conférences", Paris, ed. Gallimard, 1958. P.92.
(3) Ferry (L) Renaut (a) : "Heidegger et les Modernes", Paris, Ed. Grasset et Fasquelle. 1988, P. 129.

فالكينونة هي نسيانها، والكينونة ذاتها، باعتبارها نسيانا، أي انسحابا تترك الإنسان في مواجهة حضور الكائن، لذلك فإن كلا من الميتافيزيقا، بوصفها نسيانا للكينونة لصالح الكائن، والتقنية، كخداع لامتناه من أجل الاستعمال الاستهلاكي، يتم التفكير فيهما - أي الميتافيزيقا والتقنية - انطلاقا من انسحاب الكينونة، أو من الكينونة كانسحاب. بل إن الميتافيزيقا والتقنية، في جوهرهما، هما الكينونة ذاتها. أمام هذا الواقع الذي يتميز بنسيان الكينونة، هل يمكن الاعتراض على سيادة التقنية؟

يجيب هايدغر بأن الاعتراض ممكن في حالة حصول تغيير تاريخي يفضي إلى التحرير من السيادة الكونية للتقنية.

إن هذا الموقف من الحداثة ومن التقنية عند هايدغر لا يمكن إلا أن يذكرنا بموقف فلاسفة النظرية النقدية. فالعالم المُنظَّم بطرق إدارية صارمة ليس إلا ذلك العالم - الصيرورة الذي تصورته ميتافيزيقا الذاتية التي وجدت في الفلسفة الهيغلية تجسيدها الأسمى. غير أن الفرق الموجود بين هايدغر والنظرية النقدية الأولى هو أن هوركهايمر و آدورنو وماركوز كانوا يتطلعون إلى مستقبل، ويسعون إلى عالم يسترجع فيه الفرد حريته. في حين أن هايدغر ينتقد التقنية باسم رومانسية تلجأ إلى الماضي أكثر مما تنظر إلى المستقبل، ثم إن فلاسفة النظرية النقدية تعاملوا مع ما يسمى بالثقافة الجماهرية بوصفها اسْتلابا وليس باعتبارها تحكّما في الأشياء والناس كما يرى هايدغر. لا شك أن فلاسفة النظرية النقدية تأثروا ببعض أفكار هايدغر، وخصوصا هربرت ماركوز ولكن إدْخالهم للعلوم الإنسانية والاجتماعية في فلسفتهم جعلهم أكثر قدرة على الاقتراب من واقع المجتمع الصناعي الحديث.

فما سماه هوركهايمر وآدورنو بـ "جدل الأنوار" يُعبِّر عن موقف نقدي واع لهيمنة العقلنة الأداتية وللاسْتلاب الإنساني في عالم منظم لا محل فيه للإنسان إلا بوصفه قيمة للتبادل.

إن هذا النقد اللاذع للحداثة وللمجتمع الصناعي يلتقي على المستوى العام مع الموقف الهايدغيري، غير أن هذا النقد سوف يأخذ أبعادا أخرى مع هابرماس حيث سيعمل في سياق إعادة بنائه النظري، على إدماج مسألة الاستلاب عند لوكاتش، ونظرية العقلنة عند فيبر وآخرين، في نظريته للحداثة والتواصل. ذلك أنه يعتبر أن العقل الحديث مازال لم يستنفد كل إمكاناته للقيام بمراجعة ذاته، محاكمة نتاجاته اللاعقلانية، ومن تم يتعين تصور مختلف للعقلنة إذا أردنا عدم السقوط في الاسطورة كما حصل لأغلب

الفلاسفة الـذين اعترضوا على عالم التقنية مثل هـايدغر، بل إن " حوار هـابرماس مع فيبر يمكن أن يقرأ باعتباره جوابا غير مباشر عن القراءة الهايدغيرية للعدمية الميتافيزيقية " (1).

ويـرى هابـرماس أن تصـورا تأمليـا، متعقلا للعـالم يؤدي، مبـدئيا، إلى تعـدد في التأويـلات الممكنة لهذا العـالم. لـذلك فإن الاتفـاق اللغوي التـواصلي يتعين أن يحل محل السلطـة المسنـودة من طرف التصـورات التقليـديـة للعـالم. فمبـادىء المعرفـة والتفـاعل الاجتماعي سوف لن تفرض من طرف سلطة فـوقية، وإنما ستكون نتيجة مناقشة مستنيرة. هذا الاتفـاق الديمقراطي يبرهـن على التحرر والنضج ويُحرر الطاقـات العقلية ويفضي إلى الاستقلال.

وقد رأينا أن العقلنة التواصلية عند هـابرماس، بالرغم من إيحاءاتها المعيارية، فإنها ذات طبيعة إجرائية تجمع بين ما هو أخلاقي وما هو برهاني. فما هو عقلي يخضع إلى التبادل التذاوتي الذي لا يعتمد على أي مقياس آخـر غيـر القـدرة علـى تقديـم أفضـل برهان، ومن ثم فالعقلنـة التواصلية لا تقترح معايير فوقيـة أو تصورا للعالم يُملى على أعضاء جماعة تواصلية، وإنما تقترح أسلوبا إجرائيا لتقويم أسس التصورات الموجودة في العالم المعيش أو تلك التي يتلفظ بها الناس القادرون على الكلام والفعل.

وبحكم أن هابرماس استهدف، بالأساس، صياغة نظرية نقدية للمجتمع تستند إلى عقل تواصلي يتحرك داخل معايير ذات مضامين عقلية وأخلاقية في نفس الوقت، فإن تصوره التواصلي بقي محتفظا بشيء من المثالية. ذلك أن القول بمجتمع تواصلي عقلاني ذي مرجعيـة معياريـة وأخلاقيـة قول يبدو أنـه ينتمي إلى اليوتـوبيا أكثـر مما يستنـد إلى أساس واقعي.

وهابرمـاس، بالرغم من اعترافه بنوع من المثـالية في مفهومه للحداثة المعيـارية فإنه ينفي كل طابع يوتـوبي عن نظريته، لأن العقلنة التواصليـة مُنْبَثَّة في كل تعبير لغوي، على اعتبـار أن كل فعل لغوي يستهـدف الاتفـاق والتفاهـم المتبـادل. والاتفاق هنـا، يفترض نضج المشاركين في التفـاعل. ولذلك فإن هـذا النضج التواصلي يشكل نوعـا من الضمانة للعقلنة التواصلية.

ويبـدو أن نظريـة الفاعليـة التـواصلية تتضمن إمكـانـات نقديـة على مستويـات متعددة. ذلك أن مفهـوم العقلنة التـواصلية، كعقلنـة للتحديث، وكتحـديث للعقلنة،

(1) Grondin (J) : "De Heidegger à Habermas", op. cit, P. 25.

يمكن أن يقترح عناصر أساسية لنقد الإيديولوجيات، لإبراز الأساس المعياري للنظرية النقدية للمجتمع.

فإدانة عملية العقلنة الرأسمالية يجب أن تتم باسم عقلنة أخلاقية متضمنة في اللغة الإنسانية. ثم إن غياب المناقشة العقلانية في بعض مجالات المجتمع يمكن الكشف عنه وفضحه، بوصفه تحريفا إيديولوجيا للغة، يخدم مصالح جماعة محددة. فالإيديولوجيا تزدهر حين تعمل على إعاقة الانتشار الحر للعقلنة التواصلية، وإحلال نمط تواصلي مُلْتوٍ. لذلك فإن نقد الإيديولوجيا يُمَارَس بهدف إقرار عقلنة أكثر ديمقراطية تتمثل في المناقشة العمومية لادعاءات الصلاحية التي يتلفظ بها المشاركون في التفاعل.

ويلتقي كل من هابرماس وهايدغر في اعتبار أن الزمن الحديث يفتقد إلى الأصالة، بسبب الإيديولوجيا بالنسبة للأول، وبسبب الانحطاط بالنسبة للثاني، "ضد قمع العناصر المستخدمة للرأي العام، فإن هايدغر وهابرماس يبينان، كل بطريقته، بأن الناس يمكنهم تقرير مصيرهم بأنفسهم بإدانة خديعة الوجود والتواصل الذي تتغذى منه الإيديولوجيا المسيطرة" (1). غير أن هابرماس يختلف جذريا مع هايدغر في طعنه المطلق في العقل، ذلك أنه لم ير في العَقل إلا جانبه المُسَيْطِر المُحَاسِب للعقلنة الحديثة، وهذه الرؤية تشويه اختزالي وإيديولوجي للعقلنة الكلية في تعبيراتها البرهانية التواصلية.

ثم إن هابرماس، من جهة أخرى، لا يدين التقنية، هكذا بشكل مطلق، لأنها كنتاج للعقلنة وللإبداع الإنساني، لاتصبح قوة تهديد إلا إذا تحولت إلى أداة لإلغاء النوع البشري أو لتكريس استلابه. إذ أن للعقلنة التقنية، في الزمن الحديث، كل المبررات المشروعة لتوفير بعض الحاجات المادية لإعادة إنتاج العالم المعيش. ومن ثَمَّ فإنه سيكون من قبيل الادعاء الواهم إنكار دور التقنية في التنظيم المادي للمجتمع أو التخلي عن مكتسبات عقلنتها، صحيح أنها غير قادرة على حلِّ مشاكل من النوع الأخلاقي أو الرمزي، بل إن الحلول التكنوقراطية، لا تعمل على هذا الصعيد، إلا على تكريس استلاب العالم المعيش. لهذا السبب يقترح هابرماس نظرية للمجتمع تعتمد على أخلاق تواصلية تحد من تدخل العقلانية الأداتية في شؤون التفاعل الإنساني.

إن هايدغر ينظر إلى التقنية كأنها ميتافيزيقا جديدة، والخروج من هذه الميتافيزيقا هو في نفس الآن تجاوز للتقنية. وهايدغر حين يطعن في العقل والتقنية فإنه ينتقد، بشكل

(1) Ibid, P. 29.

أساسي، الجانب الأداتي المحاسب فيها. معتبرا أن السيطرة المعرفية والمعيارية للعقل الحسابي هو نتاج جينيالوجيا محددة مرتبطة بميتافيزيقا إرادة القوة.

ويمكن أن يلتقي كل من هايدغر وهابرماس على هذا الصعيد، أي إدانة العقلنة الأداتية، غير أن الفيلسوفين يختلفان في آفاق الانفلات من هيمنتها. ذلك أنه إذا كان هايدغر يرجع إلى النشاط الفني وإلى اللغة الشعرية وإلى الفكر ما قبل السقراطي، لمقاومة طغيان التقنية، فإن هابرماس يعتبر أن الأخلاق التواصلية والمناقشة العقلية البرهانية، في إطار نظرية نقدية للمجتمع، يمكن أن تحرر الفرد والجماعة من كل أشكال الهيمنة سواء كانت تقنية أو سياسية.

ومهما يكن من شأن الاختلاف الكبير الموجود بين النمط النقدي الهايدغيري والنقد الهابرماسي للحداثة وللتقنية، فإن هابرماس انشغل، بشكل كبير، بمواقف هايدغر منذ كتاباته الأولى إلى الآن. وبالرغم من أن هابرماس يُدْخِل هايدغر ضمن لائحة الفلاسفة الذين فكّروا في الحداثة من مُنطلقٍ يستلهم أسلوب النقد النيتشوي، أي أولئك الذين حاولوا الخروج من الميتافيزيقا الغربية ومن دائرة فلسفة الوعي والأصل، فإنه مع ذلك يؤكد، أي هابرماس، أن "هايدغر لا ينتبه إلى فشل محاولته للانفلات من تأثير فلسفة الذات، ولم ينتبه إلى أن ذلك ناتج عن كون سؤال الكينونة لا يمكن أن يُطْرَحَ إلاَّ في أفق فلسفة الأصل، كيفما كان التعديل المتعالي الذي أدْخله عليها، فالمَخْرَج الموضوع أمامه يتمثل في العملية التي انتقدها باستمرار والمتعلقة بـ "قلب الأفلاطونية" inversion du platonisme الذي قام به نيتشه، وبذلك يقلب فلسفة الأصل بدون الخروج من إشكاليتها" [1].

ومثل كل الأعمال والأفكار الكبيرة، فإن فلسفة هايدغر تستمد قيمتها وأهميتها من قوة حججها وبراهينها، حتى ولو كانت تطعن في الأداة التي تُولِّد هذه البراهين. ولأن هايدغر فيلسوف مبدع، ولأنه أسس نظرة فلسفية تتبرم من الحداثة وتقول بالاختلاف، فإن "اكتشافاته التي تبلغ ذروتها في تأويله لديكارت. . . ، سمحت بامتدادات بالغة الأهمية وبمقاربة جديدة جد منتجة" [2] سواء في ألمانيا أو في باقي البلدان الغربية.

---

(1) Habermas (J) : "Discours philosophique de la modernité", op. cit, P. 180.
(2) Habermas (J) : "Martin Heidegger. L'oeuvre et l'engagement", op. cit, P. 68.

2. فلسفة الذات وحدود القول بالاختلاف

بالرغم من أن هابرماس يتخذ من النقد أداة أساسية في تفكيره، ويدرج نفسه ضمن سيرورة التاريخ النقدي للحداثة الفلسفية الغربية، فإنه لا يقبل، إطلاقا، التخلي عن مشروع الحداثة أو التساهل مع التيارات اللاعقلانية. فهو يرى أن الحداثة ولّدت ظواهر مرضية تحتاج إلى تشخيص وإلى نقد، وأن العقلنة قلّصت من حضور التصورات التقليدية للعالم، ولكنه، مع ذلك، يعتبر أنه لا يجوز التسليم بأن الحداثة مشروع خاسر وبأن العقلنة برهنت عن عجزها في تحقيق انتظارات الإنسان الحديث.

والحداثة سواء كانت فكرية أو جمالية، لم تُكمِّل مشروعها بعد، ومادام الأمر كذلك فإن نقدها شرط ضروري، لكن مع الأخذ بعين الاعتبار ما يستحق نقده فيها وما يتعين تطويره أو تنشيطه من قضايا ومفاهيم لم تتمكن الحداثة من تحقيقه.

وبحكم اهتمام هابرماس بكل التراث النقدي الغربي، منذ كانط إلى ديريدا، وبحكم كونه يمثل لحظة نقدية في الفكر الغربي المعاصر، فإنه يميز بين النقد الأداتي للحداثة كما قام بذلك فلاسفة النظرية النقدية، والنقد الكلي لأسَاسها العقلاني كما دشنه نيتشه وطوره هايدغر وأعاد صياغته بعض الفلاسفة الفرنسيين المعاصرين، من خلال دعوتهم إلى الخروج عن دائرة البنية الفكرية الغربية المتمركزة حول العقل والابتعاد عن الهيمنة الكاسحة للهوية الغربية، والاهتمام بكل ما يحيل إلى الهامش والاختلاف والمغايرة.

ولهذا السبب خصَّص هابرماس كتابه عن "الخطاب الفلسفي للحداثة" لتصفية الحساب مع هذه النزعات اللاعقلانية في الفكر الفلسفي الحديث وصياغة مفهومه المعياري للحداثة استنادا إلى نظرية الفاعلية التواصلية.

ومن منطلق اهتمامه بكل المفكرين الذين قاربوا مسألة الحداثة سواء من الألمان أو من غيرهم، فقد دخل في سجال فكري وفلسفي مع من اعتبرهم أهم الفلاسفة الفرنسيين الذين يُدرجهم ضمن دائرة النزوع اللاعقلاني، أو بالأحرى دائرة النقد الجذري الذي يطعن في الحداثة باسم اختلاف كلي، وهكذا اهتم بكل من فلسفة ميشال فوكو وجاك ديريدا وجورج باطاي وكاستورياديس وليوتار... إلخ. وذلك من منطلق النظر في القوة الإجرائية لمفهومهم للنقد وفي درجة اختلافهم عن فلسفة الوعي والذات التي يريدون الخروج من إطارها.

ومعلوم أن الفلسفة في فرنسا، ومنذ أكثر من قرن، لم تبتعد كثيرا عن تاريخ الفلسفة في ألمانيا. ذلك أن فلاسفة مثل كانط وهيغل وماركس ونيتشه وهايدغر... إلخ يشكلون أطرا مرجعية يصعب على كل فيلسوف فرنسي تفاديها، بل إن الأمر يؤدي بكثير من الباحثين إلى التساؤل حول أصالة ما يسمى بـ "الفلسفة الفرنسية"، على اعتبار أن أغلب نصوصها عبارة عن إعادة صياغة للمفاهيم التي عمل الفلاسفة الألمان على بلورتها، اللهم إلا إذا أدخلنا اعتبارات اللغة والأسلوب والتقاليد الفكرية الخاصة بكل بلد، ولهذا السبب اضطر الفلاسفة المحدثون الألمان إلى مقاربة النصوص الفلسفية الفرنسية والنظر في الأسلوب الذي يتبعه أصحابها في قراءة وتأويل فلسفات هيغل ونيتشه وفرويد وهايدغر... إلخ. هذا من جهة، ثم إن بعض الفلاسفة الفرنسيين أصبحوا يحتلون مكانة متميزة على الصعيد الفلسفي العالمي أمثال فوكو وديريدا وليوتار ودولوز وريكور... وآخرون، ولا يمكن للعقل الألماني أن يتغاضى عن هذا التطور وهو ـ أي العقل ـ يسكنه "اعتزاز" خاص بقدرته على التفلسف وإنتاج المفاهيم الفلسفية، من جهة ثانية.

ومهما يكن فإن اهتمام الفلاسفة الفرنسيين بقضايا العقل والحداثة والمعنى والذات والتاريخ من منطلق نقدي يتميز بجذرية واضحة، أدّى بهابرماس إلى مناقشة أفكارهم ومفاهيمهم التي عملوا على صياغتها اعتمادا على نصوص فلاسفة الاختلاف الألمان. لا سيما نيتشه. فميشال فوكو مثلا استمد بعض عناصر فكر نيتشه من خلال جورج باطاي الذي جمع بين الانشغال بالجنس والتصوف والمتخيَّل، وبين المشاكل الاقتصادية والاجتماعية [1]. ومن ثمَّ فإن مسألة الجنون عند فوكو سمحت له بإعادة تأويل تركيبة العقل الغربي وتشكيلاته الخطبية المختلفة. فاللوغوس الغربي لا يمكن الإمساك به دون إبراز ما عَمِلَ على نبذه وإلغائه. أما فكر ديريدا الداعي إلى تفكيك الأساس العقلي للفكر الغربي فإنه يشكل امتدادا للانفتاحات الفلسفية التي تركها هايدغر. ذلك أن ديريدا يرى أنه يتعين الابتعاد عن كل فكر متمركز حول العقل، بل إنه يجمع كلا من الدلالية والمثالية والتمركز حول العقل في السياق نفسه الذي يضع فيه التصور الأحادي الخطي للتاريخ وللفكر. ومن ثَمَّ فإن ما يهمُّه هو نوع من "الاستراتيجية العامة للتفكيك" [2] والخروج من الثنائيات الميتافيزيقية التي سيطرت على الفلسفة الغربية، وكل ذلك يقوم به ضمن ما يسميه بـ "الأمل الهايدغيري" [3].

(1) Habermas (J) : "Discours philosophique...", op. cit, P. 282.
(2) Derrida (J) : "Positions", Paris, ed. Minuuit, 1972, P.56.
(3) Derrida (J) : "Marges de la philosophie", Paris, Ed. Minuit, 1972, P. 129.

يدرج هابـرماس هؤلاء الفلاسفـة ضمن التيار الفوضوي، حتى ولـو نعتوا أنفسهم بمفكري ما بعد الحداثة. ذلك أنهم يقولون بنهاية الأنوار، كما يقول بذلك المحافظون. غير أنهم ـ أي ما بعد الحداثيون ـ يستهدفـون الحداثة في كليتها. ومهما يكن فإن هابرماس يرى أن كلا من المحـافظين والفوضويين "يقطعـون مع الأفق المقولي الذي تشكّلت فيـه الفكرة التي كونتها الحداثة الأوروبية على ذاتها. وكلتا النظـريتين لما بعد الحداثة يدعيان أنهما خرجا من هذا الأفق وتـركاه بوصفه أفقـا لزمن ولّى" [1]. بل إن تيار مـا بعد الحداثة، ينظـر إليه هابرماس وكأنه مَسْلَك مغلوط اتخذته الحداثة لنفسها. هو مسلك فلسفة الذات حتى ولو تبرم أكثر الفـلاسفة الفرنسيين من هـذه التهمة. فالحداثـة عند هابـرماس، لا تقتصر على فلسفة الـذات، لأنه يعيد تنشيط المجهـودات الفلسفية الحديثـة التي حاولت الخروج من مآزق الذاتية. وهكذا وانطلاقا من الدراسـة النقدية التي قام بها لهيغل في كتابه "الخطاب الفلسفي للحداثـة" بيَّن كيفية نشـوء التيارات الثـلاث الأساسيـة للحداثـة، والمتمثلة في الليبرالية المحافظة، وفلسفة الممارسة، وما بعد الحداثـة. ويبدو أن الذي أهمله هابرماس، نسبيـا، في كتابـه، هو تيـار الليبرالية والكـانطيـة الجديدة الـذي منحه اهتمامـا خاصّـاً في "نظرية الفاعلية التواصلية".

ويمكن القول بأن المأخد الأساسي الذي يُوَجِّهه هـابرماس للفلاسفة الفرنسيين هو أنهم يوجهـون نقدا جذريا للحـداثة وللعقل، ناسين أن هذا النقـد نفسه لا يمكن أن يَتِمَّ خـارج اللغة وخـارج مقـاييس الخطـاب البرهاني، هـذا من جهـة، ومن جهـة ثانيـة فإن ادعاءهم الخروج من فلسفة الذات للقول بفلسفة الاختلاف، ادعاء يصعب تبريره فلسفيا واجتماعيا، بل إنهم في الوقت الذي يقولون فيـه بمغادرة مجال فلسفة الوعي لا يقومون، في واقع الأمر، إلاّ بتعميقها. لا سيما وأنهم لا يولون أي اهتمام لمسألة التذاوت. بل ويواجهون الحداثة والعقلنة بمـوقف جمالي أو متصوف، لدرجة أن التفكيك عند ديـريدا مثلا يخلخل النص الغربي، سواء كـان فلسفيا أو أدبيا، اعتمادا على نقد أسلـوبي وعلى مجازات تتناقض مع الصيغ الاستدلالية بحيث تغدو البلاغة مجالا مثاليا لدحض العمليات المنطقية.

صحيح أن هناك فـروقا بين كل من باطـاي وفوكو ودريدا... إلخ فـالأول والثاني متأثران بنيتشه وبفلاسفة آخرين أمثال لوكاتش وأدورنو وليفي ستروس وباشلار... إلخ.

في حين أن ديريـدا يعتبر نفسه امتـدادا للفلسفة الهايدغـرية ويقـرأ التراث الفكري الغربي بهدف خلخلـة أساسه العقلي والتحـرر من الميتافيـزيقا للانخـراط في عوالم المتخيل

(1) Habermas (J) : "Discours philosophique de la modernité", op. cit, P.5.

والاختلاف والهامش، لكن بالرغم من هذه الفروق فإنهم بقوا سجناء الوعي بضرورة تهديم أسس الوعي.

غير أنه من الصعب تعميم هـذا الحكم على كافة مـراحل تطور هؤلاء الفـلاسفة، ذلك أن هابـرماس نفسه لطَّف من انتقـاداته إزاء ميشال فوكـو. فهو في الوقت الـذي كان يحشره باستمرار داخل التيار الـلاعقلاني والفوضوي لفلسفة ما بعـد الحداثة، تراجع قليلا وبدأ يرى فيـه فيلسوفا من طراز عـال. ففي مؤلفاته ودروسـه الأخيرة، حين رجع فوكو إلى إعادة تأويل نصوص كانط لا سيما منها "ماهي الأنوار؟" بدأ يجد فيها مصدرا من مصادر فهم اللحظة الحديثة، تلك المصادر التي تتمثل في هيغل، نيتشه وماكس فيبر، هوركهايمر وأدورنو، بل ويؤكـد هابرماس أنه "بشكل مفـاجىء، نجد فوكو يتمـوضع هو نفسه، في سطوره الأخيرة من درسيه، داخل هذا التقليد" [(1)].

يميز هابرمـاس، عند فوكو، مرحلتين في تطور تفكيره : مرحلة حفـريات المعرفة، ومرحلـة نظريـة السلطة. ولكـن منذ كتاب "تـاريخ الجنـون" بدأ التعـارض واضحا بين النظام الاجتماعي ذي الطابع السلطـوي وبين الأجساد الخاضعة له. إضـافة إلى الاستفادة المتبادلة بين العلوم الإنسانية وممارسات المراقبة والضبط والإدماج.

لقد عمل فوكـو على القطع مع التصورات التقليدية للتاريخ ومع النزعـات القائلة بضرورة البحث عن الأصل، وأكد على البدايات بمعناها الحدثي، أي أنه تخلى عن المفهوم الكلي للتاريخ واستمرارياتـه لكتابة تاريخ جمعي يتناول موضـوعا مختلفا في كل مرة اعتمادا على ممارسات خطابية حدثية هي كذلك. أما الاستمرارية الوحيدة فتتمثل في السلطة التي تتخد أقنعة مختلفة ومتنوعة. وهكذا "وبخلاف هايدغر وديريدا فإن فوكو لا يقوم بتفكيك فلسفة الذات وإنما بتفكيك التأريخ" [(2)].

لقـد لاحظ جيل دولوز أن المبـدأ العـام عند فـوكـو يتمثل في كون كل "شكل هـو تركيب لعلاقـات قوى" [(3)]، سواء تعلـق الأمر بقـوى التخيُّل أو التذكُّـر أو التصـور أو الإرادة. . . كما أن السلطة ليست أكثـر من كونها "عـلاقة قـوى" أو بالأحـرى أن "كل

---

(1) Habermas (J) : "Une flèche dans le coeur du temps présent", Critique, Aout-Septembre, N. 471-472, 1986, P.795.

(2) Rochliz (r) : "Des philosophes allemands face à la pensée française", Critique, Janvier-Février, N. 464-465, 1986, P.37.

(3) Deleuze (G) : "Foucault", Paris, ED. Minuit, 1986, P.131.

علاقة قوى هـي علاقة سلطة " (1) ، ثم إن القوة عنـده لا توجد بـالمفرد مـا دامت كل قوة تكون علاقة ، أي علاقة سلطة إذ " القوة ليس لها أي موضوع ولا ذات إلا القوة " (2) فنحن لانتساءل عن ماهيـة السلطة أو عن مصدرها . . . إلخ بقدر مـا نتساءل عن الكيفية التي تمارس بها . ما دامت القوة تتحدد بقدرتها على التأثير على قوى أخرى .

غير أن هابـرماس يـلاحظ أن فـوكو اضطر إلى الانتقـال من حفـريات المعـرفة إلى جينيالـوجيا السلطة ، لأنـه قد تبيَّن له أن حفـريات العلوم الإنسـانية وتاريخ الكـائن عند هايـدغر تجمعهما قرابة واحـدة تتمثل في مسألة الأصل والاستلاب من جهة وأن حفـريات المعرفة لم تفسر العلاقة الموجودة بين الخطاب ومختلف أشكال الممارسات من جهة ثانية .

لهذه الأسباب تخلَّى فـوكو عن الاستقـلال النسبي للابستمي وعمل على تـأسيسه ، مجددا ، اعتمادا على تصوره للسلطة . وهذا الانتقال أدَّى بـه إلى مجال نظرية المجتمع ، وهو مجال يشغل هابرماس بشكل أساسي .

ويرى هابـرماس أن فوكو يستمد مفهومـه للسلطة من نقد الميتافيزيقـا ولكنه يطبقه على جميع العصور والخطابات ، وحتـى ولو كانت خطابات لا علاقة لها بـالحقيقة . لذلك فإن مفهوم السلطة ، عنده يبقى غامضا . فهو مفهوم تجريبي يشكل نوعا من السوسيولوجيا الوظيفية ولكن له طابع ترانسندنتالي في نفس الوقت ، ما دام يمثل أساسا لنقد العقل ، هذا ما أدى بجيل دولوز نفسه إلى ملاحظة نوع من الكانطية الجديدة في تفكير فوكو " (3).

وفي نفس السياق يلاحظ هابرماس أن مفهـوم السلطة نفسه تابع لفلسفة الذات ، ذلك أن فوكو لا يقوم إلا بقلب العلاقة بين السلطـة والحقيقة ، وأنه إذا كان مفهوم الحقيقة شرطا من شروط نجـاح ممارسـة ما ، فإن السلطـة تكيف وتؤثر على الحقيقـة . ومن ثَمَّ فإن عملية القلب هذه لا تخرجه ، بالضرورة ، مـن إطار فلسفة الذات ، ولا سيما حين يتحدث فوكو عن التحقق الذاتي وعن الجنس . فالـذات الأخلاقية حين تتحول إلى " موضوع وحين تكون الذات التعبيرية مضطرة للتضحية بنفسهـا باعتبارها كذلك ، أو أن تستثمر ذاتها في الموضـوعات من جـراء القلق ، وتنغلق على نفسهـا ، هـذا ما لا يتطـابق مع إدراك الحريـة والتحرر ، ولكنه يبرز الضوابط الثقافية لفلسفة الذات " (4).

---

(1) Ibid, P. 77.
(2) Ibid, P. 77.
(3) Ibid, P. 67.
(4) Habermas (J) : "Discours philosophique de la modernité", op. cit, P. 347.

وبالـرغم من أن فوكـو يحاول الانفلات من كل إطار معيـاري على صعيد ممـارسته النظريـة فإنه يسقط في نوع من المعيـارية ذات الطـابع الجمالي، كما يلاحظ هابـرماس. إن فوكـو ينظر إلى الجسد كأنـه معرض لكثير من أشكـال التعذيب، لذلك يتصـور جسدا لا يخضع لأية معياريـة أو ضبط. "جسد راغب" يعيش في نوع من جماليـة الوجود. المهم أن هـابرمـاس يعتبر أن فـلاسفة الاختـلاف الفـرنسيين، بالـرغم من دعـوتهم إلى الخروج من الميتافيـزيقا، وإلى سلوك سبيل نقد جـذري للحداثة، وطعن مبـدئي في الفعل العقلاني، فإنهم مع ذلك لم ينفلتوا من إطار فلسفة الذات، ثم إنهم لم يستطيعوا صياغة مفهوم مغاير للذات التي لم يكفـوا عن نقدها والتبرم من هيمنـة هويتها، لـذلك فإن هابرمـاس يرفض الرجوع إلى المنابع الفلسفية التقليديـة التي سبقت "الخطاب الفلسفي للحداثة" كما دشنه كانط وطوره هيغل. . . إلخ. إن نظرية الحداثة عنده، وكما رأينا ذلك، تستند إلى التذاوت وتعتمد على التـواصل المتكافىء المتحـرر من كل ضغط أو سيطرة. ومن أجل الـوصول إلى ذلك فإنـه لم يكن في حاجـة إلى استلهام عنـاصر غير عقلية لنقـد العقل أو لتعبئة القـوى المناوئة للحداثة والتي تشكل، مُقَوِّما من مقـوماتها. أي أن هابرماس بقي متشبثا بمنطلقه الذي يؤكـد على أن نقد الحداثة لا يمكن أن يتم إلا من داخلها، فـلا مجال إذن للرجوع إلى النماذج العتيقة أو إلى عـوالم المتخيل للقيام بفعل النقد، والقيـام بعملية الرجـوع هذه تخرج صـاحبها من إطـار فلسفة الـوعي بـالضرورة. من تم فالاختـلاف الحقيقي، عنده، هـو مواجهة الحداثة بعقل أكثـر حداثة وتغيير سياق فلسفة الذات بنظرية تـذاوتية نقدية قادرة على قول خطاب برهاني صالح، يحوز ما يكفي مـن المقومات لتعليل ادعاءاته والدفاع عن حقيقة وصدق ودقة قضايا وأفعال كلامه.

لقد نعت هابرماس الفلاسفة الفرنسيين بأنهم فوضويون، وأنهم يلغون أنفسهـم من الحداثة بالرغم أو بسبب الأسلوب النقـدي الذي اختاروه للتبرم منها، لاسيما وأنهم تعاملوا معها ككل، بوصفهـا تعبيرا عن عقلانية أداتية، إلا أن هابرمـاس، غيَّر موقفه، فيما بعد، من ميشال فوكو حين لاحظ أن الكتابات الأخيرة لهذا الفيلسوف الفرنسي تبعده عن مواقفه السابقة وتدخله، في سياق فلسفة الحداثة التي تجعل من التفكير في زمنها ولحظاتها الراهنة قضيتها المركـزية. فـاهتمام فوكـو بسؤال الأنـوار من خلال نص كـانط "ماهـي الأنوار؟" وأسلـوب مقاربتـه لـه حين اعتبره "أول فيلسـوف. . . سدد سهمـه في اتجاه قلب الـزمن الحاضر" [1]، إن فوكو بعـودته إلى كانط، في نظـر هابرماس، انخـرط في الحداثة الفلسفية

(1) Habermas (J) : "Une flèche dans le coeur du temps présent", op. cit, P. 796.

التي تقرن التفلسف بالراهن، وانتمى، هكذا إلى الفلاسفة الكبار الذين أسهموا في تعميق التفكير في الزمن الحديث " من هولدرلين وهيغل الشاب، ماركس والهيغليين الشباب، بودلير ونيتشه، باطاي والسورياليين، لوكاتش، ميرلوبونتي ورواد الماركسية الأروبية، بدون أن ننسى فوكو نفسه بطبيعة الحال، كل هؤلاء عملوا على إنضاج وعي حديث بالزمن، يكون فيه سؤال، "ماهي الأنوار؟" علامة الدخول إلى الفلسفة" (1).

وبالرغم من هذه المراجعة التي قام بها هابرماس بخصوص موقفه من ميشال فوكو، فإنه لا يعفيه من النقد. فلا يكفي أن يرجع فيلسوف إلى سؤال الأنوار ويقر بحداثة فكر كانط لكي يحشر في لائحة فلاسفة الحداثة، لا سيما وأن فوكو، في كتاباته الأخيرة، حاول أن يدخل ضمن مفكري تُراث الأنوار دون أن يتراجع عن نقده الحاسم لمختلف أشكال المعرفة التي أنتجتها الحداثة. إن فوكو بتتبعه آثار إرادة المعرفة في التشكيلات الحديثة للسلطة بهدف إدانتها، أظهرها قبل وفاته بشكل آخر، حيث وجد فيها اندفاعة نقدية يتعين تطويرها وتجديدها، ولربما هنا تتجلى مهمة الفلسفة، في نظر هابرماس، إذ يتعلق الأمر بإحياء الثورة أو بعث فكر الأنوار باعتباره نموذجا يتعين الاقتداء به، بقدر ما يتعلق بالتساؤل عن المتغيرات التاريخية الخاصة التي تنتصر، ولكنها تبقى متخفية في الفكر منذ نهاية القرن التاسع عشر.

إن هابرماس حاول معالجة مفهوم الحداثة بتصفية الحساب مع التاريخ الخاص لفلسفة الحداثة، ومعالجته لهذه المسألة، في العمق في إطار صياغته لنظرية المجتمع، تجعل من العقل التواصلي القاعدة النظرية والمعيارية التي تتكىء عليها. ولذلك فإنه يرى أنه " منذ الجيل الأول لتلامذة هيغل والفلسفة تحاول أن تتناول وساطة فكر ما بعد الميتافيزيقا. فالعمل الذي حققته طوال قرن ونصف أدّى بنا مباشرة إلى مقدمات التفكير ما بعد الميتافيزيقي، لدرجة أننا لا نرى أنفسنا ملزمين بتبني موقف دفاعي يائس إزاء التقليد الساحق للأفلاطونية، كمايقوم بذلك نيتشه" (2).

وبقدر ما يتبرم من نيتشه ــ حتى ولو أدخله ضمن فلاسفة الحداثة ــ، بقدر ما يتحفظ على فلسفة هايدغر. لذلك فإن نظرية الفاعلية التواصلية المُسْتَنِدة إلى أخلاقيات التواصل والخطاب البرهاني، تقطع، بشكل جذري، مع مفهوم المطلق، إذ لاشيء معفي

(1) Ibib, P. 797.
(2) Habermas (J) : "Théorie de l'agir communicationnel", op. cit, Tl, Plo.

من المناقشة والنقد. وكل هذا يتم دون اللجوء إلى عقل آخر أو إلى ادعاء اختلاف مستحيل يعتبر الحلول الجمالية إمكانية للخروج من الميتافيزيقا.

3. المجال العمومي الحديث وحدود الإجماع

يضع هابرماس نظرية الفاعلية التواصلية كبديل جذري لفلسفة الوعي، وهو يعتبرها أكثر جذرية من تصورات فلاسفة الاختلاف، بما فيهم نيتشه وهايدغر ودريدا... إلخ، لأن هؤلاء الفلاسفة، بالرغم من نقدهم الكلي للحداثة وللعقل، فإنهم لم يخرجوا من حيز الذات، وبقوا سجناء إشكالية الذات والموضوع، كيفما كان شكل هذا الموضوع، ذلك أن هابرماس ينظر إلى فلسفة الوعي باعتبارها ترتكز، بصورة أساسية، على علاقة الذات والموضوع، سواء رجعت الذات إلى الموضوع كما يتقدم إليها بحيث تقوم بتمثله، أو نظرت إلى الموضوع كما يجب أن يكون، وذلك بإنتاجه. فالوعي يتبنى موقفا نظريا بهدف التدَخُّل في عالم الأشياء التي تواجهه.

بهذه الطريقة، والتي تبدو تبسيطية، يحدد هابرماس فلسفة الوعي، بل إن هذه الفلسفة، عنده، مصدر قلق فكري لا يمكن التحرر منه إلا بالقيام بانعطاف فلسفي يتمثل في العقل التواصلي، وهو يؤكدعلى هذا المخرج دون أن يشير إلى أن التواصل نفسه لا يمكن أن يحصل أو أن يكتسب معنى إلا بالنسبة لوعي محدد أو لذات بعينها. كل ما هنالك هو أن فلسفة التواصل عنده، بما تفترضه من تذاوت وتفاهم واتفاق وإجماع... إلخ، هي عبارة عن جواب على محدودية الذات الحديثة التي لا يمكن لها أن ترجع إلى سلطة ميتافيزيقية أو متعالية للوصول إلى الحقيقة، فالتعالي يتحقق، على العكس من ذلك، في اتجاه التذاوت. والحقيقة لم تعد متوقفة على مجهودات الفرد، وإنما تبرز حسب نوع الخطاب البرهاني الذي ينطق به الأشخاص القادرون على الكلام وعلى الفعل، وفي إطار تواصلي ذي طابع إجماعي.

ونود أن نشير إلى أننا بعد أن تناولنا تفاصيل الإشكالية المركزية التي تشغل تفكير هابرماس والمتمثلة في الحداثة والتواصل، وبعد أن تعرضنا لمواقفه من بعض الفلاسفة المحدثين، فإننا نريد، الآن، تسجيل بعض الملاحظات النقدية على هذه النظرية التي يجتهد صاحبها لكي تكون أداة فلسفية ومنهجية للكشف عن المظاهر المَرَضية لإنتاجات الحداثة ولفهم تحولات التشكيلات الخطابية سواء منها تلك التي تستجيب لادعاءات الصلاحية في الحقيقة والدقة والصدق أو تلك التي لا تستجيب لذلك.

ونظرا للطموح النظري والفلسفي الكبير الذي لا يكف هابرماس عن التعبير عنه، فإن اجتهاداته الفكرية خضعت للنقد من طرف كثير من الفلاسفة والباحثين المعاصرين، سواء من الجانب الانغلوساكسوني أو من الجانب الألماني أو الفرنسي. ونقد فكر هابرماس مسألة منطقية نظرا لكونه مبني على عملية تركيب فلسفية، حاول بواسطتها، تجاوز كل المساهمات النظرية التي اتخذت من الحداثة والعقلنة موضوعا لها. فنصه بالأساس نص سجالي جعل من النقد عنصرا مكونا لأسلوب مقاربته للنظريات الفلسفية والسوسيولوجية والسياسية التي تناولها في سياق بنائه لنظريته التواصلية، ومُقوِّما أساسيا أيضا لنظريته في المجتمع.

لكن هل استطاع هابرماس الابتعاد عن فلسفة الوعي واقتراح عناصر نظرية تسمح بتغيير اتجاه الفكر الغربي للخروج من أطر الذاتية وولوج نمط تواصلي عقلي من نوع آخر؟ ما هي المآخذ التي سجلت على هذه النظرية؟ وأين يتجلى ثغراتها ومفارقاتها؟

إن هابرماس قام بعملية إعادة بناء لمجموعة من الاجتهادات النظرية التي جعلت من ظواهر الحداثة موضوعا لها، وركز، بشكل أساسي، على ماكس فيبر والنظرية النقدية وجيلبير هربرت ميد، كما استلهم كثيرا من قضاياه الفلسفية في كتاباته الأخيرة من أعمال "كارل أوتوآبل" الذي يعتبر أنه أكثر الفلاسفة الأحياء الذي أثروا في توجيهه الفكري" [1].

إعادة بناء نظرية العقلنة عند فيبر استدعت، بالنسبة لهابرماس، تغيير البناء النظري للعقلانية الأداتية وإدخال العقلانية التواصلية، ومن أجل تحقيق هذا المشروع الفلسفي، لم يكتف بالأسماء التي أتينا على الإشارة إليها، لأنه أراد أن تكون نظريته متعددة الأبعاد ومتوفرة على أكثر ما يمكن من الإمكانيات التفسيرية لاكتناه الظواهر المَرَضية للحداثة، لذلك رجع إلى ماركس، الذي اكتشفه من خلال لوكاتش وفلاسفة النظرية النقدية، حيث أعاد بناء مفهوم الاستلاب بشكل مختلف تماما عن الفهم الأصلي الذي اقترحه ماركس وطوره لوكاتش وأدورنو وماركوز وآخرون، فبدل الاستلاب أو التشيؤ يفضل هابرماس الحديث عن "أمراض العالم المعيش المتولدة عن التسرب اللامشروع للعقل الوظيفي أو النسقي. وحسب هذا التأويل، فإن التشيؤ يمثل تشويها للعالم المعيش الذي يظهر حين تحل العقلانية الآداتية، التي تصبح مستقلة، محل العقلانية المؤسسة على

---

1) يقول هابرماس: «لا أحد من بين الفلاسفة الأحياء، حدَّد اتجاه فكري، بشكل مستمر، مثل كارل أوتو آبل»

Habermas (J) : "Morale et communication", op. cit, P. 21.

التشاور التواصلي" [1]. وهذا ما أسماه هـابرماس بـ "استعمار المعيش" الـذي يتم بواسطة عملية عقلنة غير تواصلية.

ومفهـوم "الاستعمار الداخلي" هـو الذي استعـاض بـه هابـرماس لترجمة حـالات التشيـؤ التي أنتجتهـا الحداثـة، فهـو يعتبر أن لوكـاتش ربـط النظريـة الفيبريـة للعقلنـة بالاقتصاد السياسي الماركسي بطريقة تمكنـه من تملك التأثيرات الثانوية لعملية التحديث، باعتبـارها نتاج صراع طبقي، في حين أن ما يهم هـابرماس هو "الكيفيـة التي يبرز بها نوع جـديد من تأثيرات التشيـؤ، لا تخص الطبقات الاجتماعيـة، أو السبب الذي يجعل هـذه التأثيرات تتسرب من خلال نموذج من اللامساواة"، [2] ذلك النموذج الذي يتوزع بشكل مختلف عبر مجالات الممارسـة الموجهة من خـلال التواصل. أمـا لـوكاتش فإن ربط مسألـة التشيـؤ بنظريـة الوعي الطبقي، على اعتبـار أن التشيؤ يمكن أن يـؤدي إلى عملية عقلنـة جارفة مرتبطة باستراتيجية طبقية.

إن هـذا التصور الفلسفي من "النـوع الهيغلي" [3] كما يقول هـابرماس، كـانت له انعكاسات أدت بكل من هـوركهايمر وأدورنو إلى الابتعاد عن نظريـة الوعي الطبقي ليركزا على نقـد العقلانيـة الأداتيـة التي أنتجت عـالما موجهـا من طـرف إدارة صـارمة إلى درجـة الـرعب، كما يقـول آدورنو، غير أن فـلاسفـة النظريـة النقـديـة الأوائل لم يهتموا، في نظـر هابـرماس "بـالعقلانية التـواصلية للعالم المعيش الـذي نما في سيـاق عقلنـــة التصـورات التقليديـــة للعـالم، قبل أن تتأسس مجالات الممارســة المنظمة بطـريقة صوريـة عامة. إن العقـلانية التـواصليـة، التي تعكس التفهم الذاتي للعـالم الحديث، وحـدها تمنح منطقـا داخليا للمقـاومة ضد العـالم المعيش الخاضع لوسـائط فرضت عليه مـن خلال الدينـامية الملازمة للأنظمة التي أصبحت مستقلة" [4].

يتعلق الأمـر إذن بـالكشف عن المنطق الـداخلي الـذي يتحكم في عمليـة استعمار العالم المعيش، وليس بالاكتفاء برفع أصوات الاحتجـاج الغاضبة كما فعل فلاسفة النظرية النقديـة. ذلك أن هؤلاء الفلاسفـة لم يستطيعوا تملك المضمـون المنهجي للتشخيص الذي قام بـه فيبر للزمـن الحديث، ولم يرقـوا إلى مستوى إخصاب وإغنـاء هذا المضمـون ضمن عملية تطوير العلوم الاجتماعية.

(1) Grondin (J) : "La réification de Lukacs à Habermas", Archives de philosophie. N°51. 19882, P.645.
(2) Habermas (J) : "Théorie de l'agir...", T2, op. cit, P. 384.
(3) Ibid, P. 366.
(4) Ibid, P. 367.

لقد لاحظ فلاسفة النظرية النقدية أن الوعي الطبقي في ارتباطه بمسألة التشيؤ، كما هو موجود عند ماركس وعند لوكاتش، لا يمكن الاستمرار في الإلتزام به كمبدأ يمتلك كفاية تفسيرية في الزمن الحديث، لأنه يصعب تطبيقه داخل مجتمع أصبحت فيه العلاقات الطبقية غير واضحة المعالم ويتعذر ضبط مواقعها المتشابكة، لذلك بدل الوعي الطبقي اقترح هوركهايمر وأصحابه "نظرية الثقافة الجماهيرية".

إن هابرماس يرى أن المجتمع الرأسمالي المتقدم في حاجة إلى نظرية مغايرة لاسيما أن مختلف أشكال الوعي السائدة تفتقر إلى القدرة على التركيب، لأن معظمها مجزأ ومنقسم ومُتَشَظٍّ. لذلك فإن "نظرية التشيؤ ما بعد الرأسمالي، حين تعاد صياغتها داخل لغة النسق والعالم المعيش، يجب أن تستكمل بالقيام بتحليل للحداثة الثقافية، لكي تحل محل نظرية الوعي الطبقي المتجاوزة الآن. وهكذا بدل أن تخدم نقد الإيديولوجيا يتعين عليها تفسير التفقير الثقافي وتَشَظّي الوعي الشائع، وبدل التشبث بالبقايا المنتهية للوعي الثوري، عليها أن تحلل شروط الارتباط بين ثقافة معقلنة وتواصل جارٍ، تابع للتقاليد الحيوية"(1).

يقترح هابرماس نظرية الفاعلية التواصلية، بكل ما تفترض من اتفاق وتواصل وإجماع عقلاني، لمقاومة الاستعمار الداخلي للعالم المعيش الحديث، وذلك لأن الجهاز المفاهيمي الذي تم استثماره لنقد العقلانية الأداتية لم يعد كافيا لفهم تفسير الظواهر المرضية للمجتمع الصناعي المتقدم. فضلا على أن أصحاب هذا الجهاز، لاسيما لوكاتش والنظرية النقدية وهايدغر إلى حد ما، لم يتمكنوا من تطوير الحمولة النظرية التي كانت تتضمنها نظرية العقلنة الفيبرية وتكييفها مع التحولات العامة التي كانت وراءها الحداثة الغربية. فالمجال العمومي الحديث يستدعي نظرية تكشف عن آليات اشتغاله ماديا ورمزيا. والعقلانية التواصلية تمتلك ما يكفي من الأهمية لفهم محدودية العقلانية الغائية ولاقتراح معايير أخلاقية تحصن الجماعة التواصلية من أي انحراف، وتزود أعضاءها الفاعلين بوسائل المخاطبة العقلانية، للمساهمة في المناقشة العمومية التي يفترضها الإيقاع التبادلي للمجال العمومي الحديث.

ويمكن القول إنه بالرغم من أن هابرماس انطلق من القاعدة النظرية التي أسستها النظرية النقدية، بالرغم من تأثره البالغ بآدورنو بشكل خاص، فإنه لم يكتف باتخاذ هذه

---

(1) Ibid, P. 391.

المدرسة مصدرا وحيدا من مصادر فلسفته، وذلك منذ كتاباته الأولى. نلاحظ بأن هابرماس ينوع قراءاته وينتقل من مرجع إلى آخر ومن حساسية ثقافية إلى أخرى، بهدف امتلاك النظرية الفلسفية التي تخول له القول بإمكانية فهم الحداثة الغربية في بداياتها وامتداداتها. ولذلك لا يمكن أن نتفق مع الرأي القائل بأن هابرماس يمثل الجيل الثاني للنظرية النقدية أو يشكل امتدادا لها. وذلك لأنه بقدر ما انطلق من الإطار العام الذي حددته هذه النظرية للتفكير في الحداثة في المرحلة الأولى من حياته الفكرية، بقدر ما عمل على تغيير البنية المفهومية تماما في كتاباته الإخيرة اعتمادا على ما قام به من إعادة بناء للحداثة الفلسفية في نصوصها التأسيسية وللنظريات السوسيولوجية التي برهنت على إنصات خاص لتحولات وظواهر المجتمع الحديث، إضافة إلى النظريات السيكولوجية وعلى رأسها علم النفس التكويني عند بياجي والتحليل النفسي.

فالظواهر المرضية التي ولدتها الحداثة وانحرافات التواصل واختلالات الإجماع في حاجة إلى منهج متعدد الاختصاصات، وإلى مقاربة تختلف باختلاف الموضوع وتراعي ما يقال وما لا يقال وتجعل من التذاوت المرهون بادعاءات الصلاحية إطار للخروج من فلسفة الذات والاختلاف عن التراث المثالي لفلسفة الوعي، على اعتبار أن أي خلاف حول آية معرفة أو معيار أو حكم تعبيري لا يمكن أن يحل إلا ضمن المحكمة الموضوعية للتقويم التذاوتي، الذي يتعين أن يرتكز على قوة أفضل برهان بشكل استثنائي. هذا النوع من المحكمة العقلانية يفضي مباشرة إلى مسألة الفاعلية التواصلية. غير أننا يجب أن نلاحظ أن هابرماس ولو أنه يريد أن ينفلت مما يسميه بفلسفة الذات باقتراح نظرية "العقل التواصلي"، وبحكم أنه ينظر إلى هذه الفلسفة على أنها تحكمها علاقة الذات بالموضوع، فإن هذه النظرة الاختزالية تُشكِّل "إحدى نقط ضعفه الأكثر جلاء"[1]. فهو بالإضافة إلى انتقاده للفلاسفة الذين أسسوا لفلسفة الوعي يؤاخذ فلاسفة النظرية النقدية لذلك على عدم قدرتهم على مفهوم العقل التواصلي، على اعتبار أن السبب يرجع في نظره إلى هيمنة العقلانية الأداتية على تفكير كل من آدورنو وهوركهايمر. فالجهاز المفهومي للعقلانية الأداتية بقي سجين فلسفة الوعي التي تمثل الفكر المونولوجي للأزمنة الحديثة. إن فلسفة الوعي تصف تشوُّه الحياة من خلال عمليات العقلنة بدون أن تقدر على تشخيص التشيؤ الذي ينتجه المجتمع الرأسمالي.

(1) Grondin (J) : "La réification de Lukacs à Habermas", op. cit? P.645.

في حين أن نظرية الفاعلية التواصلية، في تصور هابرماس، تأتي لتقديم بعض عناصر الجواب على هذا الانحصار المفهومي الذي ميز النظرية الأولى. فما هو منحرف ومُشوَّه في المجتمع التبادلي يتمثل، بشكل جوهري، في مجال التفاعل التواصلي للعالم المعيش. إذ أن العالم، المؤسس على التوافق اللغوي، هو الذي يتعرض لاجتياح العقلانية الحسابية. ومن ثَمَّ يتعين الانتقال من بنية ذات حوار فردي إلى بنية حوارية جماعية، ومن إطار الذات إلى مجالات التذاوت ومن فلسفة الوعي إلى التحليل اللغوي في أبعاده التداولية، وتغيير البنية المفهومية متوقف على ربط الأسئلة الفلسفية بمختلف العلوم الإنسانية والاجتماعية.

غير أن هابرماس، وفي سياق مشروعه الذي أراده أن يكون جذريا، حسب ما يبدو، لا يبين لنا بطريقة مقنعة كيف يمكن استبعاد فلسفة الوعي إذا ما اتخذنا الإطار التذاوتي منطلقا لنا. وهذا ما أدى ببعض الباحثين إلى القول "أن هابرماس يملك تصورا ذهنيا خالصا وغير ملائم، لفلسفة الوعي بالأزمنة الحديثة لأنه لا ينصف الطاقة النقدية التي تتضمنها" (1).

وقبل أن نتناول مسألة حضور بعض عناصر التُّراث الكانطي في تصور هابرماس، نود الرجوع قليلا إلى مسألة التواصل عنده. ذلك أن هابرماس خصص كتابا في جزئين لتقديم مكونات نظرية التواصل، ثم ملحق خاص نشره في كتابه "منطق العلوم الاجتماعية"، لشرح المقاصد الفلسفية والأساليب المنهجية والنظرية التي استعملها بهدف بلورة موقفه من الحداثة والتواصل. غير أن في هذين الكتابين لا نجد تحديدا دقيقا لمفهوم "الفاعلية التواصلية" أو حتى عملا تركيبيا لهذه المسألة، التي يبدو أنه اهتم من أجل تقديمها بالتعليق النقدي على الفلاسفة وعلماء الاجتماع أكثر مما عمل على نحت أدواته النظرية والمنهجية الخاصة. قد نعثر على تحديدات لمفهوم الأفعال التواصلية، سواء اعتمادا على اللسانيات التداولية أو على علم الاجتماع، ولكننا لم نجد تعريفا واضحا للفاعلية التواصلية إلا في كتابه "الأخلاق والتواصل". ويقول "توم روكمور" في تعليقه على غياب التحديد المفهومي للفاعلية التواصلية في كتاب "نظرية الفاعلية التواصلية" أن العرض الذي قدمه هابرماس لهذا المفهوم يبقى عرضا ناقصا على أكثر من صعيد، بحيث "يترك القارىء في وضعية جمع التصريحات المتعلقة بهذا المفهوم بهدف تكوين كل نظري لا وجود

(1) Grondin (J) : "Rationalité et Agir communicationnel chez Habermas" Critiquc, Janvier-Février, N.364-465, 1986, P.52.

لأي وصف له، فضلا عن أن هـابرماس، وَفِيٌّ لتلك العادة السيئة التي يـريد من خلالها، دائما، التعليق على النظريات الأخرى في نفس الوقت الذي يصوغ فيه نظريته. وطيلة هذه الـدراسـة الطـويلـة، ولا سيما عنـدمـا يسعى إلى تـدقيق مفهـومـه الأسـاسي، لا يتمكن هابرماس، إلا في حالات نادرة، من التمييز بين وصف إسهامه النظري الأساسي والتأويل المفصل للمواقف الأخرى" (1).

إن ما يطـرحه توم روكمـور، هنا، يتعلق بقضية مركـزية في الأسلوب الـذي ينهجه هابـرماس في عرض وتقديم وتبريـر ادعاءات صلاحيـة نظريته. ذلك أن تحليله للفـاعلية التواصلية مثـلا لا يفصله عن تقديمـه ومناقشته لنظريات مـاكس فيبر وتالكوت بـارسونز وفيتجنتشاين وهـربرت ميد. فالفـاعلية عنده هي تحكم في "وضعية" يشـارك في التفاعل داخلها شخصان على الأقل، وتعدد الفاعلين يفترض التواصل على صعيد السلوك العقلي باعتبـار أن الفاعلية الاجتماعيـة تبرز عقلانية ملازمـة لسلوك الفاعل الـذي يفترض حيازة القـدرة على تبرير ادعـاءات صـلاحيتها أو مـواقفـه. ولكن ماذا يجب أن تفهم من لفظـة تواصل؟ فـالتواصل ليس مجرد محادثة أو تبـادل للمعلومات، بل إنـه يتمثل في ذلك البعد التـداولي للغـة، ومن ثم يغـدو التـواصل عبـارة عن لغـة تنتج فعـلا مـا، بل إنـه يشير، بالتدقيق، إلى الفاعليـة الخصوصية للغة بوصفها لغة. وما يميـز هذا الإنتاج الخاص للغة يتجلى، عند هـابرماس، في ما يسميـه بالتوافق والاتفاق بـاعتباره الوظيفة الأسـاسية التي تحرك النشاط اللغوي.

قـد يـلاحظ كثير من البـاحثين في الاتجاهـات اللسـانية، ولا سيما منهـا المقـاربـة السيميوتيكية أو البنيوية، أن هذا التمازج الذي يؤكـد عليه هابرماس، بين اللغة والاتفاق يعبر عن اختزال بَيِّـنٍ للظاهرة اللغوية، ثم إننا حتى لو سلمنا بضرورة الإلحاح على الابعاد التداوليـة للغة، فإن المرء يمكن أن يلاحـظ بأن اللغة لاتستهدف التـوافق والاتفاق دائما. فـاللغـة يمكنهـا أن تصبح أداة في يـد إرادة لاستخدام الآخـرين وخـدمـة استراتيجيـة لا تستجيب مطلقا لشروط التوافق والاتفاق. فضلا عن أن الفـاعلية كما تَمَّ تحديدها سابقا، لا تمتلك، دوما خاصية التواصل، لأن المرء يمكن أن يتدخل انطلاقا من مصالحه الخاصة بدون أن يعير المسألة التـواصلية أدنى اهتمام. صحيح أن هابرماس يعتبر أن هـذه الفاعلية تنتمي إلى ما يسميه بـ "الفاعلية الاستراتيجية" لأنها لاتتوجه نحو هدف يرمي إلى التذاوت

(1) Rockmore (T) : "Recension de la théorie de l'agir communicationnel" Archives de philosophie, N.46, 1983, PP.669-670.

والتفاهم. بل إن هابـرماس كثيرا ما يحدد الفاعلية التواصليـة وكأنها في وضعية تعارض مع الفاعليـة الاستراتيجية. بـاعتبار أن هـذه الفاعلية هي تلك التي نسلـك لتحقيق أهداف خاصة. وهنـا يجب أن نتساءل: هل القول بأن الفاعلية التـواصلية بحكم كونها تسعى إلى التـوافق والتفاهـم يعني أنها لا تختزن أبعـادا استراتيجيـة. وهل حـوارات الآباء والأبنـاء، المعلمين والمتعلمين، أرباب العمل والعمال... إلخ. لا تحركها اعتبارات استراتيجية. ثم هل يمكن أن نقول بأن عملية تأسيس التواصل الديمـوقراطي في المجتمعات الغربية، من خلال الصيغـة البرلمانية، بـأنها تشكل شيئا آخـر غير كونها إطـارا استراتيجيا للتحـالفات الانتخابية، الحزبية والشخصية؟

أسئلة كثيرة يمكن طرحها على مفهوم الفاعلية التواصلية عند هابرماس، مع العلم بأنه يمكن أن يعترض علينا بالقول بأن ما أقصـده بالفاعلية التواصلية لا يتمثل في الإتفاق السـاعـي إلى نجـاح المشـاركين، بل يتجلى في "تنسيق" مخططـات العمـل المستنـدة إلى تحديدات للوضعيـة يتفاوض حولها أعضاء الفـاعلية التواصلية. غير أنـه يمكن القول بأن فكـرة "تنسيق" المخططات ذاتها تستجيب لإعتبـارات استراتيجيـة أيضا، فضـلا عن أن التفاوض حول تعريفـات الوضعية لايمكن تصوره بدون تشويـه أو تنازل متبادل. ومن ثم يصعب استبعاد الحس الإستراتيجي في هـذه العملية. ثم إن التعـريف المستمر للـوضعية الذي يلح هابـرماس على اعتباره خلفية التعبيرات التواصليـة، لا يمكن القول بأنه يحصل دوما في الحياة اليومية، ذلك أننا نتواصل ونتدخل في مختلف السياقات دون أن نقوم بعملية تعريف للوضعية بالضرورة.

إن هذه الملاحظـات التي أتينا على الإشارة إليها تجعلنـا نقول بأن تصور هابـرماس للفـاعلية التـواصلية ضمن سيـاق أخـلاق ومعايير وتفـاعل يفضي إلى التذاوت والتفـاهم والإجماع يتضـمن ـ أي هذا التصور ـ نوعا من التركيز على الجوانب النظرية والمعرفية للفاعلية وللممارسة. وهـذا تحفظ نقدي يُسَجَّل على هابـرماس باستمرار، أي أن تصـوره للتواصل وللنظرية الإجماعية للحقيقة يتميز ببعد يوتوبي واضح، لدرجة أنه يحيل في كثير من الأحيان إلى مشروع أكثـر ممـا يشير إلى واقع بعينه، ويتحـدث عن أخـلاق يتطلع إلى أن تصـاغ في معايير وعلاقات.

وبسبب السمة الذهنية التي تطغى على تصور هـابرماس، سواء لفلسفة الوعي أو للفاعلية التواصلية، فإن كثيرا من الباحثين يرون أن الأسلوب النقدي الذي نهجه هابرماس واهتمامـه الواضح بنقـد العقل النظـري الغربي في الـزمن الحديث، ونقـد أشكال الممارسـة

والعمل داخل المجتمع الذي أنتجته الحداثة، يجعله قريبا من الفلسفة الكانطية. بل أنه يبدو أحيانا، أكثر كانطية من كانط نفسه. ذلك أن النزعة الشكلانية التي تميز نظرية هابرماس تتجلى بوضوح في الوقت الذي لا يكف فيه عن التأكيد على الإتفاق والتفاهم والتذاوت والإجماع، وما يفترض ذلك من تبريرات لادعاءات الصلاحية... إلخ. في حين أنه لا يهتم، في مقابل ذلك، بكيفية تحقيق العقلانية التواصلية وتجسيد منطلقاتها المبدئية في شكل علاقات اجتماعية *. صحيح أن هابرماس يربط تصوره للتواصل بنظرية اجتماعية، ولكن هذا التصور، بحكم ارتهانه لأخلاق معيارية ولطبيعته الذهنية يبقى عبارة عن يوتوبيا صعبة التطبيق في مجتمع "عقلاني" مؤسس على التوازنات والمساومات والتسويات أكثر مما يعتمد بالضرورة، على الخطاب البرهاني الإقناعي. وتتدخل فيه وساطات المال والسلطة أكثر مما تراعى فيه معايير التواصل والتذاوت.

لذلك نجد من يعتبر أن النموذج المعياري للتواصل عند هابرماس بوصفه نموذجا خالصا ومكتملا، لا يمكن تصور امكانية تحقيقه "أولا؛ لأنه يفترض قدرة متساوية للك على للكل، ثانيا؛ لأنه يفترض سرعة لا محدودة لاكتساب وتداول المعلومات ولأنه يفترض في المستوى الثالث، غياب ظواهر الإستخدام والتحالف والاستراتيجيات داخل الجماعة التواصلية. ورابعا؛ لأنه يفترض أن الجميع له نظرات وتمنيات واضحة ومتميزة لجميع الموضوعات، ثم إنه يجهل، بشكل عجيب، المشكل الكلاسيكي المتعلق بتغيير الإختيارات والآراء الفردية إلى اختيارات وآراء جماعية، ولانه أخيرا؛ يجهل التمييز الكلاسيكي مع ذلك منذ أرسطو بين موضوعات المناقشة التي ترجع إلى الرأي والموضوعات التي ترجع إلى الاستدلال أو التجربة" (1).

ويلاحظ "ريمون بودون" أن ادعاء هابرماس بإمكانية تطبيق نموذجه التواصلي في المجتمعات المعقدة، ادعاء يصعب تبريره أو الدفاع عنه. لأنه لا يمكن أن يطبق إلا داخل جماعات تواصلية محدودة. تجتمع لمناقشة موضوعات محددة. بل إننا إذا كنا

---

* لقد لاحظنا في الفصل الأول من هذا البحث أن فلاسفة النظرية النقدية الأولى تخلوا عن القيم الأنوارية ووجهوا نقدهم إلى العقلانية الاداتية بشكل أساسي، سواء كما مورست في الغرب الرأسمالي أو في الشرق الاشتراكي، أي أنهم تخلوا عن أي مشروع للخروج بجدل الأنوار من مأزقه. أما هابرماس فإنه ينطلق مما توقف عنده هؤلاء الفلاسفة حين حاول تأسيس مقاييس معيارية للنقد استنادا إلى مفهوم الفاعلية التواصلية. ويبدو أن آدورنو لعب دورا أساسيا في التوجه الفلسفي لهابرماس لا سيما فيما يخص مسألة الاستعداد "للتصالح"، حيث رأى فيها هابرماس نوعا من التذاوت الذي يتولّد من تلقاء ذاته ويحافظ على وجوده داخل توافق معتمد على اعتراف حر. وإذا كانت النظرية النقدية الأولى لم تصغ نظرية تواصلية، فإنها مهدت إليها بالرغم من النقد الذي وجهه هابرماس لنمطها النقدي.

.(1) Boudon (R) : "L'idéologie", Paris, Ed. Fayard, 1986, PP. 119-120.

مضطرين، كما يرى بودون، لايجاد حمولة عملية لهذا النموذج، فإنه يمكن القول، بأنه " يترجم جيدا ما يجري، مثلا، في حلقة دراسية، تجمع مجموعة صغيرة من علماء الرياضيات. وفي هذه الحالة يصح القول بأن لكل المشاركين حرية المناقشة " (1)وهكذا فإن طبيعة اللقاء والموضوع يمكن أن يؤدي إلى اتفاق كامل للمشاركين على الأهداف المتوخاة وعلى قواعد المناقشة فضلا عن أن طبيعة المناقشات تفترض استبعاد كل الإعتبارات الإستراتيجية أو محاولات المناورة والاستخدام. ذلك أن الرياضيات تمثل نشاطا استثنائيا إلى حد ما، بحكم كونها تتميز بقواعد دقيقة ومقاييس واضحة، غير أننا إذا تركنا هذه الحالة الإستثنائية، أي حالة الرياضيات " فإن أنظمة التواصل الواقية تميل إلى التعارض مع نموذج هابرماس على جميع المستويات تقريبا " (2). ذلك أن عمليات التواصل وتداول وانتشار المعلومات كما نلاحظ ذلك في الحياة الإجتماعية، لا كما نريدها أن تكون، تنفلت ـ أي هذه العمليات ـ أحيانا، من نموذج الشفافية الذي يطالب به هابرماس. الأمر الذي أدى ببودون إلى الملاحظة بأن " نظرية التواصل الخالصة والمكتملة، لهابرماس تعتمد على مفهوم قبلي مدهش من عالم اجتماع. فهذا النموذج "الديمقراطي" الذي تقترحه، يلغى، من حيث التعريف والمبدأ، ظواهر السلطة. . . غير أنه يتعين النظر، بالخصوص، إلى أن نظرية من هذا النوع، تؤدي إلى نتيجة عبثية مؤداها أن الجميع يمكن أن تكون له كفاءة متساوية في كل الموضوعات " (3).

نفس الملاحظة، تقريبا يسجلها " جان فرانسوا ليوتار" . غير أنه يضعها على صعيد مناقشة هابرماس لمسألة المشروعية في المجتمع الحديث وقضية الإجماع. فالتأكيد على ادعاءات الصلاحية وعلى الحوار البرهاني في نظر "ليوتار" يفترض شيئين "الأول هو أن كل المتكلمين يمكنهم الإتفاق على القواعد. . . الصالحة بشكل كلي، لكل ألعاب اللغة، في حين أن هذه الألعاب تكون متنوعة وترجع إلى قواعد تداولية متعددة. أما الإفتراض الثاني فيتمثل في كون الإجماع هو غاية الحوار. ولقد بينا من خلال تحليل التداوليات العلمية، أن الإجماع ليس إلا حالة من حالات المناقشة وليس غاية " (4). فضلا عن أن الإجماع أصبح قيمة مشكوكا فيها. أما ما يجب التأكيد عليه في مجتمعات الحداثة البعدية، فهو مسألة العدالة. ذلك أنه يتعين " الوصول إلى فكرة وممارسة للعدالة لا تكون مرتبطة بفكرة وممارسة

---

(1) Ibid, P. 120.
(2) Ibid, P. 120.
(3) Ibid, P. 122.
(4) Lyotard (J-F) : "La condition postmoderne", Paris, Ed. Minuit, 1979, P.106.

الإجماع " [1]. لا سيما وأننا نعيش في مجتمعات لا تعمل على جذب العلماء التقنيين وبناء المؤسسات من أجل الوصول إلى الحقيقة، بقدر ما تقوم بذلك سعيا وراء تدعيم القوة، الأمر الذي يؤدي إلى القول بأن المعرفة والسلطة هما في العمق، وجهان لسؤال واحد هو : «من يقرر ماهية المعرفة، ومن يعرف ما يتعين اتخاده من قرارات " [2].

لاشك أن تأكيد "ليوتار" على تلازم المعرفة والسلطة، ليس جديدا، لأن فلاسفة آخرين سبقوه إلى تشريح مظاهر السلطة داخل النسيج الإجتماعي، وتنفصل تعبيراتها مع الإشكال المختلفة للخطاب المتداولة داخل مجتمع معين. لكن ما يميز موقف "ليوتار" هو حديثه عن العلاقات الوثيقة بين المعرفة وخطاب السلطة وأشكال المشروعية، وأن الكشف عن تفاصيل هذه العلاقة يفترض البحث عن المكون التواصلي الذي أصبح، في نظره، واقعا ومشكلة في نفس الآن. ذلك أن المسألة اللغوية أخذت بعدا مغايرا، وأهمية خاصة داخل مجتمع الحداثة البعدية، ولا يمكن اختزال هذه الأهمية في المستوى التقليدي للكلام الموجه للاستخدام والاستقطاب أو في التداول الاحادي للخطابات، أو في التعبير الحر داخل حوار متكافىء، كما يرى ذلك هابرماس، بل يتعين النظر إليها من زاوية الإعتراف بتعدد مستويات اللغة وبتنوع إمكانيات اللعب بقاموسها وبرموزها. وهذا الأسلوب من النظر يفترض الإبتعاد عن الخطاب الواحد والأحادي، وعن التسليم بأن الإجماع يمكن أن يكون كليا وعاما.

ثم إن هابرماس حين يقول بالعقل التواصلي فإنه وكما رأينا ذلك عند حديثنا عن الحداثة والتواصل، يدخله ضمن صيرورة العقل الغربي ولا سيما ابتداءا من فلسفة الأنوار، ونقد العقل، عنده، لا ينفصل عن العقل ذاته. لذلك واجه كل الفلسفات التي جعلت من نتائج الحداثة المرعبة ذريعة للهجوم على العقل في كليته. فهو يرى أن العقل يشكل موضوعا ملازما لكل تفكير فلسفي. وسنكون مخطئين حين نرجع الإتجاه العقلاني إلى ديكارت وأتباعه، لأن أي مناقشة فلسفية، إذا أرادت أن يكون لها معنى لا يمكنها الإستغناء عن العقل وذلك منذ بدايات الفلسفة إلى الآن، بل إنه حتى النقد الجذري "أو الكلي"، كما يفضل "أوتو آبل" تسميته، سواء عند نيتشه أو هايدغر أو فلاسفة النظرية النقدية أو حتى ديريدا، لا يقترح، في حقيقة الأمر، إلا شكلا آخر للممارسة العقلية.

(1) Ibid, P. 106
(2) Ibid, P. 20.

صحيح أن مساهماتهم تدخل ضمن محاولة الخروج من فلسفة الوعي أو من التراث الفكري الغربي المتمركز حول العقل واللغة ولكنهم يقومون بذلك اعتمادا على العقل نفسه.

للعقل، إذن أهمية خاصة في تاريخ الفكر الغربي، سواء من زاوية تدعيم قاعده وضوابطه، أو من منطلق رفض نتائجه وإدانة انعكاساته العملية. بل إن هناك من يعتبر بأن الفلسفة الحديثة تشكل امتدادا، بطريقة من الطرق، للتراث العقلي الإغريقي وأن " مفهوم العقل الافلاطوني يَعْبُرُ الفكر الغربي داخل المواقف المتنوعة. حقا إن الأمر لا يجب أن يفاجئنا نظرا للتأثير المستمر لافلاطون على تطور الفلسفة الغربية. وبصورة أدق، حتى ولو كان هذا التطور موجها ضد الفكر الافلاطوني وإن على الطريقة الفرويدية، فإن تكوين التراث الفلسفي على أسس صاغها أفلاطون يضعها أمام الإختيار التالي: إما أن نكون فلاسفة وأفلاطونيين في نفس الوقت، وإما أن لا نكون أفلاطونيين، لكن وغير فلاسفة "[1].

وانطلاقا من هذا الموقف العام يرى "روكمور" أنه يجب أن لا نفاجأ عند ملاحظة عملية "تجديد العقل الافلاطوني في أعمال يورغن هابرماس... فالاهتمام بالدفاع عن العقل، بما فيه منفعته، تشكل الخيط الرابط لمساره الثقافي. ومنذ ما يقرب من عشرين سنة وهابرماس يشتغل لتأسيس نظرية للفاعلية التواصلية، آخر مرحلة فيها لحد الآن تتمثل في شكل جديد للاخلاق. وبالفعل، فإنه يبدو أن أخلاق الحوار تذكر بدور الحوار على الصعيد الأخلاقي، وهو موضوع ذو استيحاء سقراطي واضح "[2].

قد نتفق مع تفسير "توم روكمور" للخلفية الأفلاطونية للعقل عند هابرماس، أو نختلف، لكن ما هو ثابت هو موقف هابرماس من العقل. ذلك أنه لم يكف، منذ كتابه "جوانب فلسفية وسياسية" إلى "الخطاب الفلسفي للحداثة" عن الإلحاح على أهمية العقل وعلى ضرورة المحافظة على دوره، لا سيما إذا عرفنا كيف نستعمله ونوجهه. فالعقل عنده، باعتباره عقلا، يشكل ملكة نافعة لأنها ترتبط، بشكل كبير، بما يمكن أن يخدم الإنسان والجماعة.

لذلك واجه هابرماس كل المتشككين في فاعلية العقل، ولكن من خلال القيام بجنيالوجيا لهذا العقل منذ كانط إلى الآن. فهيغل عنده، يمثل أول مفكر للحداثة.

---

(1) Rockmore (T) : "De l'intérêt de la Raison", Archives de philosophie, N°51, 1988, P.447.

(2) Ibid, P.448.

أما فيبر فإنه نظر لعمليات العقلنة والتحديث باعتبارهما نتيجة لتفكك العقل الجوهري. وهكذا يرى هابرماس أن الحداثة، بالرغم من كل الإنجازات المادية والفكرية والجمالية التي قامت بها، فإنها مازالت مشروعا غير مكتمل. والتأكيد على هذه المسألة معناه أن عقل الأنوار مازال، بدوره، لم يستنفذ طاقاته، مادام هذا العقل يمكن من تطوير علم موضوعي، وأخلاق وتشريعات ذات طابع كلي، وفن مستقل. يتعين، إذن، استعادة مشروع الحداثة بربط الثقافة المعاصرة بما يشكل عناصر الإضاءة في التراث الأنواري، اعتمادا على عملية تحديث اجتماعي وعقلنة تواصلية. فمشكلة الحداثة إذن، تتوقف على تأويل جديد لتاريخ الفلسفة الحديثة من منطلق بنية فكرية مغايرة لما ينعته بفلسفة الذات.

ويبدو أن إلحاح هابرماس على إعادة قراءة التراث الفلسفي الألماني يطرح علينا مشكلة لها أهمية خاصة. ذلك أن مطالبته بالخروج من فلسفة الوعي، وعلى تأويل الفلسفة المثالية الألمانية بطريقة مغايرة يدفع إلى الملاحظة بأن هابرماس، يقوم بذلك اعتمادا على عقل كانطي في كثير من الأحيان، حتى ولو اعتبر أن هيغل هو أول من نظر للحداثة. ولكي لا ندخل في تفصيل هذه النقطة، نقول بأن تأكيد هابرماس على اعتبار هيغل أول فيلسوف للحداثة، اعتبار يستدعي شيئا من التحفظ. ذلك أن هيغل اهتم بالفعل، بمظاهر الحداثة في زمنه ونظر لها، ولكن كانط، وفختة كذلك، انشغلا بكثير من جوانب الحداثة سواء تعلق الأمر بالثورة الفرنسية أو بالعقلنة أو بالفرد أو بالدولة... إلخ ثم إلى أي حد يمكن القول بأن هيغل يمتلك نظرية للحداثة مادام الإنشغال ببعض مظاهر الحداثة لا يعني بالضرورة، وضع نظرية لها.

هذا السؤال يؤدي بنا إلى مسألة أخرى تتعلق بطبيعة ارتباط العقل بالحداثة. فهابرماس حين يعتبر أن مشروع الأنوار لم يتحقق كما كان من المنتظر أن يتحقق، وأن الحداثة غير مكتملة فإنه يريد أن يقول في العمق، بأن شكلا معينا من العقل لم يتحقق، أي أن ذلك العقل الأنواري القادر على محاكمة ذاته، استبعدته العقلانية الاداتية. ومن ثم فإن هابرماس يجمع، أو بالأحرى يخلط بين مصير العقل في الأزمنة الحديثة وبين الحداثة. لذلك عاد إلى التأكيد من جديد على جدلة التحديث والعقلنة. بعقلنة التحديث وتحديث العقلنة. في حين أن موقع العقل والمناقشة الفلسفية حول أهميته ودوره ليست إلا جانبا من جوانب الحداثة. ليس معنى هذا أن العقل لا أهمية له في فهم الزمن الحديث أو في المواكبة النقدية لصيرورة الحداثة، ولكن لا يمكن أن ننظر إليها من منطلق تصور حديث للعقل

فقط. فالعقل مظهر من مظاهر المجتمع الحديث، أو هو عنصر مكون للعالم الإجتماعي، ولكن العالم ليس هو العقل، ومعرفة العالم هي معرفة شيء خارج عن العقل الباحث، أو بالأحرى معرفة ما ليس عقلا. ولذلك فإن معرفة الحداثة تطرح قضية ابستمولوجية تتمثل في الكيفية التي يمكن بها فهم العالم الإجتماعي. لأن الصعوبة تكمن في معرفة إمكانية وجود بنية مفهومية واحدة يمكن استعمالها لفهم كل أشكال السياق الإجتماعي، أو أنه يتعين علينا مراجعة مقولاتنا بحسب التغيرات التي تطرأ على الموضوعات. بمعنى آخر إلى أي حد يمكن للفلسفة، وحدها، أن تفهم الحداثة ؟

لاشك أن هابرماس انشغل بكل هذه الأسئلة، سواء المتعلقة بعلاقة الفلسفة بالعلوم الدقيقة والإجتماعية، أو بامكانيات تعقُّل العالم المعيش، وقد قام بذلك من منطلق عقل تواصلي، كما لاحظنا، يخرج من إطار الذات والإنخراط في سياقات التذاوت، يتبرم من ثنائية الذات والموضوع لتقترح إطارا معياريا للتفاهم والإتفاق والإجماع. لقد لاحظنا كيف أن بعض الباحثين رأوا فيه "كانطا" جديدا، أو أن مقاربته للعقل تحيل إلى التراث الأفلاطوني، كما أن البعض الآخر يعتبر أن هابرماس "يطور، في الواقع تحليلا فيختويا" (1) ولكن بالرغم من كل ذلك، فإن هذا الفيلسوف لا يمكن أن يُذكِّر المرء بالإجتهادات الفلسفية الكبرى التي اقترحها بعض الفلاسفة والعلماء لفهم الحداثة. أمثال هيغل وماركس وفيبر ولوكاتش... إلخ بل إن فلسفة تشكل عملية تركيب لكل الجوانب التي لم يتم صياغتها نظريا في كل الأنظمة الفكرية منذ كانط إلى ديريدا.

إن هابرماس في محاسبته النقدية لمختلف لانساق الفلسفية والنظرية السوسيولوجية والسياسية أراد أن يرد الإعتبار للعقل النقدي في محاكمته للحداثة. وهو عقل بقدرما يتخذ من ظواهر الحداثة موضوع نقده بقدر ما يهتم بتقويم آلياته وعملياته، لأنه إذا غضضنا الطرف عن النقد الذاتي للعقل فإنه يمكن أن تتحول الحداثة إلى موضوع منزه من النقد. وهي وضعية لا يمكن أن يقبلها العقل التواصلي.

ويمكن القول إنه بالرغم من استفادة هابرماس من الإنفتاحات الفلسفية للنظرية النقدية، فإن نظرية الفاعلية التواصلية تشكل إسهاما نقديا متميزا. ففلاسفة النظرية النقدية جعلوا، كما رأينا ذلك، من العقلانية الاداتية هدف نقدهم، في حين أن هابرماس، وإن كان يشاطرهم نقدهم لهذه العقلانية، فإنه لم يسقط في الرفض القاطع

(1) Rockmore (T) : "La Modernité et la Raison, Habermas et Hegel", Archives de philosophie, N.52, 1989, P.185.

لها. ذلك أن الإختراق العام لعمليات العقلنة في الحياة اليومية لم يعدْ منظورا إليه بوصفه تشيؤا أو استلابا. لأن عقلنة العالم المعيش، عند هابرماس، تشكل ظاهرة إيجابية للحداثة مادامت تساهم، فعليا، في تحرر النوع الإنساني لاسيما وأنها تعني أن أنماط التفاعل داخل العالم المعيش لا تستند إلى سلطة مقدسة بقدر ما تخضع لمنطق الفاعلية التواصلية، وهكذا بدل عقلنة العالم المعيش بطريقة عمياء، كما يحصل مع العقلانية الأداتية، يتعين القيام بذلك بطرق مستنيرة لا تتأتّى إلا في سياق إجماع تذاوتي.

ومن جهة أخرى فإن هابرماس يشدد على مسألة أساسية فيما يتعلق بأبعاد العقلنة، ذلك أن موقفه الإيجابي النسبي من العقلانية التقنية ـ العملية لا ينسحب على جميع المجالات. فالعمليات التقنية يجب أن تنحصر في إعادة الإنتاج المادي للعالم المعيش، أي في الحاجات الطبيعية والمادية للإنسان، في حين أن ما يسميه هابرماس بإعادة الإنتاج الرمزي والثقافي للعالم المعيش فهي تتعلق بمجال التفاهم اللغوي.

ويظهر أن ثنائية مادي ـ رمزي تسكن تصور هابرماس للعقل وللعقلنة بشكل واضح. فالعقلانية الأداتية التي ينعتها بـ "العقلانية الوظيفية" تستجيب للمتطلبات المادية للحياة، في حين أن العقلانية التواصلية تهتم بالمشاكل والقضايا الرمزية والثقافية المتعلقة بالمعايير الأخلاقية واحترام بعض عناصر التُراث والمقومات الثقافية... إلخ ذلك أن إعادة الإنتاج الرمزي للعالم المعيش تتم من خلال ثلاث قنوات: استمرارية المعرفة الصالحة، استقرار أشكال التضامن داخل الجماعة وتكوين أو تربية فاعلين مسؤولين. وهذه القنوات تقابلها ثلاثة عوالم: الموضوعي والإجتماعي والذاتي.

إن نقد العقل الوظيفي يسمح بالكشف عن "استعمار" مجالات إعادة الإنتاج الرمزي للعالم المعيش من طرف العقلانية التقنية. من هنا اهتمام هابرماس المركزي بما يسميه بـ "تشيؤ التواصل" الذي يحصل من خلال التحكم الكبير في حاجات إعادة الإنتاج الإجتماعي من طرف نظام اقتصادي ـ تقني. ومن هنا أيضا، انشغاله بمسألة فراغ المعنى وتآكل الحرية، وبالعمل على تشخيص الظواهر المَرَضية للحداثة لخلق مجال عمومي يستجيب لشروط الخطاب البرهاني والمناقشة العقلية المؤدية إلى التفاهم والتذاوت والحوار الديموقراطي المؤسس على ادعاءات الصلاحية في مجالات الحقيقة والدقة والصدق.

خــاتــمــة

يمكن للمرء أن يشك في كل شيء، بل وعليه، في كثير من الأحيان، أن يُدخل الشك كبعد أساسي في نظرته للأشياء والمعرفة والأخلاق والسياسة، ولكنه لا يمكن له أن يشك في كون الجماعات الإنسانية تعيش وتتحرك داخل اللغة، وداخل فضاءات تواصلية، تحتضن الأشكال المتعددة للاختلاف، كما تستقبل الأساليب المتنوعة للتعبير عن التفاهم والتوافق. إن كلام الناس يؤسِّس للجماعة البشرية أنماط تواصلها داخل سياق عالم معيش له ضوابطه وأشكال اشتغاله وتحوله. ومادامت اللغة تختزن إمكانات هائلة للعقلنة، فإن المجال العمومي الحديث يفترض تشكيلات خطابية من النوع البرهاني لتبرير إدعاءات صلاحيتها في الحقيقة والدقة والصدق، ولاعطاء أبعاد أخرى للسلوك الديمقراطي الفعلي المستقل عن كل ضغط أو سيطرة.

إن المشروع الفلسفي لها برماس المُسْتَنِد، بشكل أساسي، إلى تمفصل الحداثة والتواصل، يبدو وكأنه نظرية للنظريات، بسبب ملامسته لاكثر من نسق فلسفي وعلمي، ومناقشته ونقده لجل الإجتهادات النظرية التي جعلت من ظواهر الحداثة موضوعا لها. إنه يقترح علينا "بروتوكولا" منهجيا لاعادة بناء العقل التواصلي على أسس لغوية وإجتماعية وسياسية وأخلاقية، ولصياغة مجال عمومي يخضع، في الأول والأخير، لقوة أفضل برهان.

كيف يمكن استجماع كل مفاصل المشروع الهابرماسي ولاسيما ما يتعلق بجدل الحداثة والتواصل؟ وما هي الخلاصات النظرية الأساسية التي يمكن للمرء الوقوف عندها بعد هذا التقديم الإشكالي لمحاور اجتهادات هذا الفيلسوف الألماني؟.

إن من بين أهم ما يميز هابرماس هو تشبثه المستمر بالفلسفة، باعتبارها حقلا فكريا متعدد الموضوعات والأبعاد. بل إنه لم يكف عن المطالبة بإعادة تعريفها لاسيما في ضوء التحولات الابستمولوجية والحضارية التي شهدها الغرب. فلا يمكن أن ينحصر دور الفلسفة في إعادة صياغة الأسئلة الانطولوجية أو الميتافيزيقية، أو أن تقتات من بقايا نتائج العلوم الإنسانية والإجتماعية، أو أن تقتصر وظيفتها على مواكبة التحولات المفاهيمية

للعلوم الدقيقة . . . إلخ كل هذه المجالات يمكن أن تتفاعل معها، بل ويتعين عليها أن تتفاعل معها لأن النزعات الوضعية والعلموية والنفعية لا تحتمل النقد الذي يؤسس للفعل الفلسفي، ويعطيه مشروعيته الفكرية، لذلك لم يتوقف هابرماس، منذ بداياته الفلسفية إلى الآن ، عن مواجهة الوضعية على الصعيد الإيديولوجي، ليس من خلال السجال فقط وإنما بواسطة التفلسف الفعلي .

قد يشعر المرء، أحيانا، أثناء قراءته للنص الهابرماسي أنه أمام أستاذ له قدرة هائلة على إستيعاب وتقديم وعرض أفكار الآخرين . وهذه ملاحظة واردة في كثير من كتابات هابرماس، بل إن البعض يذهب بعيدا حين يعتبر، وكما رأينا ذلك من قبل، أن نظرية هابرماس تختلط مع نظريات الآخرين، أي أنه يصر على تقديم عناصر نظريته في الوقت الذي يقدم أو يناقش فيها أطروحات الآخرين .

قد تكون هذه الملاحظة صحيحة ويمكن أن نعثر على ما يبرر صوابها داخل النص الهابرماسي، ولكنه يصعب علينا الحكم على كل الإجتهادات الفكرية لهابرماس من هذه الزاوية فقط، مهما كانت صحتها وصدقها . ذلك أن هذا الفيلسوف الألماني أراد القيام بعمل تركيبي يصعب العثور على شبيهه في الفكر الغربي المعاصر . وهو، بحكم انتمائه للثقافة النقدية وانشغاله المبدئي بالعقلنة والتحديث، عمل على تصفية الحساب مع كل التراث النقدي الذي أهمل قدرة العقل على محاكمة ذاته، كما أنه واكب كل تجليات الحداثة الفكرية بهدف صياغة تصور معياري للعقل النظري والعملي الذي يُسْنِد مفهومه للعقل التواصلي .

إننا نعثر على فلاسفة جامعيين ينخرطون في التدريس والتعليق على النصوص الفلسفية، وأحيانا يقومون بنقدها، وهذه مهمة لا تتطلب من الفيلسوف إيقاعا حياتيا خاصا أو نمطا وجوديا لممارسة هذا العمل . في حين أن التفلسف الحق يشترط انخراط الفيلسوف بكلية وجوده في الزمن، لأنه يفترض أن وجوده يُجَسِّد شغف الحاضر والقدرة على الإنصات إلى تحولات اللحظة، لدرجة أن الناس يمكن أن تجد بعض عناصر أو علامات انشغالهم في نصوصه .

ويجوز لنا أن نقول بأن هابرماس يجمع بين الأستاذ والقارىء والفيلسوف والمثقف، لأنه ربط مصيره الفكري بالقدر المعاصر لألمانيا وعَمِلَ، في كل مرة، على التدخل في المناقشات الفكرية والسياسية التي شهدتها ألمانيا منذ ما بعد الحرب العالمية الثانية . لقد ورث هذا الفيلسوف القلق الوجودي الألماني الذي ولدته النازية، لذلك ألح، في نظرية

الفاعلية التواصلية، أولا، على أنسنة عمليات العقلنة بإدخال أبعاد التواصل، وثانيا، على ضبط تحركات المجال العمومي الحديثة بمعايير أخلاقية تنبذ وساطات المال والسلطة، وتفسح فضاءات لاحصر لها للحرية وللفاعلية الإنسانية.

إن فلسفة هابرماس تسكنها إرادة شخص يتطلع إلى الإمساك بالأسباب الجوهرية التي تكمن وراء التباسات الحداثة. إنه يبرهن على قدرة هائلة على التفكير في التناقضات المُكوِّنة لها، أولا؛ بالتأكيد على أهمية العقل الأنواري، لأنه لم يستنفذ طاقاته بعد، ولأنه يختزن وعودا تحرُّرية لاحدود لها، وثانيا، بالانْصات إلى التأثيرات المُدَمِّرة المرتبطة بعمليات العقلنة الدائمة لتصورات وأشكال العالم المعيش.

إن كتابات هابرماس تُعَبِّر عن جهد نظري قلَّ نظيره لتبرير قيمة العقل والعقلنة، وتأسيس معايير جديدة لِضَبْطِ عملياته وتحرُّكاته. وهو يقوم بهذا العمل، بالرغم من كل الإنتقادات المشروعة أو المبالغ فيها، التي وُجهت للعقل الأنواري. ومن هذا المنطلق واجه الفلاسفة المحافظين، والمواقف العدمية واللاعقلانية في نفس الآن. لأن مسعاه المركزي يتمثل في الوصول بالعقل الغربي الحديث لأن يتصالح مع ذاته، وبالحداثة لأن تعقلن حداثتها، بإدخال المعايير الأخلاقية ومراعاة اعتبارات التواصل.

لهذا السبب دخل هابرماس في سجال قوي مع فلاسفة الاختلاف، ومع التيارات اللاعقلانية. فهم بالرغم من نقدهم للحداثة ودعوتهم إلى الخروج من أطرها وضوابطها، فإنه يعتبرهم جزء منها ونتاج من نتاجاتها. فهو لا يقبل التنازل أمام مشاكل الحداثة، كيفما كانت طبيعتها وقوة تأثيرها. ويرى أن مواجهة معضلات الحداثة بعقل استسلامي هي انسحاب من الزمن. لذلك يتعين القيام بممارسة إبداعية للنقد بدل الإكتفاء بالتحفظ المطلق على عمليات العقل ونتائجه، لأن هذا التحفظ يُعَبِّر عنه اعتمادا على بنية هذا العقل نفسه، طالما أن النقد يعتمد على اللغة، وللغة عقلانيتها الخصوصية.

إنه لا يمكن التخلي عن العقل والعقلنة، عند هابرماس، دون إنكار الذات. ثم إن هذا الفيلسوف حين يقول بضرورة استئناف التفكير فيما لم يتمكن العقل الأنواري من تحقيقه، وحين يدرج إجتهاداته ضمن نظرية للمجتمع، فإنه يؤطر نفسه ضمن مشروع فكري وسياسي، حتى ولو اتخذ من النقد قاعدة أساسية له. في حين أن فلاسفة الاختلاف، ولاسيما ما بعد الحداثيين منهم، يفتقرون إلى أي تصور مستقبلي، بل إن ثقافتهم، بدل التركيز على الممكن، ترمي بأصحابها في المستحيل، وعوض الممارسة الإبداعية للنقد تؤكد على التكرار، وبدل التدخل في الصراع والتوتُّر، تقول بالانسحاب

والارتكان إلى التصوف أو البلاغة أو طمأنينة النفس. إن فكر ما بعد الحداثة، إذن، هو حدث من أحداث المسار العام للحداثة نفسها.

لذلك يثبت هابرماس أنه مثقف لا يحركه أي حنين لماض قدسي كما أنه لا يسكنه أي شعور بالتشاؤم، على اعتبار أن الفعل الفلسفي يجب أن يمر عبر تشخيص للتعدد الهائل الذي يميز العالم ولكن مع القدرة على التمييز بين ما هو صحي وما هو مرضي في الحداثة.

كان من الصعب على هابرماس أن يلتقي مع فلاسفة الإختلاف أو أن يشاطر منطلقاتهم وخلاصاتهم، حتى ولو أنه يعتبر نفسه جزءا من ما بعد الحداثة الفكرية. وصعوبة اللقاء تتمثل أولا؛ في الموقف من العقلنة، لأنهم يرون فيها مصدر المعاناة وسبب القلق الوجودي الذي يعيشه الإنسان الحديث، بحكم أن هذه العقلنة اقترنت بآليات الدولة الحديثة وفرضت أنماطا أحادية على الافراد والجماعات. وفي هذا المستوى من النقد يلتقي كثير من الفلاسفة، من نيتشه إلى هايدغر إلى لو كاتش إلى فلاسفة النظرية النقدية إلى فوكو وديريدا إلى هابرماس، غير أن ما يؤاخده هابرماس على هايدغر وفوكو وديريدا، هو أنهم يلتجؤون إلى اختيار جذري وكلي في نقد العقلنة، دون التمييز بين ما هو أداتي منتج للاستلاب والتشيؤ وما يساعد على تحرر الإنسان من عبودية الطبيعة والأشياء. فنقد العقلانية الآداتية ضرورة حضارية لكن شريطة أن تكون أداة النقد قادرة على ممارسة النقد على ذاتها من جهة، وأن يراعي هذا النقد معايير التواصل من ادعاءات الصلاحية في الحقيقة والدقة والصدق من جهة ثانية.

ويصعب أن يلتقي هابرماس مع فلاسفة الاختلاف، ثانيا؛ لأنه يؤكد على ضرورة احترام أخلاق تواصلية، في حين أن هؤلاء الفلاسفة يرون في الاختلاف عنصرا من النظام العام الذي يُكَرِّس الهوية ويعمل على إعادة إنتاجها. لا نقول بأن هؤلاء الفلاسفة يدعون إلى نوع من اللاأخلاق، وإنما يمتنعون عن التبشير بأي شيء أو الدعوة إلى أخلاق مغايرة. ذلك أن عشقهم الرومانسي للحرية والاختلاف يجعلهم يبتعدون عن أية حركة قد تلتقي، في مسارها، مع منطق السلطة والمؤسسة. أما هابرماس، وبحكم تأكيده على قضايا الإتفاق والتفاهم والإجماع، وبسبب ربطه بين أفعال الكلام والممارسة، بين اللسانيات التداولية وبين مختلف أشكال التدخل العملي، فإنه كان من المنطقي أن يقول بضرورة احترام معايير أخلاقية سواء على صعيد التشكيلات الخطابية وأفعال الكلام أو على صعيد أنماط السلوك والتدخلات العملية.

غير أن هابرماس، في إطـار صياغته لنظرية المناقشة ولاخلاقيـات التواصل، يؤكد على أن هذه النظريـة تبقى صورية لأنها لا تملي على الناس توجهات محددة بقـدر ما توحي ببعث الأساليب الإجـرائية المتعلقة بـالمناقشـة العملية. لدرجـة أنه يعتبر أن موضـوع هذه الأساليب لا يتمثل في إنتـاج معايير وإنما في امتحان صلاحيتها بحكـم أنها ـ أي المعايير ـ تُقْتَرَحُ كفرضيات يتعين التحقـق من حقيقتها ودقتها وصدقتهـا وصدقها بواسطـة المناقشة والتفاهم. لذلك يطالب هابرماس بتأسيس أخلاق على العقل تعتمد على نظرية المناقشة. على اعتبار أن كل شيء خـاضع للنقد وللتـداول وللمراجعة والتقـويم. لا شيء معفي من التساؤل والمنـاقشة، لدرجـة تغدو فيها المناقشـة سلطة إجتماعية وعقليـة وأخلاقية تعـاند السلطات التي تستعمل أدوات ووساطات أخرى غير العقل.

لذلك فإن نظـرية الفاعلية التـواصلية، باعتبـارها تجسيدا لجدل الحداثة المعيـارية والأخلاق التواصلية، تؤكد على الحقيقة بوصفها نتاج عملية تبادل البراهين والحجج، وهي بالتالي تتويج لاتفاق ذي طبيعة ـ جماعية. وهذا ما يسميه هابرماس بـ "النظرية الإجماعية للحقيقة".

لا نريـد، هنا، استجماع المفـاصل النظرية المختلفـة التي تبلورت داخل كتـابات هابرماس منذ "جوانب فلسفية وسياسية" إلى "المفهوم المعياري للمجال العمومي". لأن هذا الفيلسـوف وعالم الإجتماع كان يتعـامل مع الكتاب باعتباره محطـة فكرية يصـوغ فيها تصوراته لمختلف الموضوعات التي اهتم بها من جهة، ولتصفية الحساب مع قضية أو نظام مفـاهيمي أو فيلسـوف أو منهج تأويلي من جهـة ثـانية. وقـد شكلت العقلنـة والحداثـة الإشكالية المركـزية داخل كتاباته. فمنذ "التقنيـة والعلم كايديولوجيا" وهـابرماس يعمل على البحث عمّا يعضد إشكـاليته نظريـا ومنهجيا وسياسيـا. ويمثل هذا الكتاب منـاسبة أساسيـة سمحت له بالتحـاور النقدي مع ماركـوز والنظرية النقـدية، وبتدشين منـاقشة نظـريـة العقلنـة عند فيبر ومسـألة العمل والتفـاعل عنـد هيغل. أمـا كتـاب "المصلحـة والمعرفة" فإنه، ولو أنه مرتبط أشد الإرتباط بإشكالية "التقنية والعلم كايديولوجيا" إلا أنه قام فيه بما أسماه بحفريات للنزعة الوضعيـة. ولكن داخل ثنايا هذين الكتابين، إضافة إلى كتاب "منطق العلوم الإجتماعية"، نعثر على الملامح الأولى لنظرية الفاعلية التواصلية التي ستجـد تعبيراتها الـواضحـة في "العقل والمشروعيـة"، كما سنعثـر على أسسهـا النظـريـة والإجتماعية في سِفْرَيْـه الذي اختار لَهُمَا عنوان "نظـرية الفاعلية التـواصلية"، وفيهما عَمِل على وضع تفاصيل المشروع الفلسفي المتمحور حول الحداثـة والتواصل. وهو يعتبر مجهوده

النظري هذا عبارة عن مشروع ، لأنه لم يقدم " نظرية مهيئة بشكل كامل " [1] وإنما توجهات أساسية للبحث بهدف الإنتقال من نظرية الوعي إلى نظرية التواصل ، وتأسيس أخلاق للمناقشة تستمد بعض مقوماتها من نظرية الحقيقة والبرهنة .

لقد تَبيَّن لنا كيف أن هابرماس ركَّز، ضمن طموحه في تأسيس نظرية معيارية للحداثة ، على أربعة أسس نظرية لبلورة تصوره النقدي للمعرفة وللمجتمع وهي : نظرية العقلنة ، ونظرية النشاط التواصلي ، وجدل العقلنة الإجتماعية ، ونظرية المجتمع التي تجمع بين الإهتمام بقضايا الممارسة وباعتبارات النظام . ومن أجل صياغة كل هذه المفاصل النظرية عمل هابرماس على التقاط مختلف الإنفتاحات النظرية والفكرية التي سمحت له ببلورة أسئلته وبتعميق تحليلاته للكشف عن الآليات المختلفة المنتجة للظواهر المَرَضِية للحداثة . فنقد الاستلاب والتشيؤ كما عند أدورنو وهو ركها يمر ولوكاتش من خلال نقد العقلانية الاداتية أدى به إلى ملامسة ما أسماه بـ "الإستعمار الداخلي" للعالم المعيش الذي تفرضه عمليات العقلنة على العلاقات وأشكال التبادل .

وبالرغم من كل ذلك فإن هابرماس لم يرد أن يتخد من سلبيات العقلانية الآداتية ذريعة لترك مشروع الحداثة ، بل إنه يلح على موضعة فكره في سياق تطورها وتحوُّلها ، ولكن بالإنتقال من المجال المعرفي لفلسفة الوعي إلى بنية الفلسفة التواصلية ، دون القفز إلى مرحلة ما يسمى بما بعد الحداثة ، أو التشبُّث بالمواقف المضادة للحداثة ، لأن همَّه المركزي تمثل في إعادة تنشيط الطاقة النقدية للعقل الأنواري ، من خلال إبراز المضمون المعياري لفكرة التفاهم الموجودة في مختلف اللغات وأشكال التواصل .

إن اهتمام هابرماس بنظرية المناقشة في سياق أخلاق تواصلية ، وانشغاله الدائم بمسألة المجال العمومي ، يظهران الحس السياسي الكبير الذي يُحرِّك هذا الفيلسوف الألماني . لاشك أن الأمر يتعلق بتقليد فلسفي ألماني منذ كانط ، لكن هابرماس ، وبسبب احتكاكه المستمر بالاحداث العامة التي شهدتها ألمانيا بعد الحرب العالمية الثانية ، وبحكم انخراطه الدائم في المناقشات العمومية التي عرفتها السياسة والثقافة في ألمانيا ، كل هذا جعل منه مفكرا منشغلا بالشأن العمومي وبالمسائل السياسية . إنه لا يدعي امتلاك الحقيقة ، لأن الزمن الحديث أنهى الأسطورة القائلة بالحيازة التامة للحقيقة من طرف الفيلسوف . بل إنه يعترف أن ما يهمه هو إنتاج " الحقائق الصغيرة وليس الحقيقة الوحيدة

1) Habermas (J) : "Théorie de l'agir communicationnel", Tl, op. cit, P.9.

الكبرى" [1]. إنه لا يقـول بإنتاج تصـور عام للكـون وللتاريخ، وإنما يقترب مـن الحقائق بوصفها شكلا من إمكانيات الفهم، على إعتبار أنه "تخلَّى عن الادعاء التفخيمي للحقيقة الفلسفية" [2].

إن التـواضع في الإعـلان عن الموقف شرط من شروط الحوار، والإعتراف بإمكـانيـة الوقوع في الخطأ مبدأ مـن مبادىء المناقشة. فلا شيء، عند هابـرماس، معفي من السؤال والنقـد والمناقشـة، وكل الموضـوعـات والمؤسسات لا تكتسب مشروعيتهـا إلى من خـلال المناقشة العمومية لخلق أكثر ما يمكن مـن فضاءات الحرية ومن فرص الوصول إلى الحقيقة الإجماعية.

وبـدون الرجـوع إلى أي سنـد تقليدي أو إلى أيـة سلطـة، اللهـم إلا سلطة العقلنـة والبرهنة، يتعين على الجميع المساهمة في الحوار وفي خلق معاني الرموز والأشياء. فالمشروعية لا تتأتى إلا من خـلال التفـاهم والإتفـاق والإجماع المتحرر من أي ضغط أو مسـاومـة أو سيطرة، على اعتبار أن الإجماع النـاتج عن التفاهم البرهاني لا يستمد مصـداقيته إلا داخل مجال عمومي حر يستجيب لمقاييس الفاعلية التـواصلية أكثر مما يخضع لإعتبارات الفاعلية الإستراتيجية أو الغائية.

إن الدعوة إلى وضع معايير للمناقشة العمومية يلتقي فيها هابرماس مع "كارل أوتو آبل" غير أن الفرق بينهما، هـو أن "آبل" يقول بضرورة احترام "معيـار أساسي" وبشكل مسبق، مرتبط بمثل أخـلاقي أكثر مما هو مـرتبط بسياق برهـاني، ذلك أن "فكرة التأويل المعياري" تستدعي فكـرة المعيار الأساسي للأخلاق الذي هـو "المثال التواصلي نفسه" [3] في حين أن هابـرماس يعتبر أن المعـايير تتكون من خـلال الممارسة البرهـانية، وهـي قابلـة للتعديـل والتغييـر حسـب التفاهـم الذي يحصل في سياق تواصلي معين. من هنا ضرورة التأكيـد على البعد الكـوني والكلي للأخـلاق التـواصلية. فمبـدأ الإعتراف المتبادل الـذي تفترضـه كل مناقشـة يتعالى على الخصـوصيات، شرط احترام أصـول التفاهم المستنـدة إلى الخطاب البرهاني.

قد يبدو الموقف السياسي لها برماس موقفا يوتوبيا، وقد يعبر عن نزعة متمركزة حول العقل بشكل واضح، وهـو في كل الحالات لا يَنْفـي بعض الأبعـاد المثـاليـة في فلسفتـه،

---

1) Habermas (J) : "Dialectique de la Rationalisation", op. cit, P.99.
2) Ibid, P.99.
3) Ferry (J-M) : "Habermas, Ethique de la communication", op. cit, P. 494.

ولكنه، مع ذلك، يؤكـد على ضرورة إعادة النظر في النظام السيـاسي السائد، كل أشكال الأنظمة السياسية ، لأن المجال العمـومي ، كما يتصوره، لا يجب أن يخضع لمنطق الفاعلية الإستراتيجية أو الغائيـة ، ولا أن يكون تابعا لمسـاومات أصحاب المال واعتبارات تـوازنات السلطة . فـالمجال العمومي ، الديمقـراطي فعلا، يجمع بين العقلنة السياسيـة والمشروعية الـديمقراطيـة . صحيح أن هناك أشكـالا متعددة من "الضغـوط العقلانيـة" تُمارَس على المجـال السيـاسي وعلى رأسهـا الإقتصاد، ولكـن الحاجة إلى تبريـر مشروعيـة المؤسسـات تُشَكِّل، هي بـدورهـا، ضغطـا مـن نـوع آخـر. لـذلك اقترح هـابـرمـاس ضرورة اعتماد التداوليـات الكلية للارتقـاء بالتفكير في أساس ما يجعل الحقيقـة والدقة الصـدق مقاييس ممكنة .

إن حق النقـد يفضي، في تصـور هـابـرمـاس، إلى عمق المسألـة الـديمقـراطيـة ، والديمقـراطية تتوقف على إمكـانية نقد التمثلات الإجتماعيـة والمعايير الأخلاقيـة وأشكال المشروعية السياسية ، لأنه بهذه الطريقة يمكن تطويرها من منطلق ما نعتبره صالحا ودقيقا ، وداخل سيـاق تذاوتي وتفـاعلي يفترض الحق في الإختلاف ويسترشد بقـوة أفضل بـرهان . ذلك أن الإعتقاد في مشروعيـة المعايير ليس مـرتبطا بظواهـر أو حالات نفسيـة ذات طبيعة اعتباطية ، بـل إنه يتشابك مع مسألة الحقيقـة . فالمشروعية تابعـة ، في عمقها ، للحقيقة ، على اعتبار أن منطقها لا ينبع من الحوافز بقـدرما يستند إلى الحجج . ومن ثمَّ فإن ما يتعين الإعتراف به في التذاوت متوقف على الحجج الكفيلة بتبرير ادعاءات حقيقة الدلالات ودقة المعـايير، فَضْلا عَـن أن الإعتراف بهذه الحجج داخل عمليات التـذاوت، يتم من خـلال البراهين المعبر عنها في سياق مناقشة عمومية .

لهذا السبب يرى هـابرماس أن الديمقـراطية تجد شرطها النهـائي في منطق النشاط التـواصلي الـذي تعمل التـداوليـات الكليـة على إعـادة بنـائه . ومن وجهـة نظـر هـذه التداوليـات ، فإن تطور التمثـلات والمعايير وأشكال المشروعيـة تخضع لمنطق له استقـلاله الذاتي ، ولكنه تابع ، في نفس الوقت، لمسألـة الحقيقة ، أو بالأحرى للفكرة التي نُكَوِّنها عمّا هو حقيقي وصـالح ودقيق . ذلك أن هذا الإستقلال الـذاتي هو الذي يُوفِّـر شروط إمكان الديمقراطية ، التي بفضلها يجوز الحديث عن الشروط الأساسية للحضارة .

إن نظرية العقلنـة التي تحكم النشاط التواصلي وتؤسس لمعايير الأخـلاق التفاعلية داخل المجـال العمـومي الحديث، تـؤكد على أنـه يتعين على كل مُشـارك في التـواصل أن يتواجـه مع الآخر لقيـاس إمكانيات ادعـاءات صلاحيـاته ، وقدرتـه على صياغـة خطاب

برهاني إقناعي. وبحُكم أن هابرماس يعتبر أن الصيغ البرلمانية الغربية، بالرغم من إيجابياتها، لا تستجيب للاخلاق التواصلية ولا للمضمون المعياري للحداثة السياسية، وبسبب حِسِّه الليبرالي العميق، فإنه يرى أن الديمقراطية الحقيقية لم تتبلور بعد، وأنها مازالت مشروعا يتعين العمل على تحقيقه.

هكذا إذن يعتبر فيلسوف غربي أن الديمقراطية ما تزال مشروعا. وإذا كان الأمر هكذا ماذا يمكن للباحث العربي أن يقول بخصوص المسألة الديمقراطية في الفضاء السياسي العربي؟ ثم ما هي أهمية أفكار هذا الفيلسوف بالنسبة للحالة العامة التي يشهدها الفكر العربي المعاصر؟ وإلى أي حد يجوز الحديث عن إمكانية ما للاستفادة من بعض انفتاحاته الفلسفية ومن أدواته التحليلية؟.

لاشك أن هذه الأسئلة تفتح على إشكالية تستحق عملا تحليليا من نوع آخر، ذلك أن الفكر العربي الحديث والمعاصر لم يكف منذ أكثر من قرن، عن مواجهة قضية الحداثة الفكرية بأساليب مختلفة، بل إن الوعي العربي الحديث والمعاصر، بِمُخْتَلَف روافده وأطره الفكرية، تشكل، منذ البدء، ضمن علاقة مضطربة مع موضوعاته وأشيائه، وأصبح وعيا بأشياء ليست بتلك التي هو مطالب بالوعي بها، فهو إما يستغرق في الماضي لاهثا وراء حقائق مُتَعَالية، وإما أنه يتغنى بِتَبَنِّي مُقَومات غرب أسس حضارته في صيغة مستقبل دائم التجدد، أو أنه يلجأ إلى حالة توفيقية تُوَفِّر له بعض شروط الإطمئنان إلى تاريخيته وحاضره.

وتجدر الإشارة إلى أن مجموعة من النصوص الأساسية لمفكري النظرية النقدية قد تمت ترجمتها إلى اللغة العربية، كما ترجمت بعض مقالات هابرماس، بل وبدأنا نعثر، في الآونة الاخيرة، على من يستشهد ببعض نصوصه أو يَسْتَلْهِم نمط سؤاله، لاسيما فيما يتعلق بالحداثة. ولكن كل هذا لا يسمح لنا بتخصيص حيز للوقوف عند نوعية حضور هذا الفيلسوف الألماني في بعض الكتابات العربية الأخيرة، ولم نصطدم بأي مبرر مقنع للقيام بذلك.

ثم إننا لا نسعى إلى تكريس مرجع آخر إلى المتاهة المرجعية التي يتخبط فيها الفكر العربي، ولكن ما يبدو لنا أساسيا هو الإتجاه نحو صياغة دقيقة لسؤال الحداثة والتواصل في الواقع والفكر واللغة والسياسة في المجتمع العربي، لاسيما وأن مختلف أشكال الوساطات المتحكمة في آليات هذا المجتمع من مال وإدارة وسلطة تنبذ العلوم الإنسانية والإجتماعية وترفض السؤال الفلسفي، في الوقت الذي نعرف فيه أن صدمة الحداثة ولَّدت

ظواهـر مَرَضية لاحصر لها داخل المجتمعات العـربية، وشكلت تحديا كبيرا واجهـه الفكر العربي منـذ القرن التـاسع عشر إلى الآن. ويبدو أنـه من المشروع جدا التسـاؤل عن كيفية تبادل وتـداول علامات هـذه الحداثة في علاقـات الكائن العربي مع ذاتـه وعالمه المعيش، وداخل المؤسسات التي يتحرك فيها مع العلم أن الأمر لا يتعلق، هنا، بالحداثة من منظور كـونها تتماهى مع النماذج الغـربية، بل من زاويـة اعتبـارها تكثيفـا لفعل إبـداعي يتخطى المألوف ويتجاوز القديـم ويؤسس دوما للجديد، سواء على صعيـد الخطاب أو المعرفة أو أشكال الممارسة.

إن لمسـائل العقلنـة والتحـديث والتـواصل طـابع راهنيـة غير متـوقفـة في المجتمع العـربي، كما أن قضايـا المشروعية والحوار السيـاسي والديمقـراطية تمثل أسئلـة مؤرقـة على المجالات السياسيـة العربية. وهكذا ففي الوقت الـذي لا يكفّ فيه العالم عن التخلي عن نماذجه، تستمـر مختلف المرجعيات العـربية في الإطمئنـان إلى نماذجها، وفي الـوقت الذي يتحرك فيـه العالم في اتجاه صنع مجالات عمومية مختلفـة تعمل البنيات العربيـة العتيقة على التشبث بأشباحها وأمواتها وأساطيرها. لاشك أن للاساطير دورها في المحافظة على مختلف التوازنات، ولكن سيادة الأساطير والأوهام وحـدها، والعمل على تكريسها بكل الوسائل يُشَجِّع على ازدهـار كل أشكـال التضخم والأورام، ولا يـؤهل إطـلاقـا على الإنتماء إلى العصر.

إن الزمن الحديث تتويج لكل أنماط الصراع والتوتـر، وهو أيضا زمن لقول الحقيقة في شفافيتها وعنفها. وما دام عهد الحقيقة الـواحدة قد ولى، فإن المرء مطالب بالمساهمة في صياغة حقـائق الحاضر من خلال المناقشة والتفـاعل. وبالرغم من البعد اليـوتوبي والمثالي للمشروع الفلسفي لهابرماس، وبـالرغم من صرامة عقلانيته، فإن المجهـود النظري الذي قام بـه هذا المفكـر يُشَكِّل انفتاحـا لا يمكن لأي مشتغل بالفلسفـة وبالفكـر السياسي أن يتجاهله. وبقدر تَجَذُّر فكر هذا الفيلسوف في زمنه الألماني والغربي بقدر ما ينزع نحو كونية أرادها أن تكـون مبنية على الإعتراف المتبـادل، والمناقشـة البرهانية بعيـدا عن كل ضغط أو سيطرة.

ونحن حين قدمنا أهم مفاصل المشروع الفلسفي لهـابرماس، مُرَكِّزين في ذلك على إشكـاليته المركـزية ــ الحداثة والتـواصل ـ فإننـا لم ندَّع الإحـاطة بكل القضـايا والمفـاهيم والموضوعـات التي تناولها منذ بدايـات مشروعه إلى الآن، وذلك لأن نصوصه يَعْبُرُهـا تَعَدُّدٌ هائل ولأن هذا الفيلسوف الألماني يُعَبِّر عن حداثة فكـرية لا مثيل لها، وهو يقوم بذلك من

منطلقات متعددة واعتمادا على مناهج متنوعية. وإذا كـان البعض يرى بأنه ـ وبالرغم من انتمائه للفلسفة ـ مُفَكِّر يعمل على تأسيس نظرية سياسية تأخذ بعين الإعتبار تحولات الزمن الحديث، فإننـا نعتبر أن هذا الفيلسـوف أقدم على إقتراح تـركيب نظري وفلسفي نـاذر في الفكر العالمي المعاصر. أدمج فيه هواجس الفيلسوف بانشغالات العالم، وإدراكات المؤرخ بتأويلات المفكر السياسي.

مراجع البحث

- هربرت ماركوز : "العقل والثورة، هيغل ونشأة النظرية الإجتماعية" ، ترجمة : فؤاد زكريا، القاهرة، الهيئة العامة للتأليف والنشر 1970 .

- هربرت ماركوز : "نحو التحرر، فيما وراء الإنسان ذي البعد الواحد" ترجمة : ادوارد الخراط، بيروت، منشورات دار الآداب، 1972 .

-هنري لوفيفر : "ما الحداثة" ترجمة كاظم جهاد، دار ابن رشد للطباعة والنشر 1983 .

- علاء طاهر : "مدرسة فرانكفورت، من هوركهايمر إلى هابرماز" بيروت منشورات مركز الإنماء القومي، بدون تاريخ .

- Abensour, Miguel : "La Théoric Critique : une pensée de l'exil ; Archives de philosophie, N. 45, 1982.
- Adorno, Théodor : "Dialectique négative"; Paris, Ed. payot, 1978.
- Adorno, Théodor : "De Vienne à Francfort, la querelle allemande des sciences sociales" ; Bruxelles, Ed. Complexes, 1979.
- Adorno, Théodor : "Marx est-il dépassé ?" ; Diogène, N. 64, 1968.
- Albert, Hans : "La sociologie critique en question"; Paris, Ed. PUF, 1987.
- Apel, otto-karl : "Esquisse d'une théoric philosophique des types de rationalité"; Débat, N. 49, Mars-Avril, 1988.
- Arendt, Hannah : "Condition de l'homme moderne"; Paris, Ed. Calmann - Lévy, 1983.
- Assoun, Paul-laurent ; Paulet, Gérard : "Marxisme et théorie critique"; Paris, Ed. Payot, 1978.
- Balandier, georges : "Anthropo-logiques"; Paris, Ed. Librairie Générale Française, 1985.
- Balandier, Georges : "Le détour, Pouvoir et modernité"; Paris, Ed. Fayard, 1986.
- Beaudrillard, Jean : "La modernité"; Encyclopédia Universalis, volume II.
- Boudon, Raymond : "L'idéologie"; Paris, Ed. Fayard, 1986.
- Brunet, Roland : "Margarita phologophica, in GREPH", Qui a peur de la philosophie?"; Paris, Ed. Flammarion, 1977.
- Bubner, Rudiger : "Qu'est-ce que la Théorie critique"; Archives de philosophie, N. 35, 1972.
- Cassirer, Ernest : "La philosophie des Lumières" ; Paris, Ed. Fayard, 1930.
- Chesneaux, Jean : "De la modernité" ; Paris, Ed. Découverte/Maspéro, 1983.
- Chatelct, François : "L'histoire de la philosophie" ; T5, Paris, Ed. Hachette, 1973.
- Chirpaz, François : "Aliénation et utopic" ; Esprit, Janvier, 1969.
- Deleuze, Gilles : "Foucault" ; Paris, Ed. minuit, 1986.
- Desanti, Jean-Toussaint : "Le philosophe et les pouvoirs" ; Paris, Ed. Calmann Levy, 1976.
- Derrida, Jacques : "Marges de la philosophic" ; Paris, Ed. Minuit, 1972.
- Derrida, Jacques : "Positions" ; Paris, Ed. Minuit, 1972.
- Doménach, Jean- Marie : "Approches de la modernité" ; Paris, Ed. Ecole polytechnique. 1986.
- Domenach, Jean-Marie : "Révolution et modernité" : Esprit, N. 6, 1988.
- Ferry, Jean-Marc : "Habermas, l'ethique de la communication" ; Paris, Ed. PUF, 1987.
- Ferry, Jean-Marc : "Consensus et modernisation" ; Esprit, N. 6, 1986.
- Ferry, Jean-Marc : "Habermas critique de Hannah Arendt" ; Esprit, N. 6, 1980.
- Ferry, Luc ; Renaut, Alain : "Heidegger et les Modernes" ; Paris, Ed. Grasset et Fasquelle, 1988.
- Feuerbach : "Manifestes philosophiques" ; Paris, Ed. UGE, 10/18,1960.

- Gadamer, Hans Georges : "Vérité et méthode" ; Paris, Ed. Seuil, 1976.
- Gadamer, Hans Georges : "L'art de comprendre" ; TI, Ed. Aubier-Montaigne, 1982.
- Grondin, Jean : La réification de Luckacs à Habermas" ; Archives de Philosophie,0.2269 N. 51, 1988.
- Grondin, Jean : "Rationalité et Agir communicationnel" chez Habermas" Critique, N. 464-465, Janvier-Fevrier, 1986.
- Habermas, Jurgen : "Profils philosophiques et politiques" ; Paris, Ed. Gallimard, 1974.
- Habermas, Jurgen : "La technique et la science comme idéologie" ; Paris, Ed. Gallimard, 1973.
- Habermas, Jurgen : "Connaissance et intéret" ; Paris, Ed. Gallimard, 1976.
- Habermas, Jurgen : "Théorie et pratique" ; 2 tome, Paris, Ed. Payot, 1975.
- Habermas, Jurgen : "L'espace publique, Archéologie de la publicité comme dimension constitutive de la société bourgeoise" ; Paris, Ed. Payot, 1978.
- Habermas, Jurgen : "De Vienne à Francfort, querelle allemande des sciences sociales" ; Bruxelles, Ed. Complexes, 1979.
- Habermas, Jurgen : "Après Marx" : Paris, Ed. Fayard, 1985.
- Habermas, Jurgen : "Raison et légitimité ; problème de légitimation dans le capitalisme avancé"; Paris, Ed. Payot, 1978.
- Habermas, Jurgen : "Logique des sciences sociales"; Paris, Ed. PUF, 1978.
- Habermas, Jurgen : "Théorie de l'agir communicationnel" ; 2 tomes, Paris, Ed. Fayard, 1987.
- Habermas, Jurgen : "Morale et communication"; Paris, Ed. Cerf, 1986.
- Habermas, Jurgen : "Discours philosophique de la modernité"; Paris, Ed. Gallimard, 1988.
- Habermas, Jurgen : "Martin Heidegger, l'oeuvre et l'engagement"; Paris, Ed. Cerf, 1988.
- Habermas, Jurgen : "Une flèche dans le coeur du temps présent"; Critique, Aout-Septembre, N. 471-472, 1986.
- Habermas, Jurgen : "Le moderne et le post-moderne"; Lettre internationale, N. 14, Automne, 1987.
- Habermas, Jurgen : "Dialectique de la rationalisation"; Les cahiers de philosophie, N.3 (sans date).
- Habermas, Jurgen : "De l'usage public de l'histoire"; Document, N. 2, 1987.
- Habermas, Jurgen : "La souveraineté populaire comme procédure; Un concept normatif d'espace public"; Lignes, N. 7, 1989.
- Heidegger, Martin : "Chemins qui ne mènent nulle part"; Paris, Ed. Gallimard, 1962.
- Heidegger, Martin : "Nietzsche" TI, Paris, Ed. Gallimard, 1971.
- Heidegger, Martin : "Questions I"; Paris, Ed. Gallimard, 1968.
- Heidegger, Martin : "Essais et conférences"; Paris, Ed. Gallimard, 1958.
- Huisman, Denis : "Dictionnaire des philosophes"; Paris, Ed. PUF; 1984.
- Horkheimer, Max : "Théorie critique"; Paris, Ed. Payot, 1978.
- Horkheimer, Max : "Eclipse de la Raison"; Paris, Ed. Payot, 1974.
- Horkheimer, Max et Adorno Théodor : "La dialectique de la Raison" Paris, Ed. Gallimard, 1974.

- Hunyadi, Mark : "La souveraineté de la procédure, à propos de la pensée politique de Jurgen Habermas"; Lignes, N.7, 1989.

- Jay, Martin : "L'imagination dialectique, histoire de l'école de Francfort (1923-1950)"; Paris, Ed. Payot, 1977.

- Kant, Emmanuel : "Critique de la Raison pure", Paris, Ed. PUF, 1944.

- Ladmiral, Jean-René : "Jurger Habermas ou le changement de signe de la Théorie Critique"; Projet, N. 168, 1982.

- Lalloz, Jean-Pierre : "Qu'est ce que l'étant ?"; Philosophie, N.18, (sans date)

- Lyotard, Jean-François : "La condition postmoderne, rapport sur le savoir" Paris, Ed, Minuit, 1979.

- Marcuse, Herbert : "L'Homme unidimensionnel"; Paris, Ed. Minuit, 1968.

- Marcuse, Herbert : "Eros et civilisation"; Paris, Ed. Minuit, 1968.

- Marcuse, Herbert : "Philosophie et Révolution"; Paris, Ed. Denoel, 1969.

- Marcuse, Herbert : "Réexamen du concept de révolution"; Diogène, N. 64, 1968.

- Ricoeur, Paul : "Le temps raconté; Temps et récit" T3, Paris, Ed. Seuil, 1985.

- Ricoeur, Paul : "Du texte à l'action, essais d'herméneutique"; Ed. seuil, 1986.

- Rivelaygue, Jacques : "Habermas et le maintien de la philosophie"; Archives de philosophie, N.45, 1982.

- Rochlitz, Rainer : "Des philosophes allemands face à la pensée française"; Critique, N. 464-465, Janvier-Février, 1986.

- Rockmore, Tom : "De l'intéret de la Raison"; Archives de philosophie; N. 51, 1988.

- Rockmore, Tom : "Recension de la théorie de l'agir communicationnel, Archives de philosophie, N. 46, 1983.

- Rockmore, Tom : "La modernité et la Raison, Habermas et Hegel"; Archives de philosophie, N. 52, 1989.

- Simmel, Georg : "Philosophie de la modernité, la femme, la ville, l'individu"; Paris, Ed. Payot, 1989.

- Trotignon, Pierre : "Heidegger"; Paris, Ed. PUF, 1974.

- Weber, Max : "L'ethique protestante et l'esrit du capitalisme" Paris, Ed. Librairie Plon, 1964.

- Weber, Max : "Le savant et le politique"; Paris, Ed. Librairie, Plon, 1964.

- Zima, Pierre : "L'école de Francfort"; Pais, Ed. Universitaire, 1974.

الفهرس

مقدمة : 7

القسم الأول : هابرماس والنظرية النقدية 13

الفصل الأول : الأسس الفلسفية للنظرية النقدية 15

1 ـ أسئلة النظرية النقدية 16

2 ـ الفلسفة والنقد 18

3 ـ جدل العقلانية : نقد العقل الأنواري 27

4 ـ الفرد بين وهم العزلة واستلاب الثقافة 34

5 ـ بين الدمج والأفق الجمالي 41

الفصل الثاني : المشروع الفلسفي لهابرماس 46

1 ـ من الفلسفة إلى النقد 47

2 ـ البرنامج الإبستمولوجي لهابرماس أو تهافت الفلسفة الوضعية 60

3 ـ اللغة والمعنى 71

4 ـ الحقيقة والإجماع 80

5 ـ المجال العمومي وأسئلة السياسة 90

القسم الثاني : جدل الحداثة والتواصل 103

الفصل الأول : الحداثة والعقلانية 105

1 ـ أبعاد الحداثة 107

2 ـ مسألة الحداثة عند هابرماس 120

3 ـ عقلنة الحداثة وتحديث العقلنة 133

4 ـ المضمون المعياري للحداثة 150

5 ـ الحداثة السياسية من المنظور التواصلي 163

الفصـل الثـاني : النظرية التواصلية وعقلنة الفاعلية 179

1ـ حول الفاعلية التواصلية 181

2ـ التداوليات الصورية وأخلاقيات المناقشة 196

3ـ الحداثة والعقل التواصلي 208

الفصـل الثـالث : العقل التواصلي والحداثة الفلسفية 219

1ـ الحداثة بين هايدغر وهابرماس 223

2ـ فلسفة الذات وحدود القول بالاختلاف 233

3ـ المجال العمومي الحديث وحدود الإجماع 240

خـاتمـة. 255

مـراجـع البـحـث 267

الفـهـرس. 271

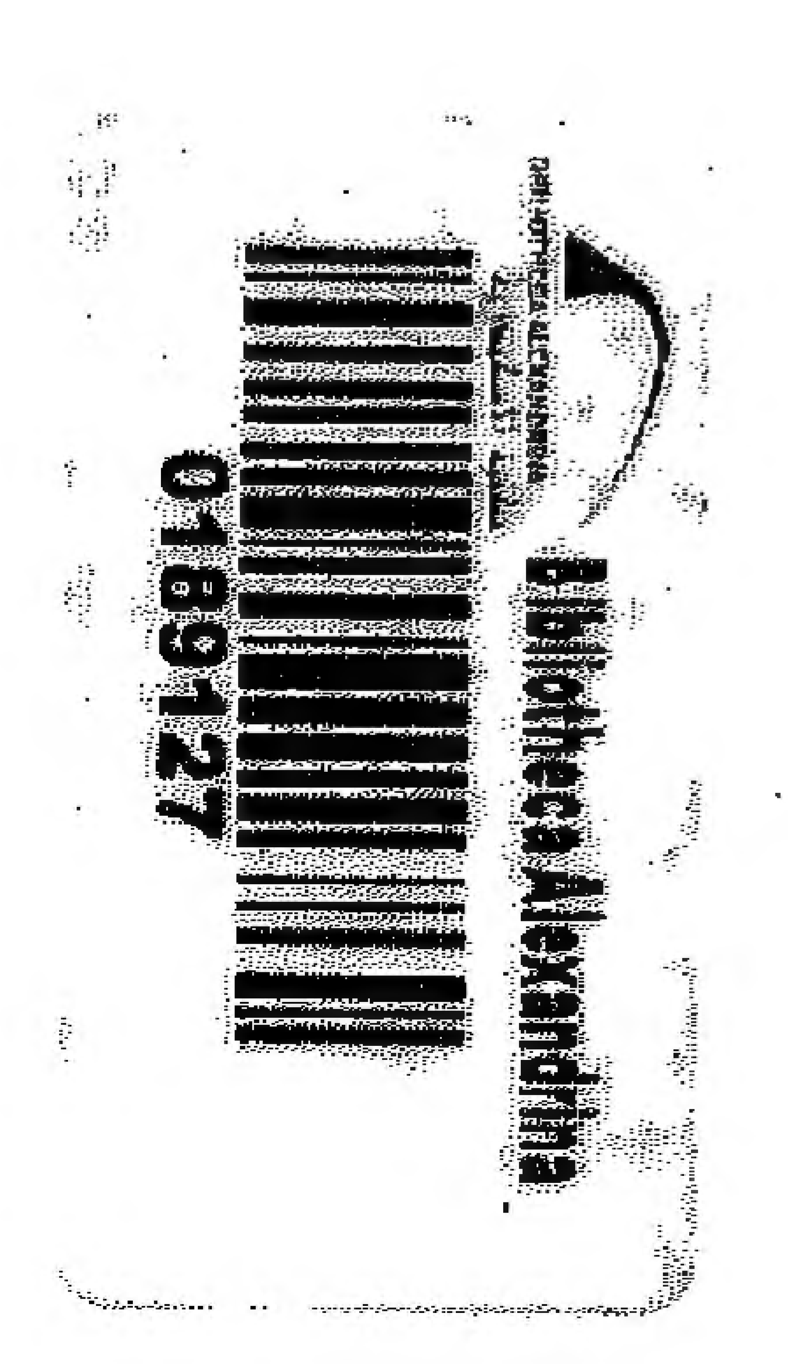
الحداثة والتواصل

في الفلسفة النقدية المعاصرة

الحداثة ثورت التواصل . والتواصل ، بكل تعبيراته ، سمح للحداثة بالانتشار أكثر ، وبالتفاعل أو التنابذ مع مختلف المرجعيات الثقافية الإنسانية سواء منها تلك التي تستجيب لضوابط العقل وتقبل بإدماج بعض مقومات الحداثة ، أو تلك التي بقيت محتفظة بمعايير وقيم ما قبل الحداثة وبالتصورات التقليدية للكون والزمن والمجتمع .

التفكير في التواصل ، إذن ، هو في العمق ، تفكير في مسألة الحداثة . وإذا كان الأمر كذلك ، فإن الحداثة باعتبارها تتويجا لعقلانية محددة يتداخل فيها التحديث والعقلنة ، وتناول التواصل يستدعي بطريقة أو بأخرى ، النظر في مقومات العقل المُوَلِّد للحداثة . وبالتالي فإن المعرفة الحديثة يمكن إدراك حركتها وتعبيراتها من خلال نمطين إثنين : النمط الأداتي وهوَ الذي نظَّر له ماكس فيبر بشكل قوي من خلال ما يسميه بالعقلنة بالقياس إلى غاية ؛ والنمط التواصلي الذي عمل هابرماس على اقتراح بعض عناصره النظرية .

هذا الكتاب يتناول المجهود النظري العام لهابرماس الذي جعل ما يسميه بـ «العقلانية التواصلية» تتأسس على الخطاب البرهاني المحفز على خلق اتفاق بدون ضغوط وبلورة إجماع داخل بنية ديمقراطية ، أو بالأحرى داخل مجال عمومي ينتزع فيه الفرد من ذاتيته الضيقة لينخرط في المجهود الجماعي المؤسَّس على أخلاقيات تواصلية تستمد مصداقيتها من قوة أفضل برهان .





ردمك